يوقنا والاربعة معه بادروا اليهم واستخبروهم عن حالهم فقال لهم يوقنا أنا صاحب حلب وقد هربت من العرب فوكل به صاحب الدرك جماعة وأمرهم أن يسيروا بهم الى الملك فاخذتهم الخيل وأتوا بهم اليه فوجدوه فى كنيسة القنيان يصلى فوقفوا حتى فرغ من صلاته فاوقفوا يوقنا بين يديه وقالوا أيها الملك ان بطرس صاحب الحرس الذى عند دير سمعان قد وجه بهذا من معه اليك ويزعم أنه صاحب حلب فلما سمع هرقل ذلك قال له يا يوقنا ما الذى أتى بك وقد بلغنى انك دخلت فى دين العرب فقال أيها الملك لقد بلغك الحق وذلك انى ما أسلمت الا لمكيدة القوم حتى أتخلص من شرهم ومن كراهة منظرهم ونتن رائحتهم وانى قلت لهم أسلم اليكم حصن اعزاز واقتل صاحبها وأخذت منهم مائة سيد من ساداتهم وسرت بهم وأمرت امرهم أن ينفذوراءى ألفا حتى اذا صاروا داخل الحصن اقبض عليهم وارسلهم اليك فعجل دارس على ولم يفهم ما أضمرته ووثق بكلام جاسوسه ولم يثق بكلامى فقبض علينا فأتت العرب وصنعت السيف فى اهلها وذلك ان لوقا قتل أباه وحل العرب وأمن جماتهم فلما اشتغلوا بالقتال والنهب هربت أنا وهؤلاء الاربعة وجئنا اليك ولولا محبتى فى دينى ما كنت قتلت أخى يوحنا وصبرت على قتال العرب وحصارهم سنة كاملة قال الواقدى فاطاعته البطارقة والملوك الذى كانوا حاضرين وقالوا صدق يوقنا أيها الملك وسيظهر لك فعله وعمله وجهاده فانبسط وجه الملك لذلك وخلع عليه من لباسه الذى هو عليه وسوره ومنطقه وتوجه وقال له ان كانت حلب اخذت منك فانى وليتك على انطاكية واعطاه وظيفة دمشقها وسكندرها يعنى واليها قال الواقدى فسمع يوقنا له ودعا له فبينما هو كذلك اذ أتى اليه الموكل بجسر الحديد وأخبر الملك انه قد قدم عليهم مائتا بطريق من فرسان حلب وهم يزعمون أنهم من بيت واحد من الرومية من بنى عم يوقنا وانهم قد هربوا من العرب فلما سمع ذلك قال ليوقنا أيها الدمستق والدكدرقم اركب واشرف على هؤلاء القوم فان كانوا من بنى عمك فاهلهم وضمهم اليك ليكونوا عسكرك وان كانوا غير ذلك فأتنى بهم لارى فيهم ما أرى واياك ان يكونوا من قبل العرب ممن رجع الى دينهم من أهل شيزر وحماة والرستن وجوسية وبعلبك ودمشق وحوران فقال نعم أيها الملك فركب وركبت معه الفرسان من الملكية والسريرية وأتوا الى جسر الحديد وأمروا أصحاب الدرك أن يأتوا بالمائتين فلما رآهم يوقنا رحب بهم ونظروا اليه وهو فى ذلك الزى والحشمة وخلعة الملك عليه فترجلوا وقبلوا ركابه فقال لهم كيف خلصتم من ايدى العرب فقالوا أيها السيد انا خرجنا مع أمير من امرائهم وغزونا على منبج وبزاعة فلما رجعنا نريد حلب أخذنا على اعزاز فوجدناهم قد ملكوها فلما

كان الليل تركناهم وأتينا قال الواقدي وهذا كله وحجاب الملك يسمعون فلما حضروا أخبروا الملك بذلك ودخل يوقنا بهم على الملك فخلع عليهم وأنزلهم وأمرهم أن يكونوا في خدمة يوقنا وأعطاه دارا بإزاء قصره فقال يوقنا أيها الملك أنت تعلم أن هذه الدار لا يدوم نعيمها وأن السيد المسيح شبهها بالجيفة وطلابها بالكلاب يتجاذبونها كما روي عن المسيح أنه رأى طائرا حسنا مزينا بكل زينة فنزع جلده فرآه أقبح ما يكون منظرا فقال له من أنت قال أنا الدنيا ظاهري مليح وباطني قبيح وإنما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم أنه ما خلا جسد من حسد وإذا أقبلت الدنيا على أحد كثرت حساده وأنا أخاف من الحساد أن يتكلموا في عند الملك ويرموني بالبهتان وبما لا أعلمه فإن كان الملك يقربني فليول هذه الوظائف لغيري وأنا ما أبرح من ركابك ثم إنه بكى فقال له الملك أيها الدمشقي ما وليتك هذا الأمر إلا وقلبي وناظري واثق بك ومن يتكلم فيك بشيء فسلمته إليك تفعل به ما تريد فشكره يوقنا وأراد الخروج إلى وظيفته التي ولاه إياها وإذا بخيل البريد قد أقبلت من مرعش وهم رسل ابنته زيتونة وأنها خائفة من العرب وهي تريد القدوم عليك حتى ترى ما يؤول من الأمر وإنها تسأل الملك أن ترسل لها جيشا يوصلها إليك فلما سمع الملك ذلك قال ليس لهذا الأمر إلا الدمشقي يوقنا فقبل الأرض وقال السمع والطاعة لأمرك فضم إليه ألفي فارس ومائتين من أصحابه من المذحجة والقياصرة قال الواقدي فسار بالألفين والمائتين فارس وقد رفع الصليب فوق رأسه وحببت الجنائب وعليها الرخوت المذهبة وسار يجد السير إلى أن وصل إلى مرعش وأخذ زيتونة ابنة هرقل وهي الصغرى وكان الملك قد ولاها على تلك البلاد وزوجها بسطير بن حارس وكانوا يسمونه سيف النصرانية لشجاعته وكان قد قتل على اليرموك من جراحات أصابته قال الواقدي رحمه الله ورضي عنه فلما أخذ يوقنا ابنة الملك رجع يطلب بها المسالك فأخذ على الجادة لعظمى لعله يلقى أحدا من جواسيس المسلمين أو يرى معاذا فيرسله يعلم أبا عبيدة أنه قد تمكن من الملك ومن البلد فلما وصل مرج الديباج وكان ليلا وإذا بخيله التي على مقدمته قد أتته وهم مذعورون فقال لهم ما بالكم فقالوا أيها السيد الدمشقي إن هنالك عسكرا وإنا لا نقربنا منهم فإذا هم عرب وهم نيام ولا شك أنهم مسلمون فقال لهم خذوا أهبتكم وأيقظوا خواطركم واصحوا لعدوكم وبادروا عدوكم وقاتلوا عن ابنة الملك ولا تسلموها إلى أعدائها وكونوا كرجل واحد قاتل عن نعمة صاحبه وإذا تمكن الحرب بيننا وبينهم فاعمدوا على الأسر وإياكم والقتل واعلموا أن العرب وأميرها لا بد لهم أن يقصدوا الملك ومن معه فإن أسرنا منهم أحدا يكن عندنا الفداء وقد وجدت في كتاب حرقناس الحكيم أن من نظر في عواقب زمانه

أشجع بوشاح أمانه ومن أهمل أمره خاف حذره ومن أكثر الغدر حل به الامر سيروا على بركة الله قال الواقدى فشرعوا الاعنه وقوموا الاسنه وقصدوا ذلك العسكر فلما أحسوا بهم بادروا اليهم واستقبلوهم وهم ينادون بعيسى ابن مريم والصليب المفخم من أنتم فقال لهم يوقنا من أنتم فقالوا نحن أصحاب جبلة بن الايهم فلما سمع يوقنا ذلك ترجل عن دابته وسلم عليه وسلمت العرب المتنصرة على الروم فقال جبلة من أين جئتم فقال له من مرعش ومعى ابنة الملك وأنتم من أين جئتم فقال جبلة من العمق وقد أتينا عيرة أهلها فلما رجعت ووصلت الى مرج دابق لقيت كتيبة من فرسان المسلمين وهم زيادة عن مائتى فارس وهم لا يسبين زينا فلما وصلنا اليهم ابتدرونا بعزم شديد وحرب عنيد واذا مقدمهم لا يصطلى له بنار لقد أباد منا رجالا وجندل منا أبطالا ونحن فى ألفى فارس وهم مائتان وكان فينا كالنار المحرقة فما زلنا نقاتلهم حتى أسرناهم بعد ما قتل الفارس منهم الفارس والاثنين والثلاثة منا وبقى أميرهم الى آخر الناس فقصدنا جواده بالسهام حتى قتلناه ووقع فهجمنا عليه وأخذناه أسيرا فاذا هو من أصحاب محمد وهو ضرار بن الازور ونحن قاصدون بهم الملك هرقل ليرى فيهم رأيه فاظهر لهم يوقنا الفرح وقال وحق دينى لقد فزت بالفخر بأسرك لهؤلاء وهذا الغلام فلقد بلغنى عنه ما فعل بابطال الشام وفرسان الروم ثم سار القوم جميعا يطلبون انطاكية قال الواقدى رحمه الله تعالى حدثنى الشريد بن عاصم عن شروان بن مجزل عن قادم بن بشر عن زائدة بن معمر قال حدثنا بشار عن عوف عن صالح بن عبد الله عن جده مسروق قال المؤلف وحدثنى هذا الحديث عباد بن عاصم عن عمران بن حصين قال لما فتح المسلمون حصن اعزاز وترك مالك الاشتر عليها سعيد بن عمر القنوى والتقى بالفضل بن العباس ورجعا بالغنائم الى حلب استبشر أبو عبيدة بسلامة الناس بفتوح اعزاز فسأل مالكا عن يوقنا فحدثه فيما بينه وبينه سرا أنه قصد انطاكية ليدخل على كلب الروم بحيلة ولم يكن له وجه يعود اليك به فقال أبو عبيدة الله ينصره ويظفره ويغفر له فلقد ظهر لنا منه ما لم يكن لنا فى حساب ثم انه كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتابا يقول فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

من أبى عبيدة عامر بن الجراح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد فان الله سبحانه له المنة علينا التى يستوجب بها الحمد من جميع المسلمين اذ فتح علينا مستصعب قلاع الكفر وحصونه وأذل لنا ملوكهم وأورثنا أرضهم وديارهم وان الله سبحانه قد فتح علينا قلعة حلب وأردفها بحصن اعزاز وان البطريق يوقنا صاحب حلب قد أسلم وحسن

اسلامه وقد صار عونا للمسلمين على الكافرين من بعد ما قاسينا منه ما الله عالم به فالله يجازيه فلقد نصر الله به الدين ونصح للمسلمين وأباد المشركين وقد دخل انطاكية بحيلة على كاب الروم وقد ألقى بنفسه الى الهلاك فى طاعة الله ورسوله ولقد كتبت هذا الكتاب ونحن معولون على المسير الى انطاكية نقصد طاغية الروم فما بقى حصن سواه لاعدا أنا قربا منا ونحن طامعون بأخذه وأخذ سريره وكنوزه كما وعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزودنا بالدعاء منك فانه سلاح المؤمنين ودمار الكافرين والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته ثم انه أخرج الخمس وسلمه الى رباح بن غانم اليشكرى وضم اليه مائتى فارس من المسلمين فيهم قتادة وسلمة بن الاكوع وعبد الله بن بشار وجابر بن عبد الله ومثل هؤلاء رضى الله عنهم فأخذوا الخمس وساروا ثم ان أبا عبيدة دعا بضرار بن الازور وضم اليه مائتى فارس وأمره ان يشن الغارة فركب ضرار وسار وكان معهم سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل ضرار سائرا هو ومن معه ومعهم رجال من المعاهدين يدلوهم على الطرق حتى وصلوا الى مرج دابق وكان وقت السحر فقال لهم المعاهدى اروة واعلى خيولكم فنزلوا وأراحوها بقية يومهم وليلتهم حتى اذا كان وقت السحر فما شعروا الا وجبلة كبسهم فلما وقع الصياح ركب ضرار وركب معه نحو مائة فارس وأما المائة الاخرى فقد دهمتهم خيول المتنصرة فلم يتمكنوا من الركوب فقاتلوا رجالة فنفرت خيولهم ووصل اليهم عدوهم حتى انه قتل كل واحد خصمه وتكاثرت عليهم الخيل فأسروا المائة وأما ضرار فانه صاح بالمائة الثانية وقال يافتيان العرب ان أعداءكم قد هاجموكم على حين غفلة منكم وهم عرب مثلكم وهذه أفضل الساعات عند الله فقووا عزمكم ولا تفشلوا فانتم تعلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم قال الجنة تحت ظلال السيوف وقد قال الله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين قال ميسرة بن عامر وكان من جملة من حضر معنا فى مرج دابق ربيعة بن معمر بن أبى عوف وهو ابن عمرو بن ربيعة الشاعر وكان ربيعة من فصحاء العرب لا يتكلم الا بالسجع يتكلم كلامه بحسن مقاله وكان نصغى اليه اذا سجع ونحفظ منه فلما سمع ضرار وهو يحرضنا قال يافتيان العرب لن تنالوا الجنة الا بالصبر على المكاره والله لن يدخلها من هو للجهاد كاره ولله فى عرض السموات والارض جنة ولكنها محفوفة بالمكاره وأعلى الدرجات درج الشهادة فارضوا عالم الغيب والشهادة فهذا الجهاد قد قام على ساقه وبدر النفاق فى اسواقه واختفى بنفاقه فى انفاقه اما أنتم اصحاب نبى العصر وقد بقستم من الثبات والنصر بشرواروح المصطفى بثباتكم وقدموا العزم بصفاء نياتكم

وإياكم

وايا كم أن تولوا الادبار فتستوجبوا غضب الجبار واعلموا أن النصر والثبات جندان منصوران فمن طلب دار البقا هان عليه الملتقى فصححوا طلبتكم تنالوا رحمة ربكم وحققوا حملتكم تنالوا بغيتكم وأطعنوا النحور تنالوا الحور وتسكنوا القصور وقوموا الاسنه تنالوا الجنه واعتمدوا على الصبر تنالوا النصر واياكم أن توافقوا الكفار في جدالهم واعدلوا عن طريق قولهم قال العالم بحالهم وفعالهم وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم قال سمرة بن غانم والله لقد دهشت أنفسنا بقوله وحملنا على المتنصرة وضرار ينشد

ألا فاحملوا نحو اللئام الكواذب * لترووا سيوفا من دماء الكتائب
وردوا عن الدين المعظم في الورى * وارضوا الاله العرش رب المواهب
فمن كان منكم يبتغي عتق ربه * من النار في يوم الجزا والمآرب
فيحمل هذا اليوم حملة ضيغم * ويرضي رسولا في الورى غير كاذب

قال الواقدي ثم حمل ضرار ونحن من ورائه وبذلنا نفوسنا ورؤسنا سيوفنا ورماحنا من المتنصرة وجرى الحرب بما لا يوصف وضرار فيهم كانه النار في الحطب اليابس وجبلة ابن الايهم يتعجب من حملاته وضرباته فامر قومه أن يقصدوا جواده بسهامهم ففعلوا ذلك فانصرع الجواد ووقع ضرار فتكاثروا عليه وأخذوه أسيرا وأخذوا بقية أصحابه وسازوا يريدون انطاكية فالتقوا بيوقنا وابنة الملك كما ذكرنا قال الواقدي رحمه الله تعالى ورضي عنه ولقد حدثني معمر بن رواحة عن موسى بن القاسم عن خزامة بن عمرو عن أبي المنذر أن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في حرب ضرار بن الازور أسير فلما كان الليل انطلق هاربا يلتمس الوصول الى أبي عبيدة فاذا هو بأسد قد عارضه فقال سفينة يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أمري كيت وكيت فقرب منه وهو يبصبص بذنبه حتى وقف الى جانبه وأشار اليه برأسه أن سر فسرت وهو الى جانبي حتى أتى بي الى بلد من صلحنا فتركني ومضى قال الواقدي فلما وصل سفينة الى الجيش حدث الناس باسر ضرار ومن معه فصعب ذلك على المسلمين وبكى أبو عبيدة وخالد بن الوليد على أسرهم وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وبلغ ذلك أخته خولة فقالت انا لله وانا اليه راجعون يا ابن أمي ليت شعري في السلاسل اوثقوك أم بالحديد قيدوك ام في البيداء طرحوك أم بدمائك خضبوك وأنشدت تقول

ألا مخبر ابعد الفراق يخبرنا * فمن ذا الذي يا قوم أشغلكم عنا

فلو كنت أدرى أنه آخر اللقا * لكنا وقفنا للوداع وودعنا
ألا يا غراب البين هل أنت مخبرى * فهل بقدوم الغائبين تبشرنا
لقد كانت الايام تزهو لقربهم * وكنا بهم نزهو وكانوا كما كنا
ألا قاتل الله النوى ما أمره * وأقبحه ماذا يريد النوى منا
ذكرت ليالى الجمع وكنا سوية * ففرقنا ريب الزمان وشتتنا
لئن رجعوا يوما الى دار عزهم * لثمنا خفافا للمطايا وقبلنا
ولم أنس اذ قالوا ضرارا مقيدا * تركناه فى دار العدو ويممنا
فما هذه الايام الا معارة * وما نحن الا مثل لفظ بلا معنى
أرى القلب لا يختار فى الناس غيرهم * اذا ما ذكرتهم ذاكر قلبي المضنى
سلام على الاحباب فى كل ساعة * وان أبعدوا عنا وان بعدوا عنا

قال الواقدى رحمه الله ولقد بلغنى عن واصل بن عوف أنه قال اجتمعن النساء من العربيات ممن كان لهن أسير مع ضرار عند خولة ومن جملتهم مزروعة بنت عملوق الحميرية وكانت من فصحاء زمانها وكان ولدها صابر بن أوس فيمن أسر مع ضرار فجعلت تندب ولدها وتقول

أيا ولدى قد زاد قلبي تلهبا * وقد أحرقت منى الخدود المدامع
وقد أضرمت نار المصيبة شعلة * وقد حميت منا الحشا والاضالع
واسأل عنك الركب كى يخبرونى * بحالك كيما تستكن المدامع
فلم يك فيهم مخبر عنك صادقا * ولا منهم من قال انك راجع
فيا ولدى مذ غبت كدرت عيشتى * فقلبي مصدوع وطرفى دامع
وفكرى مقسوم وعقلى موله * ودمعى مسفوح ودارى بلاقع
فان تك حيا صمت لله حجة * وان تكن الاخرى فالعبد صانع

فقالت لهن سلمى بنت سعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وكانت من الزاهدات العابدات ايهذا أمركن الله انما أمركن بالصبر ووعدكن على ذلك الاجر أما سمعتن ما قال الله سبحانه وتعالى الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون فاصبرن تؤجرن فسكتن عن البكا قال الواقدى ولما ورد الحمص على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكتاب أبى عبيدة مع رباح بن غانم اليشكرى وقع الصائح فى المدينة بقدومه فاجتمع الناس الى المسجد ليسمعوا ما تجدد من أمر المسلمين فلما دخل رباح المسجد بدأ بالسلام على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى قبر أبى بكر وصلى ركعتين وأتى الى عمر وقبل يده

وأعرض عليه الكتاب فقرأه على المسلمين ففحوا بالتهليل والتكبير وسلموا على البشير النذير وأخذ الخمس وكتب الى أبي عبيدة يأمره بالمسير الى انطاكية ولا يصده عن ذلك شئ ورد الجواب مع رباح اليشكري (قال الواقدى) اخبرني مازن بن عبد ربه عن مالك بن أسيد عن جده مروان بن الحرير ان الجواب لما ورد على أبي عبيدة سار من يومه يطلب انطاكية قال وأما ما كان من أمر يوقنا رحمه الله وجبلة بن الايهم لعنه الله فانهم ساروا الى انطاكية وسبق البشير الى الملك هرقل بقدوم ابنته مع يوقنا وقدوم يوقنا ومعه المائتا أسير من المسلمين فامر بتزيين البلد والبيع فاظهرت الروم زينتها ودفعت الصدقات الى الفقراء واخرج موكب الروم الى لقائهم مع ابن أخيه في زينة عظيمة ودخل القوم وهم في زيهم وحشمهم وكان يوما مشهورا وقد ترجلت الملكية والسرية بين يدى ابنة الملك وخرج كل من بانطاكية وقدموا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم امامهم وهم مشدودون والروم تشتمهم وتبصق عليهم وقد دارت بهم الرجال والبطارقة ودخلت ابنة الملك الى قصر أبيها (قال الواقدى) ودخل جبلة بن الايهم ويوقنا على الملك فخلع عليهم وعلى كبار أصحابهم ثم انهم احضروا الصحابة ووقفوهم بين يديه وهم في الحبال فلما وقفوا صاحت بهم الحجاب الى الارض تعظيما للملك فلم يلتفتوا الى قولهم ولا اعتنوا به فقال لهم الحاجب الكبير ما منعكم أن تعظموا الملك بالسجود بين يديه فقال لهم ضرار لا يحل لنا أن نسجد لمخلوق وقد نهانا نبينا صلى الله عليه وسلم عن ذلك (قال الواقدى) رحمه الله حدثني سهل ابن برقان رضى الله عنه عن السايب بن حازم عن الحكم بن مازن قال لما وقف ضرار والصحابة بين يدى هرقل خاطبهم من غير ترجمان وأراد الملك أن يسمع بطارقته وحجابه بما كان يحدثهم به حين بعث له النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أنه جمعهم اليه لما بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ظهر وقال هذا هو النبي المبعوث الذى بشر به عيسى ابن مريم وهو صاحب الوقت ولا بد له منه أن يظهر حتى يملأ المشرق والمغرب ثم ان هرقل دعاهم لاداء الجزية فارادوا قتله فاراد ذلك اليوم ان يبين لهم حقيقة قوله وانه أراد بذلك الاصلاح لهم ولما لهم فقال لضرار ومن معه من يخاطبني منكم عما اسأله من العلم فأشاروا الى قيس بن عاصم الانصارى رضى الله تعالى عنه وكان شيخا معمرا وقد شاهد جميع أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وغزواته فلما أشاروا اليه قال للملك قل ما أنت قائل أيها الملك قال هرقل كيف نزل على نبيكم الوحى أول مبتدا أمره فقال قيس بن عاصم سأل هذا السؤال لنبينا صلى الله عليه وسلم رجل من مكة يقال له الحارث بن هشام فقال لرسول الله

صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني احيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عني وقد وعيت عنه واحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمني فاعي مايقول قال قيس ولقد كان ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا فاول مابدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لايرى رؤيا الاجاءت مثل فلق الصبح ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو يتعبد الليالى ذوات العدد ولم يزل كذلك حتى جاءه الملك وقال له اقرأ فقال لست بقارئ فاخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني وقال لى اقرأ فقلت ماأنا بقارئ فاخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال لى اقرأ فقلت لست بقارئ فاخذني وغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف بها فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فاخبر خديجة وقال لها لقد خشيت على نفسي فقالت له خديجة كلا لايحزنك الله ابدا انك تصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر والحق وذكر الحديث بطوله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما انا امشي اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فاذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء وهو جالس على كرسي بين السماء والارض فخشيت منه رعبا فرجعت الى خديجة فقلت دثروني دثروني فانزل الله ياأيها المدثر قم فانذر الآية ثم حمي الوحي وتتابع ولقد كنت معه يوما في المسجد اذ دخل رجل ومعه بعير له فاناخه بالباب وعقله ودخل وقال السلام عليكم فرددنا عليه السلام وقال أيكم محمد فقلنا هذا الابيض الوجه فقال له الرجل يا ابن عبد المطلب قد أتيت أسألك مشددا عليك فلاتجد على في نفسك فقال له سل عما بدالك فقال بربك ورب من قبلك الله الذي أرسلك الى الناس كافة كلهم قال اللهم نعم قال أنشدك بالله الله أمرك أن تصوم الشهر في السنة فقال نعم فقال الله أمرك ان تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا فقال نعم فقال الرجل آمنت بما جئت به وانا رسول ومن وراى قومي أنا ضمام بن ثعلبة احد بني سعد بن بكر فقال هرقل بحق دينك ماالذي رأيت من معجزاته قال كنت معه في سفر فاقبل اليه أعرابي فدنا منه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أتشهد أن لا اله الا الله واني محمد رسول الله قال الاعرابي ومن يشهد بما تقول فقال النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشجرة ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم

دعا الشجرة وهي بشاطئ الوادي فاقبلت اليه وهي تخط الارض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاث مرات فقالت أنت محمد رسول الله ثم أمرها فرجعت الى منبتها فقال هرقل انا نجد في كتابنا ان الرجل من امته اذا عمل السيئة كتبت عليه واحدة وان عمل الحسنة كتبت له عشرا قال قيس بن عامر هذا في كتابنا قال الله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها فقال هرقل اعلم ان النبي صلى الله عليه وسلم الذي بشر به عيسى المسيح هو الشاهد على الناس يوم القيامة فقال قيس هو نبينا قال الله تعالى في كتابه العزيز يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الآية اما شهادته في العقبى فهو قول ربنا في كلامه القديم وجئنا بك على هؤلاء شهيدا فقال هرقل ان الذي وصفته لك هو الذي يأمر العباد أن يصلوا اليه في حياته ويصلون عليه في حياته وبعد وفاته فقال قيس هو نبينا صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في كتابه العزيز ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما قال هرقل ان الذي وصفه المسيح يعرج به الى السماء ويخاطبه العلي الاعلى فقال قيس هو والله نبينا صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى في حقه سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى قال الواقدي رحمه الله تعالى وكان في ذلك الوقت بترك الروم وهو رأس دينهم جالسا يسمع هذا الكلام فالتفت هذا البترك الى الملك وقال له أيها الملك ان الذي ذكره عيسى لم يبعث بعده ولا قبله بل هي تآويل كاذبة فقال له ضرار بن الازور كذبت في وجهك وكذبت هذه اللحية الملعونة المخزية يا كلب الروم أنت من أمثالك من يكذب عيسى عليه السلام وينكر بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أما تعلم أن عيسى قرأه في الانجيل وموسى قرأه في التوراة وقرأه داود في الزبور وأن نبينا المبعوث بخير الاديان المشهود له بالنبوة والرسالة في كتاب الله العزيز وجميع الكتب المنزلة على الانبياء من قبله وهو نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكي ولكن حجاب الكفر منعكم عن معرفته فلما ان سمع هرقل من ضرار هذا الكلام قال له لقد أسأت الادب في المجلس اذ خرقت بعمدة دين النصرانية في ان انت فقال له قيس ابن عامر هذا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ضرار بن الازور لا تتكلم في حقه بكلام قبيح فقال الملك هذا الذي بلغني عنه أنه يقاتل مرة راجلا ومرة فارسا ومرة عاريا ومرة لابسا قال نعم فعندها سكت ولم يتكلم قال الواقدي رحمه الله تعالى ورضي عنه ولقد بلغني ان البترك لما سمع اخراق ضرار به أبدا الغضب بعد الابتسام ولحقه غيظ شديد ما عليه من مزيد وقام من حضرة الملك قال وغضب البطارقة والحجاب لغضب البترك فلما رأى الملك غضبهم

خاف على نفسه منهم فقال تطعموه بسيوفكم واعوا أمره قال فنزلوا عليه بالسيوف وضربوه ضربات شديدة وكانت عدة تلك الضربات مائة وأربعة عشر ضربة الا انها غير قاتلة لما يريده الله من لطفه الخفي فى حياته ونجاته فلما رأى البترك هذه الفعال سكن غضبه وقال اقطعوا لسانه فلما ان رأى يوقنا ذلك الامر وتحقق هذا الكلام منهم قال فى نفسه والله لا اترك هذا اللعين يتمكن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم الى الملك وقبل الارض ودعا بدوام الملك والنعم وقال أيها الملك ان هذا ليس بصواب وان من الرأى السديد عندى أن نترك هذا الغلام حتى يصبح فاذا عادالى صحته اخرجناه الى باب المدينة وصلبناه لتشفى صدور الروم لانه قد أبديهم كلامه الذى تكلم به وقد قتل من آبائهم وابنائهم واخوانهم وأيضا يبلغ الخبر الى المسلمين باهانته وضربه فيوهموا بذلك قال الواقدى رحمه الله وروى عمن اعاد أراد يوقنا بذلك ان يخلص ضرارمنه وقال فى نفسه اذا مات تلك الليلة انكسرت حدة الغيظ من الملك فيه فلعله قال الملك الى يوقنا خذه واحفظه الى غد فاخذه يوقنا الى داره وافتقد جراحاته فاذا بها كلها سليمة ما قطع له عصب ولا عرق وذلك من لطف الله الخفى ولما ان رأى يوقنا الى جراحاته خيطها وداواها وأطعمه واسقاه ففتح عينيه ورأى يوقنا وولده ولم يكن عنده علم بأن يوقنا قد أتى الى هذا المحل ليحتال على الملك فلما ان رآهما قال لهما ان كنتما كافرين فقد سخركما الله لى حتى داويتمانى وان كنتما مؤمنين فمرحبا بكما وهنيئا لكما ولعل الله يبركتكما يجمع شملى بجمعور فى الجار قد علاها البكاء والعويل ليلا ونهارا من أجلى واجل اختى خولة وهى فى العسكر ولقد كانت تحسب هذا الحساب لانى بقية من مضى لها من الاحباب واقد دخل عليها خبرى وأمرى فان قدرتما تبلغاها سلامى وتعلماها هامة امى وكيف كان للكافرين كلامى فهى ترسل تعلم امى وتكاتبها بأمرى فلما استراح فى الليل قال بالله عليكما اكتبا عنى ما اقول لكما فكتب عنه ابن يوقنا وهو يملى له ويكتب حرفا بحرف شعر

الا أيها الشخصان بالله بلغا * سلامى الى أهلى بمكة والحجر
تلقيتما ما عشتما ألف نعمة * بعز واقبال يدوم مع الدهر
ولا ضاع عند الله ما تصنعانه * فقد خف عنى ماوجدت من الضر
بصنعكما نلت خيرا وراحة * كذلك فعل الخير بين الورى يجرى
ومالى ويبن الله موتى وانما * تركت عجوزا فى المهامه والقفر
ضعيفة حال مالها من جلادة * على نائبات الحادثات التى تجرى
تعودت شكى الفقار مقيمة * على الشيخ والقيسوم والنبت والزهر

وكنت لها ركنا تعد رجاله * وا كرمها جهدى وان مسنى فقرى
واطعمها من صيد كفى ارانبا * من الوحش واليربوع والصقر
من الضب و الغزلان والبهث بعده * مع البقر الوحشى المقيمات فى البر
واحمى حماها ان تضام ولم ازل * لها ناصرا فى موقف الخير والشر
وانى أردت الله لا شىء غيره * وجاهدت فى جيش الملاعين بالسمر
وارضيت خير الخلق اعنى محمدا * لعلى انال الفوز فى موقف الحشر
فمن خاف يوم الحشر ارضى الهه * وقاتل عباد الصليب بنى الكفر
كذا جاءت يوم الحرب فى كل كافر * وجندلته بالطعن فى الكر والفر
يقول وقد حان الفراق لحينه * الا يا اخى ما لى على البين من صبر
الا يا اخى هذا الفراق فمن لنا * لحسن رجوع قادم منك بالبشر
اذا سافر الانسان عن ارض اهله * فاما رجوع او هلاك الى الدهر
الا بلغاها عن اخيها تحية * وقولا غريب مات فى قبضة الكفر
جريح طريح بالسيوف مشرح * على نصرة الاسلام والطاهر الطهر
الا يا حمامات الاراك تحملى * رسالة صب لا يفيق من السكر
حمائم نجد بلغى قول شائق * الى عسكر الاسلام والسادة الغر
وقولى ضرار فى القيود مكبل * بعيد عن الاوطان فى بلد وعر
حمائم نجد اسمعى قول مفرد * غريب كئيب وهو فى ذلة الاسر
وان سألت عنى الاحبة خبرى * بان دموعى كالسحاب وكالقطر
حمائم نجد خبرى الاخت انى * قتلت بجد المرهفات من البتر
حمائم نجد عددى عند موطنى * وقولى ضرار قد يحن الى الوكر
وقولى لهم انى اسير مقيد * له علة بين الجوانح والصدر
له من عداد العمر عشر وسبعة * وواحدة عند الحساب بلا نكر
وفى خده خال محته مدامع * على فقد اوطان وكسر بلا جبر
مضى سائرا يبغى الجهاد تطوعا * فوا اله انساء اللئام على غدر
ألا فادفنانى بارك الله فيكما * الا واكتبا هذا الغريب على قبرى
ألا يا حمامات الحطيم و زمزم * الا خبرا أمى ودلاها على امرى
عسى تسمع الايام منا زورة * لقلب غريب لا يرام من الفكر

(قال الواقدى) رحمه الله ورضى عنه لما كتب ابن يوقنا هذه الابيات كتب ابوه يوقنا الى أبى عبيدة يعلمه بما يريد ان يدبره وسلمه الى رجل يثق به ويبعثه الى المسلمين

قال المؤلف حدثني جابر بن عمران الدوسي ونحن في أرض يقال لها البلاط إذ جاءه من
ابن أوس من آل مخزوم ولقد تركه أبو عبيدة في المقدمة فجاء برجل من الروم فقال لأبي
عبيدة خذ هذا الملك فهو يزعم أنه رسول فاستخبره أبو عبيدة في السر فقال أنا رسول
الملك بكتاب فقال ممن قال من يوقنا ومن أسير لكم بأنطاكية يقال له ضرار بن الأزور
فأخذ أبو عبيدة الكتاب وقرأه على من حضر عليه فبكوا من أبيات ضرار وبلغ الخبر أخته
فأتت إلى أبي عبيدة وقالت يا أمين الأمة أسمعني أبيات أخي فقرأ البعض عليها ولم يتمها
فاسترجعت وقالت إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فوالله
لآخذن بثاره إن شاء الله تعالى وحفظ الناس أبيات ضرار وتداولوها بينهم فكان أشد
الناس عليه حزنا خالد بن الوليد (قال الواقدي) رحمه الله ورضي عنه حدثنا عبد الملك
ابن محمد عن أبيه حسان ابن كعب عن عبد الواحد بن عون عن موسى بن عمران
اليشكري عن عامر بن يحيى عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش أن أهل حارم
فتحوا وقلاع كثيرة وحصون منهم الراوندان وما سواها من قورص وباسوطا
ولم يزل أبو عبيدة سائرا بالمسلمين إلى أن نزل على جسر الحديد وبلغ الخبر هرقل فتمكن
الخوف من قلبه وأمر بطارقته لتأهب القتال ونصب سرادقاته مما يلي جسر
الحديد وضربت الملوك خيامها وفتح الملك هرقل خزائن السلاح وفرقها على رجاله
وأبطاله وخلع على يوقنا وقال له أيها الدمشقي قد وليتك على جيشي هذا كله فكن أنت
مدبره وسلم إليه صليبا كان في بيعة القسيان لا يخرجوه إلا في الأيام العظام عندهم
وقال له أيها الدمشقي قدم هذا الصليب بين يديك واعتمد على نصرته فهو ينصرك
فأخذه وسلمه إلى ولده وأمره أن يحمله بين يديه فعندها ركب الملك هرقل إلى كنيسة
القسيان ومعه الملوك والحجاب حتى صلوا صلاة العصر فلما صلوا وصلى الملك جلس
وأمر بإحضار المائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقربهم قربانا فأقبل
يوقنا بيده وقال له يا عظيم الروم ما ولاك الله على البلاد والعباد إلا وقد علم أن عقلك يسع
ذلك وقد قال ديسقو الحكيم إن للعقل مرقاة جليل وصاحبه نبيل لأنه عز الإنسان
ومصباح الأنام واعلم أيها الملك أن العرب قد قصدتنا بعددها وعديدها وقد نزلوا على
جسر الحديد ولا بد لنا من القتال والمصاف معهم ولا ندري على من تكون الدائرة
فإن قتلت هؤلاء الأسرى ووقع أحد منا بأيديهم فإنهم لا يبقون عليه والصواب تركهم إلى
أن نرى ما يؤول من أمرنا فإن أسروا من أصحابنا أحدا ومن أعياننا نفاديه به فقالت
أرباب الدولة صدق الدمشقي في قوله قال البترك أيها الملك أحضرهم إلى هذه
الكنيسة فإنها أحسن كنيسة ببلدنا وأمر النساء والبنات يتزين ويحضرن عندنا فإذا هم

نظروا الى نسائنا وبناتنا وحسنهن وجمالهن وطيب رائحتهن مالت انفسهم اليهن فيرجعون الى ديننا فيكون ذلك وهنا على المسلمين قال فامر بذلك فلما حضروا رفعت الاقسة اصواتهم بقراءة الانجيل فرفع المسلمون اصواتهم بالتهليل والتكبير وقالوا كذب الجاحدون وضلوا ضلالا بعيدا ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله غيره وكان في الاسرى رجل من اليمن من فضلائهم وعلمائهم ممن علم علم الحميريين وقرأ الكتب السالفة وكان اسمه رفاعة بن زهير يقول الشعر وينظم الكلام وانه لما نظر الى الكنيسة ملآنة باهل الكفر ورآهم يعظمون الصلبان ويسجدون للصور قال الله اكبر الله اكبر لا اله الا الله كذب العادلون عن الله اصحاب الشيطان ولا اله الا الله الواحد الرحمن الذي ليس له أب محسوب وانه فرد صمد لا الى شيء منسوب ليس له ضد ولا ند ولا حد اوجد الموجودات وصور المخلوقات وخلق الكائنات ودبر الارض والسموات اول الافتتاح لوجوده وآخر لا عدم لشهوده لا يموت ولا يفنى ولا يزول ولا يبلى لا شريك له ولا وزير له ولا صاحبة له ولا مشير له ليس كمثله شيء وهو السميع البصير قال فاضطربت الكنيسة لقوله ومالت القسوس بعكاكيزها اليه فأشارت الحجاب اليهم ان لا يكلموه ويتركوه فتفرقوا عنه فقال له الملك هرقل ما اسمك يا أخا العرب قال ايها الملك وما تريد من اسمي ولست من جنسكم فستخبروني فقال البترك صدق ايها الملك ليس هو من جنسنا ولا له علم ولا خبرة فعلى اى تسئله انما هو بدوى يعلم بسكنى القفا روصحبة الاشرار والحكمة من بلادنا ظهرت وفي حكمائنا اشتهرت لانها انبعث من اليونانيين ووعاها جدودنا السريانيين من اين للعرب حكمة يتوارثونها وعلوم يتدارسونها والفضائل كلها من علمائنا والعدل في ملوكنا الاسكندر وبطموس وموريق ويوسطنطيوس وارمويل وانطاميس وارجاس وجرجس واسطرس واسطانيس وسارعورس النوصيدي وهو الذي بنا انطاكية وسقليوس واريسا وكان نبيا ملكا وبلينوس وهو الذي بنا الرها ومنبج واسطيس وكان كاهنا وهو الذي اخبر ملك رمانة انه قد ولد مولود يخاطب الرب ويكون له شأن ونبا عظيم يهلك على يديه افلاطون وهو فرعون ومناقسطين الحكيم ومعناه فجر العلوم ومنابعها وهو الذي بنا رومية الكبرى وباسمه ومناسطانوس وهو الذي وضع الكتاب الاول الذي فيه حوزة الارض بجبالها وبحارها ونباتها واصواتها ووصف امة كل اقليم بالوانها وخواصها ووصف ما في كل اقليم من معدن ذهب او فضة او جوهر واحصى عيون الارض جميعها باسمائها وجبالها وأوديتها وشعابها وغدرانها وعجائبها ومنا ايردروس القانسب الرومي وهو الذي يقول لا حشرني الله مع الذين يقال لهم في المعاد ادبروا مع ابليس وجنوده الى النار ام تطهر

نفسك أيها المسكين الناظر في كتابي القارئ لاي من ادناس الدنيا وشهواتها المظلمة للنفوس المقيمة للحس الروحاني النوراني ان ترقى الى عالم عليين فانقار في الحكمة فانها سلم العالم الروحاني فمن عدمها فقد عدم القرب الى بارئه ومصوره ومنشيه (قال الواقدي) رحمه الله تعالى وانما تكلم البترك بهذا الكلام بين يدي الملك هرقل وهو يظن انه يطعن في العرب ليسمع جبلة ابن الايهم حكمته وكان جبلة وولده حاضرين وكان بين البترك وبينه عداوة وسببها ان البترك كان قد بنى له دير عظيم وجعل له عيدا في السنة فتقصده الروم من كل مكان بالنذور والاموال والستور والشموع وكان ذلك كله برسم البترك فالجأ على الملك لجبلة تلك الارض التي فيها الدير فتغلب جبلة على الدير وبنى حوله مدينة وسماها باسمه وهي جبلة هذه حدثنا سليمان بن عامر عن منصور الجوني قال حجاج بن جريج اخبرني يحيى بن عمارة بن ابي الحسن قال لما سمع رفاعة بن زهير كلام البترك تبسم من قوله وقال ايها البترك لقد مدحت أقواما ليس لهم الى الفضل سبيل ولا فيهم فاضل ولا نبيل ولا من وحد الملك الجليل الذي ليس له مثيل ولا عديل وما الفضل الا لولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل الذين لهم البيت الحرام وزمزم والمقام والمشعر الحرام ومنهم السابقة والاقيال والحماة والاشبال الذين ملكوا الارض في الطول والعرض منهم الملك الصعب الاسكندر الذي ملك قرني الارض ودخل الظلمات ودخل في طاعته أهل الارض وبلغ مطالع الشمس ومغربها واذل ملوكها وجعل له منهم جندا واعوانا وسماه الله ذو القرنين ومنهم سبا ابن يعرب بن قحطان وشداد بن عاد وشديد بن عاد وعمرو ذو الاذقان وهو ابن سكسك والهدهد بن عاد ولقمان بن عاد وشعبان بن اكسير بن تنوخ وعباد بن رقيم وهاديل بن عتبان وكان تكلم بالحكمة ومناجات موسى ابن جاهمة بن سياسة بن عجلان بن ياقد بن رخ وثمود بن كنعان ومنا سبا ابن يخسب وهو اول متوج منا ثم ولي بعده حمير ثم منا تبع وهو متوج ومنا وائل بن حمير متوج ومنا عاد بن حمير متوج ومنا نبي الله حنظلة بن صفوان من اهل الرس ومنا نفيل ابن عبد الدان بن خشدم بن عبد ياليل ابن جرهم بن قحطان بن هود عليه السلام عاش خمسمائة سنة وهو الذي بنا المصانع واستخرج الكنوز وقاد الجيوش وورثه الله علم نبيه حنظلة بن صفوان وقد ختم الله شرفها ورفع قدرنا اذ جعل الله محمدا صلى الله عليه وسلم منا فنحن السادة وانتم العبيد حدثنا سفيان عن عبد ربه قال اخبرنا رحيم قال حدثنا الوليد ابن زياد عن حزام بن حكيم قال بلغني ان هذا الرجل يعني رفاعة ابن زهير بن زياد بن عبيد بن سرية الجرهمي انه كان عالما بانساب العرب واخبارهم وملوكهم وكان عالما بكتب هود وصالح وحنظلة عليهم السلام فلما انه تكلم بحضرة الملك هرقل بهذا

الكلام

الكلام أراد البترك ان يعجزه بسؤال يلقيه عليه فقال ياذا الهمم العالية والقوادح الزكية بم تصل القلوب الى نسيم العقل الروحانى وترقى الى ملكوت اللاهوت والطيور الخفية الغائبة عن الابصار المحيطة بالاقطار وترقى فى رياضات الالباب المصفات من الادناس والافكار النورانيه اصفوا كدار الاخلاق المحيطة بالافكار من الهيا كل الجسمانية فعند الصفو ومفارقة الكدر تعيش الارواح عيشة الابد الذى لا يصل اليه الحلال ولا اضمحلال فحينئذ يختلط المنصر بالعنصر وينمد الصفو بالصفو ويرسب الكدر الى الكدر فقال رفاعة بن زهير ما اصبت أيها البترك فى مقالتك قال ولم قال رفاعة كيف بدلت القلوب الى علام الغيوب وقد حجب عما صواب المصيب ام كيف يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب من الكفر وكيف تجلوا الافكار من غوامض الاسرار وهى فى حجب الاغترار اذا تناهت الاهوال الى مغاراتها وقربت الهمم من مواضعها وعادت الفكر الى عناصرها وعادت متحركات الفكر الى مساكنها وغاليات الاذهان الى اماكنها فانحازت الاشكال عن الاشكال بلطف تأثير الهوى فيها وانكتب مشرفة على هيا كلها من اقطار عناصرها قال ايها البترك هذا كلام العرب الذى زعمت ان الحكمة ليست من اخلاقهم ولا تباع فى اسواقهم ولقد كان ملك من ملوك اليمن اسمه سيف بن ذى يزن الذى بشر بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بغوامض العلوم الحلمية ووشحه بوشاح شكر النعمة ومن جملة ما قال فصيح من فصحائنا اسمه قس بن ساعدة من جملة ما نطق به من قوله هذه الابيات شعرا

الا انما من معشر سبقت لهم * ايادمن الحسنى فعوفوا من الجهل
ولم ينظروا يوما الى ذات محرم * ولا عرفوا الا التقية فى الفعل
وفينا من التوحيد والفعل شاهد * عرفناه والتوحيد يعرف بالعقل
يعاين مافوق السماء جميعها * معاينة الاشخاص بالجوهر الجلى
ونعلم ماكنا ومن أين بدؤنا * ومانحن بالتصوير فى عالم الشكل
وانا وان كنا على مركز الثرى * فارواحنا فى عالم النور تستجلى
وماصعدت كى تستريح وانما * حقيقة معقول وجلت عن المثل

قال الواقدى رحمه الله ورضى عنه قال ابو سعيد حدثنا شيبة ابن ابى عبد الله بن عيسى عن لقية ابن هند عن عبد الله بن ربيعة قال قلت لرفاعة بن زهير لما خلص من قبضة الروم ياعم كيف كان البترك يفهم ما تقول وتفهم ما يقول فقال يا بنى ما رأيت افصح من اللعين بلسان العربية ولقد سألت عن ذلك من عبد الله يوقنا فقال أما علمت ان ملوك الروم البطارقه لا يستقيم ملكهم الا ان يتعلموا اللسان العربية قال ولما حدث رفاعة

للمسلمين بمناظرة البترك كتبها كثير من الناس (قال الواقدى رحمه الله) وكان لرفاعة ابن زهير الجرهمى ولد جاهل قال وكان اسم معه قال وكان قلبه يميل الى الكفر وكان رفاعة يدعو عليه فلما حضروا الاسارى فى كنيسة القسان واشتغل رفاعة مع البترك بالمناظرة اقبل ولده عامر يحدق بنظره الى البيعة وزينتها وصورها وصلبانها وبتأمل نساء الروم وزينتهن فبادر الى تقبيل الصلبان واشرك بالرحمن فلما رآه ابوه رفاعة بكا وقال ياويلك أكفرت بعد الايمان ياويلك طردت عن باب الرحمن ياويلك كفرت بالملك الديان يا طريد القدرة يامن بعد عن الحضرة فيا ولدى ما بكائى على فراقك وانما اذا سلكت أنا فى طريق وأنت فى طريق واذا مضيت أنت الى دار الابالسة وحشرت مع الرهبان والشمامسة وتكون فى طبقة النار السادسة وأنا امضى مع محمد الى دار فيها الارواح مستأنسة يابنى لا تطلب حياة الدنيا يابنى لا تختارها وتنساعلى الاخرة واخجلتى من فعالك اذا وقفت بين يدى العزيز الجبار يابنى لقد فضحت شيبة ابيك اذ كفرت بعالم السر والنجوى يابنى لقد خاب املى فيك والرجا يابنى كيف طاب قلبك ان تتبرئ من محمد المصطفى يابنى ممن تطلب الشفاعة غدا وقال يابنى غرتك الحياة فصرت تكفر بالعليم يابنى صرت الى الشقاء من بعد كونك فى النعيم يابنى ماتخشى العذاب الى الجحيم ما تستفى من احد يوم القيامة أما تعلم ان ابوك فقد غدا من اجل كفرك فى هموم أين المفر اذا دعاك الله فى اليوم العظيم ويقول ياعبدى كفرت بواحد فرد مقيم أما ابوك فانه يبقى فى عيش رغيم اسألك ياولدى بما قد كان فى الزمن القديم من حنتى وتعطفى حال الرضاعة والفطوم الارجعت الى الذى غطاك بالستر العميم قال فقال لدان ولدك قد اغلق الباب وارخى الحجاب فامر به البترك فحل من الوثاق وامر به الى جرن ماء المعمودية فغمسوه فيه ودارت به الاقسة والشمامسه ويبخروه ووقعت عليه الخلع من البطارقة والملوك ووهب له البترك مركبا وجارية ومنزلا وضمه الى عسكر جبلة ابن الايهم ثم قال البترك ياهؤلاء ما منعكم أن تدخلوا فى ديننا كما فعل صاحبكم قالوا منعنا من ذلك صحة ديننا وثبات يقيننا وما نحن من الذين تبدل ايمانهم بالكفر ولو قتلنا فقال لهم البترك طردكم المسيح عن بابه وابعدكم عن جنابه فقال له رفاعة الله يعلم أينا المطرود ومن هو عن رحمة ربه مبعود فقال هرقل يامعاشر العرب قد وصل الينا ان خليفتكم واميركم يلبس مرقعة وقد وصل اليه من اموالنا وذخائرنا ما يكل عنه الوصف فما منعه أن يتزيا بزى الملوك فقال رفاعة يمنعه من ذلك طلب الاخرة والفزع من جبار الجبابرة فقال هرقل ماصفة دار امارته فقال رفاعة مبنية بالطين خالية من الحجاب آنسة بالفقراء والمساكين قال فما بساطه قال العدل والتمكين قال فما سريره قال

العقل واليقين قال فما بدله ملكه قال الزهد والدين قال فما خزائنه قال الثقة برب
العالمين قال فمن جنده قال ابطال الموحدين أما علمت ايها الملك ان جماعته قالوا له
يا عمر قد ملكت كنوز القياصرة وذلات البطارقة والاكاسرة فهل لا لبست ثيابا فاخرة
قال أنتم تريدون زينة الحياة الظاهرة وأنا اريد رب الدنيا والاخرة فلما ابدا هذا القول
واضمره اشار اليه منادى القدرة وبشر الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا
الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر قال ثم ان الملك هرقل أمر بهم الى السجن الذي
هو في كنيسة القيسان وخرج الى عسكره ليشرف على الخيام فرأى السرادقات
قد ضربت لان البطارقة ضربت سرادقاتها عند خيامه ونوبيا الملوك قد نصبت بازاء
كل نوبية كنيسة من الخشب المدهون بسائر الاصانيع والنواقيس على ابوابها
وكان زي الروم ذلك وهذه البيع الخشب كانوا يتنافسون فيها وفي صنعتها وتكون
معهم في اسفارهم وعساكرهم وطاف هرقل على عسكره جميعه واراد الدخول الى
انطاكية واذا بفوارس تركض اليه فقالت لهم الحجاب واصحاب السمر ماوراكم قالوا ايها الملك
جسر الحديد منا وقد حصلت العرب منا داخل الجسر قال فايقن الملك بزوال ملكه وقال
وكيف ملكت العرب الجسر والبرجين وفيها ثلاثمائة من البطارقة الشداد قالوا أيها
الملك ان المقدم الذي على الابراج هو الذي سلمهم (قال الواقدي رحمه الله) ومن حسن
توفيق الله بالمسلمين ان صاحب الملك كان في كل يوم يمضى الى الجسر ويوصى من في
البرجين باليقظة والحرس الشديد وانه مضى في بعض الايام على عادته فوجدهم
يشربون الخمر وليس عندهم حفظ ولا حرس فأخذهم وضرب كبراءهم وهم بقتل
مقدمهم ثم انه امسك عنه خوف الملك فحمل الحقد في قلوبهم فجاءهم يوقنا في بعض
الايام يتجسس ليدبر فيه حيلة فرآهم حنقين من صاحب الملك فسألهم فانكروا منه
فقال لهم اطلعوني على خبركم فقالوا له تعطنا منك امانا فاعطاهم فقالوا نحن نسلم
هذا الجسر للعرب فلما صح عنده ذلك قال لهم ما مرادكم قالوا أخذ أمانا من المسلمين
فقال يوقنا أنا اكتب لكم كتابا الى اميرهم بأن يعطيكم امانا وان دخلتم في دينهم فهو
خير لكم فقالوا له وكيف انت دخلت في دينهم ثم رجعت فقال ما شاء الله وانما اتيت
ادبر لهم على تسليم انطاكية لهم فلما صح عندهم ذلك قالوا ونحن نسلم اليهم الجسر فلما
وافقهم على ذلك كتموا امرهم فلما قدم المسلمون مضى اليهم صاحب الجسر من غير أن يعلم
به احد وأخذ له ولمن معه امانا وناوله كتاب يوقنا ففرح المسلمون بذلك بأن يأخذوا
جسر الحديد من غير قتال فاعطوا المقدم امانا فلما وصل عسكر المسلمين الى الباب الذي
على الجسر فتح لهم فدخلوا فلما سمع هرقل بذلك أمر الناس أن يتأهبوا للحرب قال ففعلوا

ذلك قال الواقدى رحمه الله حدثنا ياسر ابن عبد الرحمن عن مازل بن نزاف الصيدلانى وكان أعرف الناس بفتوح الشام قال بلغنى انه لما صار المسلمون بارض انطاكية قال ابو عبيدة لخالد يا ابا سليمان قد صرنا بارض انطاكية بلد كتاب الروم والساعة يأتينا عسكره فما ترى من الرأى قال خالد ان الله قال واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الاية فأمر اصحابك أن يتأهبوا ويظهروا زينة الاسلام وقوة الايمان وسير كل امير بجيشه ولتكن الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا قال ففعل ابو عبيدة ذلك واول من سير سعيد ابن زيد احد العشرة ومعه ثلاثة الاف فارس فيهم المهاجرون والانصار وجعله على مقدمة الجيش وسير وراءه رافع بن عميرة الطائى ومعه الف فارس وسير وراءه ميسرة بن مسروق العبسى فى ثلاثة الاف فارس وسار وراءه خالد فى جيش الزحف وسار وراءهم ابو عبيدة فى بقية العسكر وكان معه عمرو بن معدى كرب الزبيدى وذو الكلاع الحميرى وعبد الرحمن ابن أبى بكر وعبد الله ابن عمر وابان ابن عثمان بن عفان والفضل ابن العباس وابو سفيان صخر بن حرب وراشد بن ضمرة وسعيد بن رافع وزيد بن عمرو ومثل هؤلاء السادات وسار وراءهم النسوان اللاتى لهم الاسرى وفيهم خولة بنت الازور وعفيرة ابنة عفان ومزروعة ابنة عملوق وأم ابان بنت عتبة وليس فيهم اشد حزنا من خولة بنت الازور قال الواقدى رحمه الله ومما بلغنى انها قالت فى اسر اخيها من المراثى المبكيات تقول شعر

ابعد أخى يلذ الغمض عينى * فكيف ينام مقروح الجفون
سابكى ما حييت على شقيق * أعز على من عينى اليمين
فلو انى لحقت به قتيلا * لهان على اذ غير المهون
وكنت الى السلو ارى طريقا * واعلق منه بالحبل المتين
وانا معشر من مات منا * فليس يموت موت المستكين
وانى ان يقال مضى ضرار * وكم فى الحرب يقصم للغبون
وقالوا كم بكائك قلت مهلا * اما ابكى وقد قطعوا وتينى

قال فسار أبو عبيدة فى مواكبه كما ذكرنا فبينما الروم فى خيامها وعسكرها اذ وقع فيهم الصائح بقدوم العرب فركزوا خيولهم وصفوا صفوفهم فاول من أشرف عليهم براياته سعيد بن زيد وبعده المسيب بن نجيبة الفزارى وبعده ميسرة بن مسروق العبسى وبعده أتى خالد بن الوليد وبعدهم أبو عبيدة فى مواكبه فنزل كل أمير بقومه فلما نظر هرقل اليهم وانهم قد نزلوا بفنائه وبنائه ترك على حفظ جيشه صاحبه الاكبر نسطاروس ابن روميل وكان من شجعان الروم ودخل الى كنيسة القسان وجمع الملوك والبطارقة

والسريرية والحجاب وقام هرقل فيهم خطيبا وقال يا أهل دين النصرانية ويا بني ماء المعمودية قد قرب ما حذرتكم منه من زوال ملككم وذهاب عزكم من أرض سورية وقد كنت حذرتكم من زوال ملككم ومن هذا المقام فلم تقبلوا مني وأردتم قتلي وهؤلاء القوم قد دخلوا دار ملككم ورياح عزكم فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وأنفسكم وأيا كم والفشل لا يلحقكم في الجهاد فقد جاهدت عنكم جهدي وأتلفت أموالي وخزائني ورجالي عن دينكم وملككم فلم يساعدني ساعدة ولا أدركت من القوم ارادة فان أنتم فشلتم وتقاعستم ولم تجردوا لهؤلاء العرب سيوف العزم والا كان العار عليكم والذلة تصل اليكم ابن ابنائكم ومن سلف من آبائكم ماتوا كراما غير لئام وسكنت ديارهم العرب اللئام وكتابهم صيروها جوامع وأخربوا البيع والصوامع وأذلوا ملوككم واستعبدوا ابناءكم ونساءكم وملكوا قلاعكم واستولوا على حصونكم ومدائنكم وقد مضى ما مضى فاستأنفوا الامر وقاتلوا فكم هلك من الامم قبلكم على محالكهم وعلى الغيرة على حريمهم واقد كانت حكمتي تحجب لكم ان تصحبوا بزوال المصالحة بينكم وبين هؤلاء العرب فأبيتم ذلك لان ظلمة جهلكم قد اطفأت نور الحكمة اما علمتم أنه قد وجد لوح من الجزع على قبر طيماون تلميذ افيانوس وفيه مكتوب من الحكمة سلم العالم الاعلى من عدمها فقد عدم اقرب الى بادية الحكمة حياة القلوب وبغية الاذهان ونزهة النفوس ونور العقول من لم يكن حكيما لم يزل سقيما من تدبر نظر ومن نظر عرف ومن عرف عمل ومن عمل انفتح ذهنه وعقله ومن ترهب عقله صفت نفسه فقام اليه جبلة ابن الايهم وقال يا عظيم الروم انما قتال هؤلاء العرب بقتل خليفتهم عمر في المدينة فلو أذنت لي أرسلت اليه رجلا من آل غسان يقتله فيكون سبب فشلهم وانتزاع الشام من أيديهم فقال هرقل هذا شيء لا يصح أمله ولا ينقضي أجله لان الاجال مقدرة والانفاس مقررة ولكن هو شيء تطيب النفس عند سماعه فافعل ما أردت قال فأرسل جبلة من قومه رجلا يقال له واثق بن مسافر الغساني وكان جريا مقداما في الحروب فقال له انطلق الى يثرب فلعلك تقتل عمر فان أنت فعلت ذلك أنا أعطيك مهما أردته من الاموال قال فانطلق واثق بن مسافر حتى دخل المدينة ليلا فلما كان من الغد صلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالناس صلاة الصبح ودعا وخرج الى ظاهر المدينة يتنسم أخبار المجاهدين بالشام قال فسبقه المتنصر وجلس له بأعلا شجرة من حديقة ابن الدحداح الانصاري واستتر بأغصانها ثم ان عمر قام على ظاهر المدينة حتى حميت الرمضاء وعاد وحده فقرب من الحديقة ودخلها ونام في ظلها فلما نام هم المتنصر بالنزول من الشجرة وجرد خنجره واذا هو بأسد قد أقبل وهو بقدر البقر الكبير وطاف حول عمر وجلس عند قدميه يلحسها

وأقام حتى استيقظ عمر فعندها نزل المنصور وقبل يد عمر وقال له يا عمر قد عدلت فأمنت بابي والله من الكائنات تحفظه والسباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه ثم حدثه بامره واسلم على يديه (قال الواقدى) رحمه الله وكانت هذه الفعلة قبل نزول المسلمين على انطاكية حدثنا أبو محمد قال أخبرني أبي عن حسان عن السدى عن يحيى الواقدى عن شهر بن عباس اليبروقى ان عمر حدثه عن نزول أبي عبيدة بالمسلمين على انطاكية قال وعظ هرقل قومه بكنيسة القيسان واستحلفهم انهم لا ينهزموا أو يموتوا عن دم واحد فحلفوا وخرجوا مع الملك الى عسكره وقد رفعت الصلبان وقرأت القسس والرهبان وارتفع الصحيح من أهل الكفر والطغيان ورجعوا للقتال وكان المسلمون قد رتبوا صفوفهم واوقفوا كل أمير في مكانه ونشرت الرايات والاعلام وأشار أبو عبيدة الى ربيعة بن معمر الشاعر وكان ملسما فصيحا لا يتكلم الا بالكلام المنظوم فقال له يا ربيعة فوق سهام لفظك وعظك الى المجاهدين وحرض المسلمين على قتال المشركين قال فتقدم ربيعة امام الصفوف وكان جهوري الصوت يسمعه القريب والبعيد فقال أيها الناس الى متى هذه المهلة فتأهبوا للحملة وهذه طيور الارواح قد عولت على فراق أقفاص الاشباح وقد ارتاحت الى باريها واجابت صوت مناديها وهي تخاطبنا بلسان اشارتها عن نطق عبارتها وما هذا الوقوف عن بذل انفسكم وقد اشتراها مؤيدكم افركنتم الى حب الحياة الفانية والانفس الدانية وهذه أوقاتكم بالنصر مؤيدة وهمتكم عن طلب رتبة الدنيا متحيدة والمواعظ الصادقة بكلام الحق مقيدة أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وهذه طوالع سعودنا بالاقبال طالعة وشجرة آمالنا بالتأييد يانعة فلله درهم فلقد ظهرت زهرة نجوم المحبة في افلاك راياتهم وتبلج فجر العشق في سماء سماتهم وأشرقت شموس المعرفة في مشارق عشقهم فلما سمعوا بالحملة بأجمعهم وتصففوا وقدموا هم النفوس في رضا الملك القدوس واستبقوا وازاحم بعضهم بعضا ولم يرهقوا وتوددوا من صفا أسرارهم من المؤمنين رجال صدقوا (قال الواقدى) رحمه الله حدثني زيد بن اسماعيل الصائغ عن جعفر ابن عون عن عياش بن ابان عن جابر بن اوس قال كنت حاضرا في مصاف أبي عبيدة على انطاكية حين وعظنا بسجعه ربيعة بن معمر فكان أول من خرج من الروم للبراز شجاع الروم نسطاروس ابن روبيل وهو كأنه برج من حديد فلما توسط الميدان طلب البراز فخرج اليه دامس أبو الهول مولى بني طريف فاتح قلعة حلب وهو يومئذ فارس ملبس فحملا على بعضهما فلما اشتعلت نار الحرب بينهما عثر جواد دامس فسقط من على ظهره فانقض عليه نسطاروس وأخذه أسيرا وقاده ذليلا ورجع الى الميدان فخرج

اليه الضحاك بن حسان الطائى وكان يشبه خالدا فى حملاته وخفته فلما برز قال قائل من
الروم ممن شاهد قتال خالد فى المواطن وعرفه هذا فارس الشام والمسلمين الذى فتح
بلاد نا فصار كل من فى انطاكية ينظر اليه وهم يظنون أنه خالد فازدحمت خيل
المشركين من كثرة النظر اليه فقطعت حبال السرادقات التى لنسطاروس وغيروا
سريره فخاف الغلمان على أنفسهم وسرادقاته على ذلك اذا رآها على تلك الحالة فقتلهم
ولم يجدوا أحدا يعينهم على رفع السرادق لان كل من فى العسكر مشغول بالفرجة على
نسطاروس مع خصمه فاتفق اثنان من الفراشين وكانوا ثلاثة على حل دامس
أبو الهول وقالوا له نحن نحلك من وثاقك وتعيننا على شيل عامود هذا السرادق ونعيدك
الى الوثاق فاذا جاء البطريق نشفع فيك فانه يخلى سبيلك فقال نعم فحلوه من وثاقه
فعندما قبض على الاثنين كل واحد بيد وضرب واحدا بواحد فصرعهما فاتاهم
على الثالث فقتله وفتح صندوقا من الصناديق فوجد فيه ثياب نسطاروس فلبسها
وركب من الطوالة جوادا من خيارها وأخذ بيده قنطارية وسيفا والثم وجهه وقصد
عسكر المتنصرة ووقف الى جانب حازم بن عبد يغوث وهو ابن عم جبلة وكان قدمه
على عسكر المتنصرة وجبلة وولده بنى عمه فى موكب الملك (قال الواقدى) رحمه
الله ولم يزل القتال بين نسطاروس والضحاك بن حسان الى ان كل الجوادان
ولم يقدر أحد منهم على صاحبه فافترقا وعاد نسطاروس الى سرادقاته ليستريح فوجد
السرادق على الارض والفراشين قتلى ولم يردامس فعلم أن المصيبة من قبله فمضى الى
الملك واعلمه بذلك فقال وحق المسيح ما هؤلاء العرب الا شياطين قال وماج العسكر
بصنيع أبى الهول فقال الملك هو الآن فى عسكرنا وما رأيناه خرج وما هو الا مختف
فى عسكر المتنصرة لانه من جنسهم فلما رأى دامس مرج عسكر الروم وان ذلك بسببه
اقتبض سيفه على حين غفلة وضرب به حازم بن عبد يغوث فرمى رأسه عن بدنه فبهتت
المتنصرة من فعله وامسك الله عنه أيديهم ودهشوا لذلك واطلق جواده وطلب
عسكر المسلمين فلما رأوه صاحوا بالتهليل والتكبير فاتى الى عند أبى عبيدة واخبره بما
وقع له مع القوم فقال لا شلت يداك قال وبلغ الخبر جبلة من قتل ابن عمه حازم فغضب
وأتى الى هرقل وصفع له وقال يا عظيم الروم انا لا أقدر على الصبر ولا بد لنا من الحملة على
هؤلاء الذين قد تعدوا طورهم وجهلوا اقدرهم فاراد الملك يأمرهم بالحملة واذا قد أقبلت
عليه خيل تركض فقال لهم ما وراءكم قالوا أيها الملك أنه قد قدم الى نصرتك
قلنطانوس بن سطانوس بن ارمونيا صاحب المدائن ورومية الكبرى وباسم جده
سميت وكان قد وضع فيها هيكلا عظيما يسمى ابو سرفيا وكان به صورة من نحاس مطلية

بالذهب الاحمر ولذلك الهيكل سبعة أبواب من الذهب على كل باب هيكل مدور وعلى رأسه شخص ادمى و بيده عدة ألواح من الذهب وفى كل عام يغلق منها لوح على الهيكل تلقاء الشمس ثم ينظر كاهن تلك الهيكل فى ذلك اللوح فيعلم ما يجرى فى الاقليم المختص بذلك اللوح وكان كل لوح مختصا باقليم من الاقاليم السبعة وكذلك لكل هيكل من تلك السبعة هياكل فيعلمون أهل رومية الكبرى ما يجرى فى العالم بما وضعه حكماؤهم الاقدمون وفى وسط تلك السبعة هياكل قبة مثمنة على ثمانية عواميد من نحاس أصفر مطلية بالذهب محوط به سور مرقط ببياض وفيه بابها الاعظم وعلى رأسها صورة من حجر لا يعلم ما هو بل الحجر اسود فاذا كان استواء الزيتون فى مشارق الارض ومغاربها يسمعون من تلك الصور صوتا هائلا تكاد القلوب تنفطر منه فاذا كان من الغد تاتى من آفاق الارض زرازير وهى كل زرزور حامل ثلاث زيتونات واحدة فى منقاره واثنان فى رجليه فيلقونها على رأس تلك الصورة فلا يزالون كذلك حتى يمتلىء ذلك المكان العظيم قال فيعصرون منه زيتهم وما يأكلون من العام الى العام وكان فى داخل الهيكل الاعظم بيت مقفل لم يفتح منذ بنيت رومية ولما أراد قلطانوس الملك النهوض الى نصرة هرقل احتاج الى مال يصرفه على عسكره فاتى الى ذلك البيت المقفل وهم بفتحه فقال له عظماؤه وعظماوس وهو القيم على أمر الهياكل كلها أيها الملك ان هذا البيت منذ قفل تاريخه سبعمائة سنة وذلك من قبل ظهور المسيح بمائة سنة وسبعين ما احد من أجدادك تعرض اليه ولا أحد ممن ولى أمر هذه الكنيسة الاويوى على هذا البيت ان لا يفتح فلا تزل حكمة اسهامس كان قبلك من الحكماء والملوك وقد بنى المدينة واسس هذا الهيكل وهذا البيت هو بيت جدك رسيوى بن قطاوس وبقى فى ملكه على ما بلغنا ثلاثمائة سنة وسبعين سنة ووصى كوصية أبيه وتولى عليه اخوه احداك حتى وصل اليك هذا الملك ولك فيه مائة سنة فلا تزل حكمة اجدادك الذين أسسوها وطلاسما وضعوها قال فاخذه اللجاج فى فتحه فلما فتحه لم يجد فيه شيأ الا انه رأى فى البيت صورة القدس ومدن الشام وصفة ملوكهم وعددهم وفى آخرهم صورة لبطن وهو هرقل كانه ينظر فى اللوح مكتوب باليونانية يا طالب العلم عليك بكثرة القراءة فانه كلما تكرر رموز الكتب على مسامع من يتعلمها كان ذلك أثبت له واحكم لتصريفه اذ العلوم كلها انما تستخرج بالعقل والقياس واما ان يكون بكثرة الرياضة والعلم مطية التدبير والتدبير موضع العلم والعلم موضع العقل هذا هو المتمم لاشكال العلوم وقد رأينا فى الحكم والاسرار الخفية ان صاحب الغمامة اذا خيمت على صفحة الارض وحلت الضلالة تخرج مصباح الهداية من أرض تهامة فيذهب

بظلام الجهل المظلم للحس ويدعو الناس بدينه الى توحيد الصانع وهو صاحب الجمل الاورق فيذهب بالاديان والملك يضيق لدعوته السهل والجبل فاذا غلب نوره على كل كثيف فانتقل الى العالم الروحانى وولى بعده رجل نحيف الصورة قلبه منور بنور الصدق يشيد ملته و يصدق شريعته وويل للشام مما يحل بها من الرجل الاحور الذاهب بملك قيصر وهو الرجل الكثيف صولته المربعة صورته العدل صفته والحق منقبته جبته مرقعة وسيفه درته فى أيامه تذهب الدول وتحول وتضمحل وتزول وأوانه اذا فتح هذا البيت المصور بالحكمة المحفوظ بحفظ النعمة فطوبى لمن رسخت الحكمة فى قلبه وأشرقت مصابيحها فى لبه واتبع الحق وعرفه وجانب الباطل وخالفه قال فلما قرأ فلنطانوس ما فى اللوح أخذه العجب وقال لعظاوس قيم الهيا كل أيها الاب الشفيق ما تقول فى هذه الحكمة قال أيها الملك وما عسى أن أقول فى حكمة وضعتها العظماء وعلمت بها الحكماء وانما العلوم غامضة تصل الى الخبير الجوهرى بنور العقل وانما أرى أن دولة هرقل وهى عز دولتها او انهدت أركان ملكه من أرض سوريا وانتقل ملك الروم الى أرض اسطاور يعنى قسطنطينية وبذلك أخبر مهرابيس الحكيم فى كتابه الذى وضعه وسماه اسلاوس يعنى جواهر الحكمة ومن جملته اذا ظهر نور اليتيمة المصفاة من الادناس من جبال فاران تصفت الاذهان بنور حكمته وانصرفت الظلمة المتكاثفة فى سماء الجهل بقوة عزيمته ودعا الناس الى لطيف دعوته وقادهم بأزمة لطافته فيعلوا على الافلاك ذو يل لارض ايليا من صولة صاحبه المتوشح بوشاح الهيبة المتوج بتاج العقل صاحب فتوح الارض ومذل ملوكها العدل فسطاطه والمرقعة لباسه وفى زمانه ينكسر الصليب وتخرج الهيا كل وتندرج المذابح ويذوب ما بين المعمودية فلا نجاة من صولته الا باتباع شريعته وصاحبه قال فلما سمع ذلك فلنطانوس من القيم على الهيا كل كتم الامر فى نفسه وقال لابد لى من النظر الى العرب والمسير اليهم والى نصرة الملك هرقل وقد وصل الى كتاب البترك وندبنى الى نصرة دين المسيح فان تأخرت حرمنى ثم انه اختار من جيشه فى رومية ثلاثين الفا وهم الكراجية وولى فى موضعه ولده استفليوسن وهو ثلث النعمة واستخرج من بيت الحكمة رايات الاسكندر اليونانى وكانت منسوجة بالذهب واللؤلؤ التى نشرها يوم فتحت الواحات من ارض باليوس وكانت لاتنشر الا فى يوم واحد فى السنة ببيعة اياسوفيا وهو يوم عيد الصليب والشعانين قال فلما رفعت على رأس فلنطانوس سار حتى ورد انطاكية ونزل على باب هاوس ومعناه باب فارس قال وركب الملك هرقل فى موكبه الى لقائه وضربت سرادقاته بازاء سرادقات هرقل وفرحت الروم وتفاءلت بالنصرة وضربت النواقيس ووقعت ضجة عظيمة فى جيوشهم وارتفعت

اصواتهم وجاءت عيون المسلمين فاخبروهم بقدوم صاحب رومية فرفع ابو عبيدة كفه الى السماء وقال اللهم ان اعداءك يستنصرون علينا بكثرة عددهم وتزايد مددهم فشتت كلمتهم ودمر جيوشهم وزلزل اقدامهم وعسر ايامهم واجعل كلمتنا العليا وكلمتهم السفلى وانصرنا كنصر نبيك في يوم الاحزاب اللهم رد كيدهم في نحرهم وانصرنا عليهم قال وأمنت المسلمون على دعائه قال الواقدي رحمه الله حدثنا ابراهيم ابن العلاء عن أبي يوسف الكندي عن أبي جعفر الداري عن الربيع ابن أنس عن جعفر بن ميسرة قال لي عمي لما قدم صاحب رومية بجنوده خاف المسلمون ولكن ثبتهم الله وبعث ابو عبيدة معاذ ابن جبل ومعه ثلاثة الاف وقال له ياصاحب رسول الله ان الروم قد تجمعت من سواحل البحر لنصرة دينها فانهض وشن الغارات على بلاد السواحل واحتفظ أن تؤتى المسلمون من قبلك قال ففعل ذلك معاذ وسار الى جبلة واللاذقية فاحتوش اموالها واغنامها ووجد على باب جبلة غسان بن جرهم الغساني ابن عم جبلة بن الايهم ومعه الف دابة محملة برا وشعيرا لعسكر الكفر وقد جمعها من طرابلس وعكا وصور وصيدا وقيسارية وقد بعث بها قسطنطين ابن هرقل الى ابيه فلما وصلت الى مدينة جبلة سلموها الى العرب المتنصرة لابن عم جبلة وعاد فوقع به معاذ رضي الله عنه فاخذها ورجع قافلا الى عسكر المسلمين فلما راوه رفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير فسأل هرقل عن ذلك فاخبروه بما وقع فغضب على اخذ الميرة التي تقوت بها عساكر اعدائه فقال لبطارقته ما بقي بيننا وبين هؤلاء الا المصاف ويفعل الله بالمسلمين ما يشاء ثم انه امر عساكره بالاهبة للقتال ثم انه ركب والى جانبه قلطانوس صاحب رومية وصاحب مرعش وصاحب قلعة اسكندريس وهي قلعة الروم وصاحب طرطوس وصاحب مصيصة وصاحب قونية وصاحب ماصر وصاحب اقصرا وصاحب قيسارية الروم الاقصى وصاحب قوماط وصاحب انطراته وصاحب طيرند وجبلة ابن الايهم قال الواقدي رحمه الله واقبل يوما يرتب الصفوف في الحرب فلما وقف كل ملك بجيشه وكل بطريق باصحابه اراد قلطانوس ملك رومية أن يتقرب الى هرقل بما ارت العرب فصفع له على قربوس سرجه وقال ايها الملك ما تركت ملكي واتيت الى خدمتك من مائتين فرسخ الا حتى ارضي المسيح واخدمه بين يديك وان كل عسكرك قد قاتلوا واجتهدوا واريد ان ريني هذا اليوم الى هؤلاء المجيدين واشفي فؤادك وفؤادي منهم فاراد الملك أن يطيب قلبه فقال له الزم مكانك ولا تخرق حرمتك وحشمتك وحشمة الملوك وأنت أقدم مني في المملكة بدع غيرك يكون لهذا الامر فبلغ من شأن العرب أن تخرج أنت اليهم بنفسك فقال له قلطانوس أيها الملك وأي حشمة

بقيت لنسامع هؤلاء وقد اهملوا عزنا واذلوا عز ديننا والجهاد مفروض على كبيرنا وصغيرنا
أما علمت أيها الملك انه من نظر الى الدنيا بعين المحبة جذبته الشهوات الى العلو فى
محبتها والتعلق بزخارفها فاذا فعل ذلك ركب غيم كثافة الجهل على صفحة صدره فمنعه
ذلك عن طلب معاده ومن سارع الى طاعة خالقه بترك شهواته ارتقى الى دار دائرة
القدس فى محل الانس ولما علم القديم الازلى بركون انفسكم المحجوبة بحجاب الغفلة
الى طلب ما يفنى سلط عليكم اضعف امة قد اخرجتكم من دياركم وابعدتكم
عن اوطانكم وماذاك الا الخلود لم الى الاهواء الجاذبة الى مهاو يكم والى ادراك درك
المهالك لانكم حكمتم بغير الحق واجترأتم على الرعية بطلبكم منهم ما ليس لكم بحق
والجور فى اخذ اموالهم وفساد اموالهم وكثرة الزنا واتباع الخنا فلاجل ذلك
لم تنصروا ودارت دائرة السوء عليكم قال ثم تكلم صاحب الملك هرقل الكبير
واسمه سروند وصاح عليه وقال له ايها السيد لاتحمل على قلب الملك من كلامك
ما لا يطيق فى مثل هذه الساعة فقد وعظه من هو اكبر منك فلم يسمع قول قال فغضب
فلنطانوس من صياح الحاجب عليه وكتم امره الى الليل فلما مضى من الليل ربعه طلب
حجابه وخواصه وقال لهم أرضيتم أن يزعق على حاجب هرقل ويوبخنى بين الملوك وانتم
تعلمون ان بيتى أعظم من بيته ونسبه ادنى من نسبى وملكى اقدم من ملكه ولقد قال
اسيس حكيم بلاد الذكر المشهور بحكمته وهو الذى وضع المنار الاعظم فى يوم كبير كان
بين بلاد الجرامقة وبلاد الانجار وهى مسيرة اثنى عشر يوما ولا يصل الى ارضها الابعد
عناء كبير فاحتفر لها بئرا ووضع فى وسطها عامودا على رأس حجر بدور ومن صفة حكمته له
فى حدة النداء من حوله يرشح له بقدر ما يملأ ذلك الجرن العظيم فانه قال لاتسعى
بقدمك الى من براك دونه فتصغر عنده واجعل عزك نفسك فى مقابلة كبر باه
بحجبه فان عزة النفوس تقابل جاه الملوك ولا تصنع صنيعك لغير مستحقه فانها تجلب
عليك السوء من قبل ذلك فان ذلك الاحسان لا يزكوا الا عند ذوى الاصول وانه
يندمج عند السفهاء والارازل لا تصنعوا اليهم النصيحة فانك أنت تطلب منفعته
وهو يريد هوى نفسه باذيتك وقد جئنا من مائتى فرسخ واكثر الى خدمة رجل
برى اننا قد قصدنا داره بتاج عزه وانما نحن من جملة خدمه وان نور العقل المجوهر
للحس يمنعنى من اتباع الجهل المظلم للحواس وان نفسى تأبى ذلك والعز محل جليل
ومقام نبيل والذل وبيل وصاحبه قليل وقد عولت اسير الى هؤلاء العرب واختبر
ملتهم فانها هى الملة الواضحة بالحق المؤيدة بالصدق ومن كان عليها سامن فى معاده
من الهول الاكبر فما أنتم قائلون قالوا أيها الملك وكيف تطيب نفسك بترك دينك

وملكك وعزك وتتبع هؤلاء وهم لافضل لهم ولا عندهم حكمة فقال فلنطانوس أما الحكمة البالغة فعندهم مقرها وفى نفوسهم موطنها الان نور توحيدهم صفى اذهانهم ونور ايمانهم ببركة صاحبهم المسمى فى علوم الغيوب لان مغناطيس حكمته الربانية جذب جوهر قولهم الى متابعته والاقتداء بشريعته ومن اراد أن يأتى الى عالم عليين فلا يقعد على صفحة ارض الجهل أما علمتم ان السور انور من الظلمة والموت نهار الحياة قال فلما سمعوا قوله قالوا ايها الملك نحن ما نغدك عن عزائم يخرجنا عن الذل ومهابة الغلبة فاذا كنت تطلب بناطريقا تؤدى الى البقاء ويذهب بالشقاء فالحق اتباع الحق ونفى الباطل فمن لك وبين يديك قال فخذوا على انفسكم فاذا كان ليلة غد ركبنا كأننا نطوف حول البيت نحرسه ونطالب جيش العرب قال ففعلوا ذلك واخذ فلنطانوس فى امره قال ابن وهب هو ابن صالح عن أبى موسى الاشعرى قال لما عزم أن يسير الى جيش المسلمين أتى اليه يوقنا برسالة الملك هرقل فلما ادى الرسالة وهم بالقيام قال له فلنطانوس من أنت من الحجاب قال انا يوقنا صاحب حلب قال وكيف تركت بلدك قال استولت عليها العرب وحدثه بحديثه فقال فلنطانوس وما الذى ظهر لك من هؤلاء العرب قال ايها الملك انى دخلت فى دينهم واطلعت على امرهم وكشفت سرهم فرأيت القوم لا يستمعون الى الباطل ولا يحيدون عن الحق ولا ينامون الليل من كثرة اجتهادهم ولا يتكلمون بغير ذكر ربهم ينصفون المظلوم من الظالم ويواسى غنيهم فقيرهم الامراء منهم فى زى المساكين والعزيز والذليل عندهم سواء فقال له فلنطانوس فاذا وقفت على سرهم ورأيت فضلهم فما منعك ان تقيم عندهم بينهم فقال يوقنا منعنى من ذلك محبة دينى ومحبة قومى لانى لم أرى فراقهم قال قال فلنطانوس ان النفوس الزكية الباقية اذا رأت الحق جذبها جاذب اليقين الى حضرة طلب الاخلاص من المعيشة الذميمة الى ان ترقى الى اعلا عليين قال فخرج يوقنا وقد رسخ كلام فلنطانوس فى قلبه فقال والله ما تكلم بشىء الا وهو منقوش على صفحة صدرى وكلامه يشهد بقبول عقله لصحة دين الاسلام وأقام يوقنا على قلق من ذلك حتى اقبل الليل فأتى الى فلنطانوس فرآه وهو على نية الركوب الى ما ذكرناه فلما وقف بين يديه صقع له فقال له فلنطانوس بأى حجاب حجب الله الظالمين عن اتباع سبيل المتقين فالحق واضح لمن طلبه والباطل خفيف على من اتبعه فقال يوقنا أيها الملك ما معنى هذا الكلام الذى اشرت اليه فقال لو أنك رأيت بعين البصيرة لما رجعت عن ملتهم ولا اردت بدلا غيرهم وأما انت طلبت نعيما يؤول الى الزوال ويفضى بصاحبه الى النكال قال فسكت يوقنا وخرج من عنده وجعل يتجسس عليه ومضى ووقف على

الطريق الذي يمضي الى المسلمين فركب فلنطانوس وخرج من سرادقه فوجد بني عمه قد اخذوا اهبتهم وهم اربعة الاف فارس وقدموا اعزهم وساروا يدا واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا اعزهم وفارقوا دينهم فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقنا وبنوا عمه الماتين فقال يوقنا لفلنطانوس ايها الملك عولت على ان تكبس المسلمين فقال لا والقديم الازلي وانما أنا قاصد اليهم وادخل في دينهم وملتهم واكون من جملتهم فمن نظر الى الدنيا بعين الفناء عمل للآخرة فما الذي يمنعك يا يوقنا مما نحن عولنا عليه فقال يوقنا أيها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم انه حدثه بحديثه وانه عازم على أن يغدر على الروم فقبله فلنطانوس وفرح بمقالته وقال له كيف تقدر على ذلك وما ارى معك الا نفرا يسيرا فقال ايها الملك ان في داخل بتي مائتين من المسلمين من اكابر اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام عشرين الفا من الروم ولقد رأيت أن تعود أنت وقومك ولا تستعجل وتبعث رجلا الى امير المسلمين تخبره بما نحن معولين عليه فاذا كان غدا تلتق أنت وجيشك حول الملك هرقل وادخل أنا البلد واطلق المائتين اسيرا واعطيهم سلاحا ويحمل جيش العرب وتحمل أنت وعسكرك على موكب هرقل وتقصده أنت بنفسك فتقبض عليه وتكون قد جاهدت وانوار نا ومن معي في داخل البلد فنملكها ان شاء الله تعالى وان اردت أن ترجع الى دار ملكك ويكون امرك مكتوما على قول امير جيشك لمن تثق به من بني عمك قال فلنطانوس ما فعلت هذا ولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا بل اذا اقضي هذا الامر ونصر الاسلام قصدت مكة فاحج وازور قبر النبي صلى الله عليه وسلم ثم ارجع الى بيت المقدس فأقيم فيه الى أن اموت فمن يذهب الى امير العرب برسالتي ويخبرهم بما قد عولنا عليه فقال له يوقنا اعلم ان لهم عندنا عيونا وجواسيس ممن هو تحت ذمتهم وأنا اعلمهم بما قد وقع قال فبينما هم في الكلام تحت ستر الليل واذا بشبح قصد اليهما فتأمله يوقنا فاذا هو عمرو بن امية الضمري ساعي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم على يوقنا وعلى من معه وقال ليوقنا ان الامير اباعبيدة يقول لك جزاك الله خيرا عن الاسلام وانه رأى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم واخبره بما كان من امر صاحب ردمية وما تحدثتم به وما وقع له مع قومه وما عزمتم عليه وبشره بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقد تفتح انطاكية وبزول عز الروم عنها وينتزع ملك صاحبها (قال الواقدي) رحمه الله تعالى فتهلل وجه فلنطانوس فرحا وازدادا ايمانا وقالوا الحمد لله الذي هدانا للاسلام والايمان (قال الواقدي) رحمه الله وذلك ان أباعبيدة رضي الله عنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم وهو يقول يا اباعبيدة أبشر برضوان الله

ورحمته وغدا تفتح انطاكية صلحاوان صاحب رومية المدائن الكبرى قد جرى من امره كيت وكيت هو ويوقنا صاحب حلب وهم بالقرب منك فانفذ اليهما بانجاز الامر قال فاستيقظ ابو عبيدة وقص رؤياه على خالد وانفذ عمرو ابن أمية كما ذكرنا قال فلما سمع فليطانوس ذلك اقشعر جلده وارتعدت فرائضه وقال أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله واشهد ان هذا الدين هو الحق اليقين ثم انهم عادوا وطافوا بجيش الملك كأنهم يحرسون فبينما يوقنا قد ذهب باصحابه من عند صاحب رومية وقد قوى عزمهم على ما ذكرنا من امر كبسهم الملك واذا بالحاجب قد التقاه والمشاعل بين يديه وقد خرج من انطاكية ومعه ضرار ابن الازور ورفاعة ابن زهير والمائتين اسيرا وقد عول على قتلهم وان يرمي غدا برؤسهم الى المسلمين فلما سمع يوقنا ذلك ضاقت الدنيا عليه وقال له أيها الحاجب الكبير أنت تعلم ان المصاف غدا واقع بيننا وبينهم فان انتم قتلتم هؤلاء ورميتم برؤسهم الى المسلمين فانهم لا يقعون باحد منا فيبقوا عليه فاتق الله ولا تعجل بذلك ودعهم عندي وراجع الملك في امرهم الى أن ترى ما يؤول امرهم اليه قال فتركهم الحاجب عند يوقنا ومضى الى الملك وأخبره بما قال يوقنا فقال له دعهم عند الدمشقي فرجع اليه وقال له الملك يقول لك احتفظ عليهم فامرهم لك فأخذهم يوقنا وسار بهم الى خيمته وصعب عليه اخراجهم من انطاكية لانه كان قد عول على ان يملكهم البلد فلما حصلوا في خيمته حلهم من الوثاق وسلم اليهم العدد واخبرهم بما قد عزم عليه هو وصاحب رومية من القبض على الملك هرقل فقال ضرار والله لارضين الرب غدا بجهادنا وكانت قد ختمت جراحاته لانه كان له في الاسر ثمانية اشهر وفرقهم مع بني عمه (قال الواقدي) رحمه الله حدثنا ابو محمد عن سعيد بن أبي مريم عن يحيى ابن ايوب عن عبد الله بن مسعود ان الذي أمر باخراج الاسرى لم يكن هرقل وانما كان مملوكه الخاص واسمه تاليس ابن د ينوس وكان قد البسه تاجه ومنطقته وكان اشبه الخلق به وقال له كن غدا مكاني فاني اريد ان اكيد العرب وأكمن خلفهم وما ذاك الا انه رأى مناما وهو انه في نومه كأن شخصا قد نزل من السماء وقلعه عن سريره وكان تاجه قد طار من على رأسه وكان شخصا يقول له قد قرب ما تبعد وقد زال ملكك من سورية وقد ذهبت دولة الشقاق والنفاق وجاءت دولة الوفاق وكان ذلك الشخص قد نفخ في عسكره نارا وقد نارا فاستيقظ مرعوبا وفسر منامه على نفسه بزوال ملكه وكان قبل نزول العرب قد عبى خزائنه وجمع ما يخاف عليه من التحف ووضعها في المراكب من حيث لا يعلم بذلك احد من دولته وعبى الزاد والماء ثم انه ارسل اهل بيته في تلك الليلة بعد ما رأى المنام ولم يدع من حريمه واولاده وعياله احدا وبعده

امرمملوكه تاليس ابن رينوس بما أمره أن يفعله قال فلما ركب تاليس ما كان مشيدا امره الاان قال للصاحب اخرج الاسارى واضرب رقابهم فاخرجهم واخذهم يوقنا كما وصفنا قال حدثنا ياسر عن سليمان ابن عبد الواحد عن صفوان ابن بشر عن عروة ابن مدعور عن محمد بن على عن عدى عن شعبة ابن قتادة عن أبى الصديق التاجى عن ابن سعد قال ماخرج هرقل من انطاكية الا وهو مسلم وذلك انه كتب الى عمر ابن الخطاب فى السرمن قومه ان بى صداع لا يسكن فانفذ الىّ بدواء أتداوى به فارسل اليه قلنسوة فكان اذا وضعها على رأسه سكن صداعه واذا رفعها عاد اليه فتعجب من ذلك وأمر بفتقها فاذا فيها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم فقال هرقل ما اكرم هذا الاسم واعزه حيث شفانى الله به وكانوا قد توارثوا هذه القلنسوة الروم الى أن وصلت الى صاحب عمورية فلما كان يوم المعتصم ونزل عليها عرض للمعتصم صداع فارسل اليه صاحب عمورية بالقلنسوة فلما وضعها على رأسه سكن مابه فامر المعتصم بفتحها فاذا فيها الرقعة ومكتوب فيها بسم الله الرحمن الرحيم (قال الواقدى) رحمه الله تعالى وأما ما كان من امر تاليس فانه اصبح ركب ورتب عساكر الروم عن آخرها ودارت المواكب حول تاليس ابن رينوس وكان كل من رآه يظن انه هرقل ولا شك فيه ودار بموكبه عسكر فلنطانوس صاحب رومية وركب يوقنا ومن معه وهم متنكرون تحت السلاح فكان اول من حمل خالد بن الوليد بجيش الزحف قال وتبعه سعد ابن زيد وتبعه قيس بن هبيرة وتبعه ميسره وبعده عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وذوا الكلاع الحميرى وامثالهم واطبق الناس بعضهم على بعض فلما اشتبك الحرب هجم يوقنا ومن معه وحمل ضرار فلله دره لقد اعطى السيف حقه واخذ بثاره من الروم وكل ماقتل واحد صاح واثارات اسر ضرار بن الازور وكان قد قصد عسكر المتنصرة هو واصحابه هو ورفاعة بن زهير يشجعهم ويوبخهم ويقول لهم خذوا بثار كم ممن اسر كم واحملوا واياكم أن تفشلوا واعلموا ان الجنة قد فتحت ابوابها وزينت حورها وقصورها واشرف بنيانها ومرح ولدانها وتجلى ديانها ثم صاح يافتيان العرب أيكم يرغب فى زواج الحور فان بذل النفوس هى المهور ومن يريد عروسا فى الجنان ويقوم فى خدمته الولدان من يرغب فيما قال الملك الديان متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان اين من شهد بدرا أوحنين مع سيد الكونين اين من يزيل عن قلبه حجاب الغفلة والرين وافقوا وماصارت هممهم الى دار الازل فانا نخوا ارباب من لم يزل محبوبهم فاراد الحق أن يوقفهم على منازلهم ليزيدوا فى حسن أفعالهم فكشف عن سرائرهم فرأوا دارا بناؤها النور وقواعدها من الرحمة حيطانها من الذهب والفضة

بلاطها المسك ماؤها الحيوان حصباؤها الدر والجوهر ترابها الكافور والعنبر سورها المجيد اللطيف ستورها الكرم أشجارها لا اله الا الله اغصانها محمد رسول الله ثمارها سبحان الله والحمد لله عرضها السموات والارض سقفها عرش الرحمن فلما كشف لهم عن هذه الاسرار اشتاقوا الى سكنا هذه الدار قيل لهم لن تصلوا اليها الا ببذل النفوس فى رضى الملك القدوس ثم خلع عليهم خلع الاحسان وتوجهم بتيجان الرضوان ونشر على رؤسهم رايات الغفران مرسوم على طرزها بقلم السر المكنون ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون لقد بذلوا النفوس فى رضى القدوس (قال الواقدى) رحمه الله فبينما ضرار يحمل فى الاعداء ويذيقهم شراب الردا واذا هو بفارس يخطط الكتائب ويخرق المواكب وينعيج وآثارات ضرار بن الازور فتأمله فاذا هو أخته خولة فنادا ها الله درك يابنت الازور أنا والله أخوك فقبلت عليه لتسلم عليه فقال لها اليك عنى ما هذا وقت سلام وان قتال الكفر أفضل من كلامك يابنت الازور فاحملى عنانك مع عنانى وسنانك مع سنانى وجاهدى فى سبيل الله فان قتل أحدنا فالملتقى فى الحشر عند حوض سيد البشر قال فبينما هم فى ذلك اذ نظر الى جيوش الروم وقد تقهقرت وفرسانهم قد انهزمت وكان السبب فى ذلك ان صاحب روبية رحمه الله لما رأى الحرب قد اضرمت نيرانها وعلا دخانها قد حمل بأصحابه وقصد ناليس بن رسوس فقبض عليه وهو يظن أنه هرقل فصاح الصائح أن الملك هرقل قد قبض عليه فلطانوس ملك رومية وغدر به فولت الروم الادبار وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها الا باجنادين واليرموك وقتل من العرب المتنصرة زهاء عن اثنى عشر ألفا وطلب جبلة وولده فلم يرلهم خبرا فقيل انهم واكابر قومهم ركبوا مع الملك هرقل فى المواكب وكان جبلة من هرب من سادات المتنصرة مع جبلة وابنه خمسمائة من جملتهم ابن عمه قرطة وعروة بن واثق ومرهف ابن واثق وهمام بن سالم وشيبان بن مرة قال فسكنوا جزائر البحر فمن نسلهم هذه الافرنج قال وأخذ المسلمون ما كان من السرادقات والخيام والديباج والمتاع والخزائن وأسروا ثلاثين ألفا وقتلوا من الروم سبعين الفا وولت العرب المتنصرة منهزمين فمنهم من أخذ نحو الدروب ومنهم من طلب قيسارية الى عند قسطنطين بن هرقل فلما وضعت الحرب أوزارها وخمدت نارها جمعوا الاموال والانفال والاسرى الى بين يدى أبى عبيدة فلما نظر الى ذلك سجد الى الله شكرا وسلم المسلمون بعضهم على بعض وجاء ضرار وأصحابه ويوقنا وفلطانوس وأصحابه وسلموا على المسلمين وفرحوا بهم فلما وصل فلطانوس قام اليه المسلمون وقال كأنى بالصحابة رضى الله عنهم نبينا صلى الله عليه

وسلم

وسلم يقول اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه قال فنظر فلنطانوس الى تواضعهم وحسن سيرتهم وكثرة عبادتهم فقال هؤلاء والله القوم الذى بشرهم عيسى عليه السلام قال فاسلم بنو عمه عن آخرهم وجاهدوا فى الكفار الى أن فتحوا جميع الامصار وبعدها مضى فلنطانوس الى مكة فحج وزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم المختار وسلم على عمر رضى الله عنه فلما رآه وثب اليه قائما وصافحه هو وجميع المسلمين وعاد الى بيت المقدس فجلس يعبد الله فيه حتى أتاه اليقين (قال الواقدى) رحمه الله ونظر أبو عبيدة الى جيش انطاكية وقد تحصنوا فيها وهم لايحصنون فقال اللهم اجعل لنا الى فتحها من سبيل وافتح لنا فتحا مبينا قال وكان على انطاكية بطريق اسمه صليب بن مرقس وكان جاهلا فى رأيه فعزم على القتال من داخل السور فاجتمع أكابر البلد الى البترك فى الليل وقالوا له أخرج الى هؤلاء العرب وصالح بيننا وبينهم على مانقدر عليه قال فخرج البترك الى أبى عبيدة وحدثه فى الصلح فاجابه الى ذلك فكان جملة ماصالح عليه أهل انطاكية ثلاثمائة ألف مثقال من الذهب فلما تقرر الصلح قال له أبو عبيدة احلف لنا انكم لاتغدرون بنا فان مدينتكم مانعة كثيرة الجبال والوعر فقال خالد ومن يحلفه فقال أبو عبيدة يوقنا قال فوضع يوقنا يده على رأس البترك فوق يده وقال قل والله والله والله أربعين مرة والا قطعت زنارى وكسرت صليبى ولعنتنى الشمامسة والديوانيون وخلعت دين النصرانية وذبحت الجمل فى جرن ماء المعمودية ونجستها ببول مولود من أولاد اليهود وقتلت كل الشهود والا خرقت شدائد مريم وعصبت رأسى والا ذبحت القسوس وصبغت بدمائهم ثوب عروس والا جعلت مريم زانية به والا جعلت فى المذبح حيضة يهودية والا اطفات قناديل بيعة جرجيس وجعلت عزيرا فى مقام كالوس والا تزوجت يهودية طمية لاتنقى أبدا والا غسلت أثوابى صبيحة يوم الجمعة والا هدمت الكنائس والبيع وأحللت الاعياد والجمع والا عبدت اللاهوت وجحدت الناسوت والا أكلت لحم الجمل يوم عيد الشعانين والا صمت رمضان عاطشا وكنت للحم الرهبان ناهشا والا صليت فى ثياب اليهود وقلت ان عيسى دباغ الجلود اننا لانغدر بكم ولاكنا الا معكم (قال الواقدى) رحمه الله فعندها قام أبو عبيدة ودخل انطاكية وكان دخوله لخمسة أيام مضين من شعبان سنة سبعة عشر من الهجرة فدخلها وبين يديه اللواء الذى عقده له أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعن يمينه خالد بن الوليد وعن يساره ميسرة بن مسروق ودخلها والقراء بين يديه يقرؤن سورة الفتح فلم يزل سائرا حتى وصل الى باب الجنان فنزل هناك وخط هناك مسجدا وأمر ببنائه وبه يعرف الى يومنا هذا قال ميسرة بن مسروق فنظرنا الى بلد

رطب طيب الهوى كثير الماء والخيرات فاستطابته المسلمون ووددنا ان لو أقمنا به
شهر النستريح فما تركنا أبو عبيدة فيه غير ثلاثة أيام ثم انه كتب الى عمر بن الخطاب
رضى الله عنه سلام عليك وانى أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو وأصلى على نبيه
صلى الله عليه وسلم وأشكره على مافتح علينا ورزقنا من الغنيمة والنصر وأعلمك ياأمير
المؤمنين ان الله عزوجل قد فتح على المسلمين كرسى النصرانية مدينة انطاكية وكسر
الله عساكرها ونصرنا الله عليهم وهرب هرقل فى البحر وانى لم أقم بها لطيب هوائها
وانى خشيت على المسلمين ان يغلب حب الدنيا على قلوبهم فيقطعهم عن طاعة ربهم
وانى معول على المسير الى حلب وانى منتظر أمرك فان امرتنى أسير الى داخل الدروب
فعلت وان أمرتنى بالمقام أقمت واعلم ياأمير المؤمنين ان العرب قد نظرت الى بنات
الروم فدعتهم أنفسهم الى التزويج فمنعتهم من ذلك وانى أخشى عليهم الفتنة
الا من عصمه الله فعجل الى بأمرك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين وطوى الكتاب
وختمه وقال معاشر المسلمين من يسير بكتابى هذا الى أمير المؤمنين فاسرع بالاجابة
زيد بن وهب مولى لعمير بن سعيد مولى عمر ابن عوف فقال أنا أيها الامير أوصله ان شاء
الله تعالى فقال له أبو عبيدة يازيد أنت لست مالك نفسك وانما أنت مملوك فان أردت
المسير فسل مولاك ان يأذن لك فى ذلك فاسرع زيد الى مولاه عمير فانكب على يديه
يقبلهما فمنعه من ذلك وذلك ان عميرا كان رجلا زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة
ما يملك من الدنيا سوى سيفه ورمحه وفرسه وبعيره ومزادته وقصعته ومصحفه وكان
الذى يصيبه من الغنائم لا يدخر منه شيأ ولا يأخذ الا ما يقوته وكان يفرق الباقى على
قرابته وقومه فان فاض شئ يرسله الى عمر رضى الله عنه يفرقه على فقراء المسلمين
المهاجرين والانصار قال فلما أراد زيد يقبل يد سيده منعه وقال له ما الذى تريد فقال
يامولاى تأذن لى أن أكون رسولا للمسلمين بشيرا الى عمر بن الخطاب رضى الله
عنه فقال له عمير بن سعيد تريد ان تكون بشيرا للمسلمين وامنعك من ذلك انى اذا لآثم
امض فانت حر لوجه الله تعالى وارجو بعتقك ان يجيرنى الله من النار قال ففرح
زيد بذلك وعاد الى أبى عبيدة فاخبره ان بركة كتابه صار حرا فسر ابو عبيدة وسار
زيد على نجيب من نجب اليمن دفعه اليه وكان سابقا قال فجعل زيد يطلب أقرب
الطرق حتى قدم المدينة ودخلها واذا بها ضجة عظيمة ولاهلها ضجيج وهم يهرعون الى
نحو البقيع ركبانا فقلت لنفسى ان لهم امرا اتبعتهم لارى ماشأنهم وأنا أحسب انهم
يريدون حربا فرأيت رجلا فعرفته فسلمت عليه فعرفنى وقال أنت زيد قلت نعم قال الله
أكبر ما وراءك يازيد قلت البشارة والغنيمة والفتح قلت مافعل أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب قال انه خارج يريد الحج ومعه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يحج بهن والناس يشيعونه قال زيد بن وهب فانخت بعيري وعقلته واسرعت مهرولا حتى وقفت بين يدي عمر رضي الله عنه وهو يمشي راجلا ووراءه مولاه يقود بعيرا وقد رحله بعباءة قطوانية وزاده وجفنته عليه والهوادج بين يديه سائرة وعن يمينه علي بن أبي طالب وعن يساره العباس بن عبد المطلب ومن ورائه المهاجرون والانصار وهو يوصيهم بالمدينة قال زيد بن وهب فلما وقفت بين يديه ناديت السلام عليك يا أمير المؤمنين أنا زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد اتيتك بشيرا قال عمر بشرك الله بخير فابشارتك قلت هذا كتاب من عاملك أبي عبيدة يخبرك ان الله قد فتح على يديه انطاكية قال فلما سمع عمر بذكر انطاكية وان الله فتحها خرلله ساجدا يمرغ خديه على التراب ثم انه رفع رأسه من سجوده وقد تترب وجهه وشيبته من التراب وهو يقول اللهم لك الحمد والشكر على نعمك السابغة ثم قال هات الكتاب رحمك الله فناولته اياه فلما قرأه بكى فقال له علي كرم الله وجهه مم بكاؤك قال مما صنع أبو عبيدة بالمسلمين وبما استعقب رأيه في الموحدين ثم قال ان النفس لامارة بالسوء ودفع الكتاب الى علي فقرأه على المسلمين الى آخره قال زيد بن وهب ثم رأيت عمر قد هدى من بكائه وقد زاد فرحه وأقبل على وقال يازيد اذا عدت فامعن من أكل اتيانها واعطاها وأحمد الله كثيرا فقلت يا أمير المؤمنين ليس هذا اوانه قال ثم جلس عمر على الارض ودعا بدواة وقرطاس وكتب الى أبي عبيدة كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر الى عامله بالشام أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك واني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه واشكره على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفا معينا واما قولك لم نقم بانطاكية لطيبها فان الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله الآية فكان يجب عليك ان تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون أبدانهم من نصب القتال ممن كفر بالله واما قولك انك منتظر أمري فالذي آمرك به ان تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فانك الشاهد وأنا الغائب وقد يرى الشاهد مالا يراه الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك تأتيك بالاخبار فان رأيت ان دخولك الى الدروب بالمسلمين صواب فابعث اليهم بالسرايا وادخل معهم الى بلادهم وضيق عليهم المسالك ومن طلب منك الصلح فصالحه ووف لهم بما تقدر واما قولك ان العرب ابصرت نساء الروم فرغبت في التزويج فمن احب ذلك فدعه ان لم يكن له أهل بالحجاز ومن أراد

ان يشترى الاماء فدعه فان ذلك امرن لفروجهم واعف لنفوسهم ومايحتاج ان اوصيك في أمر فلنطانوس صاحب رومية اوسع عليه في النفقة وعلى من معه فانه قد فارق أهله وماله وامره ونهيه والسلام عليك وعلى جميع المسلمين وطوى الكتاب ودفعه لزيد بن وهب وقال له انك اتيتني رحمك الله واشركك في نوابك فاخذ زيد الكتاب وهم ان يسير فامره ان يقف وقال له على رسلك حتى يزودك عمر من قوته ثم ان عمر اناخ راحلته واخرج له تمرا فاعطاه صاع تمر وصاع سويق وقال يا زيد اعذر عمر فهذا ما امكنه ثم ان عمر قبل راس زيد بن وهب فبكى زيد وقال يا أمير المؤمنين وبلغ من قدري ان تقبل رأسي وانت أمير المؤمنين وصاحب سيد المرسلين وقد ختم الله بك الاربعين فبكى عمر وقال ارجو ان يغفر الله لعمر بشهادتك قال زيد بن وهب فاستويت على كور ناقتي وهممت بالمسير فسمعته يقول اللهم احمله عليها بالسلامة واطوله البعيد وسهل له القريب انك على كل شئ قدير قال زيد بن وهب ففرحت بدعوة عمر رضي الله عنه وعلمت ان الله لا يرد دعوته اذ كان لربه طائعا ولنبيه تابعا فجعلت اسير والارض تطوى لى تحت اخفاف مطيتي فكنت والله في اليوم الثالث عند أبي عبيدة وقد رحل عن انطاكية وقد نزل على حازم قال زيد فلما وصلت الى عساكر المسلمين سمعت ضجة وجلبة وقد ارتفعت الاصوات فسألت رجلا من أهل اليمن ما سبب ذلك قال فرحا بما فتح الله على المسلمين وهذا خالد قد اتى وكان قد ضرب على شاطئ الفراة وغار بخيله وقد صالحه اهل منبج وبراعه وبالس واتى برجالهم واموالهم وفتحها صلحا وقد فتح منبج وبراعة وبالس وقلعة نجم في العشر الاوسط من المحرم سنة ثمانية عشر من الهجرة وصالحهم بعد رداه والهم على مائة الف وخمسين الف دينار واخذها بعد ان نزل صاحبهم جرفناس وسار باموال وانقاله وعبيده وخيوله الى بلاد الروم وولى على منبج عبادبن رافع التيمي وعلى الجسر نجم بن مفرج وولى على براعة اوس بن خالد اليربعي وعلى بالس بادر بن عون الحميرى ونساله بها قلعة الى جانب بالس من الشرق وسماها باسمه وعاد خالد بالاموال والانقال يوم قدوم زيد بن وهب قال فاتيت ابا عبيدة وهو جالس وخالد الى جانبه وقد قدم مال الصلح فانخت ناقتي وسلمت عليهم ودفعت الكتاب الى ابي عبيدة ففضه وقرأه على المسلمين فلما سمعوا المسلمين ما فيه قال أبو عبيدة معاشر المسلمين ان امير المؤمنين قد جعل أمر الدخول الى الدروب الى وقال أنت الشاهد وأنا الغائب وأنا لا افعل شيأ الا برأيكم فما تشيرون على أنا أفعل رحمكم الله فلم يجبه احد واعاد القول ثانيا فلم يجبه أحد

(ذكر غزوة مرج القبايل داخل الدروب)

فقال

فقال معاشر المسلمين هذا الشام قد ملكتموه وملككم الله اياه واخرج عدوكم منه بالذل والهوان وأورثكم أرضهم وديارهم كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز فما تشيرون به على اندخل فى هذه الدروب وراء أعدائنا فلم يجبه أحد فاعاد الكلام ثم قال ماهذا السكوت افشل بكم بعد الشجاعة أم كسل بعد النشاط ام قد انتقيتم من الحسنات ولم يبق عليكم من الذنوب وان الحسنات لكم كثيرة ولم يبق عليكم خطيئة فالرغبة الى الله ان يعينكم على الجهاد فهو خير لكم من الدنيا ومافيها قال فكان اول من تكلم ميسرة بن مسروق العبسى فقال أيها الامير انا لم نسكت لجزع لحقنا ولا لفزع رهقنا وانما بعضنا ينتظر بعضا اجلالا وادبا واعلم أيها الامير ان مالنا تجارة ولا عمل غير الجهاد فى اعداء الله وطلب ماعند الله وها نحن لك وبين يديك ومنك الامر ومنا الطاعة لله ولرسوله ولك واما انا فلا املك الا نفسى فوجهنى حيث شئت تجدنى طائعا فقال أبو عبيدة معاشر المسلمين من له رأى وحضرته مشورة فليلقها ليظهر ما عنده فقال خالد أيها الامير ان اقامتنا عن طلب القوم وهن وعجز منا فى ديننا وطلبهم هو الغنيمة والنصر من عند الله والذى اشير به ايها الامير ان تبعث الجيوش فى كل درب من هذه الدروب فان ذلك يوهن العدو وتقر به اعين المسلمين قال فجزاه أبو عبيدة خيرا وقال يا ابا سليمان انى قد رأيت ان اعقد لميسرة عقدا واسير معه رجالا لانه هو اول من سارع الى هذا الامر وأشار به فيفتح الله لهم الدروب ويغير على ماقرب من البلاد ويرجع فيخبرنا عن خبر البلاد فنعمل على حسب ماترى فقال خالد هذا هو الصواب فعقد لميسرة وانتخب له من القبائل ثلاثة آلاف فارس من أشجعان والف عبد من السودان وجعل من كل قبيلة نقيبا وجعل على العبيد دامس ابا الهول قال فلبسوا اكمل السلاح وكل منهم يقول انه يلقى الكتيبة وحده وجعل أمير القوم ميسرة وقال أبو عبيدة يا ابا الهول كن انت بجماعتك فى أوائل العسكر ولا تخالف ميسرة فيما أشار به فانه مبارك الطلعة فقال سمعا وطاعة قال وجهز القوم ثم ان خالدا قال ايها الامير أرسل معهم ادلاء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيونا على اعدائهم فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحا لهم فاختاروا لهم أربعة واعطاهم أبو عبيدة واحسن اليهم وطرح عنهم الجزية وقال لهم فى أى درب يكون دخول المسلمين فى طلب العدو فاجتمع رأيهم على ان يدخلوا فى الدرب الاعظم من بلد قورص ثم انهم قالوا أيها الامير ان هذه الدروب ليست كمثل البلاد التى فتحتموها بل هى بلاد شديدة البرد كثيرة الشجر والمدر والحجر وفيها مضايق ونشعاب واودية وكهوف واعقاب فقال اهل اليمن سيروا انتم امامنا فانكم تروا منا عجبا فسار ابو الهول والمعاهدون امامه وسار

ميسرة فى اعقابها بعد ما ودعوا الناس ومضوا وهم بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن والمسلمون يدعون لهم بالنصر والسلامة قال عطا بن جعدة وسرنا والدليل امامنا حتى اتينا عقبة حنداس فقطعناها وعبرنا نحو الساجور واتينا قورص فنزلنا فيها وبتنا لما اصبحنا ودخلنا الدروب فوجدنا بها ارضا وعرة واشجارا ومياه جارية ومضايق ليس للفرس فيها مجال فهالنا وحشة ذلك المكان اذ ليس للعرب فيه مجال ولا فسحة فقلت فى خاطرى ان طالت علينا هذه الاودية خشيت على المسلمين ان يظفر بهم عدوهم والادلاء امام المسلمين وقد تعلقوا فى جبال شاهقة صعبة الصعود فلم يبق احد الا وترجل عن فرسه قال ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من ارجلنا فلم نزل على ذلك ثلاثة أيام والادلاء يقولون لنا كونوا على يقظة فان أخذ عليكم الجار هلكتم فلما كان فى اليوم الرابع خرجنا الى أرض واسعة وكان دخولنا الى بلاد الروم فى اول الصيف ونحن مخففون من الثياب ولما دخلنا الى تلك الارض وجدنا بردا كثيرا ونظرنا الى الثلج وهو على الجبال عن يميننا وشمالنا قال وكان دامس أبو الهول لم يأخذ معه ثيابا تدفيه فحصل له من البرد ما لا يحصل لغيره فقال قبح الله تلك البلاد فاذا كان هذا البرد عندهم فى الصيف فكيف يكون فى الشتاء وجعل يرتعد فرآه ميسرة فقال يا ابا الهول مالى اراك ترتعد فقال أخذنى البرد وليس معى ما يدفينى فدفع اليه فروة فلبسها فدفى فقال كساك الله من ثياب الجنة (قال الواقدى) رحمه الله تعالى وساروا الى ان وصلوا الى ارض طيبة كثيرة المياه قليلة الشجر فنزلوا فيها ثم انهم ساروا فلم يروا أحدا لان الروم كانوا قد انزاحوا عن البلاد لحذرهم من المسلمين فلما كان فى اليوم الخامس ونحن سائرون اذ لاح لنا قرية فقصدها المسلمون واذا هى خالية بل سمعوا اصوات الديوك والغنم فدخلوها فلم يجدوا عندها مانعا ولا دافعا فعرفنا انهم تواروا عنا فصاح ميسرة وقال خذوا حذركم فان القوم قد انهزموا فدخل الناس الى القرية فأخذوا ما كان فيها من طعام واثاث ومتاع قال سعيد بن عامر فرأيت أبا الهول وهو يحمل على عاتقه ثلاثة اكسية قال وقطعتين فقلت له يا أبا الهول ماهذا فقال استعد به لبرد هذه البلاد الخبيثة فما أنساها أبدا قال واخذوا ما كان فى القرية من طعام وعلوفة وساروا الى ان وصلوا الى مرج يقال له مرج القبائل وهو مرج واسع فانبثت الخيل فيه يمينا وشمالا ونزل الجيش هناك وميسرة يراود نفسه فى الرجوع الى حلب وذلك ان اباعبيدة كان قد أمره ان لا يبطى عنه وان يكون حذرا فبينما هو كذلك والخيل منبثة والناس آمنون من عدو يدهمهم اذ اقبل بعض الخيالة ومعه علج يقوده فلما وصل الى عند ميسرة قال له ماشأن

هذا ومن أين أخذته فقال اعلم أيها الامير اني سبقت أصحابي فرأيت شخصا يلوح مرة ويختفي مرة فاسرعت اليه فأراه هذا فأتيت اليه وسقته اليك قال فتقدم اليه رجل من المعاهدين فسأله فحدثه فأطال معه الكلام والناس سكوت فلما أطال معه قال ميسرة ويلك ما الذي يقول هذا العلج فقال ايها الامير انه يقول ان الملك هرقل لما ركب البحر وخرج من انطاكيه ووصل الى قسطنطينية قصدته الروم من كل مكان من المنهزمين وغيرهم وبلغه أن انطاكيه قد فتحت صلحا وانه قد قتل من كان فيها من المقاتلة فصعب عليه وبكى ثم قال السلام عليك يا أرض سوريا الى يوم اللقاء وقد تجمع عنده من البطارقة والحجاب وغيرهم خلق كثير فقال لهم اني اخاف من العرب ان تدخل في طلبنا ثم انه جهز ثلاثين ألفا مع ثلاث بطارقة وأمرهم ان يحفظوا اله الدروب فقال له ميسرة قل له كم بيننا وبينهم قال يقول لكم ان بينكم وبينهم فرسخين قال فلما سمع ذلك ميسرة اطرق الى الارض لا يرد جوابا ولا يبدئ خطابا فقال له رجل من آل سهم يقال له عبد الله بن حذافة السهمي وكان من ابطال الموحدين وشجعانهم وكان له عامود من حديد وكان يقاتل به لا ينقل في الحرب سواه وكان ذميم الخلقة فقال لميسرة بن مسروق مالي أراك أيها الامير مطرقا الى الارض اطراق الحصان لصلصلة اللجام والرجل منا يقاتل الغا من الروم فقال والله يا عبد الله ما اطرقت خوفا ولا جزعا ولكن خوفا على المسلمين ان يصابوا تحت رايتي وهي اول راية دخلت الدروب فيلومني عمر بن الخطاب وكل راع مسئول عن رعيته فقال المسلمون والله ما نبالي بالموت ولا نفكر في الفوت لانا قد بعنا انفسنا بجنة ربنا ومن يعلم انه ينتقل من دار الفنا الى دار البقا فلا يبالي بما وصل اليه من الكفار ثم انه قال أيها الناس اترون ان نلقاهم في موضعنا هذا او نسير اليهم فسألوا المعاهدي وقالوا ان كان موضعهم افسح من هذا رحلنا اليهم فقال ليس من هذه البلاد بعد عمورية افسح من هذا المكان فان عولتم على لقائهم فاثبتوا مكانكم وان عدتم الى ورائكم كان خيرا لكم من قبل ان يشرف عليكم عدوكم قال فاعرض ميسرة على العلج الاسلام فابى فضرب عنقه فبينما هم على ذلك اذا اشرفت عليهم الروم فنزلوا بازائهم وكانوا كالجراد المنتشر وكان قد مضى النهار فاضرمت النيران فلما اصبح الصبح صلى ميسرة بالناس صلاة الفجر فلما فرغ قام في الناس خطيبا فقال ايها الناس هذا يوم له ما بعده لان رايتم هذا اول راية دخلت الدروب واعلموا ان اخوانكم مطاولون لفعلكم واعلموا ان الدنيا دار ممر والاخرة دار مقر واسمعوا ما قال نبينا صلى الله عليه وسلم الجنة تحت ظلال السيوف ولا تنظروا الى قلتكم وكثرة اعدائكم فقال

تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين فقال المسلمون اركب بنا يا ميسرة على بركة الله والقاهم بنا وانا نرجو من الله النصر عليهم قال فاستبشر بقولهم وركبوا وانفصلت العبيد من العرب ووقفوا تحت راية أبي الهول وأخذوا على أنفسهم لقتال عدوهم وانتصروا برهم وهو يوصيهم وجعل على الميمنة عبد الله بن حذافة السهمي وعلى الميسرة سعد بن أبي سعيد الحنفي وقدم العبيد مع أبي الهول وجعل يتسمع على أبي الهول فلم ينطق بكلمة وركب جيش الروم وعدوا صفوفهم ثلاث صفوف كل صف عشرة آلاف وامامهم الصلبان وهم في عددهم وعديدهم فلما استوت الصفوف خرج رجل من الروم من المتنصرة وقرب من المسلمين وقال ان الباغي بغيه يرديه اما كفاكم ما ملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمتم هذه الجبال وانما اتتكم الآجال وهي ثلاثون الف عنان وقد حلفوا بالصلبان ان كلا منهم لا ينهزم وان وقع ميتا فان أردتم ان نبقي عليكم فاستسلموا للاسر حتى يحكم الملك هرقل فيكم بما يريد فخرج اليه أبو الهول والراية بيده وقال له صدقت في قولك ان الباغي برديه بغيه واما قولك انا نلقي اليكم بايدينا فاعلينا وانت اذن باغ بقولك هذا اذ نطقت بغير تجربة منكم وها انا عبد من عبيد العرب لا قدر لي ولا قيمة عند ذوي الرتب فاقرب مني حتى اجندلك صريعا تخور في دمك ثم ان دامس همز حصانه اليه وطعنه فارداه عن فرسه قتيلا ثم جال على تلو وهز رايته وقال الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر ونظرت الروم الى أبي الهول وقد قتل صاحبهم وكان من شجعانهم فغضبوا لذلك فخرج اليه آخر فتركه يقرب منه حتى طعنه في نحره أخرج السنان من ظهره ونظر الروم الى ذلك فقالوا هذا عبد من عبيد العرب قد فعل ما ترون قال فلم يجسر أحد يخرج اليه فغار عليهم وقتل من القلب واحدا ورجع قال فحمل عليه صف من الصفوف وهم عشرة آلاف ودهموه بالخيل فحملت العبيد وحملت المسلمون والتقى الجمعان قال ميسرة فلله در العبيد لقد ابلوا بلاء حسنا واستنقذوا أبا الهول من عين الهلاك وهم يقولون نحن عبيد لعباد الله وصرنا مثل الحريق في سبيل الله ونقتل من كفر بالله قال ولم يزل الحرب بينهم حتى قامت الشمس في قبة الفلك وحمي عليهم الحر وافترق الجمعان قال وان المسلمون موقنون بالظفر والنصر والمشركون قد ايقنوا بالهلاك وقد قتل منهم خلق كثير واسر من الروم تسعمائة وقتل منهم زهاء عن الف فلما انفصل الجمعات افتقد المسلمون أبا الهول فلم يجدوه فقال ميسرة ان كان أبا الهول قد قتل او اسر فقد اصبنا به والى الله قد اشكوا ما اصابنا من فقد أبي الهول واسر من المسلمين عشرة ثم ان ميسرة قال من فيكم يكشف لنا خبرهم واذا بالروم قد عادوا للقتال وحملوا باجمعهم فقاتلوا قتالا شديدا فكان الرجل

من المسلمين يجتمع عليه العشرة والعشرون والخمسون الى أن يقتلوه أو يأسروه وكانت العرب فى أربعة آلاف والروم فى ثلاثين ألفا فعظم بينهم الحرب وهاج الطعن والضرب فلله در ميسرة بن مسروق العبسى لقد جاهد فى الله حق جهاده وهو مع ذلك ينادى أيها الناس اذكروا الدار الآخرة واعلموا انها أقرب لاحدكم من رجوعه لاهله فاستقبلوها استقبال الوالدة لولدها ولا تولوا الادبار عنها فان أصابوا القوم منافا فى اخشى ان ذلك ومن بنا ثم انه نادى احطموا جفيرات سيوفكم فذلك طريق النجاة قال زيد بن وهب فلم يبق أحد من المسلمين حتى رمى بجفير سيفه لما رأت الروم ذلك فعلوا مثلنا ورمى كل منهم بجفير سيفه فسميت تلك الوقعة باسمين وقعة مرج القبايل ووقعة الحطمة لاجل حطم اعمدة السيوف قال واقتتلوا حتى ان الرجل يقول ان سيفه مابقى يقطع والمسلمون يبتهلون الى الله والكفار تعج بكلمة كفرهم قال وان المسلمون يطلبون الفرج من الله والسودان تقاتل قتال الموت وكان شعار العرب فى ذلك اليوم النصر النصر وشعار السودان يا محمد يا محمد قال ابن ثابت وكنت قد أخذنى القلق على المسلمين ونحن فى كرب عظيم اذ سمعت فى الروم ضجة هائلة واذا بهم يقاتلوا اناسا من ورائهم وهم فى وسط عسكرهم والزعقات منهم قد علت وسمعت قائلا يقول لا اله الا الله محمد رسول الله فقلت هذه أصوات الملائكة فاتبعت الصوت فاذا هو صوت دامس أبى الهول وهو بارك تحت جحفته ومعه العشرة المأسورين وهم يقاتلون معه ويحمون بعضهم الى ان خلصوا من بينهم وسمعته يقول هذه الابيات

توثقنى الاعداء فى الحديد * وناصرى وسيدى المبيدى
مهلك عاد وبنى ثمود * اغاثنى بعونه الشديد
محمد الطاهر الرشيد * فحل عنى القيد والحديد
ذاك رسول الملك المجيد * صلى عليه الناصر الحميد

قال فمالت المسلمون وكشفوا عنهم فخرجوا وكانهم قد غرقوا فى بحر دم ووالله ما قتل من المسلمين اكثر من خمسين رجلا بواحد واثنين وقتل من المشركين نيف عن ثلاثة آلاف غير ما قتله أبو الهول وأصحابه فى وسط عسكر الكفر فلما نظر ميسرة الى دامس أراد ان يترجل اليه فاقسم عليه ان لا يفعل وافترق الجيشان فضم ميسرة دامسا الى صدره وقبله بين عينيه وقال له كيف كان أمركم قال اعلم ايها الامير ان الروم كانوا قد تكاثروا على فرسى فقتلوه ووقعت فاخذونى اسيرا وجعلونى فى الحديد وفعلوا باصحابى مثلى وقد أيسنا من انفسنا فلما جن الليل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول لابأس عليك يا دامس اعلم ان منزلتى عند الله عظيمة ثم انه مر بيده الكريمة على الحديد

فسقط مني وفعل ذلك مع أصحابي وقال لنا ابشروا بنصر الله فانا نبيكم محمد رسول الله وقال لي اقرء على ميسرة السلام وقل له جزاك الله خيرا ثم غاب عني فانتبهت فوجدت الموكلون بنا نياما مما لحقهم من التعب وقد رموا اسلاحهم فاخذنا سيوفهم وطوارقهم وقتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلنا منهم من قتلنا وخرجنا من بينهم سالمين وحمدنا احدينا قال فضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير (قال الواقدي) رحمه الله ورضي عنه ان بطريق الروم كان اسمه جارس فلما رأى ما قد حل باصحابه قال وحق المسيح حاب مالك ثم جماته فان لم تقاتلوا بعزم وشدة والا قتلتكم قال فقالوا ان لا ينهزموا ويقتلوا عن آخرهم فلما وثق منهم أمر ان تضرم النيران على شواهق الجبال وامر ان ينفذ النفير الى البلاد باسرها قال وأتت اليه الروم من كل جانب فاتى اليه عشرون ألفا وان المسلمين لم يكترثوا لذلك فلما كان من الغد صلى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف وهو اول من صلاها داخل الدروب وأول راية دخلت كانت رايته فلما فرغ من صلاته قام في الناس خطيبا فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبيه وقال أيها الناس ابتلوا بما نزل بكم فالصبر عند نزول المصائب وهذه درجة من الله ادحض في صدور الاعداء وقد دارت بنا هذه الجيوش ونحن لا نقاتل الا بنصر الله لنا وان الامير ابا عبيدة كان قد أمرني ان لا ابعد بكم عنهم ولنا عنهم الآن سبعة أيام وما بطى أبو عبيدة انما لا في جيشا فقال له سعيد بن زيد ياميسرة ما الذي تريد بهذا الكلام ان كنت تريد انك تحرض فنحن اشوق الى لقاء الله من الظمآن الى الماء البارد فقال ميسرة ما أردت بذلك الا مشورتكم وقد رأيت ان ننفذ الى امير المسلمين رجلا نعلمه بما قد بلينا به وان مدد القوم يزيد فلعله يمدنا باخوانا فقال سعيد نعم ما قد اشرت به فدعا برجل من الاربعة المعاهدين ووعده بكل خير وأمره أن يأخذ معه آخر وان يسيرا الى أبي عبيدة ويعلمه ان نفير القوم قد لحقنا من الحصون والقرى وسائر البلاد وقد نزلوا بازائنا وان يحدثه بما قد رأى قال فسار المعاهدي والرجل الى حلب واجهدوا نفوسهم في السير من طرق يعرفونها الى ان وصل جيش المسلمين فسقطا كانهم البغال الهرمة من شدة السير والتعب فامروا ان يرش عليهم الماء فلما افاقا قال لهم ما وراءكما هلكت الكتيبة قال لا والله ولكن نفر عليهم العدو من كل مكان واخبراه بما كان من الحرب والقتال وحيث حطوا واحفران سيوفهم وكيف أسرابو الهول وكيف خلص وما هم فيه فقلق أبو عبيدة عند ذلك وقام مسرعا واتى قبة خالد ابن الوليد وهو وحده يصلح درعه فلما رآه قام اليه قائما وقال له خيرا أيها الامير فاخذ بيده وسار به الى ان اتى رحله وقال للرجلين قوما فحدثا الامير بما عاينتما فحدثاه بما كان

من أمر المسلمين فقال خالد ان الله سبحانه وتعالى منذ نصرنا ما خذلنا فله الحمد على ذلك وقد أمرنا بالصبر على الشدائد فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا وقال ان الله مع الصابرين وأما خالد فقد حبس على الجهاد في سبيل الله ولا يبخل على الله ورسوله ولعل الله ان ينجيني من النار ويرزقني الشهادة ثم أسرع الى خيمته ولبس لامته وقلنسوته المباركة وركب جواده فوقع النفير في الناس قال فاقبلوا من كل جانب فلولا ان منعهم أبو عبيدة كانوا ساروا باجمعهم فانتخب منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بالفين أخر أخبرنا احمد بن هشام عن عياض عمن حدثه قال لما سار خالد بالجيش الى معونة ميسرة بن مسروق ومن معه رفع خالد يديه الى السماء وقال اللهم اجعل لنا اليهم سبيلا واطو لنا البعيد ويسر لنا كل صعب شديد وسار نحو الدروب قال وأما ميسرة ومن معه فانهم دارت بهم الروم من كل جانب وهم يقاتلون في كل يوم أشد القتال الى ان يقبل الظلام فيفترقون وفي كل يوم يزيد عددهم ومددهم وقد لحق المسلمين من التعب والجراح ما لحقهم ولكن من غير فشل وكانهم قوم قد حجب عنهم الموت باذن الله تعالى (قال الواقدي) رحمه الله حدثنا عمر بن راشد عن الزبيدي قال لما سار خالد ليلحق ميسرة ويقصده الى داخل الدروب سجد أبو عبيدة سجدة اطال فيها وقال اللهم اني أسألك بمن جعلت اسمه مع اسمك وعرفت فضله لانبيائك ورسلك الا طويت لهم البعيد وسهلت لهم كل صعب شديد والحقهم باصحابهم يا قريب يا مجيب قال وميسرة ومن معه منتظرون فرجا من الله يأتيهم ونصرا ينزل عليهم قال عبد الله ابن الوليد الانصاري حدثني ثابت بن عجلان عن سليمان بن عامر الانصاري قال كنت مع ميسرة في وقعة مرج القبائل ويوم حطمنا غمدة السيوف والروم تقبل من كل جانب ومكان الى المسلمين ونحن نباكر القتال ونروح رواحا قال سليمان بن عامر فخرج يوما من الايام بطريق من الروم تدلبس درعين وعليه سواعد من الحديد وعلى رأسه بيضة تلمع فوقها صليب من الجوهر وبيده عامود من الحديد كانه دراع بعير فجال بين الصفوف وطلب البراز وكان أحد الثلاثة المقدمين على الثلاثين ألفا قال فجعل يدعو الى البراز ويطمطم فقال ميسرة للترجمان ما يقول هذا العلج قال انه يذكر انه فارس شديد ويطلب شجعانكم وابطالكم فقال ميسرة من يبرز اليه فاسرع اليه رجل من المسلمين من قبيلة النخع وعليه درع من دروع الروم وثياب من ثيابهم فقلنا انه من المتنصرة وقد عاد الى الاسلام فجعل العلج يتكلم وهو يظن انه يفهم كلامه فلما رآه لا يبرز اليه حمل عليه وضربه بعموده فزاغ النخعي عنها وعطفها عليه فوقع العمود على رأس جواده فانصرع الجواد براكبه وصار النخعي على قدميه فناداه ميسرة يا اخا النخع ارجع

فرجع القهقرى والعلج يطلبه وهو يريد يطلبه والفتى راجل والعلج فارس فسار اليه عبد الله بن حذافة السهمي وصاح بالعلج ادهشه فالتفت اليه وسار الفتى الى ان وصل عسكر المسلمين وحمل عبد الله بن حذافة على العلج وحمل العلج عليه ووهب بينهما المجال ومار عبد الله كلما ضرب العلج لا يقطع فيه شيأ والعلج كلما ضرب عبد الله يأخذها بحجفته فوهن ساعده من ثقل العمود وطال بينهما القتال والتقيا بضربتين فبادره عبد الله بالضربة تحت لحيته فطلب بها نحره فلحق رأس سيفه رقبة العلج فطار رأسه عن بدنه وأراد الفرس ان يرجع الى عسكر الروم فاخذه عبد الله ونزل اليه وأخذ سلبه ورجع الى المسلمين فعظم ذلك على الروم وكان عندهم معظما عند الملك قال فبرز بطريق آخر وقال هذا صاحب الملك قد قتل ولا بد لي من أخذ ثاره من الذي قتله اما قتله أو اسره وابعث به الى الملك يصنع به ما يريد ثم انه اتى الى عند البطريق المقتول ورأسه طائح عن بدنه فبكى عليه وقال بلسان فصيح معاشر العرب يوشك ان الله سيم لكم بغيكم علينا وفعالكم بنا فليبرز الي قاتل هذا البطريق حتى آخذ منه ثاره فلما سمع عبد الله بن حذافة هم بالخروج فمنعه ميسرة شفقة عليه لانه أراد راحته وانه قد تعب وأراد ميسرة ان يلقاه بنفسه فقال عبد الله يدعوني ايها الامير باسمي وانا خلف أفتي اذا العاجز فقال له ميسرة اني اشفق عليك فقال عبد الله اتشفق علي من تعب الدنيا ولا تشفق علي من حر النار وعيش عاش فيه رسول الله لا يبرز اليه غيري ثم برز اليه وتحته فرس المقتول وما غير من لامته شيأ وبيده سيفه وحجفته فلما التقيا ورأى البطريق فرس صاحبه علم انه قاتله فما امهله حتى نفر اليه وحمل على عبد الله كانه جبل وقد انهدم من علو وتشبث به وجذبه فاخذه اسيرا وذهب به الى قومه وقال اوثقوه بالحديد واحملوه على خيل البريد واذهبوا به الى الملك في هذه الساعة قال ففعلوا ذلك وساروا به ورجع البطريق الى الميدان وهو يفتخر بما صنع فاراد ثلاثة من المسلمين كل منهم يريد ان يخرج اليه فقال ميسرة ما يخرج لهذا اللعين غيري واستدعى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسلم الراية اليه وقال له كن للراية حافظا حتى اخرج الى هذا اللعين فان عدت اخذتها وان قتلني فاجري على الله فاخذ سعيد الراية وخرج ميسرة الى البطريق وهو يقول قد علم المهيمن الجبار ان قلبي قد كوى بالنار على الفتى القائم بالاسمار سيعلم العلج الاشرار انه منه آخذ بالثار قال وحمل عليه وتجاولا طويلا وعظم الأمر بينهما وتدانيا وتقاربا وتباعدا وغابا عن الابصار تحت الغبار وكل فرقة تنظر الى صاحبها وتدعو الله ثم انكشفا وهما للتفرق أقرب من التقارب فقال العلج لميسرة بحق دينك ما هذه الراية التي طلعت من وراء عسكركم فلم يلتفت الى

كلامه بل قال له وماذلك على الله بعزيز فقال وحق ديني ماقلت لك الاحقا قال وهو حلف كاذب فالتفتت ميسرة لحرمه ان يأتي الله بالفرج وينظر تحقيق ماقاله اللعين فحمل البطريق عليه ومكن يده منه ليأخذه اسيرا واذا قد طلعت راية خالد بن الوليد وهي مشرقة بالنور وهي في يد خالد بن الوليد وكبر المسلمون يدا واحدة من عظم تكبيرهم ارتجت يد العلج عن ميسرة والتفت البطريق ليرى كيف الخبر فقبض عليه ميسرة وهم ان يقلعه فلم يقدر لانه كان مرفلا في السرج فجعل يجذبه فلم يقدر وقرب خالد منهم فرفع سيفه يريد ان يضرب به يد ميسرة ليطلقه من يده فحاد الله السيف عن يد ميسرة ووقع على يد العلج الشمال نقطعها ونقع ميسرة وانثنى البطريق الى اصحابه ويده مقطوعة وهو يئن فالتقاه غلمانه فاخذوه وكروه وأما خالد فانه التقى بميسرة وتسالما وحدثه بما وقع له مع الروم وكيف اسروا عبدالله بن حذافة السهمي فتأسف خالد واسترجع وقال يؤثر مثل عبد الله بن حذافة والله لا نبارحهم خالدا ويخلصه ان شاء الله تعالى واقام خالد بقية ذلك اليوم فلما كان من الغد اتاهم من جيش الروم شيخ وعليه مندوح السواد حتى وقف بازائهم وأوما بالسجود فمنعه خالد وقال له ما الذى تريد قال ان كبير هذا القوم يريد صلحكم ويطلق اسيركم ويدفع لكم ماتريدون وترجعون فقال خالد ما نرجع الا على انفصال وأما الاسير اذا لم تطلقوه ماوعاطلقتموه كرها قال انت اميرهؤلاء قال نعم قال ارأيت ان تؤخر القتال بقية يومنا هذا وليلتنا فنفعل لتدبر بيننا وبينكم ويبرد جرح هذا البطريق ونجيبكم الى ماتريدون قال له اجبناكم الى ذلك فرجع الشيخ الى قومه وقال للبطريق تداهنوا وضعت الحرب اوزارها ونزل خالد والمسلمون بازائهم في اماكنهم واضرم الروم النيران وزادوا فيها وحملوا اثقالهم وساروا من اول الليل فلما كان من الغد ركب المسلمون فلم يجدوا للروم اثرا فعلموا انهم تدلوا الادبار فتأسف خالد على مافاته فاراد ان يتبعهم فمنعه ميسرة وقال له انها بلادهم وهي وعرة وان الصواب رجوعنا الى عسكر المسلمين قال فاخذوا ماتركه الروم ورجعوا منصورين ولكنهم حزينون على أسر عبدالله بن حذافة السهمي وساروا حتى أتوا حلب فالتقاهم أبو عبيدة وفرح بسلامتهم واقبل ميسرة يحدثه بما جرى لهم وكيف اسر عبد الله ابن حذافة فتأسف عليه وقال اللهم اجعل له من أمره فرجا ومخرجا وكتب الى عمر بن الخطاب يخبره بما وقع له من أمر السرية الى الدروب وما كان من المسلمين وأخبره باسر عبدالله بن حذافة وبعث الكتاب فلما وصل الى عمر بن الخطاب فرح بسلامة المسلمين واغتم على عبدالله بن حذافة واسره لانه كان يحبه حبا شديدا فقال وعيش رسول الله لاكتبن الى هرقل بانه يرسل عبد الله بن حذافة فان لم يفعل والاسرت اليه بالجيوش

والمسا كر ثم امر كتب بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولا صاحبة وصلى الله على نبيه محمد المؤيد من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين اما بعد فاذا وصل اليك كتابي هذا فابعث الي بالاسير الذي عندك وهو عبد الله بن حذافة فان فعلت ذلك رجوت لك الهداية وان ابيت بعثت اليك رجالا واي رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى ثم انه طوى الكتاب وبعث به الى ابي عبيدة وأمره ان ينفذه الى هرقل فلما وصل الكتاب الى هرقل قال لمن أين كتابك هذا قال من أمير المؤمنين امير العرب فقرأه فاذا هو من عند عمر بن الخطاب قال فدعا بعبد الله بن حذافة اليه قال عبد الله بن حذافة فدخلت عليه والتاج على رأسه والبطارقة حوله فلما وقفت بين يديه قال لي من انت قلت رجل من المسلمين من قريش قال انت من بيت نبيك قلت لا انا من بني عمه قال هل لك ان تتبع ديننا وازوجك ابنة بطريق من بطارقتي واجعلك من أخصائي فقلت لا والله الذي لا اله الا هو لا فارقت دين الاسلام أبدا وما جاء به محمد عليه السلام فقال احب الي دينا وانا اعطيك من المال كذا وكذا ومن الغلمان كذا وكذا ومن الجوار كذا وكذا قال عبد الله ادعى بسقط من الجوهر وقال اذا دخلت في ديني اعطيتك اياه فقلت لا والله لو اعطيتني ملكك وملك قومك ما فارقت دين الاسلام أبدا ولو أعطيتني كل ما تملكه فقال ادام ترجع الى ديني قتلتك اشر قتلة فقلت لست افعل ولو قطعتني قطعا ولو احرقتني بالنار لا رجعت عن ديني فاصنع ما انت صانع قال فغضب من كلامي وقال اسجد لهذا الصليب سجدة واخلي سبيلك فقلت لست افعل قال فكل من لحم الخنزير وانا اطلقك قلت ما شاء الله ما كنت بالذي افعل قال فاشرب من هذا الخمر شربة واحدة وانا اطلقك قلت لا والله لا اشرب أبدا قال وحق ديني لئن كان وتشربن غصبا ثم أمر بي فجعلني في بيت وجعل عندي من ذلك اللحم والخمر وقال اذا اضر به الجوع والظما اكل وشرب واغلقوا على الابواب قال حدثنا عامر بن سهل عن يوسف بن عمران عن سفيان بن خالد عن من يثق به ثم ان هرقل كان قد مات بعد هزيمته من انطاكية بايام قلائل مما دخل على قلبه من القهر ويقال انه مات مسلما والذي فعل ذلك بعبد الله بن حذافة ولده قسطيوس وكانوا لقبوه باسم أبيه هرقل قال فلما كان في اليوم الرابع طلب عبد الله بن حذافة وقال للغلمان ما فعل قالوا لم يأكل شيأ ولم يشرب وهو على حاله فقال له وزيره أيها الملك اعلم ان هذا الرجل شريف في قومه لا يرى الذل فكلما تفعله في هذا الرجل تفعله المسلمون اذا قبضوا على ملك منا قال فاستدعاه وقال له ما منعك بالحم قال هو على حاله فقال له ما منعك ان تأكل قال فرعا من

الله ورسوله وأيضا انه قد حل لي بعد ثلاثة ايام ولكن ما اردت ان تشمت بي الحاسدون قال وورد كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما قرأه اعطى لعبد الله مالا كثيرا وثيابا واعطاه لؤلؤا كثيرا هدية لعمر بن الخطاب وبعث معه خيلا الى أن اخرجوه من الدروب ووصل الى حلب الى المسلمين ففرحوا به ثم انه سار الى عمر بن الخطاب فلما رآه حمد الله شكرا وهناه بالسلامة وحدثه بما كان من هرقل وأخرج له اللؤلؤ فلما رآه عمر عرضه على التجار فقالت التجار له هذا ما يقوم ومن قد جاءك به فقالت الصحابة خذه اليك بارك الله لك فيه فقال لا اله الا الله محمد رسول الله اذا كنتم قد جعلتموني منه في حل فكيف اصنع بمن غاب من المسلمين ومن في بطون الامهات واصلاب الرجال من اولاد المهاجرين والانصار والمجاهدين في سبيل الله ولا طاقة لعمر بمطالبتهم يوم القيامة ثم باعه وجعل ثمنه في بيت المال حدثنا عمر بن سالم عن عبد الله بن غانم عن أبي بكر بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله قالوا جميعا انه لما فتح أبو عبيدة انطاكية صلحا وكان من أمر مرعية ميسرة بن مسروق ما ذكرناه واقام أبو عبيدة بحلب ينتظر ما يأتي اليه من عمرو بن العاص لما مضى الى قيسارية في خمسة آلاف من المسلمين فيهم عبادة بن الصامت وعمرو بن ربيعة وبلال بن حمامة وربيعة بن عامر

(ذكر فتح قيسارية الشام بساحل البحر)

قال سبيع بن ضمرة الحراني كنت مع عمرو بن العاص حين سار الى قيسارية قال فدخلنا قرية من قرى الشام وكان البرد شديدا ونظرنا الى كرومها ونظرت الى كرمة في دار من دور القرية وفيها عناقيد مدلاة اكبر ما يكون فأخذ نا منها واكلناه فبردنا ولحقنا البرد الشديد من شدة برد ذلك العنقود فقلت قبح الله هؤلاء الملاعين بلدهم بارد وعنبهم بارد وماءهم بارد وأنا اخاف الهلاك من شدة برد بلادهم قال فسمعني رجل من اهل البلد فاراد ان يتقرب الي قبلي لا راعيه فقال لي يا اخا العرب ان كنت تجد البرد من العنب فاشرب من مائه قال سبيع ثم انه دلنا على دن كبير فيه خمر فشربت انا وجماعة من عرب اليمن فسكرنا فجعلنا نتمايل سكرا فاخبر بذلك عمرو بن العاص فكتب الى أبي عبيدة يعلمه بذلك فكتب اليه أبو عبيدة اما بعد فمن شربها فحده عليها واقم حدود الله كما امر ولا تخش لومة لائم فلما وصل الكتاب الى عمرو دعا بسبيع ابن ضمرة وأصحابه فجلدهم بالسياط قال سبيع فلما ضربني عمرو واوجعني قلت والله لاقتلن العلج الذي دلنا على الخمر حتى شربناها واكلنا الحد فاخذت سيفي ودخلت القرية اطلب العلج فلما رأيته ووقعت عيني عليه اردت قتله فولى هاربا فتبعته وهو يقول ما ذنبي عندك فقلت انت دللتني على ما يغضب الله حتى اكلت الضرب

فقال والله ما علمت انه محرم عليكم قال فنادانى عبادة بن الصامت وقال يا سعيد اياك ان تقتله فانه تحت الذمة قال فتركته ومضى العلج واتى الى بيتين وجوز وزبيب وقدم كل ذلك اليك فانه بذلك قال فاكلته فوجدته طيبا فقلت الحمد لله ان هذا كان اول مرة قبل ان اضرب بالسياط (قال الواقدى) رحمه الله ثم ان عمرا ارتحل ونزل بموضع يقال له محل وبلغ الخبر لقسطنطين بن هرقل وكان قد اتوه المنهزمين من عسكر ابيه ولجؤا اليه واكمل جيشه فى ثمانين الف انه دعا برجل من المتنصرة وقال له احضر واخبرنى عسكر العرب واكشف لى اخبارهم فوصل اليهم ولحق الى قوم من اليمن وهم يصطلون حول النار فجلس بينهم يسمع حديثهم فلما اراد القيام عثر فى ذيله فقال باسم الصليب كلمة دلها الله على لسانه فلما سمعوا قوله علموا انه متنصر جاسوس للروم فوثبوا اليه وقتلوه ووقع الصائح فى العسكر فسمع عمرو الصيحة فقال ما الخبر قيل ان قوما من اليمن وقعوا بجاسوس من الروم وقتلوه قال فغضب عمرو وطلبهم وقال ما حملكم على قتل الجاسوس وهلا اتيتمونى به لاستخبره فكم من عين تكون علينا ثم انها ترجع فتكون لنا الان القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ثم انه نادى فى جيشه من وقع بغريب او جاسوس فليأت به الى قال وان قسطنطين استبطأ الجاسوس فعلم بقتله فارسل غيره فاشرف على القوم من فوق شرف عل وحزرهم وعاد اليه فاخبره انهم فى خمسة آلاف الا انهم كالاسود الضارية او كالعقبان الكاسرة يرون الموت مغنما والحياة مغرما فلما سمع ذلك قال وحق المسيح والقربان لابد لى من قتالهم فاما ان ابلغ المراد او اموت صبرا ثم انه جمع عسكره واختار منهم عشرة آلاف فارس شداد وولى عليهم بطريق اسمه بكلاكون وهو صاحب جيشه وقال سر بهؤلاء فانت طليعة جيشى فسار من ساعته ثم انه عقد صليبا آخر وسلمه الى دمشتق العسكر واسمه جرجس بن باكور وضم اليه عشرة آلاف وقال له الحق بصاحبك فسار فى اثره فلما كان فى اليوم الثانى خرج قسطنطين ببقية الجيش وترك ابن عمه قسطاس فى قيسارية يحفظها وترك عنده عشرة آلاف قال بشار بن عون فبينما نحن نازلون اذ اشرف علينا البطريق الاول فى عشرة آلاف فارس فلما قربوا منا رأيناهم فحزرناهم فاذاهم عشرة آلاف قال ففرحنا وقلنا نحن فى خمسة آلاف وعدونا فى عشرة الاف فكل رجل منا يقاتل اثنين فبينما نحن كذلك اذ اشرف علينا البطريق الثانى فى عشرة الاف فقال عمرو رضى الله عنه اعلموا ان من اراد الله واليوم الآخر فلا يرتاع من كثرة العدو ولو تزايد المدد فان الجهاد اربح متجرا واعز دار واى فخر اعلا عند الله ممن يقتل فى سبيل الله وصفوف الكفار ويكون حيا عند الله يرتع فى مروج الجنة وينال من الله مدايح النعمة

والمنة

والمنة فقد قال الله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الآية ولوان الجاسوس الذى قتلتموه لم تعجلوا عليه لاخبرنا بسير هذا الجيش الينا وكثرته وكنا قد اخذنا حذرنا على انفسنا بالاحوط ولكن أمر الله لا يرد ثم انه جمع ابطال الموحدين وقال قد رأيت ان ننفذ الى أبى عبيدة نعلمه ليمدنا بالخيل والرجال فان هذا جيش عظيم ثم قال أيها الناس من يركب ويسير الى الامير أبى عبيدة ويعلمه بما قد صرنا اليه فلعله ان يمدنا كما انجد يزيد بن أبى سفيان وهو محاصر قنسرين وأجره على الله فقال له ربيعة بن عامر يا عمرو التق بنا العدو وتوكل على الله فان الذى نصرنا فى مواطن كثيرة ونحن فى قلة ينصرنا اليوم على بقية القوم الكافرين قال فاقتنع عمرو بكلام عامر بن ربيعة وقال والله لقد صدقت وأمر الناس بالتأهب الى لقاء العدو فركب المسلمون ورفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير فأجابتهم الجبال والتلال والاوعار والاشجار والاحجار ومن هو فى تلك الارض من العمار وقالوا الهنا وما نحن نسمع اصواتا لك موحدة غير مشركة ولا الجحدة وقد أسمعتنا كلام التوحيد وارتنا وجوه اهل التمجيد والتحميد الهنا ما اطيب سماع ذكرك ومن انسا أن لا نوف بشكرك قال وضجت الوحوش والسباع الى مولاها شاكرة لما أعطاها واولاها ونادت عالم سرها ونجواها يا من جميع الوحوش راضية بما آتاها اخرج رزقها ومرعاها تغدو خماصا وتروح بطانا الى باب سيدها ومولاها يامن لو توارت دون تحت الارضين السبع لرآها ولو كانت فى منغاس الظلمات تحت اليم المظلم حية لرزق عبد لبلغه اياها الهنا انا سمعنا اصوات توحيدك فى هذه الارض وما كنا عهدناها ونسمع آيات ما كنا عرفناها ولا سمعناها سبحانك يامن قدرته لا ننساها ويامن احسانه وفضله لا نتناها قال فهتف بهم هاتف من الجو كم لله من مسبح فى الجبال وذراها وتحت تخوم الارض وثراها وفى فلوات البرارى المقفرات وفى قعور البحار الزاخرات ومياها قال فارتاع عسكر الكفار لما سمعوا فى الجو هذه الاصوات وكأنما الارض واقطارها واهلها تجاوبهم وكان قسطنطين قد أتى وسمع ذلك ونظر الى جيش العرب وقد زاد فى عينه اضعافا فقال وحق دينى لما اشرفت على القوم ما كانوا فى هذه الكثرة وما كانوا أكثر من خمسة الاف وقد زاد الآن عددهم وتزايد مددهم ولا شك ان الله قد امدهم بالملائكة ولقد كان أبى هرقل على بصيرة من امر هؤلاء العرب وليس جيش هذا باعظم من جيش هامان الارمنى لما القيهم باليرموك فى ألف ألف ولقد ندمت من خروجى اليهم ولكن سوف ادبر حيلة على هؤلاء العرب ثم انه دعا بقس عظيم القدر عند النصرانية وهو قس قيسارية وعالمها وقال له اركب الى هؤلاء القوم وكلهم

بالتي هي أحسن وقل لهم ان ابن الملك يسألكم ان تنفذوا اليه أفصحكم لسانا واجرؤكم
جنانا فابعثوا به ولا يكون من طغاة العرب قال فركب القس وعليه ثوب من الديباج
الاسود وعليه برنس من الشعر فركب بغلة شهباء واخذ بيده صليبا من الجوهر وسار
حتى وصل الى المسلمين فوقف بحيث يسمعون كلامه فقال يا معشر العرب ان رسول
اليكم من الملك قسطنطين بن هرقل يسألكم أن تنفذوا اليه أفصحكم لسانا واجرؤكم
جنانا وانه يريد صلحكم ولا يبغي قتالكم لانه عالم بدينه بصير باموره وليس يحب سفك
الدماء ولا فساد الصور فلا تبغوا علينا فالباغي مقهور والمبغي عليه منصور وقد قال
المسيح لا تقاتلوا الا من بغى عليكم وان الملك يريد أن تبعثوا اليه رجلا من أفصحكم لسانا
واجرؤكم جنانا ثم سكت قال فلما سمع عمرو كلامه قال أيها الناس قد سمعتم ما قاله هذا
الاقلف فمن منكم يبادر الى مرضات الله تعالى ورسوله وينظر ما يتكلم به مع كلب
الروم فتقدم اليه بلال بن حمامه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان غلاما
اسود طويلا من الرجال كأنه النخلة السحوق بصاص من السواد عيناه جمرتان
كأنهما العلق جوهري الصوت فقال يا عمرو أنا اسير اليه فقال يا بلال انك قد حملت
الحزن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيضا انك من جنس الحبش ولست من
العرب لان العرب لهم الكلام الجزل والخطاب والفصاحة فقال بلال بحق رسول الله
صلى الله عليه وسلم الا تركتني امضي اليه فقال عمرو لقد اقسمت على بعظيم اذهب
واستعن بالله ولا تهابه في الخطاب وافصح في الجواب وعظم شرائع الاسلام فقال
بلال ستجدني ان شاء الله حيث تريد قال فخرج بلال نحوهم وهو كالنخلة السحوق
عريض المنكبين كأنه من رجال شنوءة وكان من عظم خلقته اذا نظر اليه احد هابه
وكان لابسا يومئذ قميصا من كرابيس الشام وعلى رأسه عمامة من صوف متقلد بسيف
ومزوده على عاتقه وبيده عصا قال فلما برز بلال من عسكر المسلمين ونظر اليه القس
انكره وقال ان القوم قد هنا عليهم فانا دعوناهم نخاطبهم بعثوا الينا بعبيدهم لصغر قدرنا
عندهم ثم قال أيها العبد أبلغ مولاك وقل له ان الملك يريد اميرا منكم حتى يخاطبه بما يريد
فقال بلال أيها القس أنا بلال مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومؤذنه ولست
بعاجز عن جواب صاحبك فقال له القس قف مكانك حتى اعلم الملك بامرك وعاد القس
الى الملك وقال له أيها الملك انهم قد بعثوا بعبد من عبيدهم ليخاطبك وما ذاك الا استقلال
بامرنا عندهم وهو عبد اسود قال أيها العبد أبلغ مولاك وقل له ان الملك انما يريد اميرا
منكم حتى يخاطبه فقال له بلال أيها الرجل أنا بلال بن حمامة مولى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ولست بعاجز عن جواب صاحبكم فقال قسطنطين ارجع اليهم وقل لهم

بعث اليكم ملك النصرانية تبعثوا اليه بعبد من عندكم فرجع الترجمان الى بلال وقال له
يا اسود ان الملك يقول لك لسنا ممن نخاطب العبيد بل يأتينا صاحب جيشكم والمؤمر
عليكم فرجع بلال وهو منكسر واخبر عمرو بذلك فقال شرحبيل بن حسنة أنا امضى اليه
فقال شرحبيل يا عبدالله اذا مضيت أنت فعلى من تدع المسلمين فقال عمرو والله لطيف
بعباده وهو أرحم الراحمين بخلقه ولكن خذ الراية واخلفني في قومي فان غدر الروم فالله
الخليفة عليكم فوقف شرحبيل فى مقام عمرو واخذ الراية وخرج عمرو نحو القوم وعليه
درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء قد دارها
على رأسه كورا وارخى لها عذبة وفى وسطه منطقة وقد تقلد بسيفه واعتقل رمحه
وسار عمرو حتى وقف بازاء الترجمان الذى ارسله قسطنطين بن هرقل فلما رآه الترجمان
ضحك فقال ممن تضحك يا اخا النصرانية قال من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح
ما الذى تصنع به وتحمله معك وما تريد حربا فقال عمرو ان العرب حمل السلاح شعارهم
وهو وطاؤها ودثارها وانما حملت السلاح معى استظهارا ولعلى أن القى عدوا فيكون ذلك
حصنا من عدوى واحامى به عن نفسى قال الترجمان شيمتكم ايها العرب الغدر والمكر
فكن مطمئن الجانب ثم عطف الترجمان الى قسطنطين بن هرقل واخبره حين سمع مقالة
عمرو بن العاص وقال أيها الملك ان امير العرب قد قدم الينا وعليه من اللباس كذا
وكذا فتبسم الملك من قول القس وقال قل له يتقدم الينا قال فلما قدم اخذ الملك فى
التأهب لقدوم عمرو عليه وزين ملكه واوقف القسس عن يمينه وشماله والحجاب بين
يديه واقبل على الترجمان وقال له يا اخا العرب قد اذن لك الملك فسار عمرو على جواده
وعسكر قيسارية يتعجب منه ومن زيه الى أن وقف على قبة الملك ثم ترجل ومشت
الحجاب امامه حتى وقعت عينه على عين قسطنطين فادناه ورحب به وبش فى وجهه
وقال مرحبا بامير قومه واراد أن يجلسه على السرير فامتنع عمرو من ذلك وقال بساط الله
اطهر من بساطك لان الله تعالى جعل الارض بساطا واباحنا اياها فنحن فيها سواء
وما اريد أن اجلس الا على ما اباحه الله ثم جلس على الارض باركا وترك رمحه امامه
وسيفه على فخذه الايسر فقال له قسطنطين ما اسمك قال اسمى عمرو وأنا من العرب
الكرام أرباب الحزم المعظمين فى القول قال قسطنطين انك لفتى كريم من عرب
كرام يا عمرو ان كنت من العرب فنحن من الروم وبيننا قرابة وارحام متصلة ونحن
وانتم فى النسب متصلون ومن يكونوا متصلين فى النسب مالهم يسفك بعضهم بعضا
فقال عمرو ان انسابنا لاحقة من ابينا ونسبنا الاعلا هو دين الاسلام وأما اذا كان
اخوين فاختلفا فى الدين كان حلالا ان يقتل اخاه وقد انقطع النسب بيننا وقد ذكرت

أن نسبك لاحق بنا فكيف يكون نسبك ونسبنا واحد ونحن قريش الكرام وانتم بنو الروم قال ياعمرو أليس ابونا آدم ثم نوح ثم ابراهيم والعيص بن اسحاق واسحاق اخو اسماعيل كلاهما ولدا ابراهيم لايجب على الاخ أن يبغي على اخيه بل يجود عليه فقال انك لصادق في قولك الذي قلت وان العيص ونحن بنو أب واحد وابونا نحن اسماعيل صلوات الله عليه وان كان نوح عليه السلام قسم الارض شططا حين غضب على ولده حام واعلم ان اولاد حام لم يرضوا بها فاقتتلوا عليها زمانا وهذه الارض التي أنتم فيها ليست لكم وهي ارض العمالقة من قبلكم لان نوحا عليه السلام قسم الارض بين اولاده الثلاثة سام وحام ويافث واعطى ولده سام الشام وما حوله الى اليمن الى حضرموت الى غسان والعرب كلهم ولد سام قحطان وطسم وجرس وجرجيس وعملاق وهو ابو العمالقة حيث كانوا من البلاد وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام فهذه العرب العادية لان لسانهم الذي جبلوا عليه العربية واعطى لحام العرب والساحل واعطى يافث فيما بين المشرق والمغرب وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين ونريد ان نرد هذه القسمة فنأخذ ما في ايديكم من العمارة والانهار عوضا عما نحن فيه من الشوك والحجارة والبلد القفر فلما سمع قسطنطين كلام عمرو بن العاص علم انه رجل مكين فقال له صدقت في قولك الا ان القسمة قد جرت فان تنقضوها كنتم من الباغين علينا واعلم انه ما حملكم على ذلك واخرجكم من بلادكم الا الجهد العظيم قال له عمرو ايها الملك أما ما زعمت ان الجهد اخرجنا من بلادنا فنعم كنا نأكل خبز الشعير والذرة فلما رأينا طعامكم واستطعمناه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من ايديكم وتصيروا لنا عبيدا ونستظل تحت اصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة الاغصان الطيبة الثمار فان منعتم ونا عما دقنا من بلادكم من لذيذ العيش فاعندنا الارجال اشوق الى حربكم من حبكم الحياة لانهم يحبون القتال كما تحبون أنتم الحياة قال وافحم قسطنطين عن جوابه ورفع رأسه الى قومه وقال ان هذا العربي صادق في قوله وحق الكنايس والقربان والمسيح والصلبان مالنا معهم ثبات قال عمرو فوجدت الى وعظهم سبيل وقلت معاشر الروم ان الله عز وجل قد قرب عليكم ما كنتم تطلبون ان كنتم تريدون بلدكم فادخلوا في ديننا وصدقوا قولنا فان الدين عند الله الاسلام قال قسطنطين ياعمرو انا لانفارق ديننا وعليه مات اباؤنا واجدادنا قال عمرو فان كرهت الاسلام فاعطنا الجزية منك ومن قومك وانتم صاغرون قال قسطنطين لا اجيبك الى ذلك لان الروم لا تطاوعني الى اداء الجزية ولقد قال لهم ابي من قبل فارادوا قتله وقال هذا ما عندي من الاعذار ولقد حذرتكم ما استطعت ولم يبق بيننا حكم الا السيف والله يعلم

انى دعوتكم الى امر فيه العناد فعصيتم عنه كما عصى ابوكم عيص عن امه فخرج من الرحم قبل اخيه يعقوب وانتم تزعمون انكم منا اقرب فى النسب وانا ابرآء الى الله عز وجل منكم ومن قرابتكم اذ انتم تكفرون بالرحيم انتم من ولد عيص بن اسحاق ونحن من ولد اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام وان الله تعالى اختار لنبينا الانساب من لدن آدم الى ان اخرج من صلب ابيه عبد الله فجعل خير الناس من ولد اسماعيل فتكلم بالعربية وتكلم اسحاق على لسان ابيه فولد اسماعيل العرب ثم جعل خير الناس كنانة ثم جعل خير العرب قريش ثم جعل خير قريش بنى هاشم ثم جعل خير بنى هاشم بنى عبد المطلب وخير بنى عبد المطلب نبينا صلى الله عليه وسلم فبعثه رسولا واتخذه نبيا واهبط عليه جبريل بالوحى وقال له طفت مشارق الارض ومغاربها فلم أر افضل منك قال فخضعت جوارح القوم حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجلت قلوبهم ودخلت الهيبة فى قلب قسطنطين حين سمع كلام عمرو فقال له صدقت فى قولك كذلك الانبياء تبعث من خير بيوت قومها على لسان رهبانهم قال له يا عمرو وهل فى اصحابك رجل بين كلامه سريع الجواب اذا سئل فقال له اعلم انى والله أحب ان امضى واتيك بهم لتقف على صحة قولى ثم وثب وسار الى عسكره وركب واتى جيشه فحمد الله المسلمون على سلامته وباتوا يتحرسون فلما صلى عمرو بالناس صلاة الفجر امرهم بالركوب الى قتال عدوهم قال فاسرعوا الى ذلك واستقروا على متون خيولهم واصطفوا للحرب والقتال (قال الواقدى) رحمه الله حدثنا عروة بن زيد عن موسى مولى الحضرميين عن موسى ابن عمران وابن صباح قال لما كان يوم الحرب صف قسطنطين جيشه ثلاثة صفوف وقدم الماشية وعدل الميمنة والميسرة ورفع الصليب امامه وتقدم امام الجيش فنظر عمرو الى قسطنطين وقد رتب عساكره وعزم على الحرب فعبىء المسلمين وصفهم صفا واحدا وجعل فى الميمنة الحماة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم شرحبيل بن حسنة كاتب الوحى وصابوب ابن جبابة الليثى عن شماله وكان احد فرسان المسلمين فبينما الناس كذلك اذ خرج فارس من الروم وعليه ديباج ودرع وجوشن وفى عنقه صليب من الذهب فجعل حتى خطى برمحه من الميمنة الى الميسرة ومن الميسرة الى الميمنة ثم الى القلب ثم وقف بازاء جيش المسلمين وركز رمحه بازائه وأخذ القوس بيده وفوق سهما ورمى رجلا من الميمنة فاثبت السهم فيه فجرحه ورمى آخر من الميسرة فقتله فنظر اليه عمرو وما قد صنع فصاح بالمسلمين الا ترون الى هذا العلج اللعين وما صنع بقوسه فمن يكفينا أمره ويزيل عن المسلمين شره فخرج اليه رجل من ثقيف وعليه بردة دنسة وبيده قوس عربية قد فوق سهما وخرج الى العلج يريده فنظر اليه العلج وليس عليه شىء من الحديد

يستره الامروة دنسة وما معه من السلاح غير القوس فاردرى به ويلبسه وأطلق سهما من كبد قوسه فوقع سهمه فى صدره فاشتبك فى المروة ووقع غير صائب وكان اللعين ارمى أهل زمانه مارمى قط شيأ الا نفذ فيه فعصب لذلك وهم ان يرميه بسهم ثان وامتعطه الثقفى بنبلة ورمى بها نحوه فلم يرها لصغرها وخفى موقعها فاشتبكت النبلة فى حلق العلج فخرجت من قفاه فما تمالك العلج الا ان وقع صريعا فاسرع الثقفى الى جواده فاخذه واستوى فى متنه ونزع بيضة المشرك عن رأسه وجعل يهدبه نحو جيش المسلمين فاستقبله ابن عم له وكلمه فلم يجبه من فرحه بما صنع ثم اقبل الى عمر و فاعطاه اياه فنظرت الروم الى فعل الثقفى فاغاظهم ذلك وجعلوا يشيرون الى السماء فعلمنا انهم يقولون ان الملائكة تنصرنا قال ونظر قسطنطين الى ذلك فعظم عليه وقال لبعض البطارقة أخرج الى هؤلاء العرب وحام عن دينك فخرج البطريق وعليه ديباجة خضراء ودرع حصين ومن تحت الدرع جوسن منيع وفى عنقه صليب من الذهب الاحمر ومعه غلام من ورائه يجنب جنيبة وعليه سيفه ودرقته فخرج حتى وقف بين الصفين فجعل يسأل القتال فلما نظر المسلمون اليه اقبلوا اليه يبادرون ولا يخرج اليه أحد فقال عمرو معاشر العرب من يخرج اليه ويهب نفسه لله عز وجل فخرج اليه رجل من العرب وهو يقول انا اكون ذلك فقال عمرو بارك الله فيما تريد وحل صاحب المسلمين عندما خرج معجبا واستقبله البطريق وجعلا يتجاولان ساعة وهما يتعانقان بالسيوف الى ان حققت لهما ضربتان وسبقه البطريق بالضربة فأخذها الرجل بالدرقة فقدها نصفين وكانت جلد بعير بطانان واحد فلم يصل اليه من الضربة شيء وضربه الرجل ضربة فى أثر هامة طعنت البيضة وهتكها فوقر البطريق الى ورائه ولم يصل اليه ادى فلما رجعت اليه روحه حمل على المسلم وضربه فجرحه جرحا فاحشا فالوى الى أصحابه فصاح به رجل من العرب من وهب نفسه يرجع من بين يدى عدوه فقال الرجل أما كفاك هذه الضربة حتى توبخنى ان الله لا يلومنى بأن ألقى بيدى الى التهلكة ثم شد جراحه وعظم عليه ما قال ابن عمه فلما خرج قال له ابن عمه الذى خاطبه ارجع فخذ هذه البيضة واجعلها على رأسك فقال ثقتى بالله أعظم من حديدك ثم دنا نحو البطريق وهو يقول شعر

يقول لى عند الخروج للقا * دونك هذا الترس فاجعله وقا
من علج سوء قد دنى وقد طغى * أقسمت بالله يمينا صادقا
لا تركن البيض فرق المرتقا * وأدخل الجنة دار المتقا

قال فدعا له المسلمون بالنصر وقالوا اللهم اعطه ما تمنى وحمل على البطريق وضربه ضربة

هامته فوقعت على عاتقه خرجت من علائقه ثم حمل فى جيش الروم فقتل رجالا وجندل ابطالا ولم يزل كذلك حتى قتل رحمه الله فقال عمرو هذا رجل اشترى الجنة من الله بنفسه اللهم اعطه ما تمنى (قال الواقدى) رحمه الله تعالى وكان هرقل حين بعث ولده قسطنطين الى قسارية بعث معه بطريقا من البطارقة وكان اسمه قيدمون وكان من أفرس الروم ويقال انه خال قسطنطين وقد كان لقى عسكر الفرس وعسكر الترك وعسكر الجرامقة قال وكان اللعين يحفظ سائر اللغات فقال لقسطنطين لا بد لى من قتال العرب قال وخرج وعليه لامة وخرج مبارزا فلما رآه المسلمون قد خرج وكانه جبل قد انهد من اعلاه الى اسفله وهو يلمع من بريق الجوهر فضج المسلمون بقول لا اله الا الله فلما وقف فى الميدان اقبل يطمطم بلغته ويطلب البراز فاقبلت العرب يهرعون اليه من كل جانب ومكان يريدون قتاله لاجل ما عليه فقال عمرو ثواب الله خير لكم مما عليه فلا يخرج لطلب سلبه فيكون خروجه لاجل ذلك وان قتل مات فى سبيل ما خرج اليه وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه قال فخرج غلام من اليمن ومعه أمه وأخته يريدون الشام واخته تقول له يا ابن امى جد بنا فى السير لنصل الى الشام فنأكل من خيره ونعمه فقال لها أخوها انما اذهب اقاتل لمرضات الله عز وجل وقد سمعت معاذ بن جبل يقول ان الشهداء عند ربهم يرزقون فقالت له أخته كيف يرزقون وهم أموات قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى يجعل أرواحهم فى حواصل طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها فتغدو وأرواحهم فى حواصل تلك الطيور فهو الرزق الذى جعله الله لهم فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام الى القتال بعد ان ودع امه واخته وداع الموت وقال لهم نجتمع على حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج وبيده قناة وهى موصلة كثيرة العقد وتحته جواد هجين فلما خرج الغلام حمل على البطريق من ساعته وطعنه بسنانه قال فاشتبك السنان فى درع البطريق فلم يقدر على اقتلاعه فضرب البطريق قناة الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام وضربه على هامته فشطرها فوقع الغلام ميتا رحمه الله وجال قيدمون على مصرعه ثم طلب البراز فخرج اليه ابن قثم فقتله البطريق فلما نظر الى ذلك شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه اقبل يعاتب نفسه ويقول تتفرجين على قتل المسلمين ثم خرج والراية بيده التى عقدها له أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم خروجه الى الشام فلما رآه عمرو وقد عول على

الطروح قال يا عبد الله اركز الراية اثلا تبعك قال فركزها شرحبيل فوقفت كالنخلة وغاصت في حجر كانها منه فتفأل بالنصر وخرج الى لقاء قيدمون والمسلمون يدعون له بالنصر على عدوه فلما رآه البطريق ضحك من زبه وكان للملعون صوت عال وضخم من الرجال وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام بالليل والبطريق في ميدانه فحمل كل واحد منهما على صاحبه واختلفا بضربتين وكان السابق شرحبيل فلم يعمل السيف في لامة البطريق شيأ وثبت السيف في يمينه وحمل قيدمون على شرحبيل فشمه ثم تواخذا على الجوادين قال سعيد بن روح وكان ذلك اليوم كثير البرد والسحاب فبينماهما في المعاركة اذ نزل المطر كافواه القرب قال فنزلا عن الجوادين وجعلا يتصارعان في وسط الطين وذلك ان قيدمون حمل على شرحبيل فضرب بيده في مراق بطنه فاقتلعه من الارض ورمى به على ظهره ثم استوى على صدره وهم ان ينحره فنادى شرحبيل يا غياث المستغيثين فما استتم كلامه حتى خرج فارس من الروم وعليه لامة مذهبة ومن تحته جواد من عتاق الخيل فقصد موضع البطريق وشرحبيل فظن قيدمون انما خرج ليعطيه جواده ويعينه فلما قرب منهما ترجل ومال على البطريق برجله عن صدر شرحبيل وقال يا عبد الله قد أتاك الغوث من غياث المستغيثين فوثب شرحبيل قائما ينظر اليه متعجبا من قوله وفعله وكان الفارس متلثما ثم جرد سيفه وضرب البطريق ضربة قطع رأسه وقال يا عبد الله خذ سلبه فقال شرحبيل والله ما رأيت أعجب من أمرك واني رأيتك جئت من عسكر الروم فقال أنا الشقي المبعود أنا طلحة بن خويلد الذي ادعيت النبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبت على الله وزعمت ان الوحي كان ينزل علي من السماء فقلت له يا أخي ان رحمة الله قريب من المحسنين وقد وسعت رحمته كل شيء ومن تاب واقلع وأناب قبل الله توبته وغفر له ما كان منه والنبي صلى الله عليه وسلم يقول التوبة تمحوا ما قبلها اما علمت يا ابن خويلد ان الله سبحانه لما أنزل على نبيه ورحمتي وسعت كل شيء طمع فيها كل شيء حتى ابليس فلما نزل قوله فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة قالت اليهود نحن نؤتي الزكاة ونتصدق فلما نزل قوله تعالى والذين هم بآياتنا يؤمنون قالت اليهود نحن نؤمن بما أنزل الله في الصحف والتوراة فاراد الله ان يعلم انها خاصة بامة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله الذين يتبعون الرسول النبي الامي فقال طلحة بن خويلد مالي وجه ارجع الى الاسلام وهم أن يسير على وجهه فمنعه شرحبيل وقال له يا طلحة لست ادعك تمضي او ترجع معي الى العسكر قال ما يمنعني من المسير معك الا الفظ الغليظ خالد بن الوليد واني أخاف ان يقتلني فقلت يا أخي انه ليس معنا وهذا الجيش لعمرو بن العاص قال

فرجع معي فلما قربنا من المسلمين تبادروا الينا وقالوا يا شرحبيل ماهذا الرجل الذى معك فلقد صنع معك جميلا قال ولم يعرفوه لانه كان متلثما بفاضل عمامته فقلت هذا طلحة ابن خويلد الذى ادعى النبوة فقالوا اوتاب ورجع الى الله فقال أنا تائب الى الله سبحانه وتعالى قال شرحبيل فاتيت به الى عمرو بن العاص فسلم عليه وبش فى وجهه ورحب به قال حدثنا حسان بن عمرو الربعى عن جده ان طلحة بن خويلد لما ادعى النبوة وجرى له ماجرى من الحرب مع خالد بن الوليد رضى الله عنه وسمع ان خالدا قتل مسيلمة الكذاب وقتل الاسود العنسى أيضا لانه قال انه نبى فخاف طلحة على نفسه من خالد فهرب بالليل ومعه زوجته بالشام واستجار برجل من آل كلب فاجاره الكلبى وأنزله فى داره وكان الكلبى مؤمنا وبقى عنده مدة ايام الى ان استخبره عن خالد فحدثه طلحة بجميع احواله مع خالد بن الوليد ووقائعه معه وكيف ادعى النبوة فغضب الكلبى لكلامه وطرده من جواره فاقام طلحة بالشام قد تاب من أمره فلما بلغه أن ابا بكر الصديق رضى الله عنه قد قبض قال ذهب من جردت السيف فى وجهه فمن ولى بعده قالوا عمر ابن الخطاب قال الفظ الغليظ وهاب ان يمضى اليه وفزع من خالد بن الوليد ان يراه بالشام فيقتله فقصد قيسارية ليركب فى المراكب ويطرح نفسه فى بعض جزائر البحر فلما نظر الى جيش قسطنطين قد خرج الى قتال العرب قال أسير مع هذا الجيش فلعلى انكب نكبة واغسل بها شيأ من أوزارى وتكون لى قربة الى الله تعالى والى المسلمين فلما نظر شرحبيل فى عين الهلكة قال لاصبر لى عنه فخرج واستنقذه كما ذكرناه فلما وقف بين يدى عمرو بن العاص شكره وبشره بقبول التوبة فقال ياعمرو وانى أخاف من خالد بن الوليد ان يرانى بالشام فيقتلنى فقال عمرو فانى أشير اليك بشئ تصنعه وتأمن به على نفسك فى الدنيا والآخرة قال وماهو قال اكتب معك كتابا بما صنعت وشهادة المسلمين فيه وتنطلق به الى عمر بن الخطاب وتدفعه اليه واظهر التوبة فانه يقبلها وسيندبك الى الفتوح وقتال الروم فتمحوا عنك ماسلف من خطاياك فأجابه طلحة الى ذلك فكتب له عمرو كتابا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بما صنع وأخذه طلحة ومضى به الى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجد عمر فى المدينة وقيل له هو بمكة فمضى حتى وردها فوجد عمر متعلقا باستار الكعبة فتعلق معه وقال ياأمير المؤمنين انى تائب الى الله عز وجل وحق رب هذا البيت مما كان منى قال عمر من أنت قال أنا طلحة بن خويلد قال فنفر عمر عنه وقال ياويلك ان أنا عفوت عنك فكيف الامر غدا بين يدى الله عز وجل بدم عكاشة بن محصن الاسدى قال طلحة ياأمير المؤمنين عكاشة رجل أسعده الله على يدى وشقيت انا بسببه وأرجو أن

يغفر الله بما عاينه قال عمرو وما عملت فاخرج له كتاب عمرو بن العاص فلما قرأه عمرو فهم ما فيه فرح به وقال أبشر فان الله غفور رحيم وأمره عمر أن يقيم بمكة حتى يرجع الى المدينة فاقام معه اياما ولما رجع عمر الى المدينة وجه به الى قتال أهل فارس (قال الواقدى) رحمه الله رجعنا الى الحديث قال لما قتل البطريق قيدمون على يد طلحة ونجى شرحبيل مما كان قد لحقه ورجع الى عمرو وكان المطر شديدا فقطع الناس القتال ولحق الناس الاذى لانهم أكثرهم بلا أخبية ولا بيوت والتجؤا الى الجابية وتستروا بدورها وكان من رحمة الله بالمسلمين وقع فى قلب قسطنطين الفزع والرعب لما قتل قيدمون البطريق وكان ركنه ودعامته فتشاوروا أصحابه فى الرجوع الى قيسارية وقال يا معشر الروم أنتم تعلمون ان جيوش اليرموك ما ثبتت لهؤلاء العرب وان ابى قد ولى الى القسطنطينية من خوفهم وقد ملكوا الشام جميعه وما بقى غير هذا الساحل وانى اخاف أن ندهما من قبلهم ويملكون قيسارية والرحيل أوفق من المقام فاهما جابوه الى ذلك فلما كان الليل ارتحل القوم والمطر يهل قال سعيد بن جابر الاوسى وكان ذلك كله رحمة للمسلمين من الله عز وجل قال فلما كان فى اليوم الرابع ارتفع المطر وخرجت الشمس فخرجنا من الجابية نطلب قتال الروم فلم نر لهم أثرا فوالله لقد فرحنا بطلوع الشمس اكثر من فرحنا برحيل الروم فكتب عمرو بذلك الى أبى عبيدة كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص السهمى الى امير جيوش المسلمين أبى عبيدة بن الجراح سلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فان قسطنطين بن هرقل قد خرج الى لقائنا فى ثمانين الفا من الروم وكان لقاؤنا معهم على موضع يقال له فحل وأخذ شرحبيل بن حسنة وكان الذى ملك امره قيدمون بن خالة هرقل ثم خلصه الله على يد طلحة بن خويلد الاسدى وقتل قيدمون ابن خالة هرقل ثم وجهته بكتاب الى عمر بن الخطاب وقد انهزم عدو الله قسطنطين وانا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته وبعث الكتاب مع جابر ابن سعيد الحضرمى فلما قرأ ابو عبيدة الكتاب فرح بسلامة المسلمين وسير الجواب وقال اذا قرأت كتابى فانزل على قيسارية وانا فى اثر الكتاب معول على السير الى صور وعكة وطرابلس والسلام ثم سلم الكتاب الى جابر بن سعيد وامره بالرجوع

(ذكر فتح صور وعكة وطرابلس الشام وقيسارية)

قال وعول ابو عبيدة على النهوض الى الساحل فقام اليه عبد الله يوقنا وقال أيها الامير

علم ان الله عزوجل قد أباد المشركين ورفع علم الموحدين وانى اريد أن اسير قبالك الى الساحل لعلى افوز من القوم بغزوة فقال يا عبد الله ان انت فعلت شيأ يقربك الى الله ويجده بين يديك فافعل فوثب يوقنا قائما واخذ اصحابه وكان قد انضاف اليه من كان يخدمه بحلب وكلهم رجعوا الى الاسلام وكانوا اربعة الاف وفي عسكر العرب ايضا ممن اسلم من البطارقة ما يزيدون عن ثلاثة الاف فارس (قال الواقدى) رحمه الله تعالى ولما انهزم قسطنطين الى قيسارية وتحصن بها بعث الى اهل طرابلس أن يبعثوا اليه نجدة فبعثوا اليه بثلاثة آلاف فارس من البطارقة المعدة وعليهم وال يقال له جرفاس قال وسار وايطلبون قيسارية فلما كانوا بالقرب منها نزلوا فى مرج ليعلفوا على خيولهم فبينما هم كذلك اذا اشرف عليهم يوقنا واصحابه وكان قد صحبهم فلنطانوس صاحب رومية واصحابه وكانوا معولين على زيارة بيت المقدس والمقام بها فلما اشرفوا على المرج وهم بزيهم ما غيروا منه شيأ فلما رآهم جرفاس ركب بنفسه يختبر حالهم فلما اقرب منهم سلم عليهم ورحب بهم وقال من انتم قالوا نحن الذين لجأنا الى هؤلاء العرب واستكفينا شرهم وظننا انهم على شئ فاذا هم طغاة لادين لهم فهربنا بديننا ونحن اصحاب حلب وقنسرين واعزاز ودارم وانطاكية ونحن قاصدين الى الملك هرقل لنكون فى جنابه فلما سمع جرفاس من القوم ذلك فرح بهم وأنس لكلامهم وقالوا انزلوا عندنا كى تستريحوا ساعة من التعب فلا شك انكم سرتم الليل والنهار وخافت انفسكم من العرب قال يوقنا أين انتم سائرون قالوا ابعث الينا قسطنطين لنكون فى طرابلس فقال يوقنا تيقظوا لانفسكم فان امير العرب ابو عبيدة تركناه على نية القدوم الى الساحل فقال جرفاس وما الذى ينفع حذرنا ودولتنا قد اضمحلت وايامنا قد ولت ولسنا نرى الصليب يغنى عن اهله شيأ (قال الواقدى) فنزلوا عندهم ساعة وقدموا لهم من ازوادهم فأكلوا ثم ركبوا واوهم جرفاس ان يركب لوكبهم فقال يوقنا اشتغل باصحابك والبسهم افخر ثيابهم فان ذلك مما يظهر الرعب فى قلوب اعدائكم (قال الواقدى) رحمه الله حدثنى سليم بن عامر عن نوفل بن عبد الله عن جرير بن البكاء وكان اعرف الناس بفتوح الشام قال ما دخل يوقنا الى ساحل البحر حتى أتقن الحيلة وذلك انه قد نزل فيه الحارث بن سليم من بنى عمه يرعون ابلهم وكانوا فى مائتى بيت من العرب فغار عليهم يوقنا واخذهم وشدهم كتافا ودخل بهم الى بلاد الساحل فلما جن الليل جمعهم اليه وقال لا تظنوا أنى رجعت عن الاسلام وانما فعلت بكم هذا كى تسمع الروم بسواحلها انى غدرت بالعرب واخذتهم قال فاطمأن العرب الى كلامه وقالوا ان كنت تريد اقامة دين الله فالله ينصرك والاعداء يظفرك قال ووكل يوقنا رجالا

تسوق الاموال واثما اطمأن جرفاس واصحابه الى يوقنا لما رأى الاسرى من العرب والجمال والانعام فلما ركب يوقنا واصحابه ورأى انهم طالبون لساحل البحر ونكب عن طريق طرابلس وكمن فى الليل على طريق القوم قال وان جرفاس فرق خزائنه التى كانت عنده على اصحابه وقعد حتى جن الليل فأكلت الخيل عليقها ثم ركبوا واستقاموا على الطريق فلما توسطوا اطبق عليهم يوقنا واصحابه وداروا بهم ولم يعلوهم بالقتل واخذوهم اخذا بالكف وانتشرت الخيل فى تلك الارض لئلا يكون قد انفلت من الروم احد فلما حصلوا فى قبضتهم وتحت اسرهم ارادوا ان يطلقوا الحارث بن سليم واصحابه فقال الحارث انى أرى من الرأى ان تتركونا على حالنا فان ثواب الله قد حصل وصحبوا بنا بلاد العدو فانكم ما تشرفون على بلد من بلاد الساحل الا فتحه الله لكم قال يوقنا هذا رأى صحيح ثم أمر اصحابه ان يستوثقوا من الاسرى وكمن الفين من اصحابه واصحاب فلنطانوس مع الاسرى وهم ثلاثة آلاف فارس وقال اذا جاءكم رسلى فاقدموا ثم البس اصحابه زى الروم مثل اصحاب قيسارية الذى اخذوهم وسار واتوا طرابلس فلما خرج كل من فى البلد الى لقائهم وكان كتاب قسطنطين قد وصل اليهم انى قد بعثت اليكم بثلاثة آلاف فارس مع جرفاس بن صليبا ودخل يوقنا مع اصحابه حتى استقر قراره فى دار الامارة ودخل عليه شيوخ طرابلس والبطارقة واهل الحشمة منهم فلما حصلوا عنده امرهم وقبض عليهم وقال يا اهل طرابلس ان الله سبحانه قد نصر الاسلام واهله وقد كنا فى غش مظلم نسجد للصلبان ونعظم الصور والقربان ونجعل لله زوجة وولدا حتى بعث الله لنا هؤلاء العرب فهدانا بهم والحقنا ببركة نبيهم صلى الله عليه وسلم وهو النبى المبعوث الذى ذكره فى التوراة وبشر به عيسى المسيح وان الاسلام حق وقوله الصدق يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينطقون بالحق ويتبعون الصدق ويوحدون الله وينزهونه عن الصاحبة والولد ويجاهدون فى سبيله وهو الذى أمر به انبياءه ورسله فاما ان ترجعوا الى دين الاسلام اوتؤدوا الجزية والا بعثتكم عبيدا للعرب وهذا ما عندى والسلام قال فلما سمعوا كلامه علموا ان يوقنا احتال عليهم وأخذ اصحاب الملك فى الطريق فقالوا أيها السيد نحن نفعل ما أمرتنا به فنهم من اسلم ومنهم من رضى بالجزية وعدل يوقنا فيهم وبعث الى اصحاب الكمين فعملوا الاسرى فعرض عليهم الاسلام فابوا فامر بحبسهم وبعث الى أبى عبيدة بالخبر وما جرى له وبعث الكتاب مع الحارث بن سليم من وادى بنى الاحمر وقال يا عبد الله كن للامير مبشرا بهذا الفتح قال سافعل ذلك ان شاء الله تعالى وسار بالكتاب حتى وصل الى أبى عبيدة وسلم عليه

وناوله

وناوله الكتاب فلما قرأه وعلم معناه فرح وقال للحارث بن سليم ألم تأذن لي ان تسير انت ومن معك الى وادي بني الاحمر فمن وصلك الى طرابلس قال اوصلني القضاء والقدر وذلك ان يوقنا غار علينا وأخذنا اسرى وحدثنا بحديثهم فعجب من ذلك أبو عبيدة وقال اللهم ثبتهم وايدهم بنصرك قال حدثني عامر بن اوس قال اخبرني بن سالم قال حدثني موسى بن مالك قال ان عمرو بن العاص لما ارتفع المطر رحل من الجابية ونزل على أبواب قيسارية واما ما كان من أمر يوقنا فانه لما ملك طرابلس واحتوى عليها واستوثق من سورها وأبوابها ترك اصحابه على الابواب وقال لا تدعوا احدا يخرج من الابواب وكان في المرسى مراكب كثيرة فرفع آلاتها واخذها كل ذلك ولا يعلم أحد من أهل الساحل بما صنع قال وبعد ايام جاءت مراكب كثيرة زهاء عن خمسين مركبا فاتركهم يوقنا حتى نزل اكثرهم الى المدينة فامرهم فأتوا به اليه فاستخبرهم عن حالهم وقال من اين جئتم قالوا جئنا من جزيرة قبرص ومن جزيرة اقريطس وقالوا معنا العدد والسلاح مضروبة للملك قسطنطين فأوراهم الفرح والسرور وسلم عليهم وقال اني اريد ان اسير معكم ثم امرهم الى دار الضيافة وبعث الى قياد المراكب فأنزلهم وقدم لهم السماط فلما اكلوا قال اني اريد ان اسير معكم الزاد والعلوفة وعدد السلاح الى خدمة الملك ولكن تقيموا عندي ثلاثة ايام فقالوا انها البطريق انا على عجل من امرنا ونخاف من لوم الملك ولسنا نقدر على ذلك ولم يزل بهم حتى القواله فقال اريد تنزلوا الشراعات والمقاذيف فتكونوا في المدينة ليطمئن قلبي بذلك ففعلوا والصقوا المراكب بالصور ونزل كل من في المراكب وما بقي في المراكب الا ثلاثة رجال المادبر هذا التدبير قبض على الجميع فلما كان من الليل سلم طرابلس لابن عمه وللحارث ابن سليم وقلنطانوس وعمر المراكب برجاله وهم بالصعود اليها واذا عند غروب الشمس قد اقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه في ألف فارس من أصحابه فلما رآهم يوقنا سجد لله شكرا وسلم على خالد ابن الوليد وسلم له المدينة وحدثه بما جرى له وما قد عزم اليه فقال نصرك الله وايدك ثم ان يوقنا ركب من ليلته وسار على صور وكان على صور دمشتق جيش قسطنطين وهو ادويل بن نشطة ومعه اربعة آلاف فما اصبح يوقنا الا وهو في مدينة صور وامر بالبوقات فضربت والرايات فنشرت ووقف الدمشتق يختبر خبرهم فعاد صاحب البحر اليه فقال هؤلاء اهل قبرص وجزيرة اقريطس قد اقبلوا بالعلوفات والطعام والعدد يريدون قيسارية في خدمة الملك ففرح اهل صور بذلك وأمرهم بالنزول فنزل يوقنا وأصحابه وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل وكان قد استخلصهم لنفسه فصنع لهم الدمشتق طعاما ومد لهم سماطا عظيما واحضر لقوادهم الخلع ويوقنا ينتظر الليل حتى

يثور باصحابه وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل كاذ كرنا وترك الباقين فى المراكب وقال ان لم يتم لنا ما نريد ولم نظفر بهم فلا تبرحوا من مراكبهم وانفذ الى خالد واخبره بالقصة (قال الواقدى) رحمه الله ما سمع باعجب من هذه القصة ولقد حدثنى بن مزاحم عن الارقط بن عامر عن عمار بن ياسر الربعى قال لما حصل يوقنا والتسعمائة بمدينة صور وراكانوا سماط الملك وخلع على كبرائهم أقبل اليهم فى السر رجل من بنى عم يوقنا ممن تمكنت الضلالة فى قلبه واحتوى التكفر على اقاليم جسده ناقبل الى الدمشتق وحدثه بامر يوقنا وماقد عزم عليه وانه مسلم وانه بقا تكلم مع العرب وقد فتح طرابلس واخذ البطريق جرجاس صاحب الملك فلما سمع الدمشتق ذلك لم يكذب خبر دون ان ركب باصحابه وقبض على يوقنا واصحابه ووقع الصياح وكثر الضجيج وسمع بذلك اصحاب يوقنا فعلموا ان ذلك بسبب اصحابهم وانه قبض عليهم فاغتموا لذلك غما شديدا واخذوا على انفسهم من عدو يقبل عليهم قال فلما استوثق عليهم الدمشتق ارمويل بن نشطه ووكل بهم ألف رجل وقال سيروا بهم الى الملك يفعل ما يريد واقبلوا يعنفون يوقنا واصحابه ويقولون لهم ما الذى رأيتم فى دين العرب حتى تبعتموهم وتركتم دينكم ودين ابائكم قد طردكم المسيح عن بابه وابعدكم عن جنابه فلما هموا ان يسيروا بهم وقع الصياح من الابواب ودعا اهل القرى ومن كان بالقرب من صور فسألوهم عن اخبارهم فقالوا قدمت العرب عليكم (قال الواقدى) رحمه الله وكان عمرو بن العاص لما نزل على قيسارية وجه يزيد ابن أبى سفيان فى الفى فارس الى صور فلما سمع الدمشتق امر بالابواب فغلقت وصعدت الرجالة على الاسوار وعمروا الابراج ونصبوا المجنيقات ودخل الدمشتق يوقنا الى قصر صور واستوثق منهم لئلا يتم عليه أمر منهم وبات القوم يحرسون واضرموا نيرانهم على الاسوار فاقبلوا يرقصون ويشربون طول ليلتهم فلما كان من الغد اشرف عليهم يزيد بن أبى سفيان فنظر اليهم الدمشتق فلما رآهم قليلا استحقرهم وطمع فيهم وقال وحق المسيح لابد لى من الخروج اليهم وهدم هذه الشرذمة اليسيرة ثم لبس الدمشتق الالباس وأمرهم بالخروج وترك على حفظ يوقنا وأصحابه ابن عمه باسيل قال وكان باسيل هذا ممن قرأ الكتب السالفة والاخبار الماضية وكان قد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى دير بحيرا الراهب وكان باسيل قد مضى الى زيارة بحيرا فلما قدمت عير قريش وجمال خديجة بنت خويلد وفيها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر بحيرا الى القافلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى وسطها والسحابة على رأسه تظله من حر الشمس فلما تبينه قال والله هذه صفة النبى الذى يبعث من تهامة ثم انتظروا واذا بالقفل قد نزل ورسول الله صلى الله عليه وسلم نزل وحده تحت شجرة يابسة واستلقى اليها واورقت

الشجرة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما عاين بحيرا ذلك صنع طعاما لقريش واستدعاهم فدخلوا الدير وبقى هو مع الابل ليرعاها فلما نظر بحيرا اليهم ولم يره في جملتهم قال يا قريش هل بقى منكم احد قالوا نعم بقى فينا من تخلف لحفظ القافلة ويرعى الابل قال ما اسم من يرعى الابل قالوا محمد بن عبد الله قال هل مات أبوه وامه قالوا نعم قال هل كفله جده وعمه قالوا نعم قال يا قريش هو والله سيدكم وبه يعظم في الدنيا مجدكم قالوا ومن أين علمت قال لما اشرفتم على من البرية لم يبق صخر ولا مدر الا خرت له ساجدة (قال الواقدى) رحمه الله فبقى باسيل في حيرة من أمرهم وكتم سره وعلم ان بحيرا لا يتكلم الا بالحق فلما وقع يوقنا وأصحابه ووكله لدمشق على حفظهم قال ان الاسلام هو الحق وقد بشر به بحيرا الراهب ولعل الله يغفر لى اذا حليت هؤلاء القوم (قال الواقدى) من حسن تدبير الله لعباده المؤمنين انه لما خرج الدمشق الى لقاء يزيد بن أبي سفيان لم يتأخر أحد من شباب المدينة لا صغير ولا كبير الا وخرج معه وبقيت العوام ينتظرون على الاسوار ما يكون بينهم وبين العرب فلما نظر باسيل الى المدينة وخلوها واشتغال اهلها بالحرب أخذه رأيه على خلاص يوقنا ومن معه فاقبل اليهم بالليل والتفت الى يوقنا وأصحابه وقال أيها البطريق كيف تركت دين آبائك وأجدادك من قبل ودخلت على دين هؤلاء العرب وما الذى رأيت من الحق حتى تبعتهم وقد كانت الروم تتخذك عضدا لها وعونا قال له يوقنا يا باسيل ظهر لى من الحق ما ظهر لك من الحق فعرفته وقد هتف بى هاتف يقول لى ان الذى هداك الى دينه يخلصك و بشرنى بالخلاص على يديك قال فلما سمع زاد ايقانه وتحقق ايمانه وقال ليوقنا لقد انطق الله على لسانك الحق وان الله تعالى كشف حجاب الغفلة عن قلبى منذ رأيت نبى هؤلاء القوم بدير بحيرا الراهب وهو في قافلة لاهل مكة ورأيت من دلائله انه لا يسير على الارض الا والشجر تسير اليه والسحابة على رأسه تظلله ولقد استند الى شجرة يابسة فاورقت في الحال وانبانى بحيرا الراهب انه وجد في العلم ان جماعة من الانبياء استندوا اليها وجلسوا حولها فلم تورق فلما استند بظهره اليها اورقت اغصانها واينعت فعجبت من ذلك وسمعت بحيرا يقول هذا والله الذى بشر به المسيح فطوبى لمن تبعه وآمن به وصدقه فلما عدت من زيارة بحيرا سافرت الى القسطنطينية بتجارة وغفلت في بلاد الروم وقتا ماشاء الله ثم عدت الى قيسارية فرأيت الروم في هرج ومرج فسألت عن أحوالهم فقيل لى قد ظهر نبى من الحجاز اسمه محمد بن عبد الله وقد اخرجه قومه من مكة وقد اتى الى المدينة التى بناها تبع وقد ظهر على قومه ونصر عليهم فما زلت اسأل عن اخباره وهى في كل يوم تنمو وتزيد حتى ثم ولى صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ونفذ جيوشه الى الشام

فلم يلبث الايسيرا ثم مات وولى هذا الرجل عمر بن الخطاب ففتح بلادهم وهزم جيوشنا
وانا مع ذلك انتظر قدومهم الى هذا الساحل حتى اتى الله بهم فقال له يوقنا وما الذى
عزمت عليه قال عزمت والله ان افارق قومى واتبعكم فان الحق بين ثم حمل يوقنا
وأصحابه وسلم اليهم العدد والسلاح وقال ليوقنا اعلم ان مفاتيح أبواب المدينة عندى
وانما عسكر خارج المدينة مشتغل بقتال العرب وليس فى المدينة من يخاف جانبه فانهض
على اسم الله فقال يوقنا جزاك الله خيرا لقد هداك الله الى دينه وسلك بك طريق
النجاة ويختم لك بخير ويجب الآن علينا ان نظهر أننا سبينا ونبعث لمن فى المراكب حتى
ينزلوا الينا ونكون نحن يدا واحدة فقال باسيل سافعل ذلك ثم انه خرج فى حال
الخفا وفتح باب البحر ومعه رجل من بنى عم يوقنا وركا زورقا حتى وصلا الى البحر
والمراكب وحدثوهم بما قد كان فاقبل كل مركب برجاله اليهما وساروا الى ان نزلوا الجميع
ودخلوا داخل المدينة اعنى مدينة صور واعمى الله ابصار الكفار ولما هموا ان يثوروا
قال يوقنا ليس هذا من الرأى وانى ممن يهب نفسه لله عز وجل ويخفى أمره ويخرج من
الباب ويدور الى عسكر المسلمين ويتوصل الى أميرهم ويعلمه بما كان منا ويكون على
اهبة واذا سمع منا احد لا هوله وليصدم جيش العدو فقال رجل من القوم انا اكون ذلك
الرجل ثم خرج متنكرا وأغلق باسيل خلفه ووصل الى يزيد بن أبى سفيان وحدثه بالامر
على اهبته وبما كان من أمر يوقنا فسجد لله شكرا وبعث من ساعته الى المسلمين
ليأخذوا على انفسهم للكبسة على القوم ففعلوا ذلك وأما يوقنا رحمه الله لما علم ان الخبر
وصل الى المسلمين قال لاصحابه يصعد منكم خمسمائة رجل الى السور واقتلوا ما عليه
قال باسيل ليس هذا رأى فان العوام لا اعتبار لهم ولعل الله يهديهم الى الاسلام ولكن
مر اصحابك ان يلزموا مطالع السور حتى لا ينزل احد منهم ويزعقوا بالامان قال
فاستصوب رأيه ووكل الرجال بالمطالع ثم زعق يوقنا واصحابه بصوت مزعج وقال لا اله
الا الله محمد رسول الله فسمع كل من فى المدينة ومن على السور ذلك فعلوا ان يوقنا
وأصحابه تخلصوا من الاسر ونبوا فى المدينة وطارت عقولهم وانزعجت افئدتهم على
أولادهم واهاليهم وبقوا فى حيرة فسمع يزيد بن أبى سفيان الضجة وعلم ان المسلمين قاموا
فى المدينة فكبر وكبرت المسلمون وهلل الموحدون فسمع الدمستق الضجة من المدينة
فعلم أن يوقنا واصحابه تخلصوا من الاسر وهم الذين فعلوا ذلك ووقع الرعب فى قلوبهم
ونظروا النيران اشتعلت فى عسكر المسلمين وتاهبوا الحملة عليهم فلم يبق لهم صبر
وقد انقطعت قلوبهم من اجل أموالهم وأولادهم الذين فى داخل المدينة وقيسارية
محاصرة وليس لهم مدد من ولد الملك فولوا الادبار واتبع المسلمون اثارهم وملكوا خيامهم

وما كان فيها فلما اصبح الصباح فتح يوقنا باب المدينة ودخل يزيد بن أبي سفيان ومن معه من المسلمين واحتووا على أموال الروم ونادى من كان على السور الغوث الغوث فامنهم المسلمون ونزلوا باجمعهم فقال لهم يزيد ان الله عز وجل قد فتح لنا مدينتكم عنوة وأنتم الآن عبيد فما شئنا حكمنا فيكم ولكن نحن اذا عاهدنا وفينا واذا قلنا صدقنا وقد اعطيناكم الامان من أنفسنا ولكن عليكم الجزية لمن لم يدخل في ديننا ومن اسلم منكم فله ما لنا وعليه ما علينا فاجاب القوم الى ذلك واسلم اكثر القوم وبلغ الخبر الى قسطنطين بان صور قد فتحت فعلم انه لا بقاء له فاخذ الفرصة وانهزم وأخذ خزائنه وأمواله وذخائره وخدمه وركبهم في المراكب بالليل واقلع يريد التحوق بابيه الى قسطنطينية فلما نظر أهل قيسارية الى ذلك خرجوا الى عمرو بن العاص وسألوه على ان يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك الملك من خزائنه ورجاله فاجابوه الى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح فعندها دخل عمرو بن العاص الى قيسارية واخذ بقية ما ترك الملك وضرب الجزية عليهم من السنة الآتية كل رجل اربع دنانير وبذلك امرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعث عمرو جيشا الى صور ومع ياسر بن عمار ابن سلمة وكان شيخا كبيرا قد شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا والنضير وقتل اخاه يوم حنين قتله مالك بن عون النضيري فبعثه عمرو الى صور ومعه رجل من اصحابه وصالح عمرو بن العاص أهل قيسارية على مائة ألف درهم وما خلفه قسطنطين من بقية ذخائره قال ودخلها يوم الاربعاء في العشر الاول من رجب الفرد سنة تسع عشرة من الهجرة ووصل الخبر الى الرملة وعكة وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحا مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية وملك الله الشام كله للمسلمين ببركة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين

(ذكر فتوح مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي قال زياد بن عامر قال هشام بن عبد الله العنبري حدثنا سالم مولى عروة بن نعيم اليشكري قال لما فتح عمرو بن العاص قيسارية صلحا كان لعمر في الخلافة أربع أعوام وستة أشهر وبلغ الخبر الى أهل الرملة وعكا ويافا وعسقلان وصيدة وغزة ونابلس وطبرية فأتوا كبراؤهم وعظماؤهم الى أبي عبيدة وأصلحوا أمرهم معه على مال لا يحصى وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية وانفذ أبو عبيدة لعمرو بن العاص يسير الى مصر بامر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وملك المسلمون اقاصي البلاد ببركة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعظم وكرم قال وسكنها العرب وتفرقوا في البلاد والمدن ودانت لهم العباد وكل يوم يزدادوا فلم يبق في الشام واعمالها

مركن من مراكن الروم الا أخذه المسلمون وتوالدوا وتناسلوا وكثر ابركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال محمد بن اسحاق الاموى رحمه الله تعالى قال حدثنا يونس ابن اعلا قرأت عليه بالخضراء بمدينة عسقلان قال اخبرنا الليث بن سعد قال حدثنا نوفل بن عامر قال اخبرني يحيى بن ساكن المدني قرأت عليه يوم الجمعة ونحن عند منبر يونس بن متى قال لما فتح الله ساحل الشام على المسلمين في سنة تسعة عشر من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبوا بذلك الى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص الى امين الامة اما بعد فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وان الله جل وعلا قد فتح ما كان قد بقي من الساحل أخذناها عنوة وهرب منها قسطنطين بن هرقل باموال وعياله ونحن بقيسارية ننتظر أمرك والسلام وكتب أيضا يزيد بن أبي سفيان بما تم له رقافي صور وان الله قد عضد الدين ووصل الكتابان الى أبي عبيدة وقد رحل من حلب يريد طبرية فوصل اليه الخبر وهو نازل على الزراعة فلما قرأ الكتب تهلل وجهه فرحا وضج المسلمون بالتهليل والتكبير وكتب من وقته وساعته الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يبشره بما فتح الله على المسلمين به وبما فعله يوقنا ووجه الكتاب مع عرفجة بن مازن فركب ناقته وسار حتى وصل المدينة قال عرفجة بن مازن وعلى من ديباج الروم قباء أحمر وعلى رأسي مطرف خز مذهب قال فلما أتيت المدينة ودخلتها يوم الجمعة اول ليلة من شهر رمضان قبل مغيب الشمس وعمر رضي الله عنه قد اتى يريد المسجد فلما رأيته ابركت ناقتي وعقلتها وجئته لاسلم عليه فنظر الى نزرا وقال من الرجل قلت عرفجة بن مازن فقال يا ابن مازن اما كان لك برسول الله اسوة حسنة راي هذه ثياب الجبارين ومن جعل الله لهم الدنيا جنة وهذا الديباج حرام على الرجال منا لانه لا يصلح الا للنساء وهذا الذي عليك تصدق به على فقراء المدينة اما والله لقد دخلت يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مزمل بشريط وليس بين جلده وبين الشريط شيء وقد اثر الشريط في نعومة جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأيت ذلك بكيت فقال لي يا عمر ما الذي ابكاك فقلت يا رسول الله ان كسرى وقيصر يعيشان في ملك الدنيا وانت رسول الله بهذه المثابة فقال يا عمر اما ترضى ان تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة قال عرفجة فسلمت اليه الكتاب فلما قرأه تهللت اسارير وجهه قال عرفجة ثم نزلت على خالتي عفراء بنت أبي ايوب الانصاري بت عندها ليلتي فلما اصبحت لم اقدر ان اقابل عمر بذلك الزي فاعطيت الثوب والعمامة لخالتي فباعتها وتصدقت بثمنها على فقراء المدينة قال وسرت الى عمر وعلي ثوب من كرابيس الشام كانت تحت

ثيابي

ثيابي فلما رآني تبسم في وجهي وقال يا ابن مازن ما فعلت بديباجتك قلت يا أمير المؤمنين باعتها خالتي وتصدقت بثمنها على المسلمين فقرأ عمر وما تفعلوا من خير يعلمه الله ثم انه كتب الى أبي عبيدة يقول بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح اما بعد فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين وما وعد نابه رسول الله صلى الله عليه وسلم من كنوز قيصر وسيفتح علينا من كنوز كسرى والحمد لله على ذلك كثيرا وقد بلغني ان بادية الاعراب قد استلذوا بالدنيا وزينتها وقد نصبت لهم شباك محبتها وقد تمسكوا بذيل غرورها ونسوا نعيم الجنة وقصورها ورفلوا في ثياب الديباج والحزوا كلوا الحلو وخبز الحنطة والهاهم ذلك عن الاخرة وقد بلغني يا ابن الجراح انهم قد تهاونوا بالصلاة ونسوا المفترضات فجرد عليهم عتاق الخيل الهمم واغلظ عليهم ولا تكن لهم حامدا فيطمعون فيك ومن اخل منهم بشيء مما افرض عليهم فاقم فيهم حدود الله واعلم بانك راع وكل راع مسؤل عن رعيته قال الله عز وجل الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وقد قال فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبيدة امين هذه الامة فاعط الامانة حقها ومن ترك صلاته فاضربه عليها ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فاذا حضرت الصلاة فكانه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالا بالصلاة وبعظمة الله وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله عز وجل يقول ان بيوتي في الارض المساجد وان زواري فيها عمارها بالعبادة فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني فحق على المزور ان يكرم زائره وقال صلى الله عليه وسلم جميع المفترضات افترضها الله علي في الارض الا الصلاة فان الله افترضها علي في السماء واذا قرأت كتابي هذا فأمر عمرو بن العاص ان يتوجه الى مصر بعسكره ويقدمهم عامر بن ربيعة العامري ومشايخ من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتضي بهم عند مشورته وانفذ من قدرت عليه الى ارض ربيعة وديار الجدين صالح والله اسأله ان يكون لكم عونا ومعينا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وسلم الكتاب الى عرفجة بن مازن وامر له بنفقة من بيت المال قال عرفجة فاخذت الكتاب وسرت به على طريق تيماء فلقيت عند بيت لحم ركبانا من أهل وادي القرى فسألتهم عن أبي عبيدة فاخبروني انه على غباغب وهو طالب طبرية قال عرفجة فخرجت اطلب الغور والجولان واقصد طبرية قال فالتقيت بأبي عبيدة على الاردن فسلمت عليه وناولته كتاب عمر رضي الله عنه فلما اقراه جميع المسلمين وقراه عليهم فلما فرغ قال ما من رجل ترك الصلاة او اخل بشيء مما افترضه الله عليه لاجلدنه ومن

العدو أتى خالد بن الوليد من طرابلس فقرأ عليه الكتاب وادمه الى عمرو بن العاص وارسل بجنه على المسير الى أرض مصر فلما وصل الكتاب الى عمرو اخذ على نفسه بالمسير وسار معه يزيد بن أبي سفيان وعامر بن ربيعة العامرى وجماعة من الصحابة وسار معه يومئذ فى أربعة آلاف من أصحابه وقد وهبوا أنفسهم لله ولرسوله فسار عمرو على البيداء من وراء العريش قال وكانت أرض مصر ورقيها عامرة بالديورة والصوامع وكان دير الزجاج فى مملكة القبط وكان ملكهم يومئذ المقوقس بن راعيل وكان هذا الملك من أهل الرأى والتدبير والفضل والحكمة وكان تلميذ الحكيم اغاثاذيمون وهو الذى لما عليت الحيات على أرض مصر وأخربتها اصنع لها جلجلا وكان اذا ان يحركها تسمع من مقدار ميل قال فتخرج الحيات من احجرتها فى هربت نجت ومن وقعت هلكت وكان المقوقس من اعلم أهل زمانه وكانت القبط معه فى عيشة مرضية وكان يتوقع ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حكيم ذلك الزمان بمصر رجل يقال له عنلاريس وهو الذى صنع دواليب الريح ورحاء الهوى وكان عمر فى الاجيال واطلع على مكنون الحكم والاسرار وعرف عمل صنعة الاكسير وعمل الذهب والفضة والجوهر والحركات المتحركة من نفسها بهبوب الريح واجناس الاهوية فى احسامها وكان يجرى فى علمه ان الله يبعث نبيا من ارض تهامة ينشر دينه وتعلوا كلمته وتملك اصحابه البلاد فعمل فى ايام راعيل ابى المقوقس هيكلا عظيما على اعمدة من نحاس بمكان يعرف بعين شمس وجعل عليه اشخاصا مجوفة وجعل وجهها الى جهة مصر وكتب عليها بالقبطية اذا دارت هذه الاشخاص الى جهة الحجاز فقد قرب ملك العرب قال فبينما المقوقس راكب فى بعض الايام لعيد وقت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انتهى سيره الى عين شمس واذا هو قد سمع اصوات من الاشخاص قد علت ثم انها حولت وجوهها نحو الحجاز فايقن بتلاف ملكه وزواله فعاد من ركوبه وهو قلق ودخل قصر الشمع وجلس على سريره وجمع الاقسة والرهبان وكبراء القبط وقال لهم يا اهل دين النصرانية اعلموا ان زمانكم قد مضى وهذا النبى المبعوث لا شك فيه وهو آخر الانبياء ولا نبى بعده وقد بعث بالرعب ولا بد لرجل من اصحابه ان يملك ما تحت سرير هذا فانظروا فى ملككم واصلحوا ذات بينكم وارفقوا برعيتكم ولا تجوروا فى حكمكم وامنوا ضعفاءكم واياكم واتباع الظالم فان الظالم ويل ومبتغيه وخيم واعطوا الحق من انفسكم ولا يستطيل قويكم على ضعيفكم وما دامت الدنيا لاحد قبلكم حتى تدوم لكم وكاملكتموها ممن كان قبلكم كذلك يأخذها منكم من كان بعدكم فاصلحوا بيانكم فيما بينكم وبين خالقكم فان فعلتم ذلك رجوت لكم النصر على اعدائكم ومن يريد كم

وان

وان اتبعتم اهواءكم تبين هلا ككم قال حدثنا اسحاق رحمه الله ورضى عنه عن عبد الملك عن أبيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد بن عوف عن موسى بن عمران عن حميد الطويل عن ابى اسحاق الراوى لمغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة وبايعه الاوس والخزرج كتب الى ملوك الارض وفى الجملة كتابا الى المقوقس ملك مصر وكان الذى كتب الكتاب اليه ابو بكر الصديق رضي الله عنه ونسخة الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الى صاحب مصر أما بعد فان الله ارسلني رسولا وانزل على كتابا قرآنا مبينا وامرنى بالانذار والاعذار ومقاتلة الكفار حتى يدينون بديني ويدخل الناس فيه وقد دعوتك الى الاقرار بوحدانية الله تعالى فان انت فعلت سعدت وان انت ابيت شقيت والسلام ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه فقال انس بن مالك فاستوجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من اصبعه وكان فصه عليه ثلاثة اسطر السطر الاول محمد السطر الثانى رسول السطر الثالث الله ولا نقش احد على خاتمه كنقشه قال سمرة بن عوف قلت لحميد الطويل اكان لخاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فص أم لا قال لا ادرى قال وسأل رجل جابر بن عبد الله الانصارى فقال له فى اى يد كان يتختم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال فى يده اليمنى ويقول اليمنى احق بالزينة من الشمال وفص الخاتم فى يمينه وقال عبد الله بن عباس رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يختتم فى يمينه ثم حوله الى يساره حدثنا انس بن مالك ان رسول صلى الله عليه وسلم كان يختتم فى يساره حدثنا جعفر بن محمد عن ابيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعمر وعثمان وعلى والحسن والحسين رضى الله عنهم جميعا يختتمون فى اليسار قال الراوى فلما طبع الكتاب بخاتمه قال ايها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا الى صاحب مصر واجره على الله قال فوثب اليه حاطب بن أبى بلتعة القرشى وقال انا يا رسول الله فقال له بارك الله فيك يا حاطب قال فاخذت الكتاب من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وودعته واصحابه وسرت الى منزلى وشددت راحلتى وودعت اهلى واستقمت على الطريق الى نحو مصر فلما ابعدت عن المدينة بثلاثة أيام اشرفت على ماء لبنى بدر فاردت ان اردناقتى الماء واذا على الماء رجلان ومعهم ناقتين ومعهم رجل آخر راكب على جواد ادهم فلما رأيتهم وقفت واذا بالفارس أتى الى وقال لى من أين اقبلت والى أين تريد فقلت يا هذا لا تسأل عن ما لا يعنيك فتقع فيما يحزنك ويخزيك أنا رجل عابر سبيل وسالك طريق فقال ما اياك اردنا ولا نحوك قصدنا نحن قوم لنا دم وثار عند محمد بن عبد الله وقد جئت أنا وهذان الرجلان وتحالفنا على ان ندهمه على غفلة فلعلنا نجد منه

غرة ستقتله قال حاطب والله لقد امكنني الله منهم فلاجعلن جهادي فيهم ولو بالخديعة فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الحرب خدعة فبينما أنا أجاطب الفارس واذا بالراكبين قد وصلا الى وقالا لى بغلظة وفظاظة ويحك لعلك من اصحاب محمد فقلت لهما لقد كادان يتبدل لكما الطريق عن سبيل التحقيق وانى رجل مثلكما اطلب ما تطلبون وأنا قاصد يثرب وقد عولت على صحبتكم لاكون معكم ولكن سمعت فى طريقى هذه ممن اثق به ان محمدا انفذ رسولا من اصحابه الى مصر بكتاب فلعله فى هذا الوادى فان وقعنا به قتلناه فقال صاحب الفرس أنا اسير معك ثم انه تقدم امامى وتركنا صاحبيه واقفين ينتظرانا قال حاطب فلما بعدت به عن اصحابه وغبنا عنهما قلت ما اسمك قال اسمى سلاب بن عاصم الهمدانى قلت يا سلاب اعلم انه لا يقدر يدخل على يثرب الامن له جنان وقلب وغدر ومكر لان بها ساداث الارض وابطال امثل عمر وعلى ولكن كيف سيفك قال سيفى ماضى قلت أرنى اياه فاستله من غمده وسلمه الى فاخذت السيف من يده وهززته وقلت سيف ماضى ثم قلت شعر

سيوف حداد يالؤى بن غالب * مواضى ولكن اين للسيف ضارب

فقال مامعنى هذا الكلام قلت يا ابن عاصم ان سيفك هذا من ضرب قوم عاد من ولد شداد وما ملكت العرب سيفا مثله ولا امضى من هذا السيف ولكن وجب على اكرامك واريد التقرب اليك بحيلة اعلمك اياها تقتل بها عدوك فقال بذمة العرب افعل ذلك فقال حاطب اذا كنت فى مقام حرب وقتال وخصمك بين يديك وتريد قتله هز هذا السيف حتى يهتز هكذا وتلتئم مضاربه واضرب عدوك على حرفه فانه اسرع للقتل والقطع وملت بالسيف على عنقه واذا برأسه طائر عن بدنه فنزلت اليه ومسكت الجواد لئلا ينفلت فيعد واصحابه وتركته مربوطا الى شجرة واسرعت الى صاحبيه واذاهما ينتظرانه فلما رأيانى اقبل احدهما الى فقال ماوراءك وا بن سلاب فقلت ابشر بأخذ الثار وكشف العار واعلم باننا وجدنا رجلين من اصحاب محمد وهما نيام وقد وجهنى سلاب بان يمضى معى احد كما حتى نتمكن منهما ويقف احد كما ههنا فان هذا الوادى ماخلا ساعة من اصحاب محمد فقال نعم الرأى الذى قد اشرت به وسار معى الثانى فلما غبته عن صاحبه قلت ما اسمك قال عبد اللات قلت له كن رجلا واياك والخوف فانك اذا رأينا وقد هجمنا على الرجلين فاستيقظا فقال لابدان افعل ذلك فقلت له انى ارى غبرة ولا شك ان تحتها قوما من صبا الى دين محمد يعجل تأمل كانه الواله الحيران فعاجلته بضربة على غفلة فرميت برأسه عن بدنه وعدت الى الثالث فلما رآنى وحدى تيقن بالشر فقارعنى وقارعته وصدمنى وصدمته الا ان الله اعانني عليه فقتلته واخذت الراحلتين والفرس

واسلابهما

واسلاحي واوضعت الجميع عند رجل من اصحابي وكان رفيقالي من زمن الجاهلية وهو من عبد شمس ثم توجهت اريد مصر ولم ازل الى ان اتيتها فلما وصلت الى باب الملك قالوا من اين جئت قلت انا رسول الى ملككم فقالوا من عند من ذلت من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سمعوا بذلك احاطوا بي واوصلوني الى قصر الشمع بعد ما استأذنوا لي واوقفوني على باب الملك فامرهم باحضاري الى بين يديه فعقلت راحلتي وسرت معهم الى عند المقوقس واذا هو في قبة اكثر الجواهر في حافاتها ولمع الياقوت من اركانها والحجاب بين يديه فاومأت بتحية الاسلام فقال حاجبه يا اخا العرب اين رسالتك قال فاخرجت الكتاب فاخذه الملك من يدي بيده قال فباسه ووضعه على عينيه وقال مرحبا بكتاب النبي العربي ثم قرأه وزيره الباكلمين فقال له اقرأه بالقوى فانه من عند رجل كريم فقرأه الوزير الى أن أتى الى آخره فقال الملك لخادمه الكبير هات السفط الذي عندك فاتي به ففتحه واستخرج نمطا ففتح ذلك النمط واذا فيه صفة آدم وجميع الانبياء صلوات الله عليهم اجمعين وفي آخره صفة محمد صلى الله عليه وسلم فقال لي صف لي صاحبك حتى كأنني اراه قال حاطب ومن يقدر أن يصف عضوا من اعضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لابد من ذلك قال فوقفت بعدما كنت جالسا وقلت ان صاحبي وسيم قسيم معتدل القامة بعيد الهامة بين كتفيه شامة وله علامة كالقمر اذا بر زصاحب خشوع وديانة وعفة وصيانة صادق اللهجة واضح البهجة اشم العرنين واضح الجبين سهل الخد رقيق الشفتين براق الثنايا بعينيه دعج وبحاجبيه زجج وصدره يترجرج وبطنه كطي الثوب المدبج له لسان فصيح ونسب صحيح وخلق مليح قال والملك ينظر في النمط فلما فرغت قال صدقت يا عربي هكذا صفته فبينما هو يخاطبني اذ نصبت الموائد واحضروا الطعام فامرني أن اتقدم فامتنعت فتبسم وقال قد علمت ما احل لكم وحرم عليكم ولم اقدم لك الا لحم الطير فقلت اني لا آكل في هذه الصحاف الذهب والفضة فان الله قد وعدنا بها في الجنة قال فبدلوا طعامي في صحاف فخار فاكلت فقال أي طعام احب الى صاحبك فقلت الدبا يعني القرع فاذا كان عندنا شيء منه اثرناه على غيره فقال ففي أي شيء يشرب الماء فقلت في قعب من خشب قال أيحب الهدية قلت نعم فانه قال صلى الله عليه وسلم لو دعيت الى كراع لاجبت ولو اهدي الى ذراع لقبلت قال أيأكل الصدقة قلت لا بل يقبل الهدية ويأبى الصدقة وقد رأيته اذا اوتي بهدية لا يأكل منها حتى يأكل صاحبها فقال الملك أيكتحل قلت نعم في عينه اليمنى ثلاثا وفي اليسرى اثنين وقال من يشاء اكتحل اكثر من ذلك أو اقل وكحله الاثمد وينظر في المرآة ويرجل شعره ويستاك فقال المقوقس اذا ركب ما الذي يحمل على

رأسه فقال راية سوداء ولواء ابيض وعلى اللواء مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله فقال أله كرسي يجلس عليه أو قبة قالت نعم له قبة حمراء تسع نحو الاربعين قال فما الذي يحب من الخيل قلت الاشقر الارثم الاورح المحجل في الساق وقد تركت عنده فرسا يقال لها المرعد قال فلما سمع كلامي انتخب من خيله فرسا من افخر خيول مصر الموصوفه وامر به فاسرج والجم فاعده هدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فرسه المأمون وارسل معه حمارا يقال له عفير وبغله يقال لها الدلدل وجارية اسمها بريرة وكانت سوداء وجارية بيضاء من اجمل بنات القبط اسمها مارية وغلام اسمه محبوب وطيب وعود وند ومسك وعمائم وقباطي وامر وزيره ان يكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا يقول فيه باسمك اللهم من المقوقس الى محمد أما بعد فقد وصل الى كتابك وفهمته وانت تقول ان الله ارسلك رسولا وفضلك تفضيلا وانزل عليك قرآنا مبينا فكشفنا يا محمد خبرك فوجدناك اقرب داع دعا الى الله واصدق من تكلم بالصدق ولولا اني ملكت ملكا عظيما لكنت اول من آمن بك لعلمي انك خاتم النبيين وامام المرسلين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته مني الى يوم الدين قال وسلم الكتاب والهدية الي وقبلني بين عيني وقال بالله عليك قبل بين عيني محمد عني هكذا ثم بعث معي من يوصلني الى بلاد العرب والى مأمني قال فوجدنا قافلة من بلاد الشام وهي تريد المدينة فصحبتها الى ان وردت المدينة فاتيت المسجد واتخت ناقتي ودخلت وسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانشأت اقول شعرا

ايم صاحا يا وسيلة أحمد *	نرجو النجاة غدا بيوم الموقف
اني مضيت الى الذي أرسلتني *	اطوى المهامه كالمجد المدنف
حتى رأيت بمصر صاحب ملكهم *	فبدا الى مثل قول المنصف
فقرأ كتابك حين فك ختامه *	فاظل يرعد كاهتزاز المرهف
قال البطارقة الذين تجمعوا *	ماذا يريعك من كتاب مشرف
قال اسكتوا يا ويلكم وتيقنوا *	هذا كتاب من نبي لا محيف
فقال رادهم وهت قال لست براهم *	اني قرأت بيان لفظ الاحرف
وكل سطر من كتاب محمد *	خط يلوح لناظر متشوف
هذا الكتاب كتابه لك جامعا *	يا خير مأمول بحملك فاكتفي

(قال الراوي) ورجعنا الى الفتوح قال حدثني أحمد بن عبيد عن عبد الله بن عمرو السلمي عن محمد بن عبد الله الزهري عن عبد الله بن زيد الهذلي عن أبي اسحاق الاموي وهو المعتمد عليه في فتوح مصر وأرض ربيعة والفرس حدثنا عمر بن حفص

ولم ينفرد بهذه الرواية سواه وكان أصحاب السير قد اشتغلوا بوقائع العراق وفتوحه وما تجدد من سعد بن أبي وقاص وبني كسرى انوشروان وتركوا فتوح الشام وأرض مصر فيما بعد وكان قد انحل عنهم فتركوه لاجل الزيادة والنقصان فيه وانما انفرد ابن اسحاق لانه انفرد عن مشايخ ثقات قد وثق بهم من آل مخزوم اجتمع بهم في الرملة بعد الفتوح أحدهم نوفل بن ساجع المخزومي وكان عمه خالد بن الوليد وكان من المعمرين شهد تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم وشهد بعدها الحديبية وشهد يوم اليمامة ومسيلمة وكان مع عمرو بن العاص بأرض مصر في جميع فتوحها والثاني فهد بن عاصم ابن عمرو بن سهل بن عمرو بن سهيل بن عمرو المخزومي وغيرهما من الثقات ممن شهد فتوح أرض مصر والوقائع كلها قالوا جميعا ومنهم من قال ان عمرو بن العاص لما انفصل من ساحل الشام وكتب الله سلامة المسلمين وسار متوجها يريد أرض مصر فلما كان بمكان يقال له زفيج قال له يوقنا يا عمرو أنت تريد ان تدهم مصر على دون غفلة من أهلها وأنا ممن يمكنني ذلك لان ثواب الله أجل غنيمة فان قلبي ملوث بحب الدنيا واني كنت ممن أشرك بالله سواه وأنا اجتهد في الخلاص واقاتل من كنت انصره على الكفر وعبادة الصلبان والسجود للصور من دون الله وقد اخذت الاسلام بنية وقبول لانه الحق وأريد أن أتقدم الى أرض مصر فلعلي أجد لكم بالحيلة سبيلا فقال عمرو وفقك الله وأعانك وحفظك وصانك قال فسار يوقنا ليلا من زفيج يطلب الفرماء ولم يقرب من العريش ولا القاربا وكانا حصون عامرة وقد سكنها أقوام من العرب المختلطة وكانوا يؤدون المال الى الملك بن المقوقس بن راعيل وسنذكر فتوحها فيما بعد ان شاء الله تعالى قال وان يوقنا أشرف على الفرماء وكان بها وال من قبل المقوقس اسمه الريذيان والفرماء على جانب بحيرة تنيس من الشرق فرأى يوقنا خياما منصوبة وقبابا مضروبة فلما رأوا يوقنا اوقع الصائح فركب من كان هناك وكانت الاخبار ترد عليهم كل وقت بما صنع الصحابة فلما بلغهم ان قيسارية فتحت اغتموا لذلك لانه كان قسطنطين ابن هرقل قد تزوج بابنة المقوقس ارمانوسة وكان قد جهزها أبوها وأرسلها مع غلمانها وأموالها الى بلبيس ثم انها رجعت حاجبها تيلاطوس الى الفرما في الفي فارس لحفظ ذلك المكان حدثنا ابن اسحاق رحمه الله اخبرنا موسى بن محمد بن ابراهيم بن الحارث التيمي عن اسامة بن زيد بن أسلم قال ابن اسحاق حدثني رجل من القبط رأيته وقد دخل في دين الاسلام فتقربت اليه وسألته فاخبرني أنه من قبط مصر من جند المقوقس قلت له كيف كان من أمركم لما سمعتم بقدوم المسلمين من الشام وكسر جيوش هرقل قال لما بلغنا ذلك بعث المقوقس رسله الى جميع اطراف بلاده

بمبا الى الشام بأن لايتركوا احدا من الروم ولا غيرهم يدخل أرض مصر كل ذلك لئلا يتعدوا بما صنع المسلمون بجنوده وقيل فيدخل الرعب فى قلوب قومه فلاجل ذلك أنه لما دخل يوقنا أرض مصر لم يعلم به أحد فلما ركبوا الى لقائه ورأوا حشمه وعسكره وكانوا بزى الروم سألوه عن مكانه وكان قد أخبر فى طريقه من حصن حيفا واعلموه انه اشتغل قسطنطين عن زوجته ارمانوسة وان أباها قد جهزها وهى على مدينة بلبيس فقال يوقنا ومتى تزوجها قالوا تزوجها والمسلمون على حصار حلب فقال انه قد ركب فى البحر وترك قيسارية وقد أرسلنى حتى آخذها فى المراكب من دمياط قال فلما سمع قوله قال يا يوقنا أنا قد جئت رسولا من الملك قسطنطين الى الملك المقوقس حتى يرسل معى ابنته الى زوجها فلما سمعوا كلامه قالوا ان الملكة فى بلبيس وقد اعدها اليه ومامنعها من المسير الا خوف العرب وهروب قسطنطين من قيسارية فسار يوقنا حتى قرب من بلبيس فنزل هناك وسار حاجبها اليها وعرفها بما قاله يوقنا فقالت على به فأتى اليه الحاجب وأمره بالمسير فركب وركب اصحابه وهم بأحسن زى واتوا الى عسكر ارمانوسة واذا به عسكر كبير أكثر من عشرة آلاف قال فترجل يوقنا ووجوه قومه ووقفوا على باب قصرها واستأذنوا عليها فاذنت لهم بالدخول فلما وقفوا بين يديها خضعوا لها فامرت لهم بكراسى فوضعت لهم فامرتهم بالجلوس فجلسوا ووقفت الحجاب والمماليك والخدم فقالت الملكة ارمانوسة لمن غير ترجمان كم لكم عن الملك فقال شهر فقالت أكان رحل فى المراكب ام قبل رحيله فقال يوقنا بل قبل رحيله وأنه ركب منهزما ولما وصلت الى غزة بلغنى انه سار وكان قد قال لى فى السر بينى وبينه لا طاقة لنا بقتال هؤلاء العرب فان أبى هرقل ترك انطاكية وذهب وقد قاتلهم بجميع جنوده واستنصر عليهم بجميع دين النصرانية وانفذ اليهم ماهان الارمنى الى اليرموك فى الف الف فهزموه وقتلوه وانى أريد ان آخذ زوجتى واطلب القسطنطينية ثم انه وجهنى اليك أيتها الملكة لتركبى فى المراكب اليه قال فلما سمعت ذلك اطرقت برأسها الى الارض ثم رفعت رأسها وقالت انى لا اقدر ان اصنع شيأ الا بأمر الملك ابى وانى مرسلة اليه قال فقام يوقنا وصفع لها ودعا ثم خرج من عندها ووجد غلمانه قد ضربوا خيامه فنزل بها وأرسلت اليه العلوفة والضيافة قال ابن اسحاق الاموى رضى الله عنه ولقد بلغنى أنه لما جن الليل أتت اليها الجواسيس واعلموها بفتح قيسارية ومدائن الساحل جميعها وبتوجه عمرو بن العاص الى مصر وبحديث يوقنا صاحب حلب وحذروها منه وعرفوها بجميع الاخبار مفصلة وانه هو الذى فتح طرابلس وصور وجبلة قال فلما سمعت ذلك دخل فى قلبها الرعب وعلمت انه محتال فطلبت صاحبها وقالت

لهم العسكر بلابس السلاح وان يكونوا مستيقظين فقد جرى من الامر كذا وكذا ثم انها
أوقفت مماليكها وغلمانها وقالت لهم اذا دخل هذا الرجل وخواصه اقبضوا عليهم فاذا
نحن ملكناهم انخذل عسكر المسلمين فلما رتبت هذا أرسلت تطلب يوقنا فذهب
قاصدها اليه وقال له أيها البطريق الكبير ان الملكة تطلبك لتوصيك ما تقول لابيها فقال
له السمع والطاعة ها أنا راكب واصحابي فذهب القاصد فقال يوقنا لاصحابه اعلموا ان
الملكة شعرت بنا والقوم قد عولوا على قتلنا فان حصلنا في أيديهم قتلونا لا محالة
وتضرب بنا الامثال لمن يأتي بعدنا فموتوا كراما ولا تلقوا بايديكم الى القتل بأيدي
الكفار وكونوا نصرة لدين الاسلام وما عسى ان نرجوا من هذه الدنيا الغدارة التي
ما صفت لاحد الا وغيرته بالكدر فاعمروا دار البقاء وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده
فلعلكم ترضونه بذلك قال فأخذ القوم على انفسهم واشتدوا وركبوا وتوكلوا على الله
في جميع امورهم حدثنا ابن اسحاق رحمه الله ولقد بلغني ان الملكة أقامت تنتظر
قدومهم لتقبض عليهم فاستبطأتهم فبعثت رسولا ثانيا تستحثهم فقال له يوقنا ارجع
الى صاحبتك وقل لها ما جرت بذلك عادة الملوك يبعثون يطلبون الرسل الا لامر يحدث
وقد كنت عندها فما الذي تريده نصف الليل مني فعاد الرسول وأخبرها بما قاله فركبت
من وقتها وتقدمها حاجبها وأمرت الجيش كله ان يركب ودارت بيوقنا وأصحابه ولم
تحدث بشيء الى الصباح فاقبل حاجب الملكة اليهم وقال ما حملكم ان تركتم دين آبائكم
وهجرتم المسيح وأمه وقد جئتم تحتالون علينا الا وان المسيح قد غضب عليكم فقال يوقنا
ان المسيح عبد من عبيد الله لا يقدر على شيء لانه مأمور مكلف وقد انطقه الله بذلك
وهو في المهد فقال اني عبد الله وقال وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا والسلام
على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ومن يؤمر بالصلاة والزكاة ويموت فليس
باله انما هو عبد مكلف للعبادة مثل واحد منا وان الله لا يتشبه لاحد منا وان الله
لا يشبهه شيء ولا يشتبه بأحد ولقد أضلكم من صدكم عن ذلك وزاغ بكم عن طريق الحق
بقوله على الله والمسيح ولقد كنا مثلكم نسجد للصلبان ونعظم القربان ونسجد للصور ونجعل
مع الله الها آخر الى ان تبين لنا دين محمد صلى الله عليه وسلم فشفانا من الردى وهدانا بعد
العمى وشرح صدورنا للهدى فكيف ودين الاسلام هو الدين الواضح وكانا بقية الانبياء
من قبل وكنا نقول مثل قولكم ان المسيح ابن الله وان ابراهيم واسحاق كان نصارى
فكذبنا الله بقوله في كتابه ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا
مسلما وما كان من المشركين وقال سبحانه ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو
في الآخرة من الخاسرين وها نحن قد جئنا لنجاهدكم الا أن تقولوا لا اله الا الله

محمد رسول الله واما الجزية واما القتال قال فلما سمع الحاجب كلامه قال لقومه دونكم وهؤلاء فقد جاؤا من دون قتالكم أن يأخذوا مالكم وأولادكم وبلادكم وحريمكم قال فحملوا على يوقنا وأصحابه وعمل السيف بينهم بقية يومهم فلما كان من الغد ركبوا ودار وا بهم وتصايحت عليهم القبط ودارت بهم الخيل والرجال قبل يوقنا ومن معه بالاطاقة لهم به وقتل منهم جماعة وقتلوا هم من القبط خلقا كثيرا ولكنهم صبروا لامر الله وقالوا والله لا نسلم أنفسنا أو نموت كلما فقد حصل لنا ما كنا نطلب من رضى ربنا قال ابن اسحاق رحمه الله ورضي عنه حدثنا سيف بن شريح عن يونس بن زيد عن عبد الله بن عمر بن حفص عن عبد الله بن الحارث قال لما اخبرت الجواسيس أرمانوسة بقصة يوقنا انفذت كتابا الى أبيها المقوقس تعلمه بذلك وان المغلوبة معهم وأن العرب متوجهون مع رجل يقال له عمرو بن العاص وأنا منتظرة جوابك قال فلما وصل الكتاب اليه دعا ارباب دولته وقال لهم قد تم من الامر على كذا وكذا فما تشيرون به على قالوا أيها الملك نرى لك من الامر ان تنفذ جيشا الى الملكة تنصرها على عدوها وتنفذ الى جلبان ملك البرية تستنصر به على هؤلاء العرب وتنفذ الى مارع بن قيس ملك البجاه ينفذ لك جيشا وتنفذ الى من بالاسكندرية يأتوك والى من بالصعيد يأتوك فاذا اجتمعت لديك هذه الامم التي بهم العرب ولا تأمن اليهم فيطمعون فيك فقال يا أهل دين النصرانية اعلموا ان الملك يحتاج الى سياسة ومن ملك عقله ملك رأيه ومن ملك رأيه أمن من حوادث دهره وليست الغلبة بالكثرة وانما هي بحسن التدبير والله لقد كان قيصر أكثر مني جندا وأوسع بلادا وأعظم عدة وقد جمع من بلاد الروم الى اليونانية ومن قاليمه ومن القسطنطينية ومن سائر البلاد ومن بلاد الاندلس واستنصر بنا وبغيرنا فما أغنى عنه جمعه شيأ ولا قدر أن يرد القضاء والقدر عنه واعلموا ان العقل أساس الآدمي المخاطب المكلف المفضل به على سائر ما خلق على الارض فمن ملك عقله ملك أمره ومن لم يحذمه حذا كان بجهله أرضى ولن تنال الحكمة الا بالعقل قال الحكيم ماسوسى ان الحكمة مرقاة جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لانها غذاء الارواح وقوت القلوب واعلموا اني لست اتكلم بهوى بل علي ان أقول الحق وانا كلكم بالاصدق وأنتم تعلمون ان محمدا في ايامه بعث الينا يدعونا الى دينه فاستدللت على صدق قوله بكتابه وما ظهرت من معجزاته وقد سمعتم انه لما بعث ما سمع احد بذكره الا وخاف منه وقد سمعتم ان القمر انشق له والذراع المسموم كلمه وقال يا رسول الله اني مسموم فلا تأكلني وقد كلمه الضب والحجر والشجر والمدر وعرج به الى السماء وركب لوح الماء واول من تغلب عليه قومه وحاربه عشيرته حين انكروا قوله وفعله فنصر عليهم وقهرهم وقد تبين

لهم الحق فاتبعوه ونصروه وهم هؤلاء الذين قصدوا الشام وما انكرتم من امرهم الا انهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون حدود الله التى أمر بها وما فى كتابهم شىء الا وفى الانجيل مثله وقد امتلكم بولص واغوا كم حين غربكم وبدل شرعكم وسما كم باسم لا يليق بكم وكيف وقد حاد بكم من الطريق الواضح واحل لكم جميع ما حرم عليكم من قبل وهذا هو عين المحال وداعية العمى أن تتعبدوا ما قال نبيكم وكيف ينبغى لروح الله عيسى بن مريم ان يكلمكم بما لا ارسله الله اليكم ثم أن بولص قال لى فى النوم انه احل لكم لحم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصى ما ظهر منها وما بطن فاطعتم أمره وصدقتم قوله وحاشا المسيح ان يفعل ذلك وما كان احد من الانبياء الاعلى ما جاء به محمد وهؤلاء الحكماء الاولون ما منهم الا من يتكلم بوحدانية الله تعالى وهذا الحكيم دمونا الذى صنع فى برارى الجحيم ارصادا وجعلها مثلا للامم الآتية وذكروا فيها من يأتى من الامم والاجيال الى آخر الزمان وصور الحكماء منفردا به والنسر يفقد رأس الحمل والنسر يقيم فى كل برج ثلاثة آلاف سنة كما قدر بالمقدار الحكيم وكان قد صور صورة وكتب على رأسها بقلم اليونانية أربعة اسطر الاول من خاف الوعيد سلم مما يريد الثانى من خاف ما بين يديه صان دموعه بما فى يديه الثالث ان كنت تريد الجزيل فلا تنم ولا تقيل الرابع بادر قبل نزول ما تحاذر فمن كان هذا كلامهم فكيف صنع سواهم وهذه فريضة هؤلاء القوم المحمديين قال فاطرقوا برؤسهم الى الارض غيظا على الملك قال وما تكلم المقوقس بهذا الكلام حتى أوقف عنده من مماليكه الف غلام فوق رأسه بالسيوف لانه كان قد سمع ما جرى لقيصر وهرقل مع بطارقته لما جمعهم ونصحهم فوثبوا عليه وأرادوا قتله وأما المقوقس فانه استوثق بمماليكه حتى لا يطمع فيه قال فلما تكلم بذلك قال له وزيره أيها الملك رأيك راجح وأنا أول من يؤمن بما تقول فقال أيها الوزير اكتب الى ابنتى كتابا تأمرها فيه ان تتلطف بالقوم وتعطيهم الامان وتنفذهم الينا حتى نخلع عليهم ونطيب قلوبهم ويكونوا معنا يقاتلون من يريد قتالنا وما أراد بذلك الا ان يسلم مثل يوقنا وأصحابه اذ هم على الحق قال فكتب الوزير الى الملكة كتابا بما قاله أبوها فلما وصل الكتاب اليها وقرىء عليها أمرت أصحابها ان يرجعوا عن قتال يوقنا ومن معه فرجعوا وأرسلت الى يوقنا تعلمه بكتاب أبيها وأرسلت اليه الكتاب فلما قرأه قال لرسولها امض اليها حتى نستخير الله تعالى فى ذلك فقال يوقنا لاصحابه ان الله قد كشف حجاب الغفلة عن قلب هذا الملك وقد ظهر له ما ظهر لنا من الحق فما الذى ترون من الرأى قالوا نحن نسمع من رأيك فقال دعونى هذه الليلة قال فلما جن عليه الليل قام يصلى وأمر أصحابه ان لا ينزلوا عن خيولهم مخافة من غدر القوم

فبينما هو يصلى واذا بشخص قد دخل عليه فارتاع منه ثم تأمله فاذا هو عمرو بن امية الضمرى ساعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه يوقنا فرح وكان قد رآه مرارا فقال له مرحبا يا عمرو من أين فقال ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثنى الى عمرو بن العاص لاحثه على المسير الى مصر فوجدته قد وصل وها هو اليك قريب وقد أرسلنى اليك لاعرفه خبرك فاخبره بما وقع له وقال له امض يا عمرو وادعه يعجل بالمجى بعينما على هؤلاء القوم وحدثه بجميع ما جرى علينا قال فرجع عمرو مسرعا مثل الريح المهبوب الى عمرو بن العاص واعلمه بقصة يوقنا قال فدل عمرو بن العاص الاثقال ومعهم من يحفظهم وركب وسار بجرائد الخيل وترك مع الاثقال عامر بن ربيعة العامرى فما كان قبل طلوع الفجر الا وهو عند يوقنا فدار بالقوم فلما احس بهم يوقنا كبر هو ومن معه ورفعوا الجميع أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا السيف فى القبط فما طلعت الشمس الا وقد قتل من القبط أكثر من الف واسر منهم خلق كثير وولى الباقى منهزمين وأخذت ارمانوسة ابنة الملك وجميع ما معها من الاموال والرجال والجوار والغلمان وقال عمرو بن العاص لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل يزيد بن أبى سفيان وهاشم بن سعيد الطائى والقعقاع بن عمرو التميمى وخالد بن سعيد وعبد الله بن جعفر الطيار ومن قران وأمثالهم ان الله سبحانه وتعالى قد قال هل جزاء الاحسان الا الاحسان وهذا الملك قد علمتم انه كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث له هدية ونحن احق من كافأ عن نبيه صلى الله عليه وسلم هديته وكان يقبل الهدية ويشكر عليها وقد رأيت بان نبعث الى المقوقس ابنته وما أخذنا معها ونحن نتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سمعته يقول ارحموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر فاستصوبوا رأيه فبعث بها مكرمة مع جميع ما معها مع قيس بن سعد رضى الله عنه

(ذكر فتح مدينة مصر)

قال ابن اسحاق الاموى رحمه الله تعالى ورضى عنه لما ورد المنهزمون على الملك واخبروه بما تم عليهم وعلى ابنته ضاق صدره وبقى متفكرا بما يصنع وليس له نية فى القتال مع الصحابة فبينما هو متفكر اذ جاء البشير بقدوم ابنته وما معها فخفف عنه بعض ما كان يجده فلما دخل عليه قيس رفع مجلسه فوق الملوك والحجاب وأرباب دولته وكانوا قد اجتمعوا يهنونه بابنته فلما حضر قيس بن سعد سألته الملك عن اشياء لعل اصحابه ان تلين قلوبهم الى الاسلام فقال يا أخا العرب اخبرنى عن صاحبكم ما الذى كان يركب من الخيل قال الاشقر الاتم المحجل فى الساق وكان اسمه المترحل فقال لقد بلغنا انه كان لا يركب الا الحمار فقال قيس ان الله كرم الابل وشرفها اذ قال لما كونى وكانت

واخرج ناقة من الصخر وخص بها العرب من دونهم أي من دون غيرهم من بني آدم وكان تركبها السكونهم اقد جعلها الله مباركة تقنع بما تجد وتصبر على الحمل الثقيل والسير الشديد وتصبر عن الماء أياما وقد ذكرها ربنا في قوله في كتابه العزيز فقال وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق وقال والبدن جعلناها لكم من شعائر الله واول ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزواته غزوة بدر وكان معه مائة ناضح من الابل وكان معه فرسان تركب أحدهما المقداد بن الاسود الكندي ويركب الآخر مصعب ابن عمير وانا القينا قريشا في عددها وعديدها فهربوا ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه يتعقبون في الطريق وكان عليه الصلاة والسلام وعلي بن أبي طالب ومرشد بن أبي مرشد حليف حمزة بن عبد المطلب وهم يتعقبون شاجفا وكان أيها الملك تركب الحمار الذي اهدته اليه ويردف وراءه معاذ بن جبل وعلى الحمار ركاب من ليف وخطامه ليف واعلم يا ملك القبط أنه كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقول من رغب عن سنتي فليس مني وكان قميصه من القطن قصير الطول والكمين ليس له ازرار ولقد اهدى اليه ذويزن حلة اشتراها له قومه بثلاثة وثلاثين بعيرا فلبسها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة واحدة واهدى له جبة من الشام فلبسها حتى تخرقت وخفان فلبسهما حتى تخرقا وكان له رداء طوله أربعة اذرع وعرضه ذراعان ونصف وكان له ثوب خز يلبسها للوفد اذا قدموا عليه وكان احلى الناس اذا تكلم بكلمة ردها ثلاثا واذا رأى قوما سلم عليهم ثلاثا ورأيته كلما تحدث تبسم في حديثه وكان اذا اجتمع اليه أصحابه وأراد أن ينهض قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك قلنا يا رسول الله ان هذه الكلمات اتخذتهن عادة قال أمرني بهن جبريل واخرجت لنا زوجته لما قبض كساء وازارا غليظين وقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهذين فقال المقوقس هذه والله اخلاق الانبياء فطوبى لمن اتبعه فان امته هي الامة الموصوفة في الانجيل فقال بعض من حضر أيها الملك ما يكون امة عند الله أفضل من هذه الامة وهم نحن فغضب الملك من قوله وقال وبأي شيء انتم افضل عند الله بأكلكم الحرام وارتكابكم الاثام وصنعكم المنكرات وتجنبكم الحسنات وظلمكم في الرعية وميلكم الى الدنيا اين انتم من قوم عبر عليهم الاسكندر فرآهم ليس بينهم قاض ولا حاكم ولا أمير قائم عليهم ولا فيهم من يختص بالغناء دون أخيه بل هم سواء في كل ما هم فيه أكلهم وشربهم واحد غير متناف ولا متضاد وملبسهم غير متناف ولا متباعد فتعجب الاسكندر منهم وسأل الاكابر منهم عما رآه من أحوالهم فقالوا أيها الملك انا وجدنا جمجمة وعليها مكتوب يا ابن آدم ما خلقت الا من التراب وقد خلوت بما

قدمت اماما خاليسرك واما ما طالما فيضرك تندم حيث لا ينفعك الندم ولم يكن لك الى الدنيا مرجع فطوبى للكيس العاقل الذى ليس ببليد ولا غافل بترددالى ما اليه يصير ولا يلقى اتكال على التقصير فبادر الى الخير قبل الموت واغتنم حياتك قبل الفوت وكانك بالحى وقد هلك وترك كلما ملك فلما قرأنا هذا اعتبرنا أيها الملك بهذه الموعظة البالغة وتلبسنا باثوابها السابغة فقال ما بال مساجدكم شاسعة نائية وقبوركم دانية فقالوا اما مساجدنا بعيدة ليكثر الاجر بكثرة الخطا وقبورنا قريبة لتذكر الموت فننتهى عن الخطا فقال مالى أرى أبوابكم بغير غلاق قالوا الان ما بيننا خائن ولا سراق فقال مالى لا ارى فيكم أميرا ولا حاكما قالوا الان ما فينا متعد ولا ظالم فقال مالى لا ارى فيكم معسرا ولا فقيرا قالوا الان رزق الله فينا الكبير والصغير ثم انهم أخرجوا له جمجمتين عظيمتين فقالوا أيها الملك هذه جمجمة رجل عادل سالم وهذه جمجمة رجل ظالم وكلاهما صارالى هذا المصير ولم يغن عنهما الجمع والتدبير اما العادل فمسرور وريان واما الظالم فنادم حيران فاز المتقى وخسر الشقى فاختر ما تراه قبل الحين أيها الملك لانك قد ملكت النواصى ونفذ امرك فى الدانى والقاصى واستخلفك الله فى الارض وأمرك بالقيام بالنفل والفرض فتذكر مرجعك وزمانك واعمل لنفسك واعلم انه لا ينفعك جسدك اذا قبضت روحك واشتمل عليك لحدك فاترك أوامر الشيطان ودواعيه وخذ بأوامر الرحمن ونواهيه ولا يغرنك النعيم فتبوء بالاثم العظيم واذكر أيها الملك ما فعل الشيطان بأبيك حين نصب له مكيدته وادار عليه حيلته فنصب له فخ العداوة وغره فيه بحبة البرقة قال قيس أيها الملك أتدرى من اولئك قال لا قال هم قوم مؤمنون قال الله عنهم فى كتابه وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون وقد رآهم نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة عرج به فلما عاد اخبر أصحابه بهم فقالوا يا رسول الله اهم قوم مؤمنون بما أنزل عليك فاراد يعلمهم ان امة محمد افضل منهم فانزل الله وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون فقال المقوقس لقيس بن سعيد يا أخا العرب ارجع الى اصحابك واخبرهم بما سمعت وبما رأيت وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم فقال قيس أيها الملك ان لا بد لنا منكم ولا يصيكم منا الا الاسلام او اداء الجزية او القتال فقال المقوقس انا اعرض ذلك عليهم واعلم انهم لا يجيبون لان قلوبهم قاسية من اكل الحرام حدثنا ابن اسحاق رضى الله عنه حدثنا عبد الله بن سهل عن عدى بن حاطب عن سليمان بن يحيى قال ان الملك المقوقس كان من عادته انه فى شهر رمضان لا يخرج الى رعيته ولا يظهر لاحد من ارباب دولته ولا احد منهم يعلم ما كان يصنع وكانت مخاطبته لقيس بن سعيد فى أواخر شعبان سنة عشرين من الهجرة فخرج قيس من عنده ومضى الى عمرو بن العاص وحدثه بما كان منه

قال

قال ابن اسحاق رحمه الله وكان ولي عهد الملك ولده ارسطوليس وكان جبارا عنيدا وانه لما
سمع ما تحدث به أبوه ورأى ميله الى الاسلام وعلم انه لا يقاتلهم وربما اسلم وسلم اليهم ملكه
صبر الى ان دخل أبوه الى خلوته التي اعتاد ان يدخلها ويختلي فيها كل سنة فجمع ارباب
الدولة في الخفية لئلا يدرى به احد فيعلم اباه وقال لهم اعلموا انكم قد ملكتم هذا الملك وان
أبي يريد ان يسلمه الى العرب لانني فهمت من كلامه ذلك فقالوا أيها الملك انت تعلم ان
هذا الامر مرجعه اليك وأنت ولي عهده فاعمل امرا يعود صلاحه عليك وعلينا قال
فطلب صاحب شراب أبيه وأعطاه ألف دينار ووعده بكل جميل وأعطاه سما وقال له
ضعه في شرابه قال ففعل الساقي ما أمره به وسقى الملك فمات فاتى الساقي الى ارسطوليس
واعلمه ان أباه قد مات فذهب اليه ودفنه في الخفية وقتل الساقي وجلس على سرير
الملك كانه نائب عن أبيه اذا غاب كعادته في كل عام ولم يعلم أحد بموته هذا ما كان
منه وأما عمرو بن العاص فانه ارتحل من بلبيس ونزل على قليوب وبعث الى أهل البلاد
والقرى وطيب خواطرهم وقال لهم لا يرحل أحد من بلده ونحن نقنع بما توصلوه الينا من
الطعام والعلوفة فاجابوا الى ذلك وارتحل من قليوب ونزل على بحر الحصا فارتجت بنزولهم
اليها ووقع التشويش فيهم وعلا الضجيج واغلقوا الدروب والدكاكين ووقف كل أهل
درب على دربهم بالسلاح ليحموا حريمهم قال وأما عمرو بن العاص فانه امر أهل اليمن
ومن معه من العربان ان يحدقوا بالبلد وان أهل البلاد أقبلت اليهم بالعلوفة والطعام
والخيرات وهم يردون عليهم من كل فج ثم ان عمرا أراد ان يرسل الى صاحب مصر
رسولا وكان عنده غلام له من أهل الرملة وكان اسمه وردان وكان يعرف سائر الالسن
فقال له عمرو يا وردان اني أريد ان أرسلك الى هؤلاء القبط فانك تعرف بلسانهم ولا تظهر
لهم انك تعرفه فقال سمعا وطاعة فقال أريد ان اكتب معك كتابا وهم ان يكتب
واذا برسول ارسطوليس قد اقبل وقال يا معاشر العرب ان ولي عهد الملك يريد منكم
ان تبعثوا اليه رجلا منكم ليخاطب بما في نفسه فلعل الله ان يصلح ذات بينكم فقال عمرو
ليزيد بن أبي سفيان ولهاشم الطائي ولعبد الله بن جعفر الطيار والنعمان بن المنذر
ولسعيد بن وائل اعلموا اني قد ضربت على ملوك الروم ولست أرى من يتكلم مثلي
وما يسير الى هؤلاء الا انا فاني أريد ان أروز القوم وانظر حالهم وما هم فيه من القوة
وان لا يخفى علي شيء من أمرهم فقالوا يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوى
الله عزمك وما عندنا الا النصيحة للدين والنظر في مصالح المسلمين فافعل ما أردت
رحمك الله فقال لشرحبيل قد قلدتك أمور المسلمين فكن مكاني حتى امضي الى القوم
وآتيكم بما هم فيه فقال له شرحبيل الله يوفقك ويسددك قال فلبس عمرو ثوبا من

كرابيس الشام وتحته جبة صوف وتقلد بسيفه وركب جواده وسار ومعه غلامه وردان وساروا الثلاثة الى قصر الشمع واذاهم بالمواكب مصطفة والعساكر واقفة وهم بالدروع والجواشن والعدد وقد ظهروا ما امكنهم من القوة فلما وصلوا الى قصر الملك اخبر ارسطوليس ان قاصدك أتى وهو واحد من العرب فامرهم باحضاره فدخل عمرو راكبا وهو متقلد بسيفه فاراد الحجاب ان ينزلوه عن جواده فابى وان يأخذوا سيفه فابى وقال ما كنت بالذى انزل عن حصانى ولا اسلم سيفى فان أمرنى صاحبكم ان أدخل على حالتى والا رجعت من حيث اتيت فانا قوم قد اعزنا الله بالايمان ونصرنا بالاسلام فلا نذل لاهل الشرك والطغيان وأنتم طلبتونا ونحن لم نطلبكم فاعلموا الملك بما قاله فقال ارسطوليس دعوه يدخل كيف شاء فخرجوا اليه وقالوا له ادخل كيف أردت فدخل عمرو وهو راكب حتى وصل الى قبة الملك ورأى السرير والحجاب وقوف والبطارقة وهم فى زينة عظيمة فلما رأى عمرو ذلك تبسم وقرأ وما اوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال وكان قصر الملك قد بناه الريان ابن الوليد بن ارسيلاوس وهو الذى استخلف يوسف على مصر بعد العزيز ثم خرب واقام خرابا خمسمائة سنة وما بقى الا اثره فلما بعث عيسى وانتشرت دعوته ورفعه الله اليه وافترقت امته فرقا وادعوا فيه ما ادعوه من الالهية وتقول الكذب ولى مصر ارجاليس بن مقراطيس فبنى ذلك القصر الخراب وهو فى وسط قصر الشمع واعا سمى قصر الشمع لانه لا يخلو من شمع الملوك فلما بناه احضر الحكماء الذين كانوا قد سوافى برية اخميم وكان المقدم عليهم قربانس فقال لهم انى قد قرأت كثيرا من الكتب التى قد انزلت على الانبياء من الله وقرأت صحف موسى فان الله يبعث نبيا وله حق ودينه صدق اخلاقه طاهرة وشريعته ظاهرة وقد بشر به المسيح فما تقولون فيه فقال قربانس الحكيم ان الذى قرأته هو الصحيح قال فهل من يخالف ذلك قالوا لا فقال الحكيم أريد ان اصنع تمثالا من الحكمة وتجعل له رصدا باعلا قصرك وتجعله بيتا للعبادة وتجعل على هيكلها تماثيل يكون وجوهها مائلة الى التمثال باعلا قصرك فاذا جاء وقت مبعث هذا النبى يحول كل تمثال وجهه عن صاحبه والذى يجعل على الكنيسة فانه عند مبعث النبى العربى يقع على وجهه ويكون موضع عبادة القوم واقامة شرعهم قال فاخذوا فى عمل الحكمة واقاموا التماثيل على ما ذكرنا فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم حول كل شخص وجهه عن صاحبه وسقط الذى كان على سطح الكنيسة وهو الجامع اليوم وأما التمثال العالى فبقى على حاله باعلى القصر فلما دخل عمرو بجواده سمعوا من التمثال صوتا عظيما ثم انه سقط على وجهه فارتاع له الملك وأرباب دولته

وصلبوا على وجوههم ودخل الرعب فى قلوبهم وقالوا بلسانهم ما وقع هذا التمثال الا عند دخول هذا العربى وما جرى هذا الا لامر عظيم ولا شك انه هو الذى يقلع دولتنا ويأخذ ملكنا فامروا عمرو ان ينزل عن جواده فنزل وترجل وجلس حيث انتهى به المجلس ومسك عنان جواده بيده ويده اليسرى على مقبض سيفه ونظر الى زينتهم وزخرفة قصرهم فقرأ ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعلموا ان الدنيا دار زوال وفناء والآخرة هى دار البقاء اما سمعتم ما كان من نبيكم عيسى وزهده وفقده كان لباسه الشعر ووساده الحجر وسراجه القمر وقد قال نبينا صلوات الله عليه ان الله اوحى الى عيسى ان نح على نفسك فى الفلوات وعاتبها فى الخلوات وسارع الى الصلوات واستعمل الحسنات وتجنب السيآت وابك على نفسك بكاء من ودع الاهل والاولاد واصبح وحيدا فى البلاد وكن يقظانا اذا نامت العيون خوفا من امر لابد ان يكون فاذا كان روح الله وكلمته خوف بهذا التخويف فكيف يكون المكلف الضعيف واول ما تكلم فى المهد قال انى عبد الله فاذا كان اقر لله بالعبودية فلم تنسبون اليه الربوبية قال الله ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ولا اشرك فى حكمه احدا اجل عن الصاحبة والاولاد والشركاء والاضداد لا صاحبة له ولا ولد ولا شريك له ولا وزير ليس لاوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء ولا يحويه مكان ليس بجسم فيمس ولا بجوهر فيحس لا يوصف بالسكون والحركات ولا بالحلول والكيفيات ولا تحتوى عليه الكميات ولا المنافع ولا المضرات ثم انه قرأ ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا فقال له الوزير اصح عندكم معاشر العرب ان المسيح تكلم فى المهد قال نعم قالوا له فهذه فضيلة قد انفرد بها عن جميع الانبياء فقال عمرو وقد تكلم فى المهد اطفال منهم صاحب يوسف وصاحب جريج وصاحب الاخدود وغيرهم فقالوا يا عربى اتكلم نبيكم بغير العربية قال لا قال الله فى كتابه وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء قالوا ابعث الله نبيا غير نبيكم قال نعم قالوا من قال صالح وشعيب ولوط وهود قال فلما سمعوا كلام عمرو وفصاحته وجوابه الحاضر قالوا بالقبطية للملك ان هذا العربى فصيح اللسان جرى الجنان ولا شك انه المقدم على قومه وصاحب الجيش فلو قبض عليه لانهزم أصحابه عنا قال وغلام عمرو وردان يسمع ذلك فقال الملك انه لا يجوز ذلك ان نغدر برسول لا سيما ونحن استدعيناه الينا فقال وردان بلسان آخر ما قالوه ففهم عمرو كلامه

ثم ان الملك قال يا اخا العرب ما الذى تريدون منا وما قصدنا احد الا ورجع بالخيبة وانا قد كانت لنا الدولة والعبادة وكانكم بهم قد وصلوا الينا فقال عمرو انا لا نخاف من كثرة الجيوش والامم وان الله قد وعدنا بالنصر وان يورثنا الارض ونحن ندعوكم الى خصلة من ثلاث اما الاسلام واما الجزية واما القتال فقالوا اما الاثنين امرا الا بمشورة الملك المقوقس وقد دخل خلوته ولكن يا اخا العرب ما تظن ان فى اصحابك من هو اقوى منك حالا ولا افصح ... لسانا فقال عمرو انا اكل لسانا ممن فى اصحابى ومنهم من لو تكلم لعلمت انى لا اقاس به فقال الملك هذا من المحال ان يكون فيهم مثلك فقال ان احب الملك ان آتيه بعشرة منهم يسمع خطابهم فقال الملك ارسل اطلبهم فقال عمرو لم يأتوا برسالة وانما ان اراد الملك مصيبت واتيت بهم فقال الملك لو زوانه اذا احضروا وقبضنا عليهم والاحد عشر احسن من الواحد وردان يفهم ذلك ثم ان الملك قال لعمرو امض ولا تبطى علىّ فوثب عمرو قائما وركب جواده فقال الملك بالقبطية لا قتلنهم اجمعين فلما خرج من مصر قال له وردان ما قاله الملك فلما وصل الى الجيش اقبلت اليه الصحابة وسلموا عليه وهم يقولون والله يا عمرو لقد ساءت بك الظنون فاقبل يحدثهم بما وقع له معهم وبما قالوه وبما قاله وردان فحمدوا الله على سلامته وكان قد اقبل الليل فلما اصبح صلى عمرو بالناس صلاة الفجر وامرهم بالتأهب للقتال واذا برسول الملك قد اقبل وقال له ان الملك ينتظرك انت والعشرة فقال عمرو ان الغدر يهلك اصحابه واهله وان على الباغى تدور الدوائر يا ويلكم وهذا صاحبكم يطلب منا رسولا فلما اتيته يريد ان يقبض علىّ وقال كذا وكذا فانت يا ويلك ما الذى يمنعنى عنك اذا اردت قتلك ولسنا نحن ممن يخون ويغدر ارجع اليه وقل له انى فهمت ما قاله وما بقى بيننا وبينه الا الحرب قال ابن اسحاق رحمه الله ورضى عنه هكذا وقع لهم مع القبط وكان عمرو اذا ذكر ذلك يقول لا والذى نجانى من القبط قال وعاد الرسول اخبر الملك بما قاله عمرو فعند ذلك قال اريد ادبر حيلة ادهمهم بها فقال الوزير اعلم ايها الملك ان القوم متيقظون لانفسهم لا يكاد ان يصل اليهم بحيلة ولكن بلغنى ان القوم لهم يوم فى الجمعة يعظمونه كتعظيمنا يوم الاحد وهو عندهم يوم عظيم وأرى لهم من الرأى ان تكمن لهم كمينا مما يلى الجبل المقطب فاذا دخلوا فى صلاتهم يأتى اليهم الكمين ويضع فيهم السيف قال فاجابه الملك الى ذلك واقاموا ينتظرون ليلة الجمعة قال واما عمرو فانه ارسل يوقنا الى القرى التى صالحوهم ليأتيه منهم اعيانا كلونه ويعاقون به خيلهم قال وركب يوقنا الى القرى التى صالحوهم وسار فى عسكره وبنى عمه الى ما يأتى به ومضى نحو الحرف وكان معهم جواسيس الملك فى عسكرهم واتوا الى الملك واخبروه بما جرى عند المسلمين فعندها دعا بابن عمه

ماسيوس وهو المقدم على جيوش مصر وقال له اختر من جيوشنا اربعة آلاف وامض بهم واكمن من وراء عسكر المسلمين من جهة الجبل واياك ان يظهر عليكم احد وليكن لكم ديدبان فاذا دخل القوم فى صلاتهم احملوا عليهم وضعوا فيهم السيف قال ففعل ماسيوس ما امره به الملك ومضى من الليل من نحو مغارة السودان ولم يعرف بهم احد فلما كان وقت صلاة الجمعة اتاهم الديدبان واعلمهم انهم دخلوا فى الصلاة وكانوا قد اخذوا ابنا الاود واباو حملوها براوشعيرا وكان قد قال لهم اذا اردتم ان تحملوا عليهم قدموا الحول امامكم فانهم يامنون ويحسبون انها هى التى مضى صاحبهم يأتى بها قال ففعلوا ذلك حدثنا ابن اسحاق رحمه الله حدثنا عمارة بن وهب عن سعيد بن عامر عن سليمان بن نافذ عن عروة عن جابر عن محمد بن اسحاق قال هكذا دبروا عليهم القبط وكان بين القوم وبينهم نصف ميل وليس عند المسلمين خبر بما صنع المشركون وكان سعيد بن نوفل العدوى يقول لعمرو ايها الامير ما الذى عسكنا عن قتال هؤلاء القبط فقال والله ما تأخرى جزع واعلموا قد علمتم قصة هذا الملك المقوقس وما هو عليه من الدين والعقل وهو مقر بنبوة نبينا وقد دخل الى خلوته التى انبها لنفسه فى هذا الشهر المعظم وقد بقى منه خمسة أيام ويظهر ونبعث اليه رسولا ونرى ما يكون جوابه فاما الصلح واما القتال قال فبينما هم يتحادثون فى ذلك اذ أتاهم رسول من عند ارسطوليس بن المقوقس وقال لهم معاشر العرب ان ولى عهد الملك يسلم عليكم ويقول لكم انى لا أقدر أحدث أمرا حتى يخرج الملك من خلوته وقد بقى له خمسة ايام ويدبر فى رعيته بما يشاء فقال له عمرو وقد علمنا ذلك ولولا الملك وما نعلم منه انه يحب نبينا وانه مؤمن به ما امهلنا كم طرفة عين فمضى الرسول قال ابن اسحاق رحمه الله وما بعث هذا اللعين هذا الرسول الا ليطمئن المسلمون وليقضى الله أمرا كان مفعولا واذا جاء القدر لا ينفع الحذر فاذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه قال الراوى فكان المسلمون قد اطمأنت قلوبهم بذلك الخبر وقربت الصلاة فقام عمرو وخطبهم خطبة بليغة حذرهم فيها وانذر فلما فرغ اقيمت الصلاة واقاموا واموالهم يرقبون مخافة العدوان يكبسهم فى صلاتهم قال جابر ابن قيس ونحن لا نرى أحدا من أهل مصر لا فارسا ولا راجلا قال فاصطففنا خلف عمرو للصلاة وليس يبان لنا ساعد ونخافه فلما احرمنا وقرأ عمرو وركعنا رفعنا رؤسنا للسجود اذا شرفت الدواب والبغال وعلى ظهورها الاحمال والعسكر من ورائها وهم أهل الكمين الذين كمنوه اعداء الله وهم على عدد اصحابنا الذين مع نوقنا فلما رأوهم موالينا ظنوا انهم أصحابنا وقد اقبلوا بالعلوفة فرفعوا أصواتهم بالفرح وقالوا جاء نوقنا وأصحابه ولم يكلمهم العدو حتى أتونا ونحن فى الصلاة ووضعوا السيف فينا ونحن ساجدون

السجدة الاخيرة ونحن بين يدي الله تعالى قال واذا بالسيوف ترقع في لحومهم وما أحد منهم قام من سجوده وكان القتل في آخر صف من المسلمين والصف الذي يليه وهم قوم من اليمن ومن بجيلة ومن وادي القرى ومن الطائف ومن وادي نخلة ثم عاد بن عتبة وكنت قد شهدت وقائع الشام حضرموت واليرموك فوالله ماقتل مما في وقعة من الوقائع مثل ماقتل منا يوم بحر الحصى في أرض مصر بالحيلة التي دبرها عدو الله علينا قال والله ماسامن انحرف عن صلاته ولا حول وجهه عن ربه وقد ايقنا بالهلاك عن آخرنا اذ اشرف علينا يوقنا باصحابه فلما نظر واما حل بالمسلمين صاحوا ورموا اماعلى رؤسهم من العمائم وقال يوقنا النبي عمه والله من نصر منكم عن عدوه فقد بطالبه الله يوم القيامة ومااري الآن الأعداء قد غدروا وكبسوا المسلمين وداروا من حولهم ووضعوا السيف فيهم واحذروا ان يفلت منهم احد فحملوا واطبقوا على القبط فدفعوهم عن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل القتال بينهم حتى فرغ عمرو من الصلاة ومن معه وثاروا اثوران الاسود وركب عمرو ومعاذ وسعيد بن زيد وجميع الصحابة وحملوا في العدو وطحنوهم طحنا قال جابر بن أوس وحلنا بينهم وبين الوصول الى مصر فوالله مانجا منهم أحد وبقوا كانهم طيور وقعت عليهم شبكة صياد فلما وضعت الحرب اوزارها هني المسلمون بعضهم بعضا بالسلامة وشكروا الله على ما أولاهم من نصره واثنوا على يوقنا خيرا وافتقدوا قتلاهم فكانوا أربعمائة وستة وثلاثين قد ختم الله لهم بالشهادة قال واتصل الخبر الى ارسطوليس بقتل ابن عمه ومن معه ولم ينج منهم أحد فصعب عليه ذلك وايقن بهلاكه فدعا ببطارقته وأرباب دولته وشاورهم في أمره فقالوا أيها الملك انت تعلم ان الدنيا مادامت لاحد ممن كان قبلك حتى تدوم لك ومازالت الملوك تنكس وتعود ومادارت باكثر ممن اتهم من ملوك الارض وقد سمعنا ان داريوس ابن أردير ابن هرمز بن كنعان بن يزدجوز الفارسي هزمه الاسكندر الرومي سبعين مرة فاخرج الى لقاء القوم واضرب معهم مصاف ولا تيأس وهؤلاء القسوس والرهبان والشمامسة والرهبان والمطارنة والبترك يدعون لك بالنصر قال فعول على لقاء المسلمين وفتح خزائن أبيه وفرق على الجند وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر وأمرهم بالخروج وبعث يستنجد بملك النوبة وملك البجاة واقام مدة ينتظر قدومهم قال حدثنا محمد بن اسحاق القرشي عن عقبة بن صفوان عن عبد الرحمن ابن جبير عن ابيه قال لما كان من امر المسلمين ماذكرنا مما قدره الله عليهم من كبسة عدوهم كتب بذلك عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام عليك واني احمد الله اليك واصلي على نبيه اما بعد

فقد وصلت الى مصر سالما وجرى لنا على بلدة بلبيس مع ابنة المقوقس كذا وكذا ونصرنا الله عليهم ورحلنا الى بحر الحصى وقد كنا صالحنا قوما من اهل قرى بلاد مصر بلاد يقال لها الجرف حتى يعينونا بالعلوفة والميرة ويجلبوا الينا الطعام وانى أرسلت عبد الله يوقنا البشترى لنا منهم طعاما ومضى فى خيله وسرت سفدى رسولا الى مخاطبة القوم وهموا بالقبض على ونجانى الله منهم وانهم أكمنوا لنا كمينا من الليل واشغلونا برسول والكمين كان من الليل فلما استوت صفوفنا الى الصلاة كبسوا علينا ونحن فى الصلاة فلم نشعر حتى بذلوا فينا السيوف وقتلوا منا اربعمائة وستة وثلاثين رجلا وأما الاعيان منهم ستون ختم الله لهم بالشهادة ونحن الآن فى بحر متلاطم أمواجه من كثرة القوم والعساكر فانجدنا يا أمير المؤمنين وأدركنا بعسكر ليعيننا على عدونا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وختم الكتاب وأعطاه لعبد الله بن قرط فسار من ساعته وجد فى السير الى أن وصل المدينة فقدمها فى العشر الاوسط من شوال سنة اثنين وعشرين من الهجرة فأناخ مطيته بباب المسجد ودخل فرأى عمر بن الخطاب عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن قرط فدفعت الكتاب اليه فنظر الى وقال عبد الله قلت نعم قال من أين أتيت قلت من مصر من عند عمرو بن العاص قال مرحبا بك يا ابن قرط ثم فك الكتاب وقرأه وقال لاحول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ثم قال من ترك الحزم وراء ظهره تباعدت عنه فسحات الخطا والله ما علمت عمرا الا حازم الرأى مليح التدبير ضابط الامر حسن السياسة ولكن اذا نزل القضاء عمى البصر ثم انه كتب كتابا الى أبى عبيدة وذكر له ماجرى لعمرو بن العاص بمصر وأمره ان ينفذ اليه جيشا عرمرما وانفذ الكتاب مع سالم مولى أبى عبيدة قال عبد الله بن قرط فأقمت فى المدينة يومين واستأذنته فى المسير فزودنى من بيت المال وكتب الى عمرو يقول بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص أما بعد فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو وأصلى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد بلغنى ماجرى لكم بمصر من غدر عدوكم كما سبق فى أم الكتاب وكان يجب عليك يا ابن العاص أن لا تطمئن الى عدوك ولا تسمع منه حيلة وما كنت أعرفك الا حسن الرأى والتدبير ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا فاستعمل النشاط فى أمرك ولا تأمن لعدوك واستعمل الحذر فان امامكم ما يأتى الاعلى حذر ولا كذب خبر والله يعيننا واياك على طاعته وقد أنفذت الى ابى عبيدة انه يرسل اليكم جيشا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وختمه وسلمه لعبد الله بن قرط قال فأخذته وسرت وانا أجد السير حتى أتيت مصر ودفعت الكتاب لعمرو بن العاص فقرأه على المسلمين ففرحوا بذلك وأقاموا ينتظرون

اخوانهم حدثني ابن اسحاق حدثني سهل بن عبد ربه عن موسى بن عبد الرزاق قرأت بهواس قال لما كبس ابن المقوقس جيش المسلمين ودرت دائرة السوء عليه وقتلوا عن آخرهم وبلغه الخبر بكى على ابن عمه وحلف بما يعتقده من دينه انه لابد له أن يأخذ بثارهم ثم انه امر ارباب دولته ان يجتمعوا بالكنيسة المعلقة في داخل قصر الشمع فاجتمعوا فجلس على سرير عند المذبح وقام فيهم خطيبا فقال يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية اعلموا ان ملككم عقيم وبلدكم عظيم وهذه بلاد الفراعنة ممن كان قبلكم وقد ملكها أعدة ملوك ممن احتوى على الاقاليم وملكها الملك المعظم من آل حمير مثل مستغان والبستق والحدان وهو باني هذه الاهرام وماريد بن كنعان ولقمان بن عاد وذو القرنين الملك العظيم وانقضى ملكهم منها ورجع الى سبأ وأرضها وحضرموت وقصر عمان ثم تولى هذه الارض القبط من آبائكم وأجدادكم اطسليس وبليوس والريان بن الوليد وهو الذي استخلص يوسف لنفسه والوليد وهو المكنى بفرعون وبعدهما مليها اوس ثم جدي راعيل ثم أبي المقوقس وجميع ملوك الارض تحسدنا على ملك مصر وهؤلاء العرب الطماعة وليس في العرب اطمع منهم فاني أراكم قد كسلتم وفشلتم عن لقائهم طمعوا فيكم وفي ملككم كما طمعوا في ملك الشام وانتزعوه من أيدي القياصرة فقاتلوا عن أموالكم وحريمكم وأولادكم وأما انا فواحد منكم واعلموا ان الملك المقوقس قد أمرني بلقاء هؤلاء العرب وقال انه لا يظهر اليهم حتى أرى ما يظهر من قومي وأرباب دولتي فما تقولون وما الذي اجتمع عليه رأيكم فقالوا أيها الملك انما نحن عبيد هذه الدولة وغلمانها اذ انها قد استعبدت رقابنا بنعمتها واحسانها ونحن نقاتل لمحبتها فاما نرزق النصر من المسيح واما نموت فنستريح قال فشكرهم وخلع على أكابرهم وقال لهم اخرجوا واضربوا خيامكم ظاهر البلد ممع القوم وطاولوهم بالمبادرة الى أن يأتي الينا نجدة من ملك النوبة والبجاة فاجابوا الى ذلك وأمروا غلمانهم بان يضربوا الخيام خارج البلد اضربوها مما يلي السور والرصد قال ابن اسحاق وفي ليلتهم تلك جاءتهم الاخبار بانه وقع بين ملك النوبة وملك البجاة وانه ما يجيئكم منهم أحد واخرجوا الملك ارسطوليس سرادقا معظما وسط جيش القبط قال واخذ المسلمون على انفسهم وباتوا يحرضون بعضهم ويحرسون قومهم بالنوبة فكان عمرو في اول الليل يطوف حول العسكر ومعاذ اذا انتصف الليل ويزيد بن أبي سفيان في آخر الليل والنور على عسكرهم والايمان لايح عليهم واصواتهم مرتفعة بالقرآن وبذكر الله وبالصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم قال ابن اسحاق فلما وصل كتاب عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة وقرأه على المسلمين قال لخالد بن الوليد يا أبا سليمان ما ترى من الرأي فقال اذا كان أمير

المؤمنين

المؤمنين أمرك ان تنجد عمرو بن العاص فنجده قال ابو عبيدة ان الطريق الى مصر بعيد وان انا أرسلت جيشا كبيرا خفت عليه من بعد الطريق ومن المشقة فقال خالد كم جهدك ان ترسل قال أربعة آلاف فارس فقال خالد ان الله كفاك ذلك قال وكيف ذلك يا أباسليمان قال ان عزمت على ماذكرت فابعث أربعة من المسلمين فهم مقام أربعة آلاف فارس فقال أبو عبيدة من الاربعة قال خالد انا أحد الاربعة والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ومالك بن الحارث فلما سمع أبو عبيدة ذلك تهلل وجهه وقال يا أبا سليمان افعل ما تراه فدعاهم خالد واعلمهم بما عزم عليه فقالوا سمعا وطاعة فقال خذوا على أنفسكم فنحن نسير هذه الليلة قال فلما صلى أبو عبيدة بالناس صلاة المغرب قدم الثلاثة الى قبة خالد فركبوا وودعوا أبا عبيدة والمسلمين وأخذوا معهم دليلا يدلهم على الطريق الى وادي موسى والشوبك وأخذوا معهم ما يحتاجون اليه وساروا يريدون مصر فما زالوا يجدون الى ان قربوا من عقبة ايليا واذا هم بخيل ومطايا تزيد على الف فارس فاسرعوا اليهم فاذا هم من ثقيف وطي ومرداس قد وجههم عمر بن الخطاب الى مصر مع رفاعة بن قيس وبشار بن عون قال فلما رأوهم سلموا عليهم وحيوا بهم واستبشروا بالنصر لما رأوا خالدا وعمارا والمقداد ومالكا وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير وساروا بأجمعهم قال حدثنا يوسف ابن يحيي عن دارم عن منصور بن ثابت قال كنت في جملة الوفد الذي وجهه عمر رضي الله عنه مع رفاعة وبشار والتقينا بخالد بن الوليد وأصحابه عند عقبة ايليا وسرنا معهم حتى وصلنا أرض مصر وقربنا وبقي بيننا وبينها يومان فبينما نحن نسير في بعض الليالي وكانت ليلة مظلمة لا يكاد الرجل ان يبين من شدة الظلام اذ سمعنا حسا بالبعد منا فوقفنا فقال خالد ايكم يأتينا بالخبر بخبر هؤلاء الذين في هذا الجيش قال نصر ابن ثابت وكنت راكبا فقفزت من ظهر الراحلة وسعيت على قدمي واخفيت حسي الى ان تبين لي جيش كثير فحققت أمرهم فاذا هم جيش من العرب المتنصرة وهم يزيدون على ثلاثة آلاف وهم ركبان المطايا والخيل فقلت والله لا عدت الى أصحابي الا بالخبر اليقين قال فاتبعت أثرهم لاسمع ما يقولون وما يتحدثون فمشيت معهم قليلا فاسمعهم يقولون اذل الصليب اعداءنا فانا قد أصابنا التعب ولحقنا الجهد ومن وقت خرجنا من مدين لم نجد أحدا ومصر قد قربنا منها فانزلوا لنأخذ راحة ونريح مطايانا ونعلق على خيلنا واذا بمقدمهم يقول وحق المسيح ما بغيتنا الا في الخلع والاموال من ملك مصر ولكن اذا عولتم على الراحة فانزلوا قال فنزل القوم على ما يعرف بالغدير واقبلوا يجمعون الشيح ويضعون لهم الزاد وعلقوا على خيولهم وتركوا ابلهم ترعى قال

نصر بن ثابت فعلمت أن القوم من متنصرة العرب فتركتهم وأتيت الى أصحابي وحدثتهم بذلك فحمدوا الله كثيرا واثنوا عليه وقالوا لخالد ما الذي ترى فقال أرى أن تركبوا خيلكم الآن وتستعدوا للحرب ونسير اليهم ونكبسهم فانهم قد أتوا الى نصرة صاحب مصر وما أتوا الا بكاتبة لهم يستنجدهم على أصحابنا قال فسلوا سلاحهم وركبوا الخيل وتركوا اموالهم مع المطايا والرحال وساروا خيلا ورجالا الى أن قربوا من نيران القوم فصبروا حتى خمدت وناموا فنزلوا عليهم كنزال القطا فقال دوروا بالقوم ولا تدعوا أحدا منهم ينفلت من أيديكم فينبذ عليكم عدوكم قال فداروا بهم كدوران البياض بسواد الحدق واعلنوا بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فما استيقظوا اعداء الله الا والسيف يعمل فيهم ووقعت الدهشة في القوم وهم في أثر النوم فقتل بعضهم بعضا ووقع بن قيس ومعه جماعة من العدة نهم وبشار ورفيقه ومن انهزم أخذوه فلما أصبحوا أسا القتلى منهم الفا واسروا منهم الفا فعرضوهم على خالد فقال حدثوني من أين جئتم والى اين مقصدكم فقالوا انا قوم من متنصرة العرب وكلنا كنا أصحاب الشام فلما هزمتم الملك هرقل رحلنا من أرض الشام ونزلنا أرض مدين ونحن على خوف منكم وكاتبنا صاحب مصر وهو المقوقس لعله ان يأذن لنا ان نكون من أصحابه ونكون له عونا عليكم فأجابنا الى ذلك وبعثنا اليه الخيل العربية الى ولي عهده وصاحب الامر من بعده فلما كان في هذه الايام جاءتنا خلعة ورسالة بالدخول الى مصر فدخلنا اليهم فوقعتم بنا فلما سمع خالد منهم ذلك قال من حفر لمسلم قليبا أوقعه الله فيه قريبا ثم عرض عليهم الاسلام فابوا فامر بقتلهم فقتلناهم عن آخرهم وغنمنا رحالهم وما كان معهم ووجدنا معهم الخلع التي وجهها اليهم ابن المقوقس ففرقها خالد على المسلمين وفيها خلاعة سنية وكانت لمقدم القوم فاعطاها الرفاعة وساروا حتى قربوا من الجبل المقطب ورأوا جيش مصر مقابل جيش المسلمين فارسل خالد رجلا من قبله وهو نصر بن ثابت وقال له امض الى هذا الملك وقل له ان العرب اصحاب مدين قد أتوك لنصرتك قال فمضى الرجل الى ان وصل الى عسكر القبط فاخذه الحرس وقالوا له من أنت قال انا مبشر الى الملك بقدوم العرب المتنصرة الى نصرته قال ابن اسحاق فاخذوا نصر بن ثابت واتوا به الى سرادق الملك فلما وقفت بين يديه فنادوني الحجاب ان اسجد للملك فقلت وانا اسجد لله تعالى حتى لا ينكروا علي وكان قد صح عندهم انه من امتنع من السجود دهوه لم قال فلما رفعت رأسي قال لي الوزير يا أخا العرب ارسلوا أصحابك الى نصرة الملك فقلت نعم وها هم في دبر الجبل المقطب قال فلما سمع الملك ذلك امر من حجابه اناسا ان يمضوا الى لقائهم وسرت في جملتهم واخذوا معهم الجنائب واظهر وازى الفراعنة

وبلغ على نصر بن ثابت عوض بشارته وساروا الى لقاء المنتصرة قال حدثني عسكر بن حسان عن رفاعة بن اوس عن موسى بن عون عن جده نعيم بن مرة قال كنت فيمن وجه عمر بن الخطاب من أهل نخلة وكان خالد يحبني ويقربني لان ابي كان يسافر له ببضاعة الى سوق بصرى قال فلما رأى خالد أصحاب الملك وهم قد دانوا قال لي خالد يا ابن مرة أريد ان اوصيك فقلت بماذا قال اعلم ان العدو قد ارسل يلاقينا وهو يظن اننا من متنصرة العرب ولا شك ان عمرو بن العاص ومن معه تجفل قلوبهم منا واريد ك ان تنزل عن فرسك وتكمن خلف هذه الحجارة فاذا خلا لك الطريق فانسل نحو عسكر المسلمين وحدثهم بامرنا وما قد عزمنا عليه من غدر القوم فان عمرو لا يطمئن لغيرك واقرأه سلامي وقل له يكن على اهبة فاذا سمع تكبيرنا يأمر اصحابه ان يرفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير فان ذلك مما يزيد في رعب اعدائنا فقال نعم قال وفعلت كما أمرني خالد ونزلت عن فرسي واسلمته الغلامي دارم ومضيت نحو الجبل وكنت بين الاحجار (قال الراوي) وان خالدا امر اصحابه بلبس الخلع التي ارسلها لهم بن المقوقس فلبسوها فوق دروعهم ولبس رفاعة بن قيس وبشار بن عون احسنها وغير خالد زيه والمقداد وعمار ومالك الاشتر قال فلما وصل مقدم جيش القبط قال خالد لرفاعة وبشار ترجلا له واصقعوا بين يديه وصلبوا على وجوههم فليس عليكم في ذلك حرج واحلفوا بالمسيح والسيدة مريم واياكم والغلط بأن تذكروا محمدا صلى الله عليه وسلم فيفطن القوم بنا واجعلوا الجهاد نصب اعينكم وتوكلوا على الله في جميع اموركم قال ففعلوا ما قال لهم خالد وترجلوا عند رسول القبط وصقعوا قال حدثنا نصر بن عبد الله عن عامر بن هبار قال يا عم اعلم ان الله اذا اراد أمرا هيأ اسبابه وذلك انا لما أشرفنا على أول ديار مصر نزلنا على دير يقال له دير مرقص وكان ديرا عامرا بالرهبان فلما نزلنا عليه أشرفوا علينا اهله وقالوا من انتم قلنا نحن من اصحاب الملك هرقل ملك الشام وقد جئنا النصرة صاحبكم فانه قد ارسل اليه يستفزنا لاجل هؤلاء العرب قال ففرحوا بنا ودعوا لنا وكان كبيرهم والمقدم عليهم في دينهم شيخا كبيرا وكان من قسوس الشام وكان من اعلم القوم في دينهم واعرف الناس بآل غسان وكانت الضيعا قد اقطعها هرقل للملك الهائم بن جبلة وكان قد جعل على جبايتها ولهذا القس وكان اسمه نوناس وان المسلمين لما فتحوا بعلبك وحمص هرب هذا القس باموله واولاده الى طرابلس وركب البحر في مركب وتوصل الى مصر وبلغ خبره المقوقس فاحضره وسأله عن حاله فحدثه بامره فخلع عليه وجعله قيما في الكنيسة المعلقة التي في قصر الشمع وصار من اصحاب الملك واقربهم اليه وكان البترك غالب سكناه في دير مرقص ولا يدخل

فى مصر الا فى أمرهم المارل عمرو بن معه عليهم وقتل ابن المقوقس أباه احتاج الى رأى المبترك فارسل اليه وانزله فى الكنيسة وولى البترك مكان هذا القس تواس بن لوقا وكان فى الدير ولما نزل خالد بن الوليد ومن معه على الدير قال عامر بن المبارك الثعلبى فاشرف علينا راهب فتأملنا وكان اعرف الناس بخالد بن الوليد لانه رآه فى مواطن كثيرة من الشام وكان صاحب حمص قد أرسله رسولا الى أبى عبيدة لما صالحوهم. قال فجعل يتفقدهم وينظر فى وجوههم قال وحق المسيح ما انتم من آل غسان وما انتم الا من عرب الحجاز وقد حشتم لتحتالوا علينا فى رأى نبيكم الذى فتح الشام وقتل ملوكها وسوف اكاتب الملك بقصتكم ليقبض عليكم فقالوا وما عندنا خبر من الذى تقوله وقد خيل اليك ذلك أما علمت ان المسلمين ما خلوا لنا مالا وقد نهبونا وأصبحنا بالذل بعد العز والفقر بعد الغنا وقد كتب الينا آل مصر بان نجى اليه ولو سل الينا بالحاج وطيب قلوبنا قال عامر فضحك اللعين من قولى وقال لى ان آل غسان اكثرهم يعرف بكلام الروم وحق دينى ما انتم منهم وقد صح قولى انكم مسلمون فقلنا له يا ويلك لو كنا من الذين يقول عنهم ما كنا ناتيكم بالنهار وكنا نكمن ونسير فى الليل حتى نصل الى أصحابنا وإليك استقرت المسيح اذ جعلتنا من أصحاب محمد فقد وقعت فى ذنب عظيم ثم انه نزل بالقرب منهم فقال لأصحابه يا أبونا ليس هؤلاء القوم مما ذكرت فلو كانوا مسلمين ما جسروا ان يدخلوا أرض مصر فى ضوء النهار ولا يقربوا العمران فقال وحق دينى أنا أعرف الناس بهم وانهم مسلمون بلا شك وامتنعوا منهم ولا تخرجوا لهم طعاما ولا ماء وسأنفذ اخبر الملك بذلك ليكون منهم على حذر قال عامر بن هبار وكان من لطف الله بنا ان الرهبان الذين بالدير لما سمعوا كلامه قال بعضهم لبعض فيجب علينا ان نأخذ لنا منهم صلحا فنكون آمنين من غائلتهم ولا نفرح من ديرنا اذا فقال اكبرهم ان انتم تعلمتم ذلك فانما لا نعلم من سعر من الفريقين أصحابنا أم العرب فان كان النصر لأصحابنا خفنا من هذا القس ان يعلم بنا الملك انا صالحنا المسلمين بغير أمره فانه يقتلنا وان هذا اللعين تعلمون انه على غير مذهبنا وهو فى كل يوم يكفرنا لانه نسطورى ونحن يعقوبية فان أنتم تريدون صلح هؤلاء العرب فدونكم وهذا القس فاضبطوا عليه وسلموه لهم وخذوا منهم امانا قال ففعلوا ذلك وقبضوا عليه وأشرفوا علينا وقالوا يا بنى ماذا تقصدون من دينكم انتم من أصحاب محمد أم لا فانا قد قبضنا على هذا اللعين ونريد ان نسلمه لكم وانكم تعطونا امانا فانا قوم لا نعرف حربا ولا قتالا فقال لهم مالك الاشتر يا هؤلاء إما ما زعمتم من صلحنا فانا نصالحكم وما كان بالذى يخفى امرنا ولا نرضى بالكذب فانه اشنع شئ عندنا ولا سيما ان الاسلام يمنعنا من استعماله ولوان السيف على رأس الواحد منا اذا سئل عن دينه

لا باح

لا يباح به ويكلم بوحدانية الله تعالى ونحن من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولكم الامان وهذا أمان الله ورسوله قال فلما سمع الرهبان من مالك ذلك نزلوا وفتحوا الباب وسلموا الينا القس فقال له خالد يا عدو الله أردت أمرا وأراد الله خلافه ثم انه اعرض عليه الاسلام فأبى وقال أنا هربت منكم من الشام ثم اوقعني المسيح في ايديكم وما شك الا ان المسيح مسلم فافعل ما أردت فضربوا عنقه قال عامر بن هبار وخرج الينا أهل الدير بأجمعهم ومعهم الطعام والعلوفة فأكلنا واقمنا عندهم الى الليل فقال شيخهم الذي أشار عليهم بقبض القس الرومي لخالد أيها السيد اني قد تفرست فيك الشجاعة فبالله من أنت من أصحاب محمد فقال أنا خالد بن الوليد المخزومي فقال أنت وحق ديني الذي فتحت بلاد الشام واذللت ملوكها وبطارقتها وان صفتك عندي ثم انه دخل الدير وأتى ومعه سفط ففتحه واذا فيه بين أوراقه ورقة وفيها صفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزيه وهورته وصورة أبي عبيدة وصورة خالد بن الوليد والسيف في يده مشهور قال ما زلت اسمع اخبارك كلها فلم عزلك عمر بن الخطاب وولى غيرك فقال خالد اعلم ان عمر هو الامام وهو الخليفة ومهما أمرنا فلم نخالفه فان الله أمرنا بذلك في كتابه فقال تعالى اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فطاعته فرض علينا لانه يحكم بالعدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وانا قد وجهنا اليه من خمس الغنائم من الفتوح كله من الاموال فما ازداد في الدنيا الا زهدا ولا آثر الدنيا على الآخرة بل مجلسه على التراب ولباسه المرقعة ويمشي في سوق المدينة متواضعا راجلا فالتواضع لباسه والتقوى اساسه والذكر شعاره والعدل في الرعية دثاره وفناره يعطف على اليتيم ويرفق بالارملة والمسكين ويرفد ابناء السبيل فظ في دين الله غليظ على أعداء الله قائم بشعائر الله لا يستحي من الحق ولا يداهن الخلق فقال القس أكانت له الهيبة على عهد نبيكم قال خالد نعم سمعت سعد بن أبي وقاص يقول استأذن يوما عمر فأذن له فدخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك فقال عمر اضحك الله سنك يا رسول الله قال عجبت من هؤلاء اللواتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب فقال عمر أنت أحق ان يهبنك فقال لهن يا عدوات انفسكن اتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن نعم أنت فظ غليظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا غيره قال فلما سمع القس ذلك قال بركة نبيكم عادت على امامكم وعليكم فقال خالد وما يمنعك عن الدخول في ديننا فقال حتى يشاء صاحب هذه الخضراء ثم قال لخالد أريد ان اعطيكم من صلبان هذا الدير حتى تكمل حيلتكم

قال واخرج لهم صلبانا كثيرة فاخذهم خالد ودفعهم لرفاعة بن قيس وبشار بن عون
وتزيوا بزي الروم فتلوهم من آل غسان وارتحل خالد بعدما وكل بالدير عشرة من أهل
وادي القرى لئلا يخرج منهم أحد باخبارهم ويشعروا الملك بذلك قال وعدنا الى سياق
الحديث قال فلما أشرفوا أصحاب ابن المقوقس عليهم رأوهم وقد لبسوا خلع الملك
وعلقوا الصلبان وشدوا الزنانير ورفعوا الصليب الذي كان قد اخرجه لهم القس فلما
دنوا الصحاب وركبوا وساروا حتى وصلوا الى سرادق الملك فترجلوا وقد اخذوا لهم
اذنا فاذن لهم فدخلوا ودخل في الاول رفاعة وبشار وخدموا الملك وسجدوا له ولم
يدخل خالد ومن معه ووقفوا مع بقية العرب خارج السرادق وان الملك لما رآهم قال لهم
يامعاشر العرب أنتم تعلمون محبتنا لكم وتقربنا اليكم وقد طلبتم ان تكونوا لنا عونا على
هؤلاء العرب فان نصحتم لنا في دولتنا كما نصحنا لكم وقاسمناكم ملكنا ونعمتنا فقال له
رفاعة ابشر أيها الملك سوف ترى ما نبذله في محبتك يوم الحرب قال فخلع عليه وخرج
من عنده وأمرهم بخيام ان تضرب في عسكرهم قال حدثنا عامر بن اوس عن جرير
ابن ساعد عن نوفل بن عاصم عن سهل بن مسروق قال لما قدم الجيش الذي وجهه
عمر بن الخطاب مع رفاعة وبشار وكان من أمرهم ما ذكرناه ونظر اليهم عمرو بن
العاص ومن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اقبلوا ينظرون اليهم والى
زيهم فقال معاذ لعمرو وما هؤلاء من المتنصرة وان نفسي تأبى ذلك فقال عمرو والله يا أبا
عبد الرحمن لقد نظرت بنور الله واني نظرت فيهم واحدا واحدا ورأيتهم زي وادي نخلة
وزي وادي القرى وزي الطائف فقال شرحبيل بن حسنة وانا نظرت العجب من ذلك
اني رأيت خالد بن الوليد في جملتهم ولاحت لي عمامته وقلنسوته وثيابه التي كانت عليه
يوم دخول طرابلس فقال يزيد بن أبي سفيان أنا والله رأيت مالك الاشتر النخعي
وعرفته بطول قامته وركبته على فرسه ثم قالوا الا ان سيكشف لنا خبرهم على جليته
وهم في الحديث واذا قد أتاهم نعيم بن مرة فلما رأوه تهللت وجوههم فرحا وسرورا فلما
وصل اليهم وسلم عليهم وحدثهم بالحديث كله فسجدوا لله شكرا وقال بعضهم
لبعض ايقظوا هممكم وكونوا على يقظة من أمركم فاذا سمعتم التكبير في عسكر العدو
بادروا اليهم قال ابن اسحاق ولله في خلقه تدبير وذلك انه لما جن الليل جمع
ارسطوليس بن المقوقس ارباب دولته وقال لهم قد ضاق صدري من هؤلاء العرب
وقال لهم قد غلوا السعر عندنا لان البلاد قد اسفلت من خوفهم وان خيلهم تضرب
الى الريف من هذا الجانب والى الصعيد من هذا الجانب والنوبة والبجاة ما يأتينا منهم
احد للعلقة التي في بينهم والرأي عندي ان نحاجز هؤلاء العرب صبيحة عيدهم قالوا

ايها الملك هذا هو الرأى فقال اخرجوا السلاح وفرقوه على من لا معه سلاح هذا ما جرى عنده وليس عنده خبر بما جرى فى قصره بعده قال ابن اسحاق وكان من حسن تدبير الله تعالى لعباده المؤمنين انه كان للمقوقس اخ شقيقه واسمه ارجانوس وكانا متحابين وكان المقوقس لا يقطع امرا دونه وكانا اذا ركبا لا يفترقان واذا جلسا يجلسان معا على السرير وكان المقوقس قد دخل فى خلوته التى ذكرنا وكان اخوه من محبته قد رتب هناك من يعرفه لما يخرج من خلوته فلما كان فى هذه النوبة استبطأه فاتى الى ابن اخيه فرآه على السرير فقال له ما فعل الملك فقال انه فى خلوته الى الآن وقد رأى ان طالعه ضعيف مع هؤلاء العرب وقد امرنى ان اكون مكانه حتى يرى ما يريد من قتالهم او صلحهم قال فكتم ارجانوس الامر فى نفسه وعلم ان اخاه قد قتل وكان ارجانوس ممن يعتقد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويعلم ان دعوته تطبق المشرق والمغرب وان الملوك تضمحل فى ايام اصحابه وسينزلون على البلاد فترك ارجانوس الامر موقوفا ولم يبد ما فى نفسه لاحد فلما خرج ابن اخيه مع العسكر جمع ارجانوس الذين تركهم ابن اخيه لحفظ البلد فى قصر الشمع وقال لهم اعلموا ان العقل هو قوى ابن آدم لان الله قد خصه به دون سائر المخلوقات وان اخى قد قتله ولده ملاعه القاذ كان محبا لكم ومشفقا عليكم واعلموا ان هؤلاء العرب قد كان قدامهم من ملكه اعظم من ملككم وما ثبت بين ايديهم وليس بين دولتكم وبين ان تزول وتضمحل الا ان يلتقى هذان الجيشان وان ظفروا بكم هذه العرب قتلوكم ونهبوكم وسكنوا فى مساكنكم واتموا اولادكم فقالوا له أيها الملك فما يكون من الرأى عندك وما تفعل قال انى أرى من الرأى أن تستقلوا لانفسكم وتغلقون ابواب هذا القصر ولا تدعوا احدا يدخل عليكم من جند الملك ولا هو بنفسه فانهم لا يقدروا أن يقاتلوكم والعرب من ورائهم وانهم يعدوا الى الجانب الغربى ويمضى الى اسكندرية ونغتنم الصلح مع هؤلاء العرب على انفسنا واولادنا وحريمنا ونسلم لهم بعد ذلك فمن اراد يتبعهم ومن اراد يعطيهم الجزية قال فاستصوبوا رأيه وعلموا انه نطق بالحق وكان ارجانوس له فى سراوته ألف مملوك قال فاحتوى على قصر الملك واخذوا الخزائن والاموال وغلق ابواب قصر الشمع وفعل ما فعل وليس عند ابن اخيه خبر الى ان ذهب من الليل نصفه أو اكثر فجاء اليه بعض خدمه واخبره بما فعل عمه فايقن بتلافه وخروج ملك مصر منه قال فبينما هو فى حيرة من امره اذ كبر خالد بن الوليد ومن معه فى وسط عسكره فسمع عمرو واصحابه التكبير فكبروا ووقعت الخذلة على الكفار وجالت فيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف فلما نظر ارسطوليس الى ما نزل به والكبسة التى وقعت بعسكره لم يكن له دأب الا ان ركب

واحدقت به مماليك ابيه وارباب دولته وطلبوا الهزيمة وقصدوا البحر وعدوا الى الجانب الغربي وطلبوا اسكندرية فجازوا على مدينة مريوط وفيها الوبذان الساقي ومعه ثلاثة آلاف من عسكره فلما ان صاح الصائح في مصر بان الملك انهزم ما ثبت احد من عسكر القبط وولوا والسيف يعمل فيهم وغرق منهم في البحر خلق كثير ونصر الله المسلمين قال ابن اسحاق حدثني من اثق به انه قتل في تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلاف وغنم المسلمون اموالهم وما كان فيها من الاموال فلما اقبل الصباح اجتمع خالد بالمسلمين وسلم بعضهم على بعض وهنوا بعضهم بالسلامة ودخلوا مصر وملكوا دورها واحاطوا بقصر الشمع فاشرف عليهم ارجانوس بن راعيل اخو المقوقس وقال لهم يافتيان العرب اعلموا ان الله قد امدكم بالنصر وقد دفلت في حقكم كذا وكذا ولولا حيلتي على ابن اخي لما انهزم منكم وقد ظفرتم الآن ونحن نسلم اليكم على شرط انكم لا تعرضوا لنا ولا تمدوا ايديكم لنا بسوء ومن اراد منا ان يبقى على دينه يؤدي الجزية ومن اراد ان يتبعكم يتبعكم فقال لمعاذ بن جبل قد نصرنا الله على الكل ان يصدق بيانا وصالح اعداؤه اعنا الحق وانما قاتلنا ولا الاولياء ولا استعمل الغدر ولا المكر وانتم لكم الامان على انفسكم واموالكم وحريمكم واولادكم ومن بقي منكم على دينه فلن نكرهه ومن اتبع ديننا له ما لنا وعليه ما علينا فلما سمع ارجانوس ذلك نزل اليهم بالمفاتيح فامنوه وآمنوا من كان معه في القصر وجمعوا اكابر مصر ومشايخها وقالوا لهم ان الله قد نصرنا عليكم وقد انهزم ملككم مما وانتم الآن في قبضتنا وقد صرتم عمالنا ومن اسلم منكم قبلناه ومن ابى استعبدناه فقالوا ايها الامير ما هكذا بلغنا عنكم قال وما الذي بلغكم عنا قالوا سمعنا عنكم ان الله قد اسكن الرحمة في قلوبكم وانتم تعفوا عن من ظلمكم وتحسنوا الى من اساء اليكم وانت تعلم اننا قوم محكوم علينا ولو كان الامر الينا لاتبعناكم فارفقوا بنا وانظروا في احوالنا فقال عمرو لاصحابه يا امراء ما ترون من الرأي في امر هؤلاء القوم فقال شرحبيل ابن حسنة تصنع ما امر الله به من العدل فيهم وتحسن اليهم وتطيب خواطرهم فاننا اذا قصدنا غير هذه المدينة فيسمعون ايها الامير على اهل المدينة الاخرى بمرافقته مع اهل مصر فيسلموا بغير منازعة ولا حرب فقال معاذ بن جبل وخالد بن الوليد والمقداد وعمار ومالك وربيعة ويزيد القول الذي قاله كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المعمول به فقال عمرو لاهل مصر قد امناكم على انفسكم واولادكم وحريمكم منة منا اليكم وقد اهدرت عنكم جزية هذه السنة وفي السنة الآتية اخذنا منكم الجزية من كل محتلم اربعة دنانير ومن اسلم منكم قبلناه قال فلما سمع ارجانوس بن راعيل كلام عمرو قال لقد انصفت وان الله بهذا نصركم وقد

وقفت الآن على صحة دينكم وانا اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله واشهدوا على ان كلما تركه اخي من الاموال والاصول والثياب والمتاع هو هبة مني اليكم بما فعلتم مع اهل بلدي قال فلما نظر اهل مصر الى ارجانوس وقد اسلم دخل اكثرهم في الاسلام وعمد عمرو الى الكنيسة وعملها جامعا وهو المعروف به الى يومنا هذا وجمعوا الاموال التي اخذوها من وراء القبط المنهزمين ومن منازلهم وما كان في قصر الملك واخرج الخمس واعطى كل ذي حق حقه ثم كتب كتابا الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعث الخمس والكتاب مع علم بن سارية وسلم المال والكتاب له وسير معه مائة فارس وامره بالمسير الى المدينة فاستلم الخمس وسار حتى قدم المدينة وسلم المال والكتاب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما قرأه سجد لله شكرا وامر بالمال الى بيت المال فقال علم ابن سارية يا امير المؤمنين ان عمرا يسلم عليك ويقول لك ان القبط كانوا استسنوا سنة في نيلهم في كل سنة وذلك انهم كانوا اذا ابطأ عليهم الوفا في النيل يأخذوا جارية من احسن الجوار ويزينوها باحسن زينة ويرموها في البحر فيأتي الماء ويوفي النيل وقد قرب ميقات ذلك ولا يفعل عمرو شيأ الا باذنك قال فكتب عمر بن الخطاب بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين الى نيل مصر أما بعد فان كنت مخلوقا لا تملك ضرا ولا نفعا وانت تجري من قبل نفسك وبأمرك فانقطع ولا حاجة لنا بك وان كنت تجري بحول الله وقوته فاجر كما كنت والسلام وامره ان يدفعه لعمرو بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة اليه ثم انه كتب بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فالسلام عليك واني احمد الله اليك واصلي على نبيه واذا وصل اليك كتابي فاطلب اعداء الله حيث كانوا واياك ان تلين جانبك لهم وانظر في احوال الرعية واعدل فيهم ما استطعت واطلب العفو بالعفو عن الناس واجر الناس على عوائدهم وقوانينهم وقربهم واجبا في دواوينهم واعل رسوم العبادية بالعدل فانما هي أيام تمضي ومدة تنقضي فاما ذكر جميل واما خزي طويل ثم انه سلم الكتاب الى علم بن سارية فساره ومن معه الى ان قدموا مصر وسلم الكتاب الى عمرو فاما كتابه فقرأه على المسلمين وأما كتاب النيل فانهم قد كانوا عدوا الليالي الوفاء وتوقف النيل على الوفاء وتداعس الناس من الوفاء في تلك السنة فمضى عمرو الى النيل وخاطبه ورمى فيه كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال فلما رماه فيه هاج البحر وزاد الى فوق الحد ببركة عمر بن الخطاب وانقطعت عن اهل مصر تلك السنة السيئة ببركة عمر رضي الله عنه حدثنا محمد بن يحيى بن سالم عن عدي بن يحيى بن عوف قال لما بلغنا ان عمرو فتح مصر وأتى الى الكنيسة المعظمة عندهم وجد في مذبحها بيتا مغلقا

واذا فيه صورة من الفضة وامام الصورة شخص آخر وفي يده ازلام وهي على صفة الصورة التي وجدها النبي صلى الله عليه وسلم في الكعبة لما فتح مكة فدعا عمرو بالاقسة وقال لهم ما هذه الصورة قالوا له هذه صورة ابراهيم وابوه آزر فتبسم عمرو وقال ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين فقال معاذ بن جبل لما قدمت من اليمن سمعت أبا هريرة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قترة فيقول له ابراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول آزر اليوم لا اعصيك فيقول ابراهيم يارب انك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأي خزي اخزى من هذا فيقول الله اني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول له ياابراهيم أنظر الى ما تحت قدميك فينظر الى الريح وقد اخذت اباه فتلقيه في النار قال ثم امر عمرو بالصورتين فكسرتا وعبر عسكر المسلمين الى الجانب الغربي وقد تقدم خالد فترحل الى نحو الاسكندرية وتقدم على مقدمته عبد الله يوقنا وسار يوما وليلة هو وبنو عمه وهم بزي الروم

(ذكر فتوح مدينة مريوط)

قال ابن اسحاق وكان قد بلغ الموبذان الذي مع الثلاثة آلاف وهم في مدينة مريوط وقد حصنها فلما قدم عليه يوقنا قال له الموبذان ما الذي اقدمك علينا فقال يوقنا ان المسلمين وجهوني اليك وهم يحرضونك على خلاص نفسك وهم يأمرونك بتسليم هذه المدينة اليهم ولك الامان على نفسك واهلك ومالك ومن اردت ولك الخيار في المقام تحت ذمة الاسلام والانفصال فان اخترت المقام فلا مانع يمنعك وان اردت المسير اوصلناك الى اي موضع اردت فلما سمع الموبذان ذلك قهقه ضاحكا وقال وحق دين ان الغدر شعاركم والمكر دثاركم ولا افلح من آمن اليكم وأما أنا فلا اخون الملك في بلده وانا واياه في ارض واحدة وسوف ابعث اليه بان اقدم اليه واساعده عليكم جزاء عاهم غمو من الخديعة وستعلمون على من تدور الدوائر ومن يكون المغبون في الامر وانتم يامعشر الروم قد كفرتم بالمسيح وجحدتم السيدة ام النور وخرجتم من ملة الآباء والاجداد واردتم هؤلاء العرب الجياع الاكباد العراة الاجساد وان يغنوا عنكم شيأ وحق المسيح لابعثن بكم الى الملك فيقتلكم على كفركم وكان يوقنا قد ترك جماعته ومضى في عشر من رجاله منهم اهله فعمل عليه حيلة لما دخل عليه انزله في دار الضيافة فوضعوا سلاحهم فلما اكلوا الطعام وتحادثوا وكان قد فطن بهم وامر غلمانه ان يكونوا على حذر وان يهجموا عليهم فيقبضوهم يريد بذلك ان يرسلهم الى الملك الى اسكندرية وارماهم في بيت مظلم في دار امارته واقام ينتظر غفلة من عسكره وكانوا قد احاطوا بالبلد وكل منهم

جارية اسمها زينا وهي اخت مارية التي ارسلها المقوقس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت اختها شقيقتها وسلم اليها المفاتيح لمعزتها عنده، وقال لما احتفى بي عليهم لا ارى ما انظر فيهم قال فلما جن الليل واشتغل عدو الله الموبذان بالشراب قال فصبرت رينا الى ان غرق في سكره هو ومن معه وناموا وآمنت على نفسها فأتت الى الباب ووقفت على يوقنا واصحابه وقالت لهم أبشروا لا خوف عليكم فان الله قد جعل رحمتكم في قلبي وانا اخت مارية التي اهداها المقوقس لنبيكم واني اريد منكم ان توصلوني الى عند اختي مارية فقال لها يوقنا ابشري بما يسرك ولكن اخاف عليك من عدو الله فما تريدين فقالت والله ما جئتكم حتى سكر ونام فقال لها يوقنا فعرفينا الطريق التي نسلكه الى قومنا قالت ان هذا المكان فيه سرب يخرج الى ظاهر البلد وهو مبني من قديم الزمان وبابه الخارج مبني عليه قبة على اعمدة وتحتها قبر بين المقابر فكل من رآه يظن انه قبر وان الذي بنا هذه المدينة امراة يقال لها نعمان بنت عاد وصنعت هذه المقابر التي وراء التل وهي كأنها قصور مشيدة وكان فيها أناس يسكنونها فقال يوقنا افعلي بنا ما يقربك الى الله تعالى ورسوله ولعلك ان تنزلينا من هذا السرب حتى نذهب الى اصحابنا ونأتي بهم من هذا السرب ما دام الموبذان سكران وهو نائم قالت سأفعل ذلك ان شاء الله غير اني اريد ان افتح لكم باب السرب قبله حتى لا تتعوقوا قال الراوي وقد رأينا اخت مارية مضت واشرفت على الموبذان فاذا هو ومن معه صرعى من الخمر فتركتهم وعادت الى باب السرب لتفتحه واذا هي تسمع وراءه حسا فزعت ووقفت تسمع قال حدثني عبد الرزاق بن يحيى عن سليمان بن عبد الحميد عن سفيان الاعمش عن اوس بن ماجد وكان ممن شهد فتوح مصر والاسكندرية قال لما نزل خالد بن الوليد على مريوط بجيشه تفقد يوقنا وقال لاصحابه اني من وقت بعثته برسالتي الى مريوط للموبذان ما عاد قالوا ايها الامير انه من وقت دخل اليه ما خرج ونحن في انتظاره فعلم خالد ان يوقنا مقبوض عليه فبات مهموما من اجله وكان خالد صاحب همة وعزيمة لا ينام من خوفه على المسلمين وكان معه جراسيس قد اخذهم معه من كل اقليم وقد اصطفاهم لنفسه وهو يحسن اليهم وانما ذهب يكونون معه ليأتونه بالاخبار فبينما هو في غم بسبب يوقنا واذا هو بواحد منهم قد دخل اليه واعلمه ان ولد الموبذان قد اتى من اسكندرية من عند ارسطوليس ومعه خلع وهدايا لابيه ومعه خمسمائة فارس وقد بلغه انكم محاصرون اباه فترك العسكر وما معه بالبعد وانفرد ومعه خادمان وأتى وما نعلم ما يريد قال فلما سمع خالد ذلك قام واخذ معه غلامه همام واربعة ممن يعتقدهم وابعد وقعد مع سفح التل من نحو اسكندرية ونظروا الى التل واذا بولد الموبذان ومعه الخادمان

وقصدوا الى وراء التل عند تلك المغاير التى وصفتهم رمتاليوقنا وقصدوا القبة فتبعهم خالد وراءهم وفرق جماعته من اربع جهات القبة وكبسهم واذاهم قد فتحوا ابابا في وسط القبة فاخذهم خالد فلما رآه ابن الموبذان ارتعدت فرائصه وخاف فقال خالد ان صدقتمونى آمنتكم وان لم تصدقونى رميت رقابكم فقال الغلام أنا اصدقك أنا ولد الموبذان وكنت عند الملك فى اسكندرية وقد انفذ معى خمسمائة فارس عونا لابى وحفظا لهذه المدينة مصر فى الطريق واذا قد جاءتنى الجواسيس بأنكم نازلون على البلد فاوقعت العسكر واتيت الى هذه القبة فقال له خالد وما الذى تريد من هذه القبة الكم فيها سلاح أم مطالب فيه مال قال لا قال فما تريد منها قال الغلام ان آمنتنى قلت لك الحق فقال له خالد قد آمنتك على نفسك فباس يده وقال يا مولاى ان بدا ما لابى ومن يلوذ به فاعطاه فقال اعلم ان هذه القبة على سرب والسرب ينتهى الى دار الامارة ودار الامارة فى وسط هذه المدينة قال فلما سمع خالد ذلك تهلل وجهه فرحا وسرورا وقبض على الغلام وعلى الخادمين وامر همام واحدا آخر ممن معه ان يفتحوا السرب ففتحوه فارسل همام الى العسكر وامره بأن يأتيهم فى السر وان يأتوا معهم بالنار والزيت والقناديل وان يسرع بذلك وكان ذلك التل عال والدين فى المدينة لا ينظرون ما وراءه فلما اقبل همام بما طلبه خالد واوقدوا المسارج ونزلوا فى السرب وابن الموبذان امامه ووصلوا الى الباب واداره عند الباب تريد فتحه ليوقنا ومن معه فلما سمعت حسهم قالت من أنتم فقال خالد لابن الموبذان ان يكلمهم فقال لهم أنا فلان بن الموبذان افتحى ولا تعلمى أبى قال ولم يبق لها بد ان تفتح الباب ففتحت فصعد خالد ومن معه فقبضوا على رينا فقالت لهم يا قوم دعونى فانى اردت ان اخلص اصحابكم وجئت لافتح لهم هذا الباب وانزلهم اليكم وتملكوا هذه المدينة من هاهنا وقد أتى بكم رب العالمين وانا رينا اخت مارية زوجة نبيكم فلما سمع خالد فرح وقال لها وأين اصحابنا فاتت بهم الى عندهم فحلوا وثاقهم واتوا الى دار الامارة فوجدوا الموبذان لا يعقل على نفسه من الخمر فوكل به جماعة وأمر الباقى أن يملكوا الصور وقبضوا على الحرس ونزلوا الى الابواب وكان لها بابان فكسروا اقفالها وفتحوهما وارسل الى بقية العسكر فدخلوا المدينة والكل فى حكم الليل فلما اصبح الصباح استيقظ الموبذان ومن معه واذا بالمسلمين حولهم وكل من فى المدينة قد اسر فقال له خالد يا عدو الله لولا انى اعطيت لولدك الامان كنت قتلتك اشر قتلة ولكن خذ اهلك وانصرف فانا قوم اذا قلنا قولا نفعل به وفهم الموبذان ان ولده قد دلهم على السرب فلما خرج الموبذان باهله قال ولده لخالد يا مولاى ان انا مضيت معه قتلنى ولست اريد بغيركم بدلا وانا اقول اشهد ان لا اله الا الله محمد رسول الله

فقال له خالد ان قصرا بيلك وما فيه فهو لك واعرض خالد الاسلام على اهل مريوط فاسلم اكثرهم ثم ان خالد قال ليوقنا رحمه الله ابشر من الله بالرضوان والغفران والثواب فبصبرك على الشدائد فتح الله علينا هذه المدينة فقال والله ما فتحها الا بفضله وبركة نبيه صلى الله عليه وسلم فكتب خالد الى عمرو بن العاص يبشره بفتح مريوط ونحن معولون على الدخول الى اسكندرية وارسل الكتاب اليه قال ابن اسحاق واقام خالد بمريوط لاجل ذو الكلاع الحميرى لانه مرض معه وكان مرضه شديدا فجلسوا عنده شهرا ولم يفارقه خالد فقدر الله بالوفاة فحزنوا عليه حزنا شديدا عظيما وكان ذو الكلاع ملك حمير وكان قبل دخوله فى الاسلام يركب له اثنى عشر الف مملوك سودان سوى ماله قال ابو هريرة الدوسى رضى الله عنه ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشى فى سوق المدينة وعلى كتفه جلد شاة المقدم من اليمن الى الجهاد فى ايام ابى بكر الصديق رضى الله عنه فلما مات رثاه ولده تنوخ بارثى به حمير لابيه سبابن محسيب فى الزمن المتقدم فقال شعر

عجبت ليومك ماذا فعل * وسلطان عزك كيف انتقل
واسلمت ملكك لله طائعا * وسلمت للامر لما نزل
فيومك يوم رفيع النزال * وزورك فى الدهر زور وجل
فلا يبعدنك فكل امرء * سيدركه بالسنون الاجل
لئن صحبت نائبات الزمان * وشب مع الدهر وجد الامل
لقد كنت يا الملك ذو قوة * لك الدهر بالعز عان وجل
بلغت من الملك اقصى المدا * نقلت وعزك لم ينتقل
قطعت آفاقه والمدا * وجئت من العرب حوب الدول
حويت من الدهر اطلاقه * ونلت من الملك مالم ينل
وحملت عزمك ثقل الامور * فقام بها عازما واستقل
صحبت الدهور فانيتها * ومامر عيشك فيما فعل
بنيت القصور كمثل الجبال * ذهبت فلم يبق الا الطلل
نعمنا بايامك الصالحات * وشربنا بسحبك وبل وطل
نؤمل فى الدهر اقصى المنى * ولم ندر بالامر حتى نزل
فزالت لهرك شم الجبال * ولم يك حرمك فيها هبل

(فتوح اسكندرية)

قال وعول خالد فى المسير الى اسكندرية حدثنا زياد ابن اوس الطائى عن معمر بن الرشيد قال لما نزل خالد بعد رحيله عن مريوط قال له عيونه انه لما انهزم ابن المقوقس

وأتى الى اسكندرية وبلغه فتح مصر فصعب عليه ذلك وكانت اسكندرية عامرة كان فيها الخلق كثير والمراكب فارسل مراكب وعمرها بالرجال وأمرهم ان يكبسوا سواحل بلاد الشام على المسلمين فقالوا سمعا وطاعة ومضوا الى ساحل الرملة فوجدوا بالليل نيرانا كثيرة فسألوا من كان خبيرا بالبلاد فقال الواحد نيران المسلمين النازلين ههنا فقال الواحد هذه حاجتنا التى جئنا فى طلبها فنزلوا وقصدوها واذا هى احياء من حلل دوس بنى عم ابى هريرة وكان معهم طائفة من بجيلة وفى جملتهم ضرار ابن الازور وهو مريض واخته خولة معه تمرضه وكان أبو عبيدة أمرهم بالنزول هناك لاجل كثرة المرعى وهم آمنون مطمئنون من الروم وغيرهم لان دولة الروم قد انصرمت وايامهم قد ولت قال فما فطنوا القوم الا وقد كبسوهم القبط فى حكم الليل ووضعوا فيهم السيف فقتلوا منهم رجالا وأخذوا منهم اسارى ومن جملتهم ضرار واخته وأخذوا ما قدروا عليه حمله واتوا بهم الى المراكب وكان جملة من اسروه من الرجال والنساء والاولاد والعبيد الفا ومائة نفس فوضعوهم فى المراكب واقلعوا بهم من ليلتهم وساروا طالبين اسكندرية قال ابن اسحاق وكان أبو عبيدة قد استوطن طبرية لكونها فى وسط البلاد وهى قريبة من الاردن والشام والسواحل وان أبا هريرة قد أتى ليزور قومه فى تلك الايام ويسأل عن حال ضرار وكانوا يحبونه لشجاعته فاتى أبو هريرة ومعه حليف له من بنى بجيلة فاصبحا فى تلك الليلة فى الحى واذا بهم قد أخذهم القبط وبيوتهم مطروحة والرجال مقتولة وآثارهم منبوذة ووجدوا من الذين انهزموا اناسا مجروحين فسألوهم فقالوا ما عندنا خبر حتى كبسونا قوم نصارى وما نعلم من أى الطوائف هم ولم نعق حتى وقعوا فينا بالسيوف فقتلوا ما ترون وأسروا الباقين وأخذوهم فى مراكبهم فقال أبو هريرة لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وسار الى ساحل البحر فلم يروا لهم أثرا فلما عولوا على الرجوع واذا بلوح من الواح المراكب تلعب به الامواج وعليه شخص فوقفوا له حتى أقبل وخرج الرجل واذا به أمير دوس وحيان بن عم أبى هريرة فلما رآه ترجل له وعانقه وهناه بالسلامة وقال له يا ابن عم ما وراءك فقال هجم العدو علينا ليلا وأسرونا وساروا فلما توسطنا البحر بعث الله بريح فغرقت مركبنا وقد نجانى الله على هذا اللوح فقال له ومن اعداؤكم قال من قبط مصر وانى سمعتهم يذكرون اسكندرية كثيرا قال فرجع أبو هريرة يطلب طبرية وأتى ابن عمه الى مكان الحلة حتى يلم شعث الناس ويداوى المجروحين فجمع ما تركوه وأتى بهم الى الرملة وأما أبو هريرة فأتى أبا عبيدة واخبره بما جرى واسترجع وبكى وقال أعوذ بالله من الساعات الردية ثم قال والله لئن وصلوا الى اسكندرية ما يبقيهم صاحبها طرفة عين ويموت ضرار ويعصى

سمه هدزا وكتب الى عمرو بن العاص يعلمه بذلك ويحذره من صاحب اسكندريه وانه أسر ألف فارس من جملتهم ضرار واخته تداويه وهي عنده فاذا وصل اليك كتابي هذا فاجتهد في خلاصهم وان وقع في أيديكم أحد من القبط ففادوهم به ودفع الكتاب لزيد الخيل وأمره ان يسير الى مصر فلما قدم زيد الخيل الى مصر دفع الكتاب لعمرو بن العاص فلما قرأه صعب عليه وكان يحب ضرارا فارسل الكتاب الى خالد بن الوليد وكتب اليه يحثه بالمسير الى اسكندرية وانه يفتقد حال الاسرى فلما وصل الكتاب الى خالد وقرأه صعب عليه أمر ضرار وأخته خولة حدثنا ابن اسحاق قال حدثنا عاصم بن منصور عن أحمد المروزي عن سلمة عن عبد الله بن المبارك عن عبد العزيز عن أبيه قال لما أخذت حال دوس وضرار وأخته وعصفت عليهم الريح وغرق المركب الواحد ووصل الباقي الى اسكندرية ووقفوهم امام ابن المقوقس أراد قتلهم فقالوا له أرباب دولته أيها الملك لا تعجل عليهم واعلم ان العرب متوجهة اليك ولا بد لنا من قتالهم فان اسر احد منا ممن يعز عليك يكون عندنا من نفادي به ولعل ان نصالح العرب فاستصوب رأيهم وقال ردوا هؤلاء الاسرى الى دير الزجاج وأرسل معهم الفي فارس يوصلوهم الى الدير فجاءت عيون خالد وأخبروه بما وقع فقام وأخذ معه أصحابه وسار يطلب دير الزجاج فوصل خالد الى الدير قبل وصول الاسارى ومن معهم فلما احدقوا بالدير اشرف عليهم راهب كبير السن وكان اسمه مباح وكان تلميذ البحيرا راهب بصرى وكان مؤمنا بالله وبانبيائه فقال له خالد يا راهب كيف ترى الدنيا قال تخلق البدن وتجدد الامل وتقرب المنية وتقطع الامنية قال فما حال اهلها قال من نال منها شيأ نقصته ومن فاته منها شيء حسرته قال فما خير الاصحاب فيها قال العمل الصالح والتقى قال فما شر الاصحاب فيها قال اتباع النفس والهوى قال خالد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها ثم قال كيف طابت لك الوحدة قال الفتها قال فهل نلت منها فائدة قال نعم الراحة من مداراة الناس قال فما احسن هذا الاعتقاد لو كان في دين الاسلام والتوحيد قال فما أعرف غيره قال فما تقول في محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قال سيد الرسل وخاتم الانبياء وصفي الاصفياء وحجة الجبار على الورى قال فلم لا تكون في بلاد الاسلام اصلح لك من ههنا قال قلبي ملوث بحب الدنيا قال خالد عندك خبر بالعرب الاسرى الذين أرسلهم الملك الى ههنا قال لا والله ولكن مر بي البارحة بطريق واسقف واستقوا ماء من بئر هذا الدير فسألتهما من أين اتيتما فقالا من اسكندرية وانهما رسل الملك كيماويل صاحب أرض برقة وانه أرسلنا الى ملك القبط يسأله انه يرسل له اسرى من عرب المسلمين حتى يراهم ويسمع كلامهم فاجاب

انه مرسل منهم جماعة وانا ماضين نعلم صاحب برقة بذلك فقال لخالد المكرمن المسلمين
الذين فتحوا بلاد الشام قال خالد نحن اياهم فقال الراهب ان اخباركم عندي في كل
وقت واعلمك اني رأيت نبيكم صلى الله عليه وسلم وهو في قافلة قريش وانا عند صيرا
ملمامات صيرا استلما الى هذا الدير واعلموا ان ما بقي من أرض الكنايس ولا بارض
العقبة ولا بأرض الرمادة ولا احد ولا ديارمن راهب ولا قس الا وقد قدم لزيارتي
ويسألوني عنكم وعن نبيكم ويقولون لي انت كنت على طريقهم ورأيت نبيهم وشرحت لهم
دينكم وأوصلتهم الى ما ظهر من معجزات نبيكم صلى الله عليه وسلم ولقد جرى بيني وبين
راهب منهم بالقرب مناظرة وقال لي ان النبي الذي بشر به عيسى المسيح بن مريم ليس هذا
فقلت له بلى هو والله النبي العربي فقال لي انا سمعنا في العلم ان الرسول الذي يظهر من
أرض الحجاز يعرج به الى السماء وما سمعنا ان هذا عرج به فقلت بلى والله انا سمعت بأنه
عرج به الى السماء وخاطب العلي الاعلا واصبح اعلم بذلك قريشا ثم قال لخالد اعلم
ان في وسط هذا الجبل دير يقال له دير المسيح وقد استولى عليه بطريق ومعه جماعة
وهو يقطع الطريق على قوافل العرب وانه منذ زمان قطع الطريق على قافلة وفيها
شخص من بلادكم وهو مسلم فاخذ القافلة وعرى أهلها وأطلقهم وقبض على ذلك المسلم
وأخذ ماله ووضعه عنده في العذاب الشديد والرجل يستجير فلا يجار ويقول له
ما اطلقك حتى تكفر بالرحمن وتسجد للصلبان ثم انه يأتيه بصورة من نحاس وعلى
رأسه عمامة سوداء ويقول له هذه صفة نبيكم وصحبه قباله ويصب صلة كاسه
على رأس هذه الصورة وذلك الرجل يستجير من فعاله قال فلما سمع خالد ذلك أخذ
معه شرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد
والقعقاع ورفاعة وترك بقية العسكر محتاطة بالدير ومضوا الى وسط الجبل
فوجدوا الدير ووصلوا اليه واذا بالبطريق قد اقبل ومعه وحش مذبوح وقد قصد الى
شجرة بالقرب من الدير وتحتها عين ونزل على العين وصاح بغلمانه هاتوا اليه واضرموا
النار وجعلوا يشوون له وهو يأكل ويشرب الخمر وقال لهم هاتوا المجدي فاتوه برجل قد
ركبه الذل وقلبه القهر فلما رآه قال له انت قد غلبتني بتجلدك على العذاب وحق ديني
لا ارفع عنك العقوبة حتى ترجع عن دينك الى ديني فقال له اصنع ما بدالك فاني اعلم أن
الكل بمشيئة الله وبارادته واني صابر على مر البلاء وما ارجع عن دين محمد المصطفى
قال فهم ان يقوم اليه يضربه فصاح به خالد بن الوليد وحمل عليه وطعنه أخرج السنان
من ظهره وقتلوا غلمانه وخلصوا المسلم ونزلوا على العين ولم يكن لاهل الدير شرب الا من
تلك العين فاشرفوا عليهم الرهبان من أهل الدير وقالوا ما نحن أهل سيف حتى نقاتلكم

وقدنها لم نبيكم عن قتل الرهبان فقال خالد سلموا التماثيل هذا البطريق وعياله وأطفاله ونحن نتركم في ديركم ففتحوا لهم واسلموا لهم جميع موجوده وأخذوا الاسير وساروا وسأله خالد من أين أنت فقال أنا أمية بن حاتم اخو عدي وقد أخذني هذا في أواخر أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاني كنت طالب برقة مع قافلة ومعي بضاعة فأخذها وأخذني وكان أمر الله قدرا مقدورا قال فرجعوا الى عند أصحابهم ولم يأتوا القبط فلحقوا ان ينزلوا عن خيولهم الا والراهب مياح قال لهم استعدوا اللقاء عدوكم فانهم قربوا منكم فتجهزوا للقاء العدو واذاهم قد اقبلوا وضجيج الاطفال وبكاء الناس وانين الرجال وصراخ المأسورات وصياح القبط عليهم يسوقونهم من ورائهم وهيز الفرسان وحفيف الصلبان والعربيات تنادي بالويل والهوان وخولة بنت الازور على مقدمة الاسارى وهي تقول شعر

جل المصاب وتم الويل والحرب * وكل دمع من الاجفان ينسكب

ومارت الارض مما قد بليت به * حتى توهمت ان الارض تنقلب

جالت يد القبط فينا عند غفلتنا * واستحكم القبط لما زالت العرب

لهفي على بطل قد كان عدتنا * فيه العفاف وفيه الدين والادب

قد كان ناصرنا في وقت شدتنا * اعني ضرار الذي للحرب ينتدب

فيه الحمية والاحسان عادته * فيه التعصب والانصاف والحسب

لوكان يقدر ان يرقى مراكبه * كان العدو بنا والحرب تلتهب

أوكان خالد فينا حاضرا وطنا * لزال عنا الذي نشكوا ونتعب

لوكان يسمع صوتي صاح بي عجلا * مهلا فقد زال عنك البؤس والعطب

قال فلما سمع خالد نداها قال لبيك لبيك يابنت الازور قد جاءك الفرج وذهب عنك الحرج فاطبقوا على القبط فما كان بعيد حتى قتلوا منهم سبعمائة واسروا ألفا وثلاثمائة وخلصوا الاسرى وسلموا على ضرار وهنوه بالسلامة وودعوا الراهب بعدما كتب له خالد كتابا بان له من طعام الاسكندرية صاعا ولكل من سكن الدير من أهله وقبيلته ثم انهم ساروا طالبين الاسكندرية وهم سايقون الاسرى من القبط بين أيديهم قال وكان الملك ارسطوليس لما سمع بأن العرب قد أتوه اخرج عسكره وضرب خيامه خارج باب السدرة قال فلما قدم المسلمون وقع الصائح بقدومهم ووقع الخوف في قلب الملك وعسكره وقالوا له أيها الملك ما الذي تدبر في أمر هؤلاء العرب قال وما عسى ان ادبر والخوف قد ملأ قلوبكم وهم قد طمعوا فيكم ورأوا انكم تنهزمون ولا تخافون العار واذا قاتلتموهم كانت قلوبكم متفرقة واهواؤكم غير متفقة وقد أسروا رجالكم ولم يرهبوا

قتالكم ولا مانع بينهم ولو أن أصحابهم الذين أرسلتهم الى دير الزجاج عندى لكنت صالحتهم باطلاقهم ودفعناهم عما قد فرطنا أيضا فى الالفين الذين أرسلتهم معهم ولو كانوا فى الاناة واسعا فقال له وزيره أيها الملك هل لك ان ترسل اليهم وتقصدت معهم فى أمر الصلح ونحن نسلم اليهم أصحابهم فقال انهم لا يتبلوا منكم رسولا منذ ضيقنا عليهم بحر الحصن بينما هم فى ذلك واذا بصاحب البحر قد أتى اليه وهو الموكل بالمنار وأخبره انه رأى مركبا قد نظر من قبل الغرب ولا أعلم من أين أتى فقال لا شك انه من صاحب برقة الملك كيماقيل وقد انحدرنا فاقبل المركب ورمى مراسيه ونزل منه شيخ مهاب مليح الشيبة ظاهر الهيبة وعليه ثياب من الصوف الاسود ونزل معه عشرون شيخا من الاقسة والرهبان فلما نزلوا الى البر جاءتهم الخيول بالمراكب المذهبة والغلمان والخدام وعظموا شأنهم واركبوهم يمينا ويسارا وأيديهم الى أن أوصلوهم الى الملك وأدخلوهم عليه فقام لهم وعظم شأنهم واجلس ذلك الشيخ معه على السرير (قال الراوى) وكان ارسطوليس قد أرسل هدية الى الملك صاحب برقة وأرسل اليه يعلمه بما فعلوه العرب فى مدة قيصر وانهم قد أتونا ومن جملة ما أرسل يقول له أيها الملك اعلم ان الدنيا دار زوال وانها ما فرحت الا واحزنت ولا اسعدت الا واسترددت فالمغرور من تشبث بذيلها واطمأن اليها والسعيد من لبس ثياب الحذر منها وعمل لدار البقاء ما ترى أيها الملك الى هرقل ملك الشام كيف هرب وزال ملكه وذلك عند ما رمته الدنيا بصائبها وشتته بسهامها فكأنها بعد ما كانت فى وجهه مشرقة ولا يخطر له دم الاعداء على بال وما ضربت لك هذه الامثال الا لعلى ان الدنيا لا تبقى على حال وهؤلاء العرب قد استولوا على البلاد وأذلوا بسيوفهم العباد وقد أقاموا لهم شرعا بالسيوف الحداد وقد ملكوا القياصرة وقد جاءت طائفة الينا وأخذوا مصرنا وأخذوا املاكنا وحكموا على بلادنا بعدنا ولا بد لهم منك ولا غنى لهم وعندك الصواب ان تشمر لهم عن ساق الهم وتصدنا على من بغى وأجرم فنحن جيرانك وكنا جندك وأعوانك والسلام قال الراوى فلما وصلت الهدية والكتاب عرضه على أرباب دولته وقال لهم ما ترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية فقالوا له أيها الملك ما زالت الملوك تستنصر بعضها بعض والذى أشار اليه هو الحق وأما العرب اذا ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور الى بلادنا فابعث اليه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة فالمسيح يعطى النصر لمن يشاء فاجابه الى ذلك وأمر ابن أخيه اسطفانوس ان يمضى فى أربعة آلاف وأمره ان يسير الى معاونة صاحب اسكندرية ثم انه أرسل خادمه الى عالم أرضهم والمشار اليه فى علم النصرانية وهو البترك واسمه سطيس وكان عمره مائة وعشرين سنة وكان تلميذ زيروسنا

وزيروسا، تلميذ مرقس ومرقس تلميذ يوحنا ويوحنا أحوى حوارى عيسى المسيح وكان
هذا البترك سطيس مؤمنا بالله ووحده او سمع باخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم
وبمعجزاته وهو مؤمن من قبل مبعثه وظهوره حتى بلغه اخباره صلى الله عليه وسلم
وانه مات فبكى لموته ولزم زاوية الحزن ولم يظهر خبره لاحد مدة من الزمان وكان قد بنى
له صومعة وانفرد بها وجعلها على قارعة الطريق فامر به قافلة الا واستخبرها عنه ويسأل
عن جلس بعده للمسلمين خليفة فقالوا أبو بكر وبلغه موته وولاية عمر ثم بلغه فتوح
الشام وقدوم الصحابة الى مصر وفتحها فلما أرسل صاحب مصر يستنجد صاحب برقة
وأرسل اخاه أرسل هذا البترك في مركب بشره بقدوم اسطفانوس الى نصرته فلما وصل
اليه وبشره فرح بذلك وقال يا ابانا أريد من انعامك ان تسير الى هؤلاء العرب وتختبر دينهم
ونبيهم وتدعوهم الى الصلح وتعلمهم ان في أيدينا جماعة منهم أخذناهم من ساحل الرملة
وقد أنفذت بهم الى دير الزجاج فان أرادوا أصحابهم أطلقناهم لهم ونعطيهم شيأ من مالنا
وانعقد لنا ولهم الصلح بانهم لا يرجعون الينا ولا يتعرضون لنا فقال البترك أفعل ذلك
واني قد قرأت في الكتب السالفة فوجدت فيها ان الله يبعث نبيا من أرض تهامة
فيعرض عليه مفاتيح الارض وكنوزها فلا يلتفت اليها ولا يعيرها نظره ولا يختار الا الفقر
على الغنى وان أصحابه يتبعون سنته وانا أستخبر حالهم قبل سيرى اليهم فقال الملك
وكيف تستخبر حالهم يا أبانا قال أيها الملك ارسل بغلة من مراكبك وعليها سرج من
ذهب وهو مرصع بالمعادن وتأمر غلمانك ان يسيروا بها ويرسلوها نحو عسكر المسلمين
فان أخذوها فنعلم انهم يحبون الدنيا ولا يريدون الآخرة وان ردوها فنعلم انهم يطلبون
ما عند الله قال ففعلوا ذلك وأرسلوها وكان في حكم الليل وكان في الحرس شرحبيل
ابن حسنة فلما رأى البغلة وما عليها من الزينة ضحك وقال ان أعداء الله يريدون
اختبارنا ومعرفة أحوالنا ان كنا نطلب الدنيا أو الآخرة فوالله ما منا من يميل الى ما يفنى
وانما بغيتنا فيما يبقى ثم قرأ انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر
في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون
حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع
الغرور ثم مسك بعنان البغلة وأطلقها نحو عسكر القبط قال فلما رأوها صلبوا على
وجوههم وقال البترك والله هذا نصروا وخذلنا والله ان أبي كان على بصيرة من أمرهم
ثم أمر البترك سطيس ان يتوجه اليهم فمضى فلما قرب منهم رأى أقواما قد هجروا الدنيا
فمنهم القارئ ومنهم الذاكر لباسهم الصوف صغيرهم يوقر كبيرهم وكبيرهم يرحم
صغيرهم وصوت أحدهم لا يعلو على الآخر الذكر كلامهم والقرآن والتقوى لباسهم

والخوف من الله اتينهم فلما دخل على عسكرهم سأل عن أميرهم وصاحبهم فدلوه على موضع خالد فقصد اليه فلما وصل اليه وجده في ذكر الدين والقيامة فنزل عن بغلته ووقف امامه ورأوا اليه بالسجود فمنعه خالد فقال له انت الامير لهؤلاء القوم قال كذا يزعمون بانى أميرهم مادمت على الحق واتباع العدل والانصاف والخوف من الله محسن للمحسنين منهم ومشدد على المسيئين منهم فمتى حدت عن هذه الاشياء فلا امارة لى عليهم فقال البترك أنتم والله القوم الذين بشر بكم عيسى بن البتول وان الحق معكم لا يفارقكم قال فامره خالد بالجلوس فجلس وقال يامعاشر العرب اخبرونى عن نبيكم فقال خالد ان الله اختار من ولد آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر كنانة واختار من كنانة قريشا واختار من قريش بنى هاشم واختار من بنى هاشم عبد المطلب واختار من عبد المطلب عبد الله واختار من عبد الله محمدا صلى الله عليه وسلم وقال كنت نبيا وآدم بين الماء والطين وقال لما خلق الله العرش كتب عليه لا إله الا الله محمد رسول الله فلما وقع آدم في الزلة رأى على ساق العرش لا اله الا الله محمد رسول الله فقال يارب ومن هذا قال ولدك يا آدم الذى لولاه ما خلقتك قال يارب فبحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد فقال يا آدم لو تشفعت الينا بمحمد في أهل السموات والارضين لشفعناك ثم ان الله جعل اسمه مقرونا باسمه وذكره مع ذكره ووسمه بما وسم به نفسه فقال ان الله بالناس لرؤف رحيم وقال في حقه بالمؤمنين رؤف رحيم وقال من يطع الرسول فقد أطاع الله وقال النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وقال يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان الله عز وجل رفع ذكره وعظم قدره وأعز قدره فقال تعالى ورفعنا لك ذكرك وهذه غاية الشرف والتعظيم والتبجيل والتكريم وقال يا محمد لا أذكر حتى تذكر فمن أحبك فقد أحبنى ومن سبك فقد سبنى ومن جحدك فقد جحدنى ومن انكر نبوتك فما عرفنى وها انا شاهد على نبوتك فقال عز من قائل ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم وقال في موضع آخر وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله قال فلما سمع البترك ذلك من خالد فرح وقال لقد نجى من اتبعه وخسر من فارقه ثم جدد اسلامه على يد خالد وحدثهم بامره من أوله الى آخره ثم حذرهم من أخى صاحب برقة وانه واصل ومعه أربعة آلاف فارس وانى قد سبقته في البحر وهذا الملك اقبطى يريد صلحكم ويقول لكم على انكم تصالحوه على ان يعطيكم شيأ من المال ويسلم اليكم قوما من أصحابكم قد أخذوهم من ساحل الرملة فقال خالد ان أصحابنا قد فك الله أسرهم وجمع شملهم وقد نصرنا الله على القبط الا في الذين كانوا مع الاسارى فانا أخذنا الفا وثلاثمائة أسير وقتلنا سبعمائة ثم انه عرضهم عليه

وعرض الاسلام عليهم فابى أكثرهم واسلم بعضهم فامر خالد بضرب رقابهم بين العسكرين ثم ان البترك عاد الى صاحب اسكندرية وقال له هؤلاء لا غرّتهم لانهم حذرون من أعدائهم وعرفه بقصة أصحابه وانهم هؤلاء الذين ضربوا رقابهم قبالك فقال له يا ابانا ومن اين لهم هؤلاء قال قد وقعوا بهم وخلصوا اصحابهم واسروا من أصحابك ألفا وثلاثمائة وقتلوا سبعمائة قال فلما سمع ابن المقوقس ذلك سقط ما بيده وايقن بتلاف ملكه وقال لارباب دولته وعسكره خذوا اهبتكم للقتال وكانكم بعسكر الملك كيماويل صاحب برقة وقد اقبل عليكم ونقاتل هؤلاء العرب بقلوب قوية واسرار نقية ويعطي الله النصر لمن يشاء وباتوا وهم معولين على القتال قال فلما جن الليل باتوا على ذلك قال ابن اسحاق ولقد بلغني ان الملك نام بقية ليلته فرأى في منامه كان شخصا اشقر عريض الصدر كانه قد خرج من حمام ومعه شخص آخر مليح الوجه حسن الخلق وسيم قسيم وفي عينيه دعج وله نور يسطع كانه قمر فقال ابن المقوقس للاشقر من أنت قال ابن العذراء البتول انا المسيح ابن مريم وهذا الذي بشرت به من قبل مبعثه هذا محمد رسول الله العربي الامي من آمن به فقد اهتدى ومن جحد نبوته فقد اعتدى وقد جئنا النصرة اصحابه ومقامنا على القبة قال ابن اسحاق رحمه الله ولقد بلغني ان برج القبة مما يلي باب البحر وذلك ان لاسكندر لما بنى الاسكندرية وسماها باسمه كان الخضر وزيره وهو الذي بنا الباب الاخضر وصنع تلك القبة باسمه ورسمه وكان يأوي اليها فصار ذلك الباب مشتهرا به الى يومنا هذا قال ثم ان عيسى عليه السلام قال للملك في نومه ان كنت من امتي فاتبع شريعة هذا النبي وذهب عنه فلما اصبح حدث أرباب دولته بما رأى في نومه فقالوا أيها الملك هذه اضغاث احلام وما كان المسيح يماشي العربي وهو عدوه وانما الشيطان قد خيل لك ذلك فلا تلتفت اليه قال فاصغى الملك الى كلامهم ثم انه أمر عسكره بالقتال فركبوا وصافقوا المسلمين وأما الملك فانه نظر الى برج القبة واذا بالقبة ساطع منها نور فدخل الوهم في قلبه مما رأى في منامه وقال والله ما هذا النور الا نور المسيح ومحمد وان هذا هو الحق لاشك فيه حدثنا ابن اسحاق حدثنا عامر بن بشر عن الاحوص قال كنت في خيل خالد بن الوليد يوم قتالنا على اسكندرية قال لما وقفنا في ميدان الحرب وقف يقاتلنا فارس وهو بطريق عظيم الخلقة وعليه لبس يلمع وتحته جواد عربي فنادانا بالعربية بلسان فصيح وقال يا عرب انصرفوا عنا فانا لا نريد حربكم وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف وقد بقي في أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعوكم فيما أخذتموه منا ونحن لا نقلد كم البغي ونصالحكم صلحا نعود منه عن ظلم أنفسنا ونعدل في رعيتنا وان أبيتم صالحنا لقيناكم باسرار نقية وقلوب الجهاد قوية فنردكم على أعقابكم منهزمين

وفى أذيال الذل متعثرين لان ماعدا أحد على أهل هذا الدين الا ذل وانهم لاتناؤهم لما الكنائس الاربع والصوامع والبيع والقسوس والرهبان والمذبح والقربان والانجيل والصلبان ثم سكت عن كلامه (قال الراوى) وكان هو الملك ابن المقوقس فكان أول من بادر الى رد جوابه شرحبيل ابن حسنة كاتب وحى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له لقد اقتصرت بما يؤدى صاحبه الى البوار ويعقبه سوء الدار ياويلكم اتفخرون علينا بالشرك والطغيان وعبادة الصلبان والكفر بالرحمن ونحن أولوا التقى والايمان والفوز والرضوان والقبلة والقرآن والحج والاحرام والصلاة والصيام والاجتهاد والاحترام ديننا أفضل الاديان ونبينا المبعوث بالمعجزات والبيان والآيات والبرهان والمنزل عليه القرآن ومن اتبعه نال من ربه الغفران ومن جحد حجته باء بغضب الملك الديان الذى كان ولا مكان ولا دهر ولا زمان ولا وقت ولا أوان شهد لنفسه بالربوبية ولصفاته بالازلية ولذاته بالاحدية ولملكه بالابدية سلطانه قاهر وكرمه ظاهر وتدبيره محكم وقضاؤه مبرم وعرشه رفيع وصنعه بديع ليس بوالد ولا مولود ولا لذاته حد محدود ولا لبقائه أجل معدود خضعت الاعناق لعظمته وخشعت الاصوات لهيبته وعنت الوجوه لعزته وذلت الاقوياء لقوته لايحصى نواله ولايفنى كماله ولا تبيد نعمه وأفضاله ياويلكم كيف طاب لكم الكفر بالاهية والاشراك بربوبيته وان تجعلوا له ولدا من خلقه وبريته وتسجدون للصلبان فى دار مملكته ولا تفزعون من عظمته ثم انه قرأ ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذى انطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون ثم قال شرحبيل ان لله عبادا لواقسموا على الله ان يدكدك لهم هذا السور لفعل وكانت اشارته الى سور المدينة فغار السور فى الارض وبانت المنازل والدور قال فارتعدت فرائص الملك لما عاين ذلك من عظيم القدرة فالوى عنان جواده الى عسكره وافئدتهم قد طارت وافكارهم قد حارت فلما جن الليل أخذ الملك خزائنه وأمواله وحريمه وعياله وركب فى المراكب وسار يريد جزيرة اقريطش فلما صبح الصباح وقع الصائح بالمدينة بان الملك قد انهزم فاجتمع الاكابر وقالوا ان الملك قد انهزم وما السامن يدفع هؤلاء العرب قال فخرجوا بابا جمعهم الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقفوا بين يدى خالد وقالوا ان الله قد نصركم بحق وايدكم بصدق وانا نريد منكم ان تعاملونا بالصفح وتنظروا الينا بعين الرحمة والعدل سنة من كان قبلنا معكم من الروم فقال خالد مافعل ملككم قالوا انهزم بأهله وماله فى البحر فقال نحن قوم قد اسكن الله الرحمة فى قلوبنا ونصرنا بعالم الدنيا

واظهرنا على اعدائنا وفضلنا على سائر من كان قبلنا من الاجناس فقال تعالى كنتم خير أمة اخرجت للناس ونحن نجريكم على أحسن عوايدنا مع سائر من فتحنا بلادهم وقد امسكنا عنكم ولو اردنا ان نملك البلاد بالسيف لهان علينا ولكن خير الناس من قدر وعفى ونريد منكم مائة ألف مثقال ذهبا صلحا عن أنفسكم واهاليكم وندعوكم بعد ذلك الى الاسلام فمن أجاب منكم كان له مالنا وعليه ما علينا ومن عدل عن ذلك أخذنا منه الجزية عن السنة الآتية من كل رجل وغلام بلغ الحلم أربعة دنانير ونشرط عليكم شروطا أن لا تركبوا دابة ولا تعلوا دوركم على دور المسلمين ولا ترفعوا أصواتكم عليهم ولا تبنوا كنيسة ولا صومعة ولا ديرا ولا تجددوا ما دثر وتلقوا المسلمين بالذل والانكسار وتسارعوا في قضاء حوائجهم وما يريدون من اصلاح شأنهم ولا تعدلوا عن تعظيم أهله ومن اذنب منكم ذنبا حددناه ومن ارتد عن قولنا قتلناه وان لا تشدوا الزنانير على حضوركم اظهار الدينكم وان لا تظهروا ناقوسا ولا صليبا ولو آمنتم بالله ورسوله لكان خيرا لكم فقالوا ايها الامير ما نترك ديننا فقرأ واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا اولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ فقالوا أيها الامير نريد ان تولى علينا رجلا مناحتى يجمع المال الذي تقرر علينا فيلمه بالعدل وليكن معه رجل منكم من أصحابك فقال خالد انى لا أعرف أحدا من اجاويدكم اختاروا لانفسكم برضاكم حتى اوليه عليكم فاشاروا الى رجل منهم اسمه شيعا بن شاس وكان مقدما في القبط فولاه خالد على جمع المال ورياسة البلد وندب معه قيس بن سعد وأوصاهم وقال خذوا من كل واحد ما يحتمل حاله ومن كان معسرا ضعيفا دعوه واحسنوا ان الله يحب المحسنين ولا تظلموا يتيما ولا فقيرا ولا أرملة فتعجب القبط من حسن وصيته وكلامه فدخل القوم واجتمعوا في دار الامارة وبعث شيعا غلمانه يجمعون الناس قال حدثنا جرير بن عاصم عن نعيم بن موسى الداراني عن سليمان بن عوف عن جده مازن بن سعيد قال وقع القسط على أهل اسكندرية فكان أكبرهم في الحشمة وأعزهم في المال يزن عشرة قراريط وأوسطهم حالا يزن قيراطين ولقد اتى برجل من أغنيائهم اسمه براس لا يدرى ما يملك من المال والدبش والغنم وكان ابخل أهل زمانه فقال له شيعا قد وجب عليك في هذا المال دينار قال وحق المسيح ما انا بالذي يؤديه ولو مت وان تصدقت به كان أفضل من عطيتى للعرب فقال له قيس بن سعد ان الذي نأخذه منكم صونا لانفسكم وحفظا لدمائكم

ونحن ما نأخذ على وجه الصدقة منكم بل نأخذه حلالا لا حراما يا ويلك لو دخلنا مدينتكم بالسيف الست كنت أنت أول من قتل ومالك أول من نهب فقال شيعا خذلك الله ولعلك كل من في اسكندرية يعلم انك كنت أولا فقيرا لا تقدر على شيء من امور الدنيا وقد أتاك الله من فضله ووسع عليك رزقه فقال اليس ورثته عن آباء كرام واجداد عظام وما لله على من فضل قال فغضب قيس وقام اليه وقعده بقرعة كانت معه وقال له كذبت يا عدو الله ورسوله الفضل والحمد والمنة لله لانه رزقنا من فضله واسبغ علينا من نعمه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ثم قال قيس اللهم انه جحد نعمتك فارلمها عنه قال فوالله ما مضى يومه حتى جاء الخبر بان اغنامه قد هلكت جميعها وبساتينه يبست وديارة قد تهدمت وأمواله ذهبت قال قيس الله أكبر هذا والله حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو هريرة بجانبي قال ان ثلاثة من بني اسرائيل كان أحدهم ابرص والآخر أقرع والآخر اعمى فبعث الله اليهم ملكا فاتى الابرص فقال له أى شيء أحب اليك فقال الجلد الحسن والابل فاتى الاقرع فقال له اى شيء احب اليك قال الشعر الحسن والغنم واتى الثالث فقال له أى شيء أحب اليك فقال النظر والبقر قال ثم ان الملك مسح بيده على جلد الابرص فعاد أحسن جلدا واعطاه ناقة عشراء فبارك الله له فيها حتى ضاقت بابله الديار وأما الاقرع فاتاه ومسح بيده على رأسه فانبت الله له شعرا حسنا واعطاه نعجة عشراء فتوالدوا الى ان ضاقت بهم تلك الديار ثم أتى الاعمى ومسح بيده على عينيه فعادت أحسن عينين واعطاه بقرة عشراء فتوالدوا الى ان ضاقت بهم تلك الديار قال ثم اتاهم ليمتحنهم فأتى الابرص فقال له كنت ابرص وانت فقير ولا تملك شيئا فاعطني مما آتاك الله من هذه الابل ناقة اتسبب عليها فقال ما كنت فقيرا ولا ابرص وانما ورثت هذا من ابائي قال فذهب الى الاقرع وقال له مثل ما قال للابرص فقال مثل ما قال الابرص فذهب الى الثالث وقال له مثل ما قال لاصحابه فاجاب بان قال بسم الله والله لقد صدقت فاذهب الى هذا البقر فاقسمها بيني وبينك فقال له بارك الله لك في مالك وقد رد الله صاحبيك كما كانا فانهم كفروا نعمة الله قال الراوى وجمعوا المال ومضوا به الى خالد وبنى فيها المساجد وأخذ كنيستهم العظمى فجعلها جامعا وترك لهم أربع كنائس وكتب الى عمرو بن العاص اعلمه بفتح اسكندرية فنفرح وركب وترك موضعه اباذر الغفارى وذهب الى الاسكندرية وبنى فيها جامعا في الريض وهو معروف بجامع عمرو الى يومنا هذا

(ذكر فتح مدينة دمياط وما والاها)

قال الراوى وأتت اليه أهل رشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وابيار

والبحيرة وصالحوه على بلادهم ثم انه بعث المقداد ومعه أربعين فارسا وهم ضرار ورافع وشاكر ونوفل وراجح وعاصم وفارس وعروة وسهل وعمير وكعب وسعيد ويزيد وصعصعة وأمرهم بالمسير الى دمياط وأمر عليهم المقداد بن الاسود الكندى فساروا الى البراس ووردوا دمياط وكان بها خال الملك المقوقس وكان عسكره اثنى عشر ألفا وكان قد حصن البلد وجمع فيها من آلة الحصار من الزاد وغيره قال فلما اشرفوا عليه الصحابة ونظر الى قلتهم ضحك وقال ان قوما ينفذون الينا منهم أربعين ليملكوا بلادنا انهم فى عجز وقلة عقل قال وكان ولده الاكبر فارسا مشهورا فى جميع بلاد النيل وكان اسمه هربر وكان يثق به وبشجاعته وبراعته وليس فى عينيه من الفرسان شيأ فلما رأى الصحابة وهم أربعون قفز اليهم وهو لابس لامة حربه وطلب البراز فخرج اليه ضرار بن الازور وحمل عليه فطعنه فقتله وحمل على عسكر دمياط فالجأهم الى حيطان البلد وهو كانه النار فى الحطب فاستعاذ منه الجيش ثم ان خال الملك وكان اسمه البامرك اجتمع بأرباب دولته وقد صعب عليه قتل ولده وكان عندهم حكيم يعتقدون به وبرأيه ويعتمدون على عقله فاحضر اليه من حضر فقال له أيها الحكيم العالم ما الذى تشير به علينا فى أمر هؤلاء العرب فقال أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استضاء به أحد الاهداه الى سبيل نجاته وقاده الى معالم مصالحه وهؤلاء القوم لا تذل لهم راية ولا تلحق لهم غاية قد فتحوا البلاد وأذلوا العباد واشتهر أمرهم وعلا ذكرهم وفشى خبرهم وعلت كلمتهم وطبقت الارض دعوتهم فما أحد يقدر عليهم ولا يصل اليهم وما نحن باشد من جيوش الشام ولا أمنع بلدا وهؤلاء القوم قد أيدوا بالنصر وغلبوا بالقهر وان الرحمة فى قلوبهم فما هدوا فما عاهدوا عاهدوا وخانوا وما حلفوا يمينا فكذبوا وقد بلغك ما هم عليه من الدين والصيانة والصدق والامانة والرأى عندى ان تصالحهم لتنال بذلك الامن وحقن الدماء وصون الحريم ودفع الامر العظيم ونكون قد صالحناهم ودفعناهم بشىء من مالنا قال فلما سمع البامرك ذلك من الحكيم أمر بضرب عنقه فلما عرف الحكيم ان المنية قد غشيته قال اللهم انى برىء مما يشركون بك لا شريك لك ولا ولد لك ولا صاحبة لك وانا أشهد ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله قال فلما سمع البامرك كلامه ضربه فقتله وأمرهم بان يأخذوا على أنفسهم للحرب فلما كان من الغد خرجوا الى ظاهر دمياط ونصبوا خيامهم قال وكان للحكيم ولد ورث فضائل أبيه وكان فيه فطنة وعقل وتدبير فلما قتل أبوه اظهر الفرح والدعة للملك البامرك وقال لقد أراحنى الملك منه ومن شره فبلغ البامرك ما قاله ابن الحكيم فارسل اليه وخلع عليه وطيب قلبه فلما كان الليل قال والله لآخذن بثار أبى من هذا اللعين ومن أولاده وكانت داره ملاصقة للسور فنقب نقبا واسعا وخرج

معه وقصد الصحابة فلما رأوه فزوا والده من اوات قال ان أبى قد قتل من أجلكم وقد ثبت أرقباؤ وخرجت معه فقووا على بركة الله وعونه حتى تملكوا المدينة منه فقال له ضرار بارك الله ان الذى بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك اما علمت ان الجند شعارنا والبقظة دثارنا وهم بقتله فقال له المقداد أمهل يا ضرار وبعث الله الى الحيرة وقال الا لم والصبر ثم قال المقداد انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يشير الى شخص بين يديه وكان يقول على رى هذا الغلام وكنا تأمل الى هذا الغلام فرأيته على ما هو عليه الآن وكان على وسطه منطقة من الاديم وفيه احلاق دصة وهى تحت أثوابه ثم ان المقداد قال يا غلام اكشف عن أثوابك فكشف عن أثوابه واذا المنطقة بعينها فقال أشهد ان لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام المسلمون وصافحوه ومضى الغلام امامهم الى ان دخل بهم النقب وسعوه بايديهم حتى دخلت خيولهم ثم ردوا الحجارة والطين والماء على حاله واعمى الله أبصار القوم عنهم فلما كان من الغد نظروا أعداء الله فلم يروا للصحابة اثر ولا خبر فضجوا بكلمة كفرهم وما بجوا وقالوا هربت العرب ووقع الصائح فى العسكر وظاهر أهل البلد فرحوا على صحة الخبر ولم يبق فى البلد سوى النساء والاطفال قال ابن اسحاق وكان للحكيم شواعم ثمانون رجلا وان ولده طاف عليهم بالليل واعلمهم بما فعل فاقبلوا معه واسلموا عن آخرهم فلما كان من الغد وخرج كل من فى البلد فبادروا شواعم الحكيم واخوته الى الابواب فاغلقوها واعلنوا بالتكبير والتهليل والصلاة على البشير النذير ووقعت الحمدة على النساء والصبيان واستوثقوا القوم من المدينة بتلك الثمانين رجلا فامسكوهم الابواب وخرجوا الصحابة رضى الله عنهم ورفعوا أصواتهم يكبرون ويدعون الله عز وجل فلما نظر لهم أهل البلد علموا انهم قد ملكوها وان الذى فعل ذلك شواعم الدربان الحكيم وقد اغلقوا الابواب وقفلوها وملكوا السور ووقف سطرا الى ما فعله الصحابة وعلم ان المدينة أخذت منهم وكان فى أولاده ولد عاقل لبيب كامل الذات والصفات وافر العقل وكان منذ نشأ يتبع العلماء ويجالسهم ويطلب العلم ومنذ ملك عقله ما أكل لحم خنزير ولا كشف على محرم ولا سجد لصورة ولا لصليب وكان هم ان يبنى صومعة وينفرد فيها فلم يمكنه أبوه من فرط محبته له وكان لا يستطيع فراقه وكان هذا الغلام اسمه شطا وكان يحب ان يسمع اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبحث عنها فلما نظر الى الصحابة وقد ملكوا منه البلد وشطا عن يمين أبيه فنظر شطا الى الصحابة والى زيهم والى نور الايمان ساطع منهم قال فشخص شطا والسماء ببصره وصاح وسقط عن قربوس فرسه بوجهه قال فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة فلما افاق قال له أبوه يا بنى

ماوراءك قال ظهر والله الحق وبان وقد تبين لى حقيقة الايمان وقد نظرت لى عسكر هؤلاء العرب وعليهم نور عظيم وهم رجال عليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب وبينهما قبتان معلقتان فى الجو بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وفيها رجال ما رأيت احسن من وجوههم ولا شك انهم الشهداء ورأيت فى احدى القبتين حور الوبرزوا لاهل الدنيا المساتو اشوقا اليهم وان الله تعالى ما كشف عن بصرى وأرانى ذلك الا وقد أراد لى الخير وما كنت بالذى بعد هذه الرؤيا ابقى على الضلال ولا تبع المحال وانا أشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وحرك جواده وقال من أحبنى من رجالى وغلمانى يتبعنى قال فتبعه من القوم ألف رجل ولحقوا بالصحابة والقوا سلاحهم واعلنوا بكلمة التوحيد قال فلما نظر البدامرك الى ما فعل ولده شطا قال والله ما فعل ولدى شطا ذلك الا وقد رأى الحق واست اشك فى عقله ودينه ثم انه اسلم ولحق بولده فلما نظر أرباب دولته الى ذلك قالوا اذا كان الملك وولده قد أسلموا فما وقوفنا نحن فاسلموا جميعا على يد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا المدينة فمن اسلم تركوه ومن أبى أخرجوه الى بلاد الارياف قال وفتح المقداد النقب الذى دخلوا منه وأمر بنيانه بابا فسماه باب اليتيم وهو ابن الحكيم وترك عندهم المقداد ورجلا من الصحابة يعلمهم شرائع الاسلام وهو يزيد بن عامر رضى الله عنه ورجع المقداد وأصحابه الى اسكندرية وحدثوا عمرو بما فتح الله عليهم من دمياط ففرح بذلك وكتب كتابا الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بفتح مريوط والاسكندرية ودمياط ورشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وابيار والبحيرة وبعث الكتاب مع عامر بن لؤى

(ذكر فتح جزيرة تنيس)

قال حدثنى زياد عن حميد الطويل عن يونس بن الصامت عن نصر بن مسروق قال لما فتحت دمياط وكان من أمرها ما كان قال البدامرك لولده يابنى ان الله قد أنقذنا من نار الجحيم وقد هدانا الى الصراط المستقيم وذلك لسابقة سبقت لنا فى القدم وهذه تنيس بالقرب منا وهى جزيرة ولا يمكن التوصل اليها الا فى المراكب والصواب اننا نكاتب صاحبها اباذوب وندعوه الى الله والى دين نبيه فان اجاب والا قصدناه والله ينصرنا فقال شطا هذا هو الرأى وانا اكون الرسول اليه بنفسى فقال يابنى اعزم على بركة الله وعونه قال فركب شطا فى مركب وأخذ معه أربعة من غلمانه الخواص فلما نظر يزيد بن عامر الى ذلك قال وانا أسير معكم الى صاحب تنيس فانه لو سألك عن ديننا ومعالمه لم يكن عندك به علم بان تكلمه ونحن بحمد الله ما فينا من متكبر ولا من متجبر وما طلبتنا الا الآخرة والعمل بما يقربنا الى الله ثم سار معه يزيد بن عامر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى

وصلوا الى جزيرة تنيس وفيها رجال به فقدمهم فلما نظروا الى شطا وغلمانه وبينهم رجل بدوي قالوا من أنتم قال لهم شطا أنا ابن الملك الهامرك صاحب دمياط ومن هذا الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جئنا كم رسلا قال فارسلوا منهم واحدا يستأذن لهم فأذن لهم أبو ذرب قال فنزلوا في الزورق واذا به قد أرسل لهم دواب ليركبوها فامتنع يزيد من الركوب ووافقه شطا على ذلك وساروا كلهم رجالة الى عند أبي ثوب فاستأذنوا عليه فأذن لهم فلما دخلوا قصر أبي ثوب واذا به في حشمه وخدمه وزينته والحجاب والغلمان بين يديه وهو في مرتبة امارته وكان قد تكبر وتجبر منذ نزل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصر ومنع الارتفاع والخراج ان يؤديه للمقوقس وولده وقد اجتمع عنده مال عظيم فلما دخل عليه يزيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشطا وغلمانه نظروا الى أبي ثوب وغلمانه وتجبره بدأ يزيد بالسلام فقال السلام على من اتبع الهدى انا قد أوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى (قال الواقدي) حدثنا ابن سالم عن جرير بن أحمد عن عيينة عن ابن جرير وكان اعلم الناس بقصة فتوح مصر والمغرب قال كان هذا أبو ثوب من أرض العريش من متنصرة العرب من آل غسان وهو قريب جبلة وكان صاحب مال وجمال وانه لما وقعت الهزيمة على الروم وفتح الشام وانهزم الملك هرقل وهرب معه جبلة هرب معهم هذا أبو ثوب بماله وأهله واخوته الى أرض الجفار ونزل في البرية ما بين العريش ورفح وان المقوقس خرج في بعض الايام يريد الصيد في عسكره فانتهى في سرحته الى أرض العريش فانطرد قدامهم وحش فركب فطلبه الملك وتبعه ولم يتبعه أحد من عسكره وهو وراءه وحده الى ان رماه في حلل العرب في حلة أبي ثوب فقام اليه وعظمه وبجله وعلم انه الملك فمسك ركابه وانزله في بيته وذبح له الاغنام ووضع له الطعام وتلاحق الجيش قال فاضافهم أبو ثوب ثلاثة أيام فلما كان في اليوم الرابع ركب في خدمة الملك وشيعه وعاد فلما دخل المقوقس الى مصر أمر وزيره بان يكتب الى أبي ثوب بولاية تنيس واعمالها وارسل له الخلع والاموال والمماليك والغلمان فلما وصل اليه منشور الملك وخلعه فرح ابو ثوب وركب وسار الى العزمة وركب منها في المراكب الى تنيس فلما تمكن في ولايته بعث الى أهله واخوته فاتوا اليه فولى أخاه اباسيفا على جزيرة الصدف وولى أخاه الثاني أبو شقا على جزيرة الطير وولى ولده الواحد على دميرة فلما طال عليه الامر طغى وتجبر ومرت الايام والليالي حتى قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أرض مصر فمنع رفع الخراج الى مصر الى المقوقس وولده ورأى نفسه في تلك الجزيرة فتحصن بها وقال ان ما أحد يقدر ان يصل اليه فلما قدم شطا ويزيد بن عامر ونظر اليهم ابو ثوب اظهر

الاعجاب والتكبر ولم يلتفت اليهم ولم يجسر أحد من جماعته ان يأذن لهم بالجلوس فلما نظر
الى ذلك يزيد بن عامر قرأ ان الارض لله يرثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين
وجلس وجلس الى جانبه شمالا ونظر يزيد الى سرير أبي ثوب فاذا هو من الذهب وفيه
صورة النخلة ومن تحتها صورة مريم والمسيح في حجرها قرأ فناداها من تحتها ان لا تحزني
قد جعل ربك تحتك سريا وهزي اليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي
واشربي وقري عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم
اليوم انسيا الى قوله قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا
اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا
والسلام على يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا قال فلما سمع أبو ثوب كلام يزيد
التفت اليه بغضب وحنق وقال ما هذا الكلام الذي نطقت به قال يزيد هذا كلام الله
جل جلاله الذي انزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا تفنى عجائبه ولا تنفد
غرائبه ولا تبدل كلماته ولا تمل آياته فقال ما معنى الذي ذكرت نطقت به وما تفسيره
فقال يزيد أما قول الله اخبارا عن عيسى حين قال اني عبد الله فانه يعلم الخلق
انه عبد الله وليس بولد جل الواحد الاحد الفرد الصمد واما قوله آتاني الكتاب معناه
اعلمكم الاحكام واعرفكم الحلال والحرام وأما قوله واوصاني بالصلاة والزكاة
اني مأمور بالطاعة والخدمة والزكاة مثلكم فان في مالي حقا لله وأما قوله والسلام على
يوم ولدت ويوم أموت يعلمهم انه يموت ومن يموت لا يكون له العزة والجبروت وأما قوله
ويوم ابعث حيا فيعلمهم انه واياهم مبعوثون الى يوم القيامة ووقوف يوم الحشر والندامة
ولو كانا اثنين لكان لهما ارادتان ووقع الخلف بينهما وان الحكمة غير فاسدة وعلى
وحدانيته شاهدة قال فلما سمع أبو ثوب من يزيد بن عامر هذا المقال قال لقد مثلتم
بالاباطيل وغرقتم في بحر الاضاليل فقال يزيد الله اعلم من هو تائه في تيه المحال مشرك
بالملك المتعال الذي لا سماء تظله ولا أرض تقله ولا ليل يخفيه ولا نهار يأتيه ولا ضياء
يظهره ولا ظلام يستره ولا يقهره سلطان ولا يغيره زمان كل يوم هو في شأن اما لكم
بصائر اما منكم من ينظر ويعتبر في قدرة الله القادر اما منكم من يعظ نفسه بذهاب النهار
واقبال الليل اما آن لكم ان تنزهوه اما آن لكم ان توحدوه اما سمعتم من تعبدوه وتبرؤن
اليه وتعظموه فان المسيح قد أقر له بالعبودية وتبرأ من الربوبية وقال اني عبد الله ولقد
بشر بنبينا قبل مبعثه وعرف بني اسرائيل بقربه من الحق وكرامته أما سمعتم بمعجزاته
وما ظهر من دلالاته اما انشق له القمر اما كلمه الضب والحجر اما خاطبه البعير والشجر
اما هو الطيب بيت من مضر قال فعجز ابو ثوب عن رد الجواب ولم يكن له ما يزيل حجته

الآن قال له يزيد بن عامر لقد علمنا ما تفعل ولكنه كان ساحرا وان كان قولك هذا حقا فادع الله وتوسل اليه بمحمد ان يسقينا الغيث فان جاء الغيث علمنا ان قولك ليس فيه شك ونؤمن بالله ونصدق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم قال يزيد بن عامر ان الله يقدر على ما ذكرت فان الله على كل شيء قدير ان العبد الخاص اذا دعاه أجاب دعوته ولكنه يفعل ما يشاء وأنا اتوسل الى الله بخير خلقه وصفيه وهو الفعال لما يريد ثم ان يزيد قام وخرج من مجلس أبي ثوب فقال له الى اين قال أدعو الذي لو شاء أنزل عليكم رجزا من السماء ثم قرأ بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين قال حدثنا عاصم عن رويم عن ابن جبير قال انما طلب ابو ثوب الغيث واقتصر عليه لانه كانت له مزرعة بالبعد من النيل ولا يقدر ان يسقيها ولا يصل اليها ماء وكانت قد اشرفت على الهلاك واليبس وكانت منه ببال وكان قد غرس فيها من جميع الثمار والاشجار وصنع لها مصانع تمتلئ بماء المطر يسقيها منها وقت الحاجة اليها وكان المطر قد امسك عنها والمصانع نشفت فلما خرج يزيد الى البر توضأ وصلى ركعتين ثم رفع رأسه نحو السماء وقال اللهم انك قد امرتنا بالدعاء ووعدتنا بالاجابة فقلت وانت اصدق القائلين واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان وقد دعوت كما أمرت فاستجب كما وعدت يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدا ولا يحصيه غيرك قال واقص بن جبير لقد بلغني ممن أثق به ان يزيد بن عامر ما برح يدعو حتى ارتفع السحاب من الجو ووقف وقفة الخاشع ورفع جناح السائر الواضع وارتفعت سحابة وتألفت والرعد يصول حولها صولة الغاضب وهو لها بصوت البرق يزجر بصلصلة وقعقعة همزمة وهو على ذلك سيره ومسيره وقد أحاطت بالسحابة ملائكة الرحمة متطوقة بنطاق الخدمة يسوقونها من خزائن رحمته ويجذبونها بازمة القهر الى ملك ابد الله وهو واسع أجنحة عبوديته موسوم بوسم يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته والركام يسري ويسرع اسراع الرجل يسبح من تسبيح الجلالة فترى الودق يخرج من خلاله فاذا هي أشرقت وتكاملت بالماء وسقت والبرق من أركانها قد انشقت هبت عليها ارياح قدرته من مواضع خزائن رحمته وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين يدي رحمته وعندها تفتح مصابيح أبوابها وترفع ستر حجابها فهمت بدموع اشجانها على يدي خزانها فتستبشر الارض عند ورودها وتنتظم عقود الزهر عند ورودها في جيد وجودها وتخرج كمورد مآثرها فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها قال ونزل المطر يسكب بقية يومهم وليلتهم فلما كان من الغد حضر يزيد بن عامر بمجلس أبي ثوب وقال له كيف رأيت صنع الله الصانع المتكفل بأرزاق العبيد قال فضحك أبو ثوب

وقال ان سحركم لعظيم وان مكركم لجسيم وان سحركم يفعل اكثر من هذا فقال اعاذك الله رحمة من الله قد أبرمن اقسم باسمه عليه فلما رأى نزول المطر وظهرت بركات صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الآن تحققت ان دينكم الحق وقولكم الصدق وأنا مؤمن بالله مصدق برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسوف اعرض دين الاسلام على أهل جزيرتي وأصحابي وأهل الكنايس وانبني المساجد وآمر بالمعروف وانهى عن المنكر فقال يزيد ان أنت فعلت ذلك أرشدت وان نافقت فان ربك لبالمرصاد ثم خرج من عنده هو ومن كان معه وشطا وغلمانه ومضوا الى دمياط الى البامرك وحدثوه بما كان من أبي ثوب فقال والله لقد خدعكم بخديعته ورماكم بسهم مكيدته فقال يزيد ابن عامر ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين فما لبثوا أياما قلائل حتى وصل الخبر ان أبا ثوب جمع من سائر الجزائر وهو قادم عليهم فلما سمع البامرك بذلك قال ليزيد بن عامر ما الذى ترى من الرأى فى أمر هذا العدو فقال يزيد نستعين بالله ونتوكل على الله ومن قاتلنا قاتلناه قال ابن اسحاق وان البامرك أرسل ولده شطا الى البرلس ودميرة وطناح وما تحت يده يطلبهم فجاؤا من كل جهة وكتب يزيد الى عمرو بن العاص يعلمه ان أبا ثوب قد جمع الجموع فلما وصل اليه الكتاب أرسل اليهم هلال بن اوس بن صفوان بن ربيعة أحد بني لوى ومعه ألف فارس وأمره بالمسير الى دمياط وذلك فى العشر الاول من شعبان سنة عشرين من الهجرة وكان لعمر بن الخطاب فى الخلافة أربع سنين ونصف أماما كان من أبي ثوب فانه لما نفر اليه العساكر أخرجهم بظاهر تنيس فكانوا عشرين الفا من الرجالة ومن الخيل خمسمائة فارس من القبط ومتنصرة العرب وعداهم فى المراكب وأتوا نحو دمياط فخرج اليهم شطا بن البامرك فقتل منهم رجالا وجندل ابطالا وانه اشترى الجنة من الله بنفسه ولم يزل يقاتلهم بقية يومه ثم انه عاد من قتال اللئام الى الصلاة والصيام ولم يزل على قدم الخوف والوجل وهو منكوس الرأس من الخجل من الله تعالى عزوجل فلما مضى أكثر الليل وطلع نجم سهيل اضطجع فلما كان وقت الغلس وقرب الصبح وتنفس استيقظ شطا وهو باكي العين فقال له أبوه يا بني ما الذى ابكاك فقال رأيت شيأ فى منامي ابصرته وسمعت منه كلاما وعاينته وحفظته وحررته والدنيا هي طالق وانى بعون ربى واثق ولاشك انى لك مفارق فقال أبوه أعوذ بالله يا بني من هذا الكلام ولعل ان ذلك اضغاث أحلام فقال لا والله ما هي أضغاث أحلام لكنه أمر من الملك العلام الذى أجرى الاقلام وخلق الضيا والظلام وبعث سيد الانام بشرائع الاسلام وانى رأيت فى منامي كان أبواب السماء قد فتحت وأنوار الهداية قد سطعت ولمعت ثم تفتحت أبواب السماء الثانية ثم رأيت

ملائكتهم اسعودا على جباههم لا يقومون وركعا لا ينتصبون وقياما من هيبة ربهم لا يقعدون وباكين لا تنشف لهم دموع ثم رأيت كذلك سماء بعد سماء الى السماء السابعة ثم رأيت قبة من زمرد اخضر وفيها قناديل من الجوهر وهي تمرج من الانوار وتقدمن غير نار وفيها اربعون حوراء عليهن حلل ما رأيت قط مثلها ولا ابصرت شكلها بوجوه تفتن الانس وفي ارجلهن نعال الياقوت الاحمر يطأن بها على النمارق والزرابي فصاحت بي احداهن وهي كبيرتهن وقالت يا مقتون بدار الدنيا اما آن لك ان تذكرنا فقد خلقنا الله لك منذ خلقك وجعل مهرنا منك الجهاد في مرضات رب العباد وقد الفت الجفا وما هكذا صنع أهل الوفا وقد نفد المنقات وانقضت الساعات والاوقات فتيقظ من المنام وارحل الى دار السلام وقالت انظر ما اعد لك وللشهداء قال فنظرت واذا بقباب معلقة بحيث لا يدرك لها نهاية بعدد النجوم وقطرات الغيوم في كل قبة مثل ما رأيت فقلت ما هذه القباب فقالت هذه قباب قوام الليل والشهداء يأوون اليها في جنة المأوى ثم انها جعلت تقول أنت يا مقتون ما تبرح في المنام شعر

فدع النوم وبادر * مثل فعل المستهام
وابك على ما كان * منك بدموع وسجام
ثم نح وانتبه به * في نهار وظلام
أيها اللائم دعني * لست أصغي للملام
وعروس فاقت الشمس * مع البدر التمام
طرفها يرشق باللحظ * مصيبات السهام
ولها صدغ على الخد * كنون تحت لام
أحسن الاتراب قدا * في اعتدال وقوام
مهرها من قام في الليـــل وهو باك في الظلام
يا عمادي ورجاي * ومناي والمرام
فاستمع مني قولي * ثم فكر في النظام
وغدا بادر الحرب * والى ضرب السهام
تأتي الينا مسرعا * بعد ترمال الظلام

فقال أبوه اعلم يا ولدي ان من المنام ما يصدق وما يكذب فلا تشغل نفسك بما رأيت فقال لا والله يا أباه ما بقي لي في الدنيا طمع ولم يزل باقي ليلته يبكي ويتضرع ويقوم على اقدام الخشوع ويتخضع واجفانه من جفونه تدمع الى أن اصبح الصباح واشرق بضيائه ولاح فودع شملا أباه واهله وخرج الى الحرب فتعلق به أبوه وقال له

يابني بحق عليك لا تبليني بفراقك فقال شطا دع عنك العتاب فقد قرب لقا الاحباب فعندها قامت على أبيه المواسم وانهل الدمع الساجم ودنى الفراق وقامت الاشواق وجرى من كل عين عين واقبل البامرك يودع ولده ويقول يا بني ان صح منامك وضربت في دار السلام خيامك فاذكرنا بحسن طريقة الوفا واقرى سلامي على النبي المصطفى فبرز شطا الى مقام الحرب ودعا للبراز فخرج اليه واحد فقتله وثاني وثالث حتى قتل اثنى عشر فارسا قال ابن اسحاق فلما رأى أبو ثوب ما فعل شطا بفرسانه لم يطق الصبر دون ان خرج اليه بنفسه وكان من الفرسان المذكورة فلما ساوى شطا في الميدان قال له يا شطا كيف تركت الدين المستقيم وعدلت عنه واصغيت الى هؤلاء الاثام واتبعت دين الاسلام لقد عمل فيك القوم واستوجبت العتب واللوم يا فتى عد الى الدين الصحيح والقول الرجيح وهو دين المسيح فاي شئ رأيت من هؤلاء المساكين حتى اتبعت دينهم فلما سمع شطا كلام أبي ثوب اقبل عليه مغضبا وقال له يا لئيم اتأمرني ان ادع الدين المستقيم الذي كان عليه الخليل والكليم واني لي بذلك وقد رأيت الليلة ما لي من الكرامة عند الله وقد طلقت الدنيا ثلاثا فلما سمع ابو ثوب كلامه حمل عليه وسنانه اليه فالتقاه شطا بقلب قوي وجنان جري وعزم مضي وحسام سري وتقاتلا نصف نهار فعطش شطا فاراد الله أن يطيب قلبه فكشف عن بصره فرأى القبة التي رآها في المنام والحور التي انشدته الابيات وفي يدها كاس من شربة لا يفنى ولا يسقم وفيه من الرحيق المختوم وهي تقول يا شطا هذا شراب من شرب منه لا يسقم ولا يفنى والساعة تصل الينا وتقدم علينا قال فلما نظر شطا الى ذلك وسمع منها ما قالت صاح الله اكبر هذا وعد الرحمن وصدق المرسلون وأخذه الزمع والبكا خوفا من الله فقال له أبو ثوب مم بكاؤك قال رأيت كذا وكذا فضحك أبو ثوب من كلامه وحمل عليه فتقاتلا اشد من الاول الا أن أبو ثوب سبق شطا بطعنة في صدره أطلع السنان من ظهره فخر صريعا فلما نظر البامرك الى ولده مطروحا لم يأخذه صبر دون أن حمل عليه هو واصحابه قال واظلمت آفاق تلك الارض من الغبار وترادف المثار ووقعت الهزيمة على البامرك واصحابه فالجأهم الى أبواب دمياط وطمع فيهم عدو الله ابو ثوب واذا قد أتاهم هلال ابن اوس بن صفوان بن ربيعة فوضعوا أيديهم في ابن ثوب وأصحابه فانهم آيسوا من انفسهم فهم ينادون بالتهليل والتكبير وتحاموا اصحاب البامرك وحملوا من قبلهم قال وأما أبو ثوب واصحابه فانهم آيسوا من انفسهم قال فهم في ذلك اذ التقى يزيد بن عامر بأبي ثوب فقال له يا عدو الله أما اتعظت بآيات الله أما ظهر لك الحق من ذوي اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واطبق عليه فأخذه أسيرا وصاح الصائح ان أبا ثوب

امر فاستسلم قومه للقضاء فأخذوهم عن آخرهم بعد ما قتل منهم خلق كثير ثم انهم عزوا البامرك في ولده شطا فقال احتسبته عند الله فقال له يزيد بن عامر ان في الجنة درجات لا ينالها الا الصابرون قال الله تعالى وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون قال ابن اسحاق ودفنوا شطا في ثيابه بعد ما صلوا عليه ودفنوه في موضع قتله قال فلما كان من الغد أقبل البامرك الى عند يزيد بن عامر وقال رأيت الليلة ولدي في النوم وهو في القبة والحور بين يديه فقلت ما فعل الله بك قال قبلني باحسن قبول وجاد علي وأنزلني بجوار الرسول حدثنا ابن اسحاق حدثنا عمر بن الاسقع عن جده عامر بن خويلد قال قتل شطا في ليلة نصف شعبان فجعل الله تلك الليلة موسما في كل سنة وذلك انه لما قتل لم يبق احد الا زار قبره تلك الليلة وان هلال بن اوس نزل احضر اباذوب وأعرض عليه الاسلام فاسلم واسلم من الاسرى اناس وابى منهم أناس وبقوا على دينهم واقروا عليهم الجزية ودخل المسلمون في المراكب الى تنيس وبنوا موضع الكنيسة جامعا وبنوا في جميع الجزائر جوامع وأخرج أبوذوب الخمس من ماله وأموال قومه وبعثوه الى عمرو بن العاص مع أموال من قتل وان هلال بن أوس نزل على التل الاحمر ظاهر تنيس وأقر أهل الجزائر في أماكنهم فقالوا أيها الامير بدا منتاهن جانبك وبقي علينا الخوف من جانب آخر قال هلال من أين قالوا من أصحاب القلعة المكنية قال وأين هي قالوا الفرما لانها على جانب بحيرة تنيس مما يلي شرقها وفيهم أقوام وعليهم الصامت بن مرة من آل مرداس فلما سمع هلال بن أوس ذلك مضى اليها بجميع من معه فلما وصلوا اليها أشرف عليهم الصامت بن مرة وأمر أصحابه ان يرموهم وكان بها الف رجل وغالبهم رماة النبل فرموا عن قوس واحد الف سهم فسمتها العرب الفرما فاقام عليها هلال بن أوس عشرين يوما لم يقدر عليها فبعث الى عمرو يعلمه بما وقع ويستنجده فارسل اليه المقداد بن الاسود الكندي في خمسمائة من عسكر الاسلام وأرسل معه ثلاثة آلاف ممن أسلم من القبط

(ذكر فتح الفرما والبقارة والقصر المشيد)

قال فلما نزل المقداد على الفرما تاهب أهلها للقتال فنزل الصامت بن مرة الى ما نزل به فعلم انه بيد القوم لانه ليس له ناصر ولا معين فصالح المقداد على أن يؤدي لهم اربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمائة ناقة والف راس من الغنم وان يهلوه الى تمام السنة فان شاء ارتجع الى الاسلام والا ارتحل باهله فاجابه المقداد الى ذلك وارتحل المقداد وهلال ابن اوس ونزلوا على البقارة وكان عليها الباقر بن الاشرف فاسلم هو ومن معه ومضوا الى

القصر المشيد ففتحه صلحا ثم ارتحلوا ونزلوا على الورادة وكان اسمها الواردة فسلمها اهلها وارتحلوا الى العريش فصالحوهم اهلها وكذلك اهل رفح وبيدا وميماس ونخلة وعسقلان قال ابن اسحاق حدثني يوسف بن عبد الاعلى قراءة عليه بجامع الرملة سنة مائتين وعشرين من الهجرة قال حدثني موسى بن عامر عن رفاعة بن قيس عن سلمان ابن عون عن جده عبد العزيز بن سالم عن أبي يعلى العبدي عن طاهر المطوعي عن أبي طالب القشاري عن وهبان بن بشر بن هزان قال سمعت الشرح كله عن محمد بن عمر الواقدي وهو يومئذ قاضي بغداد في الجانب الغربي

(ذكر فتوح ديار بكر وارض ربيعة)

حدثنا عدنان بن يحيى الحارثي عن معمر الجوفي ومن طريق آخر عن بن عمير التيمي والابتدا عن المهلب وطلحة ومحمد قالوا جميعا ومن قال منهم انه لما فتح الله الشام على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح وعلى يد خالد بن الوليد وفتح أرض مصر على يد عمرو بن العاص بن وائل السهمي كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة يقول له بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله اليك الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أما بعد فقد اجهدت نفسك في قتل الكفار وسارعت الى رضا الجبار وقدمت لك ما تجده يوم عرضك ولم نرمك يوما معرضا عن أداء فرضك وقت سنة نبيك وجاهدت في الله حق جهاده تقبل الله منا ومنك وغفر لنا ولك فاذا قرأت كتابي هذا فاعقد عقد العياض بن غنم الاشعري وجهز معه جيشا الى أرض ربيعة وديار بكر واني أرجو من الله سبحانه أن يفتحها على يديه وأوصيه بتقوى الله والجهاد والاجتهاد في طاعته ولا يلحقه التواني في الجهاد وتتبع سنن المؤمنين المجاهدين وما أمر به سيد المرسلين مما أنزل الله عليه رب العالمين يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ثم كتب كتابا آخر الى عياض بن غنم بالولاية والمسير الى أرض ربيعة الفرس وديار بكر قال وبعث بالكتب مع ساعدة بن قيس المرادي وزوده من بيت مال المسلمين وأمره بالمسير فسار الى ان ورد على أبي عبيدة في طبرية فسلم اليه كتاب عمر وسلم الكتاب الثاني الى عياض بن غنم الاشعري فلما قرأه أبو عبيدة قال السمع والطاعة لله ولامير المؤمنين وهنى عياضا بمسيره الى الجهاد وعقد له عقدا على ثمانية آلاف منهم ألف صحابي من جملتهم خالد بن الوليد والنعمان بن المنذر وضرار بن الازور وابن سابق وضمرة بن شعصل وعمرو بن ربيعة وذو الادغار بن قيس والحكم بن هشام واليسع ابن خلف وطلحة وعامر بن بهرام والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر وعبد الله بن يوقنا

وكانوا قد قدموا على أبي عبيدة بعد فتوح مصر وكان قدومهم في شهر شوال سنة ست وعشرين من الهجرة وسار عياض بن غنم من طبرية في ثمانية آلاف يريد الجزيرة وعلى مقدمته خيل سهيل بن عدي فلم يزل سائرا حتى نزل على باالس وكان خالد قد قصدها فصالحوا فأقام عليها وسرح سهيل بن عدي الى الرقة فنزل على حصارها وكان عليها بطريق اسمه يوحنا وكان من قبل صاحب رأس العين وكان قد استعد للحرب وعبى آلة الحصار فلما رأوا أهل الرقة أن صاحبهم معول على الحصار اجتمع بعضهم ببعض وقالوا ايش أنتم بين أهل الشام وأهل العراق ولا مقام لكم بين يدي هؤلاء القوم قال فمشوا الى عياض بن غنم بالصلح ورأى ان يقبل منهم فبعث الى سهيل بن عدي ان يصالحهم على ما وقع عليه الاتفاق وارتحل عياض بن غنم عن باالس ونزل على الرقة البيضا وفي ذلك قال سهيل بن عدي

وصادفنا الفرات غداة سرنا * بجرد الخيل والاسل العوالي

أخذنا الرقة البيضا لما * رأتنا الشهب لوح بالتلال

وارتجت الجزيرة بعد خفض * وقد كانت تخوف بالزوال

سنقصد راس عين ادرأي * غدا حملي مع جيش الضلال

وقصد سهيل امام جيش صدق * ويقتل في البطارق لا يبالي

فنحن اولوا التقية والمعالي * ونحن الصابرون لكل حال

صحابة أحمد خير الموالي * رقى العلياء والرتب العوالي

الى رب السماء بنا علوا * وخاطبه شفاها بالمقال

(ذكر فتح القلعتين زبا وزلوبيا)

(قال الواقدي) رحمه الله ورضي عنه ولما فتحت الرقة صلحا عول عياض بن غنم على المسير على رأس العين وكان يومئذ بالجزيرة ملك من ملوك الروم يقال له شهرياض ابن فرسون وكان جيشه مائة ألف وتحت يده في معاملته من العرب المتنصرة السلطان ابن سارية التغلبي وهبيرة وهم ثلاثون ألفا من الابطال وانهم لما اتصلت بهم الاخبار بفتح الرقة وان المسلمين قاصدون اليهم مع عياض بن غنم وخالد والمقداد أتوا الى الملك شهرياض برأس العين وقالوا له اعلم أيها الملك ان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قد أتوا ديارنا وقصدوا نحونا ونحن علينا تطالب أكثر منكم ومطالب القوم اننا ندخل في دينهم فاضرب خيامك بظاهر البلد واظهر بجيشك حتى تلقاهم فاما مالوا علينا اطاعهم الى ذلك وقال غير اني أخاف ان تنهزموا عني فاعطوهم رهاين واستوثق منهم ورتب آلة الحصار واخرج الخزائن والاموال ورتب الحرس على الاسوار وزاد في عمق الخندق

وعرضه وأرسل الى جملين وكفرتوثا ودارا وماردين وحران والرها وتل موزن والسن والموزر واقام ينتظر عياض بن غنم قال حدثنا عبد الله بن اسلم عن عامر بن عبد الله عن بن اسحاق الاموى عن يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولاه قال لما عول عياض ابن غنم الاشعرى على المسير الى رأس العين الى قتال الملك شهرياض بعث قبل مسيره شعث بن عويلم وعبد الله بن غسان الى القلعتين المعروفتين بزباو زلو بيا فقال عبد الله يوقنا لعياض بن غنم أعلم أيها الامير ان هذين القلعتين اللتين ذكرتهما حصينان منيعان احداهما من الجانب الشرقي والاخرى من الجانب الغربي وهما كانا تحت ولايتي وان صاحبهما كان من قبلي وهو احد بنى عمى واسمه اشفكياص بن مارية باسم امه وكنت قد زوجته ابنتي فاخذت في صداقها الحصن الشرقي من الفراة وقد رأيت بأنك تأمرني بالتقدم على هذين الحصنين حتى احصل في القلعة الغربية فان فتحتها كانت الاخرى في قبضتنا فقال له لله درك يا عبد الله لقد نصحت الاسلام واهله فجزاك الله خيرا احسن ما جازى به اولياءه سر على بركة الله وعونه فاذا استقربك المكان ثلاثة أيام انفذ اليك شعيبا وعبد الله ومن معهم من المسلمين وبعد الفتح ان شاء الله تنزلوا الينا فقال يوقنا استعنا بالله وتوكلنا عليه ثم انه اخذ معه من صناديد جماعته مائة ولم يأخذوا معهم ثقلا سوى جنيب من الخيل واحد وسار من اول الليل وترك عياض بن غنم على الباسل فجدوا السير بقية ليلتهم فلما كان قبل الفجر اشرفوا على الحانوتة فوجدوا فيها الغامن الارمن وهم بالعدة الكاملة فلما اشرف عليهم يوقنا ومن معه وهم يتحدثون بلغة الروم انسواهم وسألوهم عن خبرهم فقالوا هذا البطريق المعظم يوقنا صاحب حلب قد هرب من العرب واقبل لنصرة صاحب هذه القلعة فلما سمعوا بذلك فرحوا وقعدوا بين يدى يوقنا وارسل المقدم عليهم خيالا وامره بالسرعة ليبشر اشفكياص بقدوم يوقنا اليه وهروبه من العرب وانه يستأذن عليه فمضى الرجل واخبر اشفكياص فاطرق الى الارض ثم قال لوزيره وحق المسيح والانجيل ما جاء الا لينصب علينا ويملك هاتين القلعتين منا كما فعل بطرابلس وصور وما انا بالذى يأمن اليه فما ترى ايها الوزير قال ابن اسحاق ولقد بلغنى ان هذا الوزير كان من أهل القراءة وكان أديبا عاقلا لبيبا ممن قرأ الكتب السالفة والاخبار الماضية وقرأ ملاحم دانيال وكان منذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم يسكن في دير مرتوما وماردين الشمر وحلب فتعبد فيه زمانا طويلا حتى شاع ذكره بين أهل دين النصرانية ثم بعد ذلك اخبر الروم بأنه قد وقع بحافر من حوافر حمار المسيح فكانت الروم ينذرون له النذور والصدقات وشاع خبره وسماه كرفس ذلك الدير بريد برحافر وانه في بعض الايام خرج

كب يحلى ناقته وكان
الخروقد اشتد فاوى الى ظل حائط الدير فاناخ ناقته وحقها ونام والراهب ينظر اليه فلما
غرق فى نومه انت حية من مزرعة الراهب وفى فمها باقة نرجس فجعلت تروح عليه حتى
استفاق وذلك الراهب ينظر اليه فلما افاق اتى اليه وسلم عليه وقال له من أى الناس
أنت قال من العرب قال الراهب قد علمت ذلك وانما اسألك عن أى دين قال دين
الاسلام الذى كان عليه انبياء الله كلهم عليهم افضل الصلاة والسلام فقال له انت على
دين هذا الرجل الذى فى أرض الحجاز قال نعم قال ابن اسحاق وكان البدوى ورقة بن
الصامت المزنى بن اخت رواحة الانصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وكان حضر غزوة تبوك وحضر يوم السلاسل وكان أديبا لبيبا شاعرا اذا تكلم الاسمع
وكان ابو عبيدة قد وجهه لما كانوا فى حصار قلعة حلب الى صاحب الرقة يدعوه الى
الاسلام فقال الراهب وكان اسمه شوبحوان بن كربان قد بلغنى انكم تقولون ان ما خلق
الله خلقا أعظم ولا اكرم ولا ارحم من محمد وتركتم آدم ونوحا وابراهيم واسحاق ويعقوب
والاسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى فاريد ان تبين لى حقيقة ذلك فقال ورقة
ابن الصامت اسمع ما اقول ولا تتبع الفضول اما علمت ان عالم الملائكة اجمعوا بمعرفة
البيت المعمور ووقع بينهم الجدل فى تصاريف الامور افتخر الكروبيون على الروحانيين
والمسبحون على المقربين فزاحمهم ابليس بدرقة عبادته ومشيد مبانى رهبانيته وقال
انا المخلوق من ضرام النار البارع فى خدمة العزيز الجبار اين أنتم من وقوفى على
أقدام الاهتمام مائة الف عام وتعبدى فى السموات واكنافها وبروجها واعرافها
وأوساطها واطرافها وجبال الارض واكنافها فعارضه جبريل بالامتحان والابتلاء
وصرفه عن حجة الافتخار والادعاء وقال له من أنت فى الافتخار الا فى الحضيض المخصوص
ان الله فى عالم الملكوت محبوب قد طار اشتياقنا اليه وورودنا فى الخير فيما يريد وجعل
نهاية عبادتنا الصلاة عليه فايقن من المفاخر بالنزول ومن الطلاق شمس وعائه
بالافول وقال رب آمين فهل الى لقائه من سبيل والى الوصول اليه من دليل فقال
جبريل اقطع مسافة الامنية وخض بحر الاعتراف بعز الربوبية وثق بحبال العز
المكين فانك لخدمة من كون من نور التمكين علينا مفروش بقلم التمكين
انك لمن المرسلين فخلع عزازيل عن لباس الجدل واستعمل اجنحة الامل
والقى قلادة الادعاء ونكس تاج الكبرياء واستعد لقوادم الطلب
وداخله من قول جبريل غاية العجب وجعل سمت عزمه والسبب وتحذر من سوء
المنقلب وقال يا الله العجب انا مع صدق طويتى فى المعاملة والانابة وخلوص سريرتى فى

طلب الزيادة يكون أحد مثلي أو يبلغ درجة فعلي وكيف ذلك وإذا رفعت رأسي بالتسبيح أعاين ما حول العرش وإذا سجدت لعظمته انظر ما تحت العرش أتفتخر علينا بجواهر طاعتك وتوفر أسباب بضاعتك ونحن وفقناك لطاعتنا ومعاملتنا وشمل ألطاف ارضنا وسمو اتساع فخوالك على خدمتي من جملة معلما الملائكتي وعزتي وجلالي لولا أحمد ما خلقت ملكا ولا أجريت فلكا ولا أنرت قمرا ولا أمضيت قدرا ولا أسرجت شمسا ولا أقررت عرشا ولا بسطت فرشا ولا خلقت جنة ولا نارا ولا فجرت أنهارا ولا بحارا ولا جعلت النجوم طوالعا ولا غواربا ولا الدنيا مشارقا ولا مغاربا ولكن طربا جعفة تجلى في طلب الإيثار حتى يميلك الله بين الجنة والنار قال فسار بفالك طلب النجوم على قدم مطايا التفرد حتى اخترق بين العرش والكرسي واختبر كل جني وانسي وكلما مر بفناء من المغاني رأى معنى من المعاني وذلك أنه لما رأى أصنافا من الملائكة على اختلاف الأحوال من الاجتهاد والطاعة والأعمال وجميع عبادكم الشاكرة موقوفة على خدمة سيد الدنيا والآخرة فلما علم معنى عباداتهم وتحقق آثار إراداتهم زادهم الإعجاب فاستعظم وجود ذلك في عالم التراب وقال أي رب أني أجده وأناديه أم كيف التوصل إلى سبيل ناديه فقال اطلب نهر السلسبيل فهنالك تجد إلى نظره سبيل فسار تحت مشيئة القدر إلى أن وصل إلى النهر فرأى ضوء يلوح وأسراره بصفات ما فيه تفوح وعبادا ربه المقربون والروحانيون والمسبحون والصافون والراكعون والساجدون وقطب عباداتهم دائر على الاستغفار لابن صاحب الافتخار وكلما سجدوا وسجدوا يستغفرون للذين آمنوا قال فانتظم في ملكهم واسلك سبيل سلكهم لتفوز بالنظر في جملة من حضر وإذا بنور أحمد قد تعلا ومن سرادقات قصره تجلى فسجدت الملائكة لمعنى عظيم وقالوا إنك لعلى خلق عظيم وإنما رد لما غشيه النور الوارد ونطق لسان جسده بما في جسده من ذا الذي ملأ الأكوان بعبادته وافتخر على الملائكة بخالص عبادته وإذا بالنداء معاشر الملائكة دعوا النظر إلى الفاني وحققوا النظر إلى الفضائل والمعاني فأحدقت الملائكة نحو القصر بالأعين وإذا في جوانبه أربعة أعين فقالوا يا رب العزة قد تركنا المعنى فما حقيقة هذا المعنى قال هذه العيون عيون أنهاره وسيوف أنصاره ومعالم سنته بحساب نسبته وأبواب علمه ومفرح كلمه وزينة دينه وأعلام يقينه وأول عين هي عين التصديق والعين الثانية هي عين التحقيق والعين الثالثة عين النور والحياء والتوفيق والعين الرابعة عين العلم والتشريق فعين التصديق لصديقه وعين العدل لفاروقه وعين الحياء لصهره ورفيقه وعين العلم لأخيه وشقيقه فانظروهم بعين التبجيل والوقار وأكثروا لهم الدعاء والاستغفار فأنا الذي قلت فيهم

الصابرون والصادقون والقانتون والمستغفرون بالاسحار ولما علم شرجون كلام ورقة ابن الصامت لم يرد عليه جوابا ولا ابداه خطابا غيرانه عرف الحق فكتمه ولم يزل شرجون في الدير حتى اخذ المسلمون حلب فاتعض الى اشعكياص فاستوزره فقال لما استشاروه في امر يوقنا قال له اعلم ايها الملك ان يوقنا من الملوك وابناء الملوك وقد قرأ الكتب واخوه كان افضل منه في الدين وقد صحب هؤلاء العرب واطلع على سرائرهم ونظر الى دينهم وربما انه علم عند البطران دين المسيح افضل من دين هؤلاء العرب وقد هرب من ايديهم اليك فان كان الرجل قد اتى بغير حيل ولا نقل فاعلم انه هارب من القوم اليك فيجب عليك ان تخرج الى لقائه وتعظم شأنه وترفع مكانه فلما سمع اشعكياص ذلك خرج بعسكره الى لقائه وبقي الوزير في القلعة قال فسمعت ابنة يوقنا ان اباها قد اتى ميزات تسبح في سرباله تحت الارض مع جوارها وخدمها وقد سدت القلعة الثانية ووجدت اشعكياص قد خرج الى لقاء ابيها والوزير شرجون في مرتبة وزارته فقام اليها ووقع بين يديها وخدمها فجلست تتحدث معه فقال لها خذى على نفسك ما الحذر فان الملك قد خرج واخاف ان يبطش هذا اللعين بابيك واعلم انه ما تبع هؤلاء العرب الا وقد تحقق عنده ان دينهم الحق وقولهم الصدق فقالت له الجارية فما تقول انت في دين القوم قال هو والله الحق والدين الصدق وانى كنت كاتم هذا السر فلما سمعت ذلك تبسمت وقالت والله لقد منيت لنفسي ما رضيه ابي ولكن انتما كاتم هذا عني (قال الواقدي) رحمه الله وان اشعكياص التقى بعبد الله يوقنا وسلم بعضهما على بعض وترجل كل منهما لصاحبه وشكى كل واحد منهما ما يجده من الشوق ثم ركبا وسارا الى القلعة فنزل يوقنا فيها ومن معه واتت ابنته وسلمت عليه وبكت وبكى واما اشعكياص فانه معول على القبض على يوقنا فقال ايها الملك كيف رأيت هؤلاء العرب في دينهم وعدلهم وسياستهم في ملكهم فقال يوقنا ان القوم يزعمون انهم لا يريدون ملك الدنيا وانما يريدون ملك الآخرة ومع ذا انهم ملكوا الشام وارض مصر وما تغيروا عن طباعهم وانفسهم الدنية واول الامر وآخره انهم اطهروا الناموس حتى ملكوا البلاد ولما كشفت اسرارهم وتحققت اخبارهم ورأيت بيان ما هم عليه هربت منهم وبعدت عنهم بعدانى ظننت انهم على الحق ونصحت لهم وملكتهم طرابلس وصور وغيرهما وانطاكية وقد علمت ان المسيح قد غضب على اذ تركت دينه وما امر به من القربان وما اوصى به المريحا المعمدان واستاطن ان لى تطهيرا من درن الذنوب ومساوى العيوب ثم انه اظهر البكاء والتوجع والشكوى فلما عاين اشعكياص ما فعله وسمع كلامه اطال عليه وقال له ايها الملك اذا كنت قد ندمت على قبيح فعالك ورجعت الى الدين الصحيح

بقلبك فابشر بقبول التوبة وزوال الحوبة واعلم ان باب التوبة مفتوح وعلم القبول لاهل الندامة يلوح وقد قرب عيد الصليب وبقي له عشرون يوما وهذا انرناقس الراهب بدير السكرة وهو من أعظم أهل دين النصرانية فسر اليه فيغمسك في ماء المعمودية فتخرج نقيا من الذنوب فقال يوقنا افعل ذلك ولكن من يضمن ان يعيش فعندها قامت ابنته وصفقت وقالت والله يا أبت ما ادعك تمضي حتى اتملا منك بالنظر وقبلت يد اشفكياص وقالت يا سيدي أريد ان تأذن لابي ان يسير معي الى حصني فقال هو الليلة عندي وليلة غد يكون عندك فعلم يوقنا انه لابد من الاكل معه ولا بد في سماطه من لحم خنزير ولا بد من الخمر فقال أيها السيد انما كنت فانا في نعمتك وخيرك فقال شرحون لاشفكياص اعلم أيها الملك ان الملك يوقنا كثير الشوق الى ابنته ولهم زمان ما رأوا بعضهما وما يخفى عليك ذلك والصواب ان يكون الليلة عندها وليلة غد يكون عندك فقال افعلوا ذلك قال فاخذت أباها ونزلت في السرب الى القلعة الشرقية وعبر أصحابه اليه في المركب فلما جن الليل قالت الجارية لابيها يا ابت كيف تركت العرب بعد صحبتك لهم ونصحك لدينهم ارأيت ان القوم على باطل وان دينك الاول أفضل منه فرجعت اليه فقال يوقنا أي بنية والله ما أتيت اليك الا من شفقتي عليك وقد افترقنا في الدنيا وأخاف أن يكون الفراق في الآخرة عليك وقد علمت وتيقنت ان هذين الحصنين نصب عين المسلمين وأنت تعلمين ان قلعتي كانت امنع من كل قلعة بالشام وقد ملكتها العرب ونزعت ملوكها عن أرضهم وبلادهم فاتقي الله يا بنتي في نفسك واعملي لخلاص نفسك من الزبانية والجحيم الحامية والخلود في الهاوية وارجعي الى الله من قريب واكفري بدين الصليب فوالله ما ثم دين أفضل من دين الاسلام وعليه كان المسيح والانبياء عليهم الصلاة والسلام وانما غر بالنصارى وحيدهم عن طريق الحق رجل يقال له بولص كان من اليهود اغواهم عن الطريق المستقيم وشرع لهم الضلال القديم حتى كفروا بما جاء به الخليل ابراهيم وهؤلاء العرب قد اتبعوا ما أمر الله به وأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ولديهم القول الراجح والفضل الصالح انهم طلقوا الدنيا ثلاثا وطلبوا بعد الاجتماع اشتاتا فارضي لنفسك ما رضي أبوك به لنفسه فقالت والله ما قلت شيأ الا وأنا به عارفة وقد رضيت لنفسي ما رضيت لنفسك وأنا أشهد أن لا اله الا الله واشهد أن سيدنا محمدا رسول الله قال ففرح باسلامها ثم قال أي بنية ما الذي نصنع في أمر هذا الكافر اللعين الفاجر قالت والله لقد قال لي الوزير شرحون انه مصر على قبضك وقال انك ما أردت الا لتنصب عليه فقال يوقنا اذا كان الامر كذلك فاصنعي لنا سماطا وسيري اليه استدعيه هو وخواصه فانا آمر اصحابي أن يقبضوا عليهم وعليه اذا اشتغلوا بالطعام والشراب فاذا

فعلنا ذلك دنت القلعتان فى قبضتنا وسلمهم الى اصحاب نبينا ثم الى اديهم اشاهر بنا ثم الى أن نحصل فى قرقيسيا فلعل الله أن يفتحها علينا على أيدينا وهذا هو الرأى قال الواقدى رحمه الله تعالى فلما ذهب الليل وأتى النهار امرت جماعتها بصنع الطعام والحلويات وغيرهم فلما صنعوا ذلك وفروا الموائد وعليها من كل حار وبارد ونزلت فى السرب وقصدت اشفكياص فى قلعته ووقفت بين يديه وصعقت له فقام لها اعتنقها وقال لها كيف الملك يوقنا واحواله فقالت أيها الملك انه ما نام الليل وهو متفكر فى القيامة واحوالها والجحيم ومالها واقد أراد اليوم المسير الى مدينة قرقيسيا وأن يقصد الراهب المعظم قرياقوس وقد اخرته الى أن تحضر واله السماط وتمضى أنت وهو الى جرجيس حتى يرجع الى دينه وقد جئت اليك لتحضر سماطى وضيافتى أنت واصحابك وخواصك وتأ كلوا من طعامى وتشربوا من شرابى ومدامى والكل من فضلك وانعامك واحسانك وتجبير خاطرى قال فابى إشفكياص مما دخل على قلبه من يوقنا اذلم يبت عنده حتى يقبضه فقال له الوزير شيرجون أيها الملك ليس هذا برأى واذا امتنعت نفر قلبه منك وما يدريك أيها الملك انه ندم على ما سلف منه وقد أقر بالذنب واعترف وانك اذا أكلت سماطه بنته ودعوتهم انت الى سماطك وبعد ذلك تفعل فيهم ما شئت قال وكان هذا الكلام من شرجون لا شفكياص سرا من ابنة يوقنا فقام عند ذلك وقال لوزيره احفظ مكانى حتى أعود اليك ولم يكن له ولد يرثه فى الملك قال فاخذ معه خواصه من قومه وحجابه وبنى عمه ونزل فى السرب والجارية امامهم وخوارها بين يديه بالشمع وقد لم الوزراء ماذا فى تعود اليه بعدها فلما حصل إشفكياص فى قلعة زلوبيا وثب للقائه يوقنا واصحابه وكان قد أوصاهم بما يفعلونه فلما وقعت العين فى العين واقبل يوقنا اليه ليعانقه ضمه الى صدره وقبض عليه قبضة الاسد على فريسته وفعل أصحابه كما فعل وضربوا فى الحال رقابهم ولم ينتطح فيها شاتان ولم يعلم بما فعلوه احد ثم نزلوا من فورهم فى السرب ومضوا الى زلوبيا فوجدوا شرجون ينتظرهم فلما رآهم تبسم واعلن بكلمة التوحيد وقال لله درك يا عبدالله لقد شرح الله صدرك للايمان وارضيت الملك الديان ثم ان يوقنا خبر اولاد قلعة اشفكياص وجعل يدعوا بالرجال ويعرض عليهم الاسلام فمن أسلم تركه ومن أبى تركه وضمن بعضهم بعضا حتى لا ينهزم أحد منهم ويروح الى صاحب قرقيسيا ويخبره بما صنع يوقنا ومدة أيام اشرف عليهم عبدالله بن غسان وسهيل بن عدى فى الفى فارس فاوراهم يوقنا التمنع والاعراض وناصبهم القتال خمسة أيام وقد عرفوا ان ذلك منه حيلة وأرسل اعلمهم فى النيران القلعتين فى يده والليلة أسلمها اليكم واظهر الهرب الى قرقيسيا فلعل الله ان يفتحها على يدى فلما كان

من الليل أمر شهرجون ان يسلمها اليهم ثم ان المسلمين اعلنوا بالتهليل والتكبير ووقع الصائح من كل جانب واشهروا القواضب وكان في يومه هذا قد وصل اليه من صاحب قرقيسيا بالهدايا والتحف الى يوقنا ويهنيه بالسلامة والخلاص من العرب والرجوع الى دينه فقبل يوقنا الهدية وانزل الرسول في خيام أصحابه وكانوا قد ضربوا لهم وطاقا في الجانب الشرقي فلما صاروا أصحابه المسلمون في قلعة زيا اظهر يوقنا الفزع والهلع وقال وحق ديني ماهؤلاء العرب الا شياطين ثم انه أخذ بعض ثقل ابنته في الليل وساروا يطلبون قرقيسيا ففي ذلك قال طريف بن احد بني ربيعة بن مالك وهو سائر صحبة المسلمين الصحابة رضي الله عنهم هذه الابيات

اتينا الى أرض الفرات مع الزيا * ونحن نروم الروم من كل فاجر
وقدامنا ليث الحروب وسهمها * همام شجاع في الزراعين قاصر
واعني بيوقنا عليه تحية * يناصب للاعدا بحيلة غادر
وقاتل ابناء الصليب وحزبهم * بحد حسام ماضي القطع باتر
وصاح على الملعون صاحب زلوبيا * فاورده في الحال سكنى المقابر
وملكنا القلعتين كلاهما * سعد واقبال ونصرة قادر
سيعطى غداة البعث يوم معاده * بروح وريحان وحور قواصر

حدثنا سيف بن عمرو التميمي قال حدثنا الانصاري عن المهلب عن طلحة عن محمد بن أبي الدقيلي بن ميسور قال لما كان من أمر يوقنا واشفكياص ماذكرناه وأوري من نفسه الهرب سار مع ابنته وأصحابه والرسول معهم يرومون قرقيسيا وهم منهزمون فوصلوها مساء وقد دخلوا به على شهرياض واعلموه بأخذ القلعتين وكيف فعلوا معهم العرب فايقن بهلاكه وأخذ بلاده فقال له يوقنا أيها السيد لا تخف فنحن نقاتل بين يديك حتى نموت وان نزلت العرب علينا يرون حصارنا الا ريك العجب بقتالهم ولن يصلوا اليك بسوء فوثق بقوله وخلع عليه وطيب قلبه وانزله بدار جواره وبعث شهرياض من ليلته الى خاله وهو يومئذ ملك أرض ربيعة برأس العين فارسل ينتصره على العرب ويعلمه ان العرب قد أخذوا قلعتي زيا وزلوبيا وان الرجل المعظم يوقنا ملك حلب قد هرب منهم بعد خدمته لهم وهو عندي فسار الرجل الرسول الى دبر مريع ومنه الى المجدل الى رأس العين فوجد شهرياض الملك بأعظم تحصين وأعد لها آلة الحصار وزاد في عرض خندقها ونصب خيامه ومضاربه على مغاربها على طريق النقب وهو معول على لقاء عياض بن غنم ومن معه وقد جمع عنده سائر عرب الجزيرة من بني تغلب وغيرهم وقد صنع لهم سماطا واستدعى بامرائهم وهو نوفل بن مازن والفريد بن تغلب بن

عاصم والاشجع بن وائل وميسرة بن وائل وميسرة بن عاصم وحرام بن عبد الله وقارب
ابن الاصم وقال لهم يافتيان العرب لم تزل نرعى صغيركم وكبيركم وحريمكم وعبيدكم وقد
ابحنا لكم أرضنا ترعوا في حرمها وسمها وبرضي منكم بأنكم تؤدون اليها من أوبادكم فانتم آمنون
وهؤلاء سواء عكم قد ملكوا الشام ومعاقله وأرض مصر وما معها ولم يكفهم ذلك حتى
اقبلوا الينا يريدون أن يزاحمونا على ملكنا ويخرجونا من أرضنا وقد علمتم ان القوم
ان ظهروا بكم لا يبقون عليكم ولا يرضون منكم الا ان تدخلوا في دينهم أو قاتلوا عن
دينكم وأهلكم وأموالكم فكونوا يدا واحدة لا ينفصل منكم شيء كما كان حلفاء بني
الايهم من آل غسان مع الملك هرقل فان نحن نصرنا على القوم فالارض لنا ولكم على
السواء وان كانت الاخرى فمونا على دين واحد ويبقى ذكرنا الى الابد قال فاجابوه الى
ذلك وتعاقدوا وتعاقدوا ان يموتوا على سيف واحد وأعطاهم الاموال والعدد والسلاح
وصار وامعه قال ثم ان رسول صاحب قرقيسيا قدم عليه واعطاه كتاب ابن اخته
شهرياص فلما قرأه وفهم ما فيه وانه يطلب منه النجدة أرسل اليه يورياك الارمني وهو
الذي بني تل المؤزر والمسن وتل عرب وعابدين والسوائد فارسله ومعه أربعة آلاف
فلما قدم الارمني ومعه أربعة آلاف فارس الى قرقيسيا وكانوا قد قطعوا جسرهم الذي
كان على الخابور وكان الجسر على أعمدة حديد وعليها سلاسل وعلى السلاسل ألواح
وكذلك أيضا من ناحية الفرات وحفروا حول مدائنهم خندقا عميقا عريضا وحصنوا
مدائنهم غاية التحصين وأقاموا ينتظرون عسكر الصحابة رضي الله عنهم

(ذكر فتح قرقيسيا)

ولما ملك عبد الله بن غسان القلعة الغربية حين سلمها اليه شمرجون بأمر يوقنا وترك
يوقنا العرب وهرب الى قرقيسيا دلهم الراهب شمرجون على الطريق نحو السرب الى
القلعة الشرقية فملكوها واحتووا على ما كان لاشفكياص فيها وبعثوا الى عياض بن
غنم وأرسلوا يعلموه في السر بما صنع يوقنا فدعوا له المسلمون وشكروه وأرسلوا يقولون
لعبد الله بن غسان والى سهل بن عدي على ان يحتمطا على ما في القلعة الثانية ولا يؤخذ
منها ما قيمة الدرهم الواحد حتى يسلمه يوقنا لمالكه واتركا في القلعة من يحفظها واطلبا
قرقيسيا وانزلا عليها والسلام قال فلما وصل الكتاب اليهما فعلا ما أمرهما به عياض وولوا
على القلعة الغربية الاخوص بن عامر ومعه مائة فارس وعلى الشرقية زياد بن الاسود
في مائة فارس ومضى عبد الله بن سهل الى قرقيسيا فحال بينهما وبينها الفرات فدلهم
بعض سكان تلك الارض على المخاضة فعدوا في الليل وأصبحوا على أرض واحدة
مع أعداء الله وأرسلوا الى ماجن والمحولة والبديل والصور وبعثوا اليهم الامان وأقروهم

في منازلهم وقالوا ان كانت لنا نقد أحسنا فيكم الصنيع وان كانت علينا انصرفنا عنكم مشكورين على عدلنا فيكم قال فاجابوا القوم الى ذلك وباعوا عليهم الميرة قال حدثنا هلال بن عاصم عن يحيى بن جبير عن سوار بن يزيد قال لما بعث عبد الله بن غسان الى أهل تلك القرى وطيب قلوبهم ثم انه بعد أيام بعث سهل بن اساف التميمي وكان من الصحابة الاول ومعه مائة من المسلمين ليأتوهم بالطعام والعلوفة من ناحية ماسكين فسار سهل ومن معه فلما وصلوا الى السمسانية شن عليها الغارة واستاق أموالها فخرج عليه نوفل بن مازن في خمسمائة فارس واستخلصوا منهم ما أخذوه ووقع بينهم القتال فحملوا باسمر أرصافية ونيات سامية وافعال نامية وقلوب تنزهت بالايمان والسنة تنطق بذكر الرحمن ولم يزالوا في قتال الى ان قتل من المسلمين ثلاثون وانهزم سبعة وأربعون وأسر سبعة وعشرون من جملتهم سهل بن أساف بن عدى وحدثوا أصحابهم بما كان من المتنصرة وعنهم فعظم ذلك قال الراوى حدثنى نوفل بن عامر عن سالم بن عاصم عن سالم الدوسى قال كنت مع سهل بن أساف حين أغرنا على السمسانية وخرج علينا نوفل بن مازن قال والله لقد قاتلنا قتالا شديدا ما شهدت مثله حتى كان من أهل الهزيمة ما كان قال سالم بن عبد الله لما اسرهم نوفل بن مازن شدهم في الحبال وأقرن بعضهم الى بعض ورجلهم عن خيولهم وسارهم بطلب رأس العين فاخبروا ان الملك شهرياض على مرج الطير من جانب المنقب فقصد اليه ومعه من بنى عمه أربعون رجلا وساقوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن أوقفوهم بين يديه وحدثوه بامرهم فأمر بضرب رقابهم فضرب رقابهم وكان آخر من بقى أميرهم سهل بن اساف وكان احسن الرجال وجها قال فشفع فيه بعض البطارقة فوهبه له وكان ذلك البطريق اسمه توتابن لورك وهو صاحب كفرتوتا فاخذه واتى به الى قصره في كفرتوتا قال فنظرت اليه ابنته فسألت اباها عنه فقال أي بنية ان المسيح قد طرح رحمة هذا الشاب في قلبي فسألت الملك فيه فوهبه لى فخذيه اليك فاخذته وادخلته في بستان قال فلما كان في بعض الايام دخلت البستان فنظرت الى سهل بن اساف وهو يقرأ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود فلما سمعت قراءته أخذت بمجامع قلبها فقالت ما افصح هذا الكلام واطيبه والينه للافهام فقال لها هذا كلام الملك العلام الذى أنزله على سيد الانام فقالت الجارية أما محمد هو نبيكم لاشك فيه فمن هؤلاء الذين قال فيهم أشداء على الكفار قال هو صاحبه ووزيره أبو بكر الصديق رضى الله عنه أشداء على الكفار وصاحب هذا الفتوح ومجهز هذه الجيوش عمر بن

المطلب وجاء بينهم حوكابه وصهره عثمان بن عفان تراهم ركعا سجدا واخوه وابن عمه وصاحب سيفه على بن أبى طالب فقالت له الجارية وكان اسمها اريناوكانت تكتب بقلم التوراة والانجيل وتتكلم بكلام العرب وكثيرا ما كانت تسأل علماء دينهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعطيها أحدهم خبرا حتى وقع بيدها سهل بن اساف فقالت من هؤلاء الذين ذكرت قال هم الذين قالوا وصدقوا وقاتلوا فحققوا وركبوا نجب السوابق فوقفوا وسار واالى بادية الطلب فلم يرفقوا وكلما لاح لهم علم الافضال تشوقوا وتودوا الى سرائرهم رجال صدقوا ثم انه انشد يقول شعر

رجال من الاحباب تاهت نفوسهم * ينادونه خوفا ويدعونه قصدا
وقاموا بليل والظلام معسعس * الى منزل الاحباب فاستعمل الكدا
يحثون حث الشوق نحو مليكهم * وقصدهم الفردوس من جنة الخلدا
أولئك قوم فى العبادة اخلصوا * فتاهوا به شوقا وماتوا به وجدا

فقالت له الجارية لقد سمعت نيسارا راهب دير قمان الله يتشمردعوة نبيكم فى المشرق والمغرب وعيالك المشرق والمغرب وانهم يفضلونه على الآباء والامهات والاخوة والاخوات وانهم بعد موته يسيرون اليه واذا ذكر يكثرون الصلاة عليه فقال لها سهل ابن اساف اما علمت انه كان فى حياته يدعوهم ويستغفرلهم ولمن دخل فى دينه واقر به ولقد كانت زوجته عائشة رضى الله عنها تقول كانت ليلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لما مضى الثلث الاول والفلك يدور بالنجوم والسماء تزهو بالكواكب والمردة تحرق بالشهب الثواقب وسرادق الله قد مد جناحه واما ل الظلام ذهلامه فبينما انا فى وادى الوزين ساكنة وبجانبى أفضل مرسل وا كرم من ابتهل وتوسل واذابه قد نصنى وبكلامه الشريف ايقظنى وهو يقول يا سها العين المنكحلة بعين النبات الغافلة عن موارد الهبات هى من ما ملك واعلى ليوم جما ملك وقد قام اولوا الالباب ومرغوا خدودهم على الاعتاب وفى التراب قالت فقمت معه للخدمة ووقفنا نسمع للامة الى ان برق بارق الصباح وانفلق فالق الاصباح وقال هلمى للصلاة والاستغفار وطلب العموم العزيز الغفار قالت فوابقته على ما اراد وبلغها القصد والمراد فلما سكت عن تسبيحه وفاح طيب ريحه وراشه وهو يتنفس ويقرع بسباته جوهر سنه فقلت يا سيد الوجود وطيب الآباء والجدود ان العرب لا تقرع سنها الا لامر مهم أولشان ملم قال تذكرت حال العصاة من أمتى والمخلصين فى محبتى وذكرت قوله تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين فقلت يا رسول الله اما انزل عليك قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر فوالله ليعمرن لك

ولامتك لقوله ولسوف يعطيك ربك فترضى انت الذى خلق السموات والارضين والعرش والكرسى من أنوارك وانت الذى ربط براق القرب ببابك أنت الذى اخترقت معالم الملكوت وحملت الى حضرة القرب والجبروت وانت الذى أوتيت ليلة القدر وانك صاحب البطحاء والحرم لانت لك الاحجار وسلمت عليك الاشجار وانشق لك القمر ليلة الابرار وانزل عليك يا أيها النبى جاهد الكفار انت صاحب عرفات ومنى والمخصوص بالشكر والثناء وسوف يبلغك الله فى امتك المنى ما اوعدك ربك بالمقام المحمود واللواء المعقود والحوض المورود ورب الكرم والجود ورونق السعود على امتك ممدود وسحاب التوفيق عليهم محدود ولواء أصحابك بحوالا رقبوا لك منضود وعليه مرقوم عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا فكيف تخاف على امتك نزول الباس وقد فضلوا على سائر الناس بقوله كنتم خير امة اخرجت للناس يا سيدى انت تعلم ان أباك آدم تشفع بك فتاب عليه ونوح سأل بك نجاه الله من الغرق وابراهيم مع علو قدره بك انجاه الله من النار والحرق وموسى مع تقريبه ومكانته بك سأل ربه ان يشرح صدره وييسر أمره قال الراوى وما ذكر سهل للجارية هذه المناقب الا انها ترجع الى دين الاسلام قال فلما سمعت كلامه قالت فما جزاء من يدخل فى دينه ويقول بقوله فقال يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وتمحى عنه سيئاته ويكون جزاؤه الرضوان فى الجنان ثم قرأ قوله تعالى ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما قال فلما سمعت الجارية ما تكلم به سهل وقع بقلبها وصغت اليه بلبها قالت انا أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله ففرح سهل باسلامها فقالت له اكتم أمرك الى الليل حتى أخلصك وأسير معك الى عسكر الاسلام قال الراوى حدثنا ساعد بن عدى النميرى عن أبيه انه سمعه وهو يحدث الناس بالمدينة وقد أوتى عمرو بن الخطاب رضى الله عنه بامرال رأس العين وخزائن الملك شهريار قال وان الجارية مضت واستدعت بجوارها وأخذت من مال أبيها ألف دينار فلما جن الليل فتحت باب السر بعد ما تجسست فرأت كل من فى قصر أبيها نيام فاتت الى سهل وحلته من وثاقه وقالت له قم على اسم الله وبركة نبيه فقام سهل بن اساف الى الباب واعطته لامة حرب ولبست هى مثلها وخرجا من الباب واذا هما بجواد بن فركبا وخرجا وسارا مقدار فرسخين عن كفرتوثا واذاهم بحس الخيل وراءهم فقالت ان كانوا من الروم فعلى مخاطبتهم وان كانوا من العرب المتنصرة فعليك مخاطبتهم قال فوقفوا غير كثير واذا بالقوم عدتهم ثلاث وعشرون فارسا وعليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب قال فتاملهم سهل واذاهم أصحابه الذين قتلوا بحضرة الملك قال فدنى منهم سهل وسلم عليهم وقال سبحان

الله الم أشاهدقتلكم قالوانعم ماعلمت ان الشهداء أحياء لايموتون وانما هي نقلة من دار الى دار وان الله قد بعث بارواح الشهداء في تلك الليلة آتزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم وكانت تلك الليلة ليلة النصف من شعبان فقال لهم انى اريد المسير معكم وفى صحبتكم قالوا انك لاتقدر على ذلك وقد بقي من عمرك أحد وأربعون ليلة وتلحق بنا وأما هذه الجارية فقد أعد الله لها في الجنة ما اعد لاوليائه وقد بنى لها قصرامن الجوهر والياقوت الاحمر على شاطىء نهر الكوثر ستوره معلقة وبالانوار موثقة وقبابه مزوقة واسرته موضونة وفرشه مرفوعة واباريقه ممدودة وراياته معقودة وحلله منسوجة وجيوشه بحسن الوفاء مسروجة على أبوابه مكتوب بقلم السر المكنون ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون فلما سمعت الجارية قولهم قالت فيم استوجبت هذا النعيم قالوا بتوحيدك الرب العظيم وتصديقك النبي الكريم قال فصاحت صيحة فاذا هي ميتة قال سهل فنزلت قد فنتها وغابوا الشهداء على وسرت الى المسلمين فحدثت عبدالله بن غسان وسهل بن عدى بذلك فازدادوا المسلمين يقينا بذلك وعاش سهل بعدها احدى وأربعين يوما ومات رحمه الله حدثنا صفوان بن عامر عن خويلد بن ماجد عن عبد الرحمن بن النعمان عمن حدثه عن فتوح الشام وأرض ربيعة العرب قال لما نزل عسكر المسلمين على قرقيسيا مع عبدالله وسهل قال خندق المسلمون على أنفسهم خندقا وتركوا لهم موضعا يدخلون منه ويخرجون قال واتصلت الاخبار بعياض بن غنم وهو بجانب الرقة وهو يتروى بن يبدأ بحربه بشهرياض وجنوده أو بمصر حران والرها فقال له خالد بن الوليد رضى الله عنه أتترك جيشا قد تهيأ واحتفل لقتالك وتمضى لسواه والرأى ان تلقى هذا العدو فاذا أنت هزمته واوقعت الهيبة بعدها اقصد من شئت من البلاد فانها تفتح ان شاء الله تعالى قال فعول عياض على ذلك واذا قد اتته جواسيسه وأخبروه انه قد تهيأ لحربكم الملك شهرياض ونوفل وطورياطس صاحب دارا والموز وصاحب جملين وارمانوس صاحب تل سماوى وأرجو صاحب البارعية وشهرياض صاحب ماردين ووردس صاحب حران والرها وقد صارت جريدتهم مائتين ألف وقد ضموا لتلك لقائكم وقالوا لانلقى العدو الا باهالينا وأولادنا وأموالنا وحريمنا حتى لاينهزم منا أحد وقد تقدم اليكم الارمن وبعدهم الروم وهم دون الثغرات فلما سمع عياض ذلك دعث اليهم الوليد بن عقبة ووصاه بما أراد قال فقدم على بنى تغلب وجمع امراءهم وهم نوفل بن ماردين وعاصم والاشعث وميسرة وحزام وقارب وقال يافتيان العرب اعلموا ان من نظر فى العواقب آمن من المعاطب وليس أنتم أحدسنانا ولا أقوى جنانا ولا اجرى فى الحيوان ولا اوسع ميدانا من بنى غسان وليس فيكم من يشبه جبلة بن الايهم وكان فى ستين ألفا وقد نصرنا

الله

الله عليهم وقد لمسنا سادتهم والصواب ان ترجعوا الينا وتكونوا من حزبنا قال فأجابوه باجمعهم الا طائفة اياذا الشمطا فانهم ارتحلوا الى بلاد الروم ووصل عرب بني تغلب الى جيش عياض ابن غنم مسلمهم وكافرهم فرحب بهم وطيب قلوبهم وقال لهم يامعاشر العرب ان الله سبحانه وتعالى قد أراد بكم خيرا بوصولكم الينا وانتزاعكم عن عبدة الصليب وقد ير يكم الله اعزاز دينه واشراف نبيه وقد وعدنا وعده الحق بملك كسرى وقيصر واخذ كنوزهما وما كان ينطق عن الهوى وقال الله في حقنا ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون قال فأسلم كافرهم وبقوا جميعهم مسلمين قال الراوى اخبرنا سيف عن خالد بن سعيد قال لما علم عياض بهروب اياذا شمطا الى بلاد الروم كتب الى عمر بن الخطاب بذلك فأرسل عمر رضى الله عنه الى هرقل وولده قسطنطين يقول لهم ان لم تصرفوهم عن أرضكم الى عندنا الا فنى كل نصرانى عندنا قال الواقدى فلما وصلت رسالة عمر الى هرقل وولده نفذهم اليه قال وعزم عياض على لقاء الملك شهرياض وأما ما كان من شهرياض صاحب قرقيسيا فانه جمع بطارقته وقال لهم اعلموا انه قد بلغنى عن من تقدم من الملوك انهم كانوا يجيشون الجيوش ولا يستغنون عن الحيل وأنا اريد فى غداة غد ان اخرج الى لقاء العرب فاذا اصطفت الصفوف رجلونى عن جوادى واشهروا على سلاحكم كأنكم تريدون قتلى فاقول لكم أنا معتذر انما اردت ان اجرب خبر جميتكم لدينكم وظننت انه قد اخذكم الخوف من هؤلاء فاذا سمعتم منى ذلك فارجعونى الى اجلالى واعظامى ثم ناوشوهم الحرب فاهرب أنا اليهم وأقول لهم انى اردت ان اسلمكم البلد فهاش القوم على كما رأيتم وهموا بقتلى وقد جئت اليكم راغبا فى صحبتكم فاذا آمنونى وغفلوا عنى أقتل أميرهم فى الليل وأنا أعلم ان القوم بعده يهون على أمرهم ثم احمل على انهزامى منهم فقال له وزيره الارمنى وكيف تسمح بنفسك وتلقيها فى اضيق المسالك وان أنت فعلت ذلك لا نأمن عليك من العرب ويعتبنا خالك ويقول لنا كيف تركتموه مضى الى العرب فقال عبد الله يوقنا لقد صدق السيد فى قوله وكيف نتركك تمضى اليهم وأنا ادبر لك هؤلاء القوم تدبيرا يكون أقرب من هذا واهون قال شهرياض والوزير الارمنى وما هو هذا التدبير أيها الملك قال ان نخرج غدا باجمعنا ونلقاهم ونريهم الجد من انفسنا ونقاتل بحسب الطاقة ثم ننهزم الى المدينة ونستوثق من أبوابها ونصعد على السور فربما تقربوا منا ونقاتل فاذا فعلنا ذلك طمعت العرب فينا ودنوا منا واعلموا ان فى عسكرهم جماعة من الروم ممن صبا الى دينهم فربما تقربوا منا فاذا أرادوا ذلك كتبنا اليهم نطيب قلوبهم ونرسل رسولا فى طلب الصلح ونقول ارسلوا الينا عشرة من عقلائكم حتى نرى ما تريدون منا ولعلنا

نتقيه بكم سلما ما دام الملوادلك وسلوا عهدنا اتهمنا عليهم ثم هربوا وقتا عليهم وتقول لهم أما ان ترحلوا عنا والا فنحن نسارقا بهم فان القوم اذا أرادوا الجد ما طلبوا اصلحنا باصحابهم ورحلوا عنا والعرب اذا قالوا قولا اوفوا به فان هزموا الملك شهرياض واحضروا على بلاده دخلنا بعد ذا تحت طاعتهم وارتحلنا عنهم الى بلاد الروم قال وانما اراد يوقنا بهذا الكلام امرين احدهما ان يبرأ عندهم من التهمة حتى يطمئنوا اليه والثانى ان يحصل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة فى المدينة فيحتال ان يكونوا تحت يده اشورهم فيمالك بهم المدينة فقال له وزيره الارمنى وان كان العرب يبعثوا الينا صعاليكهم اومواليهم فنقبض عليهم ونعدهم بالقتل فلا يلتفتوا الى ذلك ويقع الحدم بهم فى قتالنا ولا يرحلون عنا فكيف نصنع قال فأراهم يوقنا انه غضب وحرد وقال وحق المسيح لقد دخل رعب القوم فى قلوبكم وان تفلحوا بعدها أبدا اوحق ما اعتقده لقد قاتلتهم فى قلاتى حلب قتالا سارت به الركبان الى سائر البلدان مدة سنة كاملة ولولا ان عبدا اسود من عبيدهم اسمه دامس الهول وعشرون معه نصبوا حيلة على حتى ملكوا قلعتى لما قدروا عليها أبدا وكانوا قد نزلوا على بجميع عسكرهم وابطالهم فكيف بكم وما نزل عليكم الا شرذمة يسيرة وبلدكم حصين ليس عليه قتال الا من موضعين من صوب الجبل ومن العرب وما لكم عذر ومن أراد رضى المسيح والاجر قاتل عن دينه وصان أهله وحريمه عن هؤلاء العرب وان خفتم ان القوم يرسلوا الينا مواليهم اومن لا له عندهم قدر ولا شان وأنا أعرف الناس بهم وبفرسانهم وابطالهم ومواليهم وخاصة أصحابهم فانفذوا مع رسولكم كتابا باسماء القوم اريدهم منهم المقداد والنعمان وشرحبيل ابن كعب ونوفل وعبد الرحمن بن مالك والاسود بن قيس وخالد بن جعفر وابن قيس وهمام بن الحارث ومالك بن نويرة وسلامة بن عامر قال فضحك الوزير الارمنى وقال وحق دينى ان العرب لا يسمحون بهؤلاء قط الا ان يطلبوا رهائن منكم فقال يوقنا ما افشل رأيكم واضعف قلوبكم انفذوا الى القوم فان أجابوا كان بركة السيد المسيح وان طلبوا رهائن أرسلنا من اضعفنا من أهل المدينة ومن أولادهم والبسناهم افخر الثياب وقلنا هؤلاء اكابرنا اى أهل المدينة قال شهرياض وحق القربان ما نفعل الا ما امرتنا ثم انه أمر بطارقته وارباب دولته ان يأمروا الناس بالتأهب للحرب ففعلوا ولبسوا اسلاحهم واعتدوا القتال وامر أصحابه بالركوب فركبت العرب وخرجت من باب الخندق واستقبلوا العدو بهمم عالية وقالوا اللهم انصرنا عليهم كما نصرت نبيك يوم الاحزاب وعبروا صفوفهم ثم وعظهم وقال فى آخر وعظه ها أنا حامل نحو طاغية الروم وصليبه فاتبعونى فان فتح الله بقتله هو وصليبه فالقوم لا ثبات لهم فقالوا أيها الامير لقد

دعوتنا

دعوتنا الى شيء هو أحب الينا مما ذكرت فاحمل حتى نحمل قال محمد بن عبد الله فحمل ومن معه على عسكر قرقيسيا وكان أمير المسلمين عبد الله بن غسان وسهل بن عدي فلقد قاتلوا قتالا شديدا وجاهدوا في الله حق جهاده وبذلوا رماحهم وسيوفهم في اعداء الله والتقى عبد الله بن مالك الاشتر بوزنبك الارمني فلما رآه ابن زبه علم انه من ملوكهم فطعنه في صدره اخرج السنان من ظهره والتقى النعمان بن المنذر بشهرياض وقد طحطح الجموع فحمل عليه النعمان ولم يعلم بانه صاحب البلد بل عرف انه من الملوك فحمل عليه النعمان وهو يقول هذه الابيات

وانا القوم في الحروب ليوثها * وتنفرنا في الوغا اسودها
نحامي عن شرع الهدى ونصونه * ونرغم انوف العدا وبرودها
لنا الفخر في كل المواطن كلها * بامجد الهادي فذاك سعيدها
ملكنا بلاد الشام ثم ملوكها * الى ان بدلنا بالنكال عديدها
وسوف نقود الخيل جردا سوابقا * الى شهرياض الكلاب ذاك شديدها
وعلك دارا ثم جلين بعدها * كذا رأس عين والجيوش نقودها
ونمضي الى حران ثم سروجهم * كذاك الرها للمسلمين نعيدها
واني أنا النعمان ذاك بن منذر * ابيد ليوث الحرب ثم اسودها

ثم اطبق عليه وقاجاه بطعنة فالقاه صريعا فلما نظر جيش قرقيسيا الى هلاك ملكهم انحرفوا الى مدينتهم وتحصنوا في بلدتهم وخافت ارمانوسة ودخل الرعب في قلبها ثم انها قالت للعبد الصالح يوقنا يا عبد المسيح ما بقي لنا أحد سواك ديسوس ملكنا وبدبر حالنا سواك فقال أيتها الملكة أنا لك وبين يديك ثم انها خلعت عليه وعلى أصحابه وقالت اعلموا ان هذه المدينة والملكة لكم فقال يوقنا يجب علينا ان نقوم بحقها ونقاتل بين يديها ثم انه رتبهم على الاسوار فدنوا المسلمين ورجالهم وهم يرمون بالمقاليع فكانت حجارتهم لا تخطئ أبدا وكان المقدم على الرجالة والموالي المنذر بن عاصم ولم يكن بالحجاز ولا باليمن قاطبة ارمى منه بالمقاليع وكان من قوة ساعده اذا خرج حجره يجاوز البرج الاعظم فلم يزل يرمي فيه كل يوم فيصيب الرجل والرجلين فسمته العرب برج المنذر وكانوا قد ضايقوا أهل قرقيسيا تضييقا شديدا فقالت ارمانوسة أين ما وعدت به الملك شهرياض من تدبيرك في هؤلاء العرب فقال أنا في هذا الامر متفكر ثم انه صعد على السور مما يلي المسلمين ونادى يا معاشر العرب قد طال الامر بيننا وبينكم الان تهزموا الملك شهرياض وتملكوا رأس العين ونحن لكم بعد ذلك واطلبوا منا من المال ما تريدون فقد علمنا انكم اذا قلتم فعلتم ووفيتم قال فلما رآه عبد الله بن

غسان وسهل بن عدى والصحابة وثاروا اليه علموا انه يريد ان ينصب على أهل ورقيسيا فقال سهل بن عدى يا عدو نفسه مكرت بنا وقعت مصوبك علينا بدخولك فى دينا حتى اطمأننا اليك ثم غدرت ورجعت الى دينك الاول فابن تهرب منا وتولى عنا ونحن لك فى الطلب وسوف علاك هذه المدينة بالسيف ونضرب عنقك فقال يامعاشر العرب لقد صحبتكم وخدمتكم ومارأيت منكم الاخيرا ولكن طالبتنى نفسى بدينى فرجعت اليه والآن قد مضى مامضى وهذه المدينة مالكم اليها وصول ولا تقدروا عليها الانها حصينة وفيها رجال الحرب والقوت عندنا كثير ولكن انعدوا الينا منكم عشرة من أعز اصحابكم ممن نثق بهم فيعاهدون لنا ونحلف لهم اذا فتحتم رأس العين سلمنا هذه المدينة اليكم ويكون الصلح بيننا بقية هذه السنة وقد بقى منها أربعة اشهر أولها شهر رمضان فقال له عبدالله بن غسان قد اجبناك الى ذلك فهم العشرة الذين تريدهم حتى نرسلهم اليك فقال اريد المقداد بن الاسود والاسود ولى قيس وخالد بن جعفر ورواحة بن قيس وهمام بن الحارث وسلامة بن عامر وابن نعيم فهؤلاء نريدهم فانه لايقع الصلح الابهم قال فوجه عبدالله الذين ذكرهم له يوقنا قال وفتح لهم الباب فقال له عبدالله نحن مانسمح باصحابنا بلا رهائن فمضى يوقنا الى الملكة ارمانوسة واخبرها ان القوم يريدون رهائن فقالت أرسل لهم من أولاد السوقة قال يوقنا أيتها الملكة ان الحيل فى الحرب من عند العرب خرجت والملوك من شأنها اذا قالت قولا وفت به واعلمى انه قد قال حكيم الفرس اذا كان العدو طماع قوم فالثقة بكل احد عجز واعلمى ان أهل بلدك فيهم رؤساء وملوك وهم يعظمون شأنك بعد بعلك الملك ولكن ينظرون اليك بعين التأنيث وينظرون الى بعين الغربة ولاهيبة لى عندهم وربما سمعوا بمطامع العرب فلا يمكونا من ذلك ولايتم لنا مانريده وربما يرسلوا يستنجدون علينا مثل ملك الموصل وصاحب المكاربة ومعظم الامرفات فما الذى تراه من الرأى قال نرى أن نبعث لهم رهائن من عند العرب وانما فعل ذلك يوقنا حتى لايتعرض له متعرض فى المدينة واذا اسلمهم لا يكون فيها رئيس من رؤسائها فاجابته الى ذلك وانفذت الرؤساء منهم رهائن الى عبدالله بن غسان فلما وصلوا اليهم دخل العشرة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما حصلوا فى المدينة أمرهم الى البرج الكبير وهو المعروف ببرج المنذر وانما فعل ذلك حتى لايعصى من فى البرج لان فيه مال أهل البلد فلما حصلوا هناك رجع الى الملكة ارمانوسة وقال قد حصلتهم فى البرج وغدا نوقفهم باعلا البرج ونقول لهم اما ان ترحلوا عنا أونقتلهم قالت وكيف تصنع برهائننا ان نحن فعلنا باصحابهم ماذكرت يفعلوا باصحابنا كذلك قال لها يوقنا اذا كنت تفزعين على أهل

البلد فصالحى القوم قالت دبر يا محسن رأيك فقال السمع والطاعة وأنا أمضى الى هؤلاء العشرة مع ماوصاهم به أميرهم وننظر ما الذى يطلبونه منا ثم انه مضى الى عند الصحابة وحدثهم بما عزم عليه من تسليم البلد اذا سمعتم الصيحة ندونكم ومن فى البرج ثم رجع الى أصحابه ورتبهم على السور ولم يترك معهم أحدمن أهل البلد فلما أظلم الليل سار عبد الله يوقنا مع اصحابه المائتين واعلنوا بالتهليل والتكبير وبادروا الى الباب ففتحوه وأرسل الى عبد الله بأن يأتى اليهم بعسكره فاتوا ووضعوا السيف فى أهل البلد فما أفاقوا أهل قرقيسيا الا والمسلمون قدمكنوا منهم القواضب فقصدوا البرج الاعظم فثار واعليهم العشرة الصحابة فعلمت الملكة ارمانوسة ان الحيلة قد تمت عليها من قبل يوقنا وسمعت أهل البلد ينادون الغوث الغوث فامنهم عبد الله بن غسان وسهل بن عدى واحتووا على مافى المدينة وأخذوا جميع ما كان فيها من الاموال ومافى البرج الاعظم من الذخائر فاخرجوا منه الخمس وقسموا الباقى على المسلمين وأعرضوا عليهم الاسلام فمن أسلم منهم وهبوا له أهله وماله ومن أبى ضربت عليه الجزية ثم اجتمعوا الذين أسلموا وأتوا الى الامراء وقالوا نحن قد دخلنا فى دينكم فسلموا لنا كرومنا وبساتيننا فقال لهم عبد الله بن غسان وسهل بن عدى هى بحكم الامام يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو الذى يسكن فيها من أرادو يأخذ خراجها ممن هى فى يده فان حكم الخراج والخمس والجزية بامر الامام يأخذ حاجته منه ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين قال الراوى واسلمت ارمانوسة ومن كان يلوذ بها فاقرهم عبد الله فى أماكنهم واحسن اليهم الاحسان وجدد لهم الامان كل ذلك ليتصل الخبر باهل البلاد فيدخلوا فى الاسلام قال عطية بن الحارث ممن ادرك ذلك قال كان فتح قرقيسيا أول ليلة من شهر رمضان سنة اثنين وعشرين من الهجرة وبنوا الكنيسة العظمى وهى بيعة جرجيس فجعلوها جامعا ولم يبرحوا حتى صلوا فيه واطلقوا الرهاين وسلم ولايتها الى شرحبيل بن كعب فى مائة وخمسين رجلا وعولوا على المسير الى ماكسين والتفت الى عبد الله يوقنا وقال مرابنتك أن ترجع الى قلعتها فقد جاءت الوصية الينا من قبل الامير عياض قال فعادت والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبى بعده

(ذكر فتح ماكسين والشمسانية)

قال حدثنى زهبان بن رقيم عن الصلت بن مجالد عن القيل بن ميسور قال لما ارتحل عبد الله عن قرقيسيا ونزل على ماكسين ففتحها صلحا على أربعة آلاف درهم من نقد بلادهم وهم شوار يخ والف حمل طعام حنطة وشعير فقلقوا من ذلك فترك لهم النصف وكذلك أهل الشمسانية ثم نزل على عربان فجاؤا اليه وصالحوه بما صالحوا به اهل

ما كسبن ثم ارتحل الى المجدل فلكها واقام بها ينتظر ما يرد عليه من أخبار أميره عياض ابن غنم وهو نازل على نهر البلخ وكتب اليه يعلمه بما فتح الله على يديه فلما وصل الكتاب اليه كتب اليه ان الزم مكانك حتى يأتيك أمرى والسلام قال سهل بن محمد بن سعيد لما فتح الله على يد عبد الله بن غسان أرض الخابور صلحا واقام بالمجدل انشد قيس بن أبى حازم البجلى هذه الابيات

اقمنا منار الدين فى كل جانب * وصلنا على أعدائنا بالقواضب
ودان لنا الخابور مع كل أهله * بفتيان صدق من كرام الغرائب
هزمناهم لما التقينا بسامح * وثار عجاج النقع مثل السحائب
وكل همام فى الحروب نخاله * يكر ويحمل فى صدور الكتائب
وجندل وزينك وشهرياض بعده * تركناهم فى القاع نهب الناهب
ومازال نصر الله يكنف جمعنا * ويحفظنا عن طارقات النوائب
فلله حمد فى المساء وبكرة * مالاح نجم فى سدول الغياهب

(ذكر فتوح قلعة ماردين)

قال حدثنى سوار بن كثير عن يوسف بن عبد الرزاق عن الكامل عن المثنى بن عامر عن جده قال لما افتتحت مدائن الخابور صلحا بلغ قتل الملك شهرياض صاحب أرض ربيعة وعين وردة ورأس العين فعظم عليه وكبر لديه فجمع أرباب دولته وهو نازل على أرض الطير وقال لهم هذه ثلاث مدائن من بلادنا قد ملكت وقلعتين والعرب المنصورة قد مضت عنا فقال له البطريق توتا ايها الملك أنه لابد للعرب مما ولابد لنا منهم ويعطى الله النصر لمن يشاء غير انه كان من الرأى انك لو زوجت ابنك عمودا الملكة مارية بنت أرسوس بن حارس صاحب ماردين وبرين يعنى قلعة المرأة (قال الراوى) وكان السبب فى بناء القلعتين المذكورتين ان هذا الرجل ارسوس بن حارس كان من أهل طير زند وكان شجاعا بطلا مناعا وكان أول من بنى المملكة بارمينية وكان منفردا بطير زند وكان يغار فى بلاد الروم حيث شاء حتى كتب أهل تلك البلاد الى الملك الاعظم يستغيثون من يده فارسل اليه الملك هرقل من انطاكية الى دار ربيعة وقال له ابنى لك حصنا تسكن فيه فلما توسط أرض جبل ماردين نزل تحته ونظر واذا على قلة الجبل بين نار الفرس وكان فيه عابدا من عباد الفرس وكان مشهورا عندهم بالعبادة وكانت الهدايا تقبل اليه من أقصى بلاد خراسان والعراق وكان اسمه دين فلم يزل ارسوس حتى صادفه وكان يحمل اليه الهدايا والتحف وكان العابد لا يحتجب عنه ولم يزل معه حتى انه وقع به منفردا فقتله وغيبه فلما عدموه أهل تلك الارض قالوا مات

دين ثم ان ارسوس بنى بيت النار وجعله حصنا وكانت له ابنة يقال لها مارية فلما رأت أباها بنى له مكانا وتحصن فيه بنت هي أيضا قلعة بازائه وحصنتها وجعلت فيها أموالها وذخائرها ورجالها وكانت كلما خطبها أحد تراه دونها الا انها من بيت المملكة وكان بالقرب من قلعتها دير بسفح الجبل وفي الدير راهب قد انقطع فيه وكان من أجمل الناس وجها وكان اسمه فرما قال فاتت اليه زائرة فلما رأته وقعت محبته في قلبها فلم تزل تتردد اليه وتجاسر عليه الى أن صار بينهما صحبة فسلمت نفسها اليه فحملت منه فلما تكامل حملها ولدت في خفية ولدا ذكرا فسلمته الى دايتها وقالت لها انظري كيف تفعلين بهذا الغلام فاني لا احبه ولا اريد قتله لانه ان علم أبي بقصتي قتلني ثم اخرجت لها ذخائرا نفيسة وجعلتها في قماطه وخيطت عليها وقالت من وقع به ينفقها على تربيته ثم انها افتقدت بدنه واذا على خده الايمن شامة سوداء بقدر الظفر ورأت اذنه اليمنى وفيها زيادة قال فاخذته الداية ونزلت به ليلا ومعها خادم وكان مطلعا على اسرار المملكة فاتت به الى أسفل القلعة الى الطريق العظمى وهناك عامود من رخام وغالبه غائص في الارض وهو قائم وعلى رأس ذلك العامود قاعدة من الرخام فوضعت ذلك المولود على القاعدة خوفا عليه من الوحش ان يقربه فيأكله ثم رجعت هي والخادم الى القلعة (قال الراوي) رضي الله عنه وكان من قضاء الله وقدره ان صاحب الموصل الملك الانطاق قد بعث رسولا لشهرياض ثم الى ارسوس بن حارس صاحب ماردين فجاز سحرا في الطريق الذي فيه العامود فسمع بكاء الطفل فدنى منه وهو على جواده فنظر عصابة الذهب فاخذه وسلمه الى جارية كانت معه في السفر وقال لها احتفظي على هذا المولود فلا شك ان له شأنا ثم أوصل الرسالة الى صاحب ماردين وارتحل الى رأس العين وأعاد الجواب على الملك شهرياض واجرى الله على لسانه بأن حدث الملك شهرياض بقصة الطفل الذي وجده على العامود فقال اعطني اياه فانه ليس لي ولد يرثني ويخلفني في ملكي فدفعه اليه فاخذه الملك ودفعه للخواص والدايات فربوه الى ان ركب الخيل ونشا وترعرع فسماه الملك عمود وسماه الناس ولد الملك وتربى في النعمة وتعلم طريقة الملوك من ركوب الخيل والرماية والعقاف والمعالجة والصراع الى ان سما ذكره وانتشر في الناس خبره وكان لا يأوي الى عين وردة بل أكثر زمانه في الصيد والقنص وبنى له قصرا على رأس المغارة يأوي اليه وسمى القصر باسمه عمود وليس عند امه مارية خبر بما فعل الزمان به وانقضت الايام واندرجت الاعوام حتى قدم عسكر المسلمين يريد فتح أرض الجزيرة فلما شاور الملك أرباب دولته في أمر العرب أشار عليه توتيا ان يزوج ولده عمودا من المملكة مارية فانها لا تصلح الا له وهي بكر ولها من العمر

ثلاثون سنة وقد خطبها الملوك واستأذنتهم لم ترض بهم لانها تراهم دونها وانت اذا خطبتها لولدك لم يمتنع من ذلك ابوها ويفرح بمصاهرتك فاجابه الى ذلك وبعث الى ارسوس بن بارس هدية عظيمة وقال لتوتا كن انت الواسطة فى ذلك فسار توتا الى ارسوس وسلم عليه ودفع اليه الهدية فقبلها وتحدث معه فيما ذكرناه فاجابه الى ذلك وطلب منه الصداق مائة الف دينار والبارعية وجملين وعشرين اميرا من العرب ليقتلهم قربانا للمسيح ليلة زفافها فاجابه توتا الى ذلك فركب ارسوس الى قلعة ابنته ودخل عليها واعلمها بالخبر فرضيت فخرج من عندها وجمع القسوس والشمامسة وزوج ابنته لمورد وليس عندهم خبر من احكام القدر (قال الراوى) ورجع توتا الى الملك شهرياض واعلمه ان الامر قد انبرم واعلمه بما اشترط عليه ارسوس من القلعتين البارعية وجملين ومائة الف دينار وعشرين اميرا من العرب ليتقرب بهم ليلة زفافها ففرح بذلك وانفذ الاموال وقال اذا زفت عليه سلمت الى ابيها القلعتين ثم انه طلب مورد واخبره انه قد زوجه ابنة ارسوس بن بارس وقال له اعلم يا بنى ان من جملة الصداق عشرين من امراء العرب فتجهز وخذ العسكر واقصد العرب وامران يخرج معه توتا الوزير وردس صاحب حران وقال لهم ان قدرتم ان تكبسوا العرب فافعلوا ومشوا ومعهم عشرون الفا (قال الراوى) واتت عياض عيونه واخبرته بما جرى وانهم قد اقبلوا اليك وهم وردس صاحب حران وصاحب كفر توثا ومورد ابن الملك فى عشرين الفا وهم يريدون كبسكم فى الليل فاستيقظوا لانفسكم قال فجمع عياض وجوه الصحابة واستشارهم فقال خالد بن الوليد اكتب من وقتك الى عبد الله بن غسان وسهل بن عدى ان يسيروا اليناومن وقتهم ونعلمهم بما قصد العدو فيكونون منهم على حذر فاذا قربوا منهم يكمنوا لهم حتى يعبروهم ويصيروا اصحابنا من ورائهم ونكون نحن عن يمينهم وشمالهم ثم نطبق عليهم فقالوا كلام هذا هو الرأى المصيب وخرج خالد فى الفين وكتب فى الحال الى عبد الله وسهل فامرهم بالحوق بعسكر خالد ويوصيهم بما يفعلون وبعث الكتاب مع سراقة بن دارم فوصل اليهم فى يومه على ناقة له فلما وصل وقرأ الكتاب ارتحلوا من ساعتهم واطلع الصحابة على الخبر فركبوا وانفذ عبد الله عيونه يتجسسون له خبر العدو (قال الراوى) واما خالد فانه انفصل عن عياض فى الفين ولم يأخذهم على الجادة بل ارسل الفا عن يمين الطريق وامر عليهم سعدا والفا عن يسار الطريق مع خالد وامر سعدا ان لا يبعد عن الطريق وارسل عيونه (قال الواقدى) انه لما سار مورد وتوتا ووردس فى العشرين الف فارس لم يزالوا سائرين الى ان بقى بينهم وبين عسكر عياض بن غنم فراسخ نزلوا فى مكان

يستريحون ويعلقون على خيولهم ويلبسون لامة حربهم (قال الواقدى) رحمه الله ورضى عنه وسار جيش عبد الله بن غسان من ورائهم وسار خالد بن الوليد عن يمينهم ونجيبة بن سعد عن يسارهم وليس عند الروم خبر من ذلك فلما علم خالد ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد احدقوا بالقوم أرسل اعلم المسلمين ان تأهبوا الى وقوع الصوت قال فتأهبوا ثم ان خالدا أخذ خمسمائة من أبطال المسلمين وترك خمسمائة مع عدى بن سالم الهلالى وقال له اذا رأيت الحرب وقد اشتعل نارها وتطاير شرارها فاخرج من كمينك ثم ان خالدا قصد جيش العدو بمن معه وتظاهر لهم ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير قال فسمعت الروم أصواتهم فلبسوا اسلاحهم ولم يركب منهم سوى رودس وأصحابه وهم خمسة آلاف ولم يكن فيهم مستيقظ سواه وتوتا مشغول مع عودا قال وان صاحب حران استقبل خالدا واستصغر شأنه لما رآه فى شرذمة قليلة فطمع فيه واشتغلت الروم بالنظر اليهم وقالوا رودس يكفينا أمرهم قال فبينما هم ينظرون اذ صاح خالد بعدو الله رودس وانحط عليه انحطاط السحاب وهو يقول هذه الابيات

وانا لقوم لاتكل سيوفنا * من الضرب فى أعناق سوق الكتائب
سيوف ذخرناها لقتل عدونا * واعزاز دين الله من كل جانب
قتلنا بها كل البطارق عنوة * واجلاء سوق الملك من كل جانب
الى ان ملكنا الشام قهرا وغلظة * وصلنا على أعدائنا بالقواضب
انا خالد المقدام ليث عشيرتى * اذا اجمعت اسد الوغا فى المقانب

وفاجأ رودس بطعنة فالقاه على وجه الارض فاوثقه غلامه همام وحمل فى أصحابه هو ومن معه قال فهم فى ذلك اذ خرج عليهم نجيبة بن سعد وعدى بن سالم وأشرف من بعدهم عبد الله بن غسان فامتلأت الارض بالزعقات وارتجت سائر الجهات وصدموهم على الخيل الاعربيات ونادوا باسم جبار الارض والسموات واطبقوا عليهم من كل جانب وكان التوفيق لاصحابة صاحب الرسالة فلحقت الروم ان تركب على خيلها الا والسيف يعمل فيها فاصطلحوهم وفرقوا مواكبهم واستوثقوا منهم اسرى وأخذوا عمودا وتوتا فكانت الاسارى أربعة آلاف والقتلى ألفا وسبعمائة وستة وستين وولى الباقى الادبار فوصلوا الى الملك شهرياض فاعلموه بما وقع فضاقت عليه الارض بما رحبت وعلم ان دولته قد انقرضت وان ايامه قد اضمحلت ومضت فاحضر من بقى من أرباب دولته فاستشارهم بما يفعل فقالوا أيها الملك ان مقامنا على رأس العين سفه فان بيننا وبين حران والرهان وسروج بعيد فتطمع العرب فى بلادنا بل الرأى أن

نرحل ونوسط البلاد ونكون قلاعنا أقرب منا والميرة تصل الينا من كل جانب فان كانت لنا وانهزمت العرب أخذنا عليهم سائر الطرقات وان كانت علينا انهزمنا الى مارد بن قلعة مارد وكفرتوثا وقصدنا جاجين وتل توثا والبارعية وتل ممسا وتل القرع والصور ودجلة الجبل ونأمن على أنفسنا قال فأجابهم الى ذلك وارتحل من برج الطير وقصد رأس العين ورتب آلة الحصار وترك في المدينة عشرة آلاف فارس مع مرتودس وكان من الفرسان المشهورة وهو مزوج بابنة الملك شهرياض فلما رتب أمره رحل الى برج رغبان حدثنا أبو يعلى عن طاهر المطوعى عن أبي طالب بن مليحة عن وهبان ابن بشر بن هزارد قال قرأت الفتوح من أوله الى آخره بجامع الرصافة على أحمد بن عامر الموفى وأحمد قرأ على سعدان بن صاحب وصاحب قرأ على يحيى بن سعيد المروزى ويحيى قرأ على أبي عبد الله بن محمد الواقدى وهو يومئذ قاضى الجانب الغربى قال ما نزل الملك شهرياض على برج رغبان بجيوشه ارتحل عياض فى أثره بعد ما كتب بخبر الوقعة وفتح زبا وزلوبيا والخابور الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله الدعاء وبعث الكتاب والخمس وما أخذه من القلاع وارسله مع حبيب بن مهان وضم اليه مائة فارس فسار الى المدينة وأما عياض بن غنم ومن معه من عساكر المسلمين فانهم تبعوا شهرياض الى أن نزلوا مع العدو ببرج رغبان قال فنزلوا فى مقابلتهم قال واتصلت الاخبار بادرسوس بن جارس صاحب مارد بن باسر عمودا فاحضر ابنته اليه وقال لها أى بنية أعلمى ان بعلك قد أسره واس الملك ونحن نخاف العار بان يقال مارية ابنة أرسوس ما كانت موافقة على ابن الملك وانه لما تزوج بها أسر وقد حرت فى أمرى فقالت له مارية يا أبت وحق المسيح لقد قلت الحق وتكلمت بالصدق فما عندك من الرأى قال لها وما عندك أنت قالت أريد ان أتنكر وادخل الى عسكر المسلمين وآتى أميرهم وأقول له انى قد أتيت اسلم على يديك لرؤيا رأيتها وهو انى رأيت المسيح فى النوم ومعه الحواريون وكانى أشكو المسيح ما نزل بنا منكم وكانه يقول لى اسلمى فان القوم على الحق وقد جئتكم لاسلم وكانى املككم قلعة أبي وتتركونى أنا فى قلعتى فاذا قال أميرهم فكيف تملكينا قلعة أبيك وهى أمنع الحصون وأحصن القلاع فاقول له يرسل معى من فرسانهم مائة فارس من صناديدهم وادخلهم فى قلعتى واجعلهم فى صناديق وأرسلهم الى قلعة أبى وأسيرهم الى ولى قلعة أبى وأقول هذه الصناديق فيها أموالى وأريد اجعلها فى خزانة أبى فاذا حصلوا القوم عندى رميتهم فى المطامير وأقول لهم لست ادعكم حتى ترسلوا الى أميركم يرسل الى بعلى فقال لها أبوها انك تريدين ان تلقى نفسك فى الهلاك وان العرب لا تتم عليهم الحيل لانهم هم اربابها قالت وان طلب رامى

رهاين

ردا بن فاذا وقع الفدا باصحابهم طالبت الرها بن مع بعلى فقال لها دبرى ماتريدين فلعل ان يكون فيه المصلحة قال فنزلت فى الليل وقصدت مرج رغبان ومعها خادم وأربع مماليك يسوقون بغلتها وعليها من الهدايا والتحف والظرف قال فلما وصلت التقت بغلمان أبيها وحاجبه ومعهم أربعون أسيرا من العرب منهم عبد الله بن غسان وأمثاله قال وكان السبب فى ذلك ان عياض بن غنم لما ارتحل يطلب رأس العين مع هؤلاء السادة مع عبد الله بن غسان بحسب العادة الى حران وسروج والرها اليأتوا بالطعام والميرة للعسكر فساروا فلما توسطوا البلاد التقاهم السايس بن تقولا وجرجيس بن سمعون وقد اقبلا بميرة عظيمة لعسكر الملك شهرياض ومعهم ثلاثة آلاف غائصين فى الحديد فلما رأوا قلة المسلمين طمعوا فيهم فاقبلوا وأطبقوا عليهم من كل جانب فاخذوهم قبضا بالكف واحضروهم الى بين يدى الملك شهرياض فهم بقتلهم فقال له وزيره أيها الملك ليس هذا برأى لان ولدك عمودا فى يد العدو وروبس صاحب حران وتوتا صاحب الحجاب فان أنت قتلتهم قتلوا اصحابك وولدك والصواب انك ترسلهم الى قلعة ماردين يعنى قلعة المرأة وتسلمهم الى الملكة مارية يكونون عندها فاذا طلبتهم العرب تقول لهم انهم فى قلعة ماردين وليس هم فى أسرنا ونحن لانبالى بمن هم عندهم فيكون اعظم لحرمتك وهيبتك فاستصوب رأيه وارسلهم الى مارية مع حاجب أبيها فالتقت بهم على دنيس كما ذكرنا فامرت الحاجب أن يوصلهم الى قلعتها ففعل ثم انها سارت حتى انها أتت الى عسكر المسلمين فى حكم الليل فكان يطوف فى العسكر سهل بن عدى ونجيبة بن سعد فى جماعة فلما رأوها أتوا اليها وسألوها عن حالها فقالت اريد اميركم فاتوا بها الى عياض بن غنم فلما وقفت بين يديه قدمت له الهدايا وهمت أن تسجد له فنهاها وقال ان الله قد أعزنا بالاسلام وانقذنا من الضلال بمحمد صلى الله عليه وسلم فازال عن قلوبنا الغل والحسد واتباع الهوى وشرفنا بالتحية ونزهنا ان يسجد بعضنا البعض وما رغب فى ذلك الا الجبابرة من الملوك وان الله يقول العظمة رداءى والكبرياء ازارى فمن نازعنى فيهما قصمته ولا أبالى ومارية تفهم مايقوله فلما انتهى قالت أيها الامير ان الله بهذا نصركم علينا قال لها فمن أنت قالت انا مارية بنت أرسوس بن حارس صاحب ماردين وان الذى بايديكم اسير هو بعلى ولا صبر لى عليه وهو عمودا فلما كثرت فكرتى فيه واشتد شوقى اليه رأيت المسيح فى نومى والحواريين وقد أمرنى باتباعكم وقد أتيت اليكم بهذه النية بأن أتبع دينكم واسلم لكم القلعتين قلعتى وقلعة ابى على شرط ان تبقونى فى قلعتى ولا تغيروا من أمرى شيأ وأقيم أنا وبعلى فيها وأكون الحاكمة على أهل بلدى قال فتبسم عياض من قولها وقال يا مارية اما انك

اما انبت البنا الا لتنسبين علينا بسبب بعلك وكيف يكون هذا بعلك وهو ولدك وحديثه كذا قال فلما سمعت الجارية الحديث من عياض بن غنم انخطف لونها وتغير كونها وقالت له يا سيدي ومن أين لك هذا وان عمرو ولدي وهو ولد الملك شهرياض قال لها رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة وحدثني بذلك كله فقالت اني أريدان أراه فان كان ولدي فان لي فيه علامة فأمر عياض بن غنم بحضوره فاتى به سعيد بن زيد فلما نظرت اليه وقعت عينها عليه ورأت الشامة التي على خده وزيادة اذنه ورأت عصابته وما فيها من الجواهر صاحت صيحة عظيمة اذهلت من حضر وترامت عليه والتزمته وقالت ولدي لا شك فيه وقد صدق محمد صلى الله عليه وسلم في قوله قال ونظر الغلام الى أمه فتحرك الدم في بدنه فغشي عليه من البكاء فلما أفاق بكيا بكاء شديدا هو وأمه فلما سكتا قال لهما عياض قد يجب عليكما ان توحدا الله شكراء لي ما أنعم عليكما فانه يزيد الشاكرين ورحمته قريب من المحسنين ولا يرد بأسه عن المجرمين ليس له حد ولا قصد ولا قبل ولا بعد هو الاول وعليه المعول وهو الآخر وله المفاخر قال فلما سمع عمرو ما قاله عياض قال والله ما في قولك زور ولا محال وانا أشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله قال فلما نظرت مارية أمه اليه وقد اسلم وافقته في الحال وعرجت عن طريق المحال وشهدت لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة فقال عياض بن غنم ومن حضر من المسلمين تقبل الله منكما اسلامكما ووفقكما واعلما ان الله قد طهر قلوبكما وغفر ذنوبكما ما استأنفتما العمل ولكن كيف السبيل الى هذه القلعة المانعة فقالت ابشروا ان اصحابكم اسروا بعد حران وقد وهبهم شهرياض الى لاهدي بهم منكم هذا الغلام عمرو وقد سيرتهم الى قلعتي وها أنا اسير اليهم واحصلهم في قلعة ابي واملك أسرهم وأملكهم القلعة ان شاء الله تعالى فقال لها عياض لقد وفقك الله في كل حال وصرف وجهك عن المحال ولقد صعب على أسر اصحابنا ولكن قد طاب قلبي بما قلت من الصواب ادعي ولدك عندنا وترجعين الى ابيك فاذا رأيته قولي له قد تمت حيلتك عليه فاذا حصلتي عند اصحابنا تفعلي ما فيه الصلاح فقالت السمع والطاعة ثم ودعت زوجها أي ولدها والمسلمين وسارت من ليلتها الى ماردين فوجدت اباها قد نزل الى خدمة الملك الى مرج رغبان ووجدت الحاجب الذي كانت معه الاسرى قد اوصلهم الى قلعة أبيها وتركهم تحت قبضته وكان هذا الحاجب من عقلاء الناس ممن قرأ التوراة والانجيل والزبور وكان راهبا في مبدى أمره وكانت له صومعة على عمود رخام قائم طويل وصنع على رأس العامود قائمة عظيمة وعقد عليها قبة وكان يصعد اليها بسلم ابريسم معلق باعلا القبة وله سكنان في الارض فاذا حصل في القبة انتزع

السكتان وأخذ السلم اليه فشاع خبره ونمى ذكره بالعبادة والرهبانية فلما توجه الى بلادهم وفتحت الخابور صلحا التم حول ذلك العباد وأمموقالوا يا ابانا ما الذى تشير به علينا فان العرب قد توجهت الينا وقد فتحوا الشام وأكثر العراق وحصلوا فى أرضنا فما الذى نصنع قال فاطلع عليهم من القبة وقال يا معاشر النصرانية ما زالت النعم عليكم ظاهرة وباطنة مطمئنين فى البلاد وقد ذلت لكم رقاب العباد ونصركم المسيح على سائر الامم وردعنكم سائر الامم ومهد لكم الارض فى الطول والعرض اذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتردون المظالم الى أهلها وتحكمون بالحق وتتبعون شريعتكم وتزجرون أنفسكم عن أكل الحرام واتباع الزنا فلما غيرتم غيركم وفى انجيل يحيى وانجيل مرقس مكتوب من اتبع سنن الحق وعود لسانه طريق الصدق وفعل باوامر ربه والزم نفسه بما يعنيه ولم يبخس الناس أشياءهم وداوم على صلاته وعمل باوامر شريعته ولم يتبع هواه بلغ زهده ما تمناه ومن جار وبغى وظلم وتجبر وحاد عن طريق الحق كان فناؤه عاجلا ولنفسه بيده قاتلا وخربت داره وجحد نماره وكان الخوف شعاره والجحيم دثاره وفى التوراة مكتوب لا تظلموا ان الله لا يحب الظالمين وقد بلغنى ان فى القرآن مكتوب ان الله لا يصلح عمل المفسدين فاصلحوا ذات بينكم واجعلوا تقوى الله نصب عينيكم وقاتلوا عن أهليكم وحريمكم واتبعوا شريعة نبيكم واخرجوا الى جهاد عدوكم فان الجهاد اليوم افضل من جميع العبادات المأمور بها فانه من جاهد اعداءه كانت الجنة ماواه الا وانى نازل من صومعتى هذه فلا يتخلف أحد منكم ثم انه ارسل سلمه ونزل فلما رأوه وقد نزل اقبلوا عليه بالسلام وقبلوا يديه ورجليه فاتى بهم الى كنيسة دمائر وكنيسة باذا فصلى بهم ودعا ثم أمرهم بالجهاد وقصد برملوخ وهو قبالة من دار عبد ردان الروم وكان فيه راهب فناداه باسمه وقال له لبئس هذا وقت العبادة فنزله من صومعته وسار الى نصيبين فخرج الى لقائه الملك قرقياقس فترجل اليه وصافحه وسار بين يديه الى البيعة وزار دير يعقوب وهرع أهل نصيبين فوعظهم وامرهم بالجهاد وقصد رأس العين وبلغ خبره لارسوس بن جارس فلما اسر عبد الله بن غسان ومن معه بعثهم مع الراهب ميتا بن عبد المسيح والتقته مارية فى الطريق كما ذكرنا وامرته بأن يسيرهم الى قلعتها فلما أبعد عنها التقى أسيافى عسكره فلقيه وسأله عما هو فيه فاخبره ان الملك شهرياض أرسله بهؤلاء الاسرى فقال له من أنت قال أنا ميتا بن عبد المسيح فلما سمع ارسوس قوله فرح به وقال وحق دينى لى زمان ارقبك ولست استغنى عن رأيك ولكن انطلق بهؤلاء الى قلعتى وتولى أنت حفظهم حتى يأتيك أمرى وخذ هذا خاتمى فانطلق بهم واوصلهم الى القلعة ووضعهم فى الاعتقال وتولى حفظهم بنفسه وجعل ينظر الى حسن

عبادتهم وسجودهم تلاوتهم فاقبل عليهم وقال لهم اخبروني كم فرض عليكم في اليوم والليلة فقال عبدالله بن غسان خمس صلوات فمن اتى بها بركوعها وسجودها على الكمال لا يرد على النار قال الله تعالى في كتابه حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين وقال نبينا صلى الله عليه وسلم الصلاة صلة ما بين العبد وربه فيها اجابة الدعاء وقبول الاعمال وبركة في الرزق وراحة في الابدان وستر بينه وبين النار وثقل في الميزان وجواز على الصراط ومفتاح الجنة وهذه الصلاة فرض على جميع الامم فلم يؤدوها وقصروا فيها حتى فرضها الله علينا فادينا ها والصلاة جامعة لجميع الطاعات فمن جملتها الجهاد وان المصلي يجاهد عدو من نفسه والشيطان وفي الصلاة الصوم فان المصلي لا يأكل ولا يشرب وزاد على الصيام التمسك بمناجاة ربه وفي الصلاة الحج وهو القصد الى بيت الله الحرام والمصلي قصد رب البيت وزاد على الحج بقربه من ملكوت ربه قال الله تعالى واسجد واقترب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم جميع المفترضات افترضها الله تعالى في الارض الا الصلاة فان الله افترضها في السماء وانا بين يديه وقال يا محمد هذه الصلاة افترضتها على جميع الانبياء وأما امتك فقد سلمتها اليهم وجعلت جميع الطاعات كلها فيها وقال صلى الله عليه وسلم أتاني جبريل وقال لي يا محمد قم فاصنع مثل ما اصنع فتقدم وصلى ركعتين وقال لي يا محمد هذه صلاة الصبح وهي أول صلاة صلاها ولذلك سماها الاولى ثم صلى به مرة أخرى اذا صار ظل كل شيء مثله وقال لي هذه صلاة الظهر ثم صلى العصر في أول وقتها وقال هذه صلاة العصر ثم صلى به مرة أخرى اذا صارت الشمس مصفرة ثم صلى والشمس قد غربت وقال هذه المغرب ثم صلى به عند مغيب الشفق وقال هذه العشاء الاخرى ثم صلى المرة الخامسة والفجر قد طلع وقال هذه صلاة الصبح وقال نبينا فرضت الصلاة مثنى مثنى فزيدت في الحضر وتركت صلاة السفر على حالها فقال مية لعبد الله بن غسان يا أخا العرب فما معنى رفع أيديكم في الصلاة للتكبير فقال الا ترى ان الغريق يتعلق لما يجد شيئاً يتعلق به لينجوا من الغرق وكذلك العبد في الصلاة فهو غريق في بحار الخطايا والمعصية يرفع يديه ويقول يارباه خذ بيدي فاني غريق في بحار الخطايا والمعصية هارب منك اليك وأما معنى القراءة في الصلاة فهو عتاب بين العبد وربه وأما الركوع فمعناه أنا عبدك وقد مددت عنقي اليك وأما الرفع من الركوع وقول العبد ربنا لك الحمد يعني على عتق رقبتي من الذنوب يقول الله تعالى اذنبت يقول العبد أنا عبدك يقول الله قد اعتقتك من الذنوب وأما معنى السجدة الاولى ووضع الجبهة على الارض معناه منها خلقتني والرفع منها أخرجتني والسجدة الثانية وفيها تعيدني والرفعة الاخرى ومنها تخرجني

تارة اخرى وأماما من السلام على اليمين معناه اللهم اعطنى كتابى بيمينى ولا تعطنى كتابى بشمالى ولما حضرت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حافظ على الصلوات الخمس كمثل نهر عذب يغتسل فيه أحدكم كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شئ فكذلك الصلوات الخمس لا تبقى على العبد خطيئة فلما سمع الراهب ميتا كلام عبد الله قال اشهد انكم على الحق وان دينكم حق وقولكم صدق ثم اسلم وبعد بقليل وصلت مارية لما علمت ان الصحابة في قلعة ابيها فلما سارت في اعلا القلعة ونزلت في دار أبيها باتت على قلق بسبب الصحابة فلما كانت من الغد دخل عليها ميتا وسلم عليها فقالت له يا ميتا ما الذى صنعت بالعرب قال استوثقت منهم حتى يرى الملك فيهم رأيه فقالت والله ما قصرت ولكن اجلعهم معنا في البيعة حتى بر واحسن عبادتنا وقراءتنا الانجيل فلعلهم ان يدخلوا في ديننا فقال السمع والطاعة ثم انه نقلهم الى البيعة فلما كان من الليل اتت البيعة فرأت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم في القيود ولم يكن هناك سوى ميتا فقالت له يا ميتا أنت من علماء ديننا وما يخفى عليك الحق وقد اطلعت على دين هؤلاء القوم فالحق معنا أو معهم فقال أيتها الملكة ليس على الحق من غطى الحق مع هؤلاء العرب والذى قد جئت فيه فانجزيه من قبل ان تطلبيه فلا تقدرى عليه وقد رأيت بيان صدق القوم وصدق دينهم حتى جمع الله بينك وبين ولدك عمودا قال فلما سمعت كلام ميتا بقيت باهتة فيه فقالت له ومن أين لك هذا قال رأيته في نومي وحدثها بما كان كأنه كان حاضرا فسجدت شكرا لله فلما رفعت رأسها وثبت قائمة وحلتهم من وثاقهم ودفعت اليهم السلاح وأمرت ميتا ان يكرمهم وقالت له أنا ادبر كيف نقبض على الوالى وغلاق القلعة ثم انها سارت الى قلعتها وولت عليها من هى به مطمئنة الفكرة وأخرجت منها ما تخشى جانبه واستوثقت منها وأما ميتا فانه جعل الصحابة في البيعة في بيت المذبح وقال لهم اذا كان في غداة غد واتى الوالى الى الصلاة فاخرجوا عليهم فان الله ينصركم عليهم قال الراوى فلما كان الصبح أقبل الوالى وخواصه ليصلوا اوضربت النواقيس واتى القس ليفتح باب المذبح ويقرب القربان فلما فتح الباب خرج عبد الله بن غسان وأصحابه الاربعون وكبروا تكبيرة واحدة ارتعدت لها القلعة وما فيها وبذلوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم واحتووا على القلعة وما فيها وسمع أهل الربض التكبير فعلموا انهم قد ملكوا القلعة فولوا على وجوههم هاربين قال فلما سمعت مارية التكبير والصياح علمت ان قلعة أبيها قد ملكت فغلقت ابواب قلعتها وأرسلت من تثق به الى عياض بن غنم وأخبرته بما جرى فشكر الله على ذلك ووصل اكثر المنهزمين الى الملك شهرياض واعلموه ان قلعة ماردين ملكوها العرب

فصعب عليه وانتقى بتلاف ملكه ووقع الرعب فى قلبه وقلوب عسكره وبلغ ارسوس الجهران قائده ملكت وخزائنه أخذت فكتم أمره الى الليل وأخذ من يثق به وسار يطلب حران ووصل اليها فى الليلة الثانية فلما قرب من الباب قام اليهم الحرس فصاحوا بهم أصحابه وقالوا افتحوا هذا الطريق رودس يعوس بطريقهم الاول وقد تخلص من العرب ففتحوا لهم فدخل ارسوس وملك المدينة وفشى الخبر فى تلك البلاد ان ارسوس صاحب ماردين قد ملك حران بالحيلة فقصد اليه جميع من يطلب الديوان فصار عنده جيش عظيم

(ذكر فتوح الرها وحران)

قال الراوى وكان لرودس هذا صاحب حران المقبوض عليه ولد وكان قد قبض أبوه عليه لانه خاف منه وكان شجاعا اسمه ارحوك فقبض عليه وحبسه فى العمق وكان لهام اسمها است العسكر وهى صاحبة سميساط وكانت قد مضت الى زيارة أهلها وهى غضبانة لاجل قبض ولدها فلما بلغها ان ارسوس ملك حران صعب عليها وركبت من سميساط وجاءت العمق واختلت بولدها واخبرته ان حران ملكها ارسوس فاخرجته وسلمت اليه الاموال وقالت انفق على الفرسان واجمع لك جيشا وامض الى هذا الرجل الذى فعل ما فعل قال فانفق المال واتت اليه الرجال وبقى فى جيش عظيم وعبر الفرات وقصد حران وبلغ ارسوس الخبر فخرج الى لقائه والتقى الجمعان وكان قدم امام جيشه بطلا من الارمن اسمه ارجوك فى ثلاثة آلاف فوقعت الهزيمة على الارمنى حدثنا عبد الله بن اسيد قال حدثنا سالم بن ربيعة عن عدلان التميمى عن محمد بن عمر الواقدى قال لما بلغت الاخبار الى عياض بن غنم بمسير ارجوك الارمنى الى ارسوس احضر عياض رودس صاحب حران وأخبره بما انتهى اليه من خبر ارسوس وكيف ملك حران وان ولده يريد ان يلقى ارسوس وانى قد عولت على قتلك الان تدخل فى ديننا فقال ان أنت أطلقتنى سلمت اليك ما تحت يدى من القلاع ولعلى اخلص حران لان أهلها يحبونى لانى كنت محسنا فى حقهم وأنا أقول انهم اذا رأونى سلموا الى البلد واذا اسلمها اليكم على ان تعطينى السويدا ونصيبين الصغراء وأنا أعطيكم الجزية كل عام قال فاجابه الى ذلك وأمر عبد الله بن قرط ان يستخدمه فحلف وأجاب الى ذلك فأطلقه وبعث معه يوقنا فى جماعته ورد على رودس خيامه وثقله وجماعته واستأمن الليل من مرج رغبان طالبين حران فلما قربوا منها أرسلوا اعينهم فوجدوا العسكر نازلا خارجا منها وعسكر ولده بازائه غير انه قد اسر أرجوك وأخذه ارسوس وان عسكره باقى على حاله وقد بعث اليهم ارسوس رسولا يعدهم وان يكونوا من حزبه ويهجم عليهم وان ينزل بهم

وبعسكره على الرها يأخذها وتصير من تحت يده قالوا حتى نرى لانفسنا فى ذلك قال الراوى فلما قدم رودس ويوقنا ونظر الى العسكرين والنيران تتقد قال رودس ليوقنا هذه النار القريبة لاشك انها العسكر ولدى فارسل اليهم من يختبرهم فسار الرجل وعلم من هم وعاد فاخبره ان القوم معولين على ان يحلف لهم ارسوس وان يكونوا من جنده وقد تقرر الحال على ان فى غداة غد يخرج فى مائة فارس من أصحابه الى دير فرها بين الرها وحران ومن عسكر ولدك خمسين من اكابرهم ويتعاهدون هناك قال فلما سمع يوقنا ذلك تهلل وجهه فرحا وقال لرودس ابشر فقد صار القوم فى قبضتنا ثم مضوا يطلبون الدير وكمنوا بالقرب منه ثم ان يوقنا أرسل غلاما له وكان نجيبا قد رباه وكان من الحاضر وكان اسمه شامس وكان لبيبا فقال له يا شامس انطلق الى صاحب الرها وهو كيلوك وقل له ان مقدمى من صاحب ارجوك قد بعثونى اليك لكى يكونوا من رجالك فانك منهم واليهم وارسوس من الروم وان رجالا منا يأتون الى دير فرها وارسوس معهم حتى يحلف لهم ويحلفون له ويريد منك ان تخرج فى مائتين وتكمن لنا بالقرب من الدير فاذا قدمنا فاخرج علينا قال فانطلق شامس الى ان قدم على صاحب الرها وحدثه بما ألقى اليه صاحبه يوقنا وكان من قضاء الله وقدره ان الحيلة التى دبرها يوقنا وبعث بها الى صاحب الرها قد بعثوا بها اكابر جيش ارجوك فلما قدم شامس عليه من قبل يوقنا وحدثه بالحديث الذى ذكرنا تأكد عنده ذلك وخرج فى اربعمائة من قومه فى اكمل سلاح وساروا طالبين دير فرها قال وكان يوقنا قد كمن بالقرب منهم وانخلس شامس وأتى الى يوقنا واخبره بانهم مكمنون فى المكان الفلانى وهم منكم قريب قال وأما ما كان من أمر ارسوس فانه لما ارسل رسوله الى الارمن عسكر ارجوك اتى رودس وقال لهم انه يحلف لهم ويحلفون انهم لا يخامرون عليه ووقع الاتفاق على ان يكون الحلف فى دير فرها فلما كان آخر الليل مضوا وهم متباعدون من بعضهم خوفا من الغدر وكان خاطرهم طيب بصاحب الرها بما قرروا عنده ثم انهم قبل خروجهم اعلموا الفا من شجعانهم بان ينسلوا من العسكر فى خفية وان يلحقوهم ليكونوا عونة لصاحب الرها وقالوا لهم لا تتكلموا دون ان تروا صاحب الرها قد خرج عليه بكمينه فاذا خرجتم فازعقوا بشارة كانكم من أصحابه حتى يطمئن اليكم ولعل ان تقبضوا عليه حتى يخلص أميرنا ارجوك قال فانسلوا من أول الليل ولم يعلم بهم أحد قال الراوى ولما اشرف ارسوس على الدير واذا به قد خرج عليه مائتا فارس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المقدم عليهم عمرو بن معدى كرب الزبيدى وكان السبب فى ذلك ان عياض بن غنم لما بعث رودس ويوقنا معه واصحابه ساء ظنه من جانب رودس وقال لقد فرطت واذ دهنا

ولي الله مع عبد الله قال خالد يا ابا الامير لا تشغل سرك من قبل رودس فان ملوك الروم
اذا فاتت وقت دبروا في ذلك الغارات يقول احد منهم قولا ولا يفي به فقال يا ابا سليمان
انه لا يجب لنا ان نغفل عن صاحبنا ومن معه ثم انه ارسل عمرو بن معدي كرب الزبيدي
في مائتي فارس وساروا طالبين حران ليتلقوا في طريقهم ارسوس وهو خارج الى الدير
فقبضوا عليه وعلى من كان معه وأما يوقنا فانه قبض على كيلوك صاحب الرها وكمن
الى الليل وتوجه الى الرها ولما برز امامها وقد لبسوا الثياب التي كانت على صاحب الرها
ولبس جماعته ثياب جماعة صاحب الرها فلما قربوا منها وكانوا قد وقدوا لهم مشاعل
فتحوا لهم الباب فدخلوا فلما حصلوا داخلها رفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير والثناء
على رب العالمين فما جسر أحد من العوام ان يتكلم واحتوى يوقنا على ما كان فيها
من ذخائر وتحف وخزائن كيلوك وأمواله وترك عليها من يثق به بعد ما قبض على من
يخاف من رؤسائها وأكابرها وكان قد استأمن ابن عم كيلوك وامنه فدله على جميع
ما كان لكيلوك ثم أخذه امامه وساروا طالبين حران فوجدوا رودس قد فتحها وذلك
انه لما قبض عمرو بن معدي كرب على ارسوس سار رودس ومعه بقية عسكر المسلمين
حتى وصل الى حران ونادى الناس الذي على السور فلما عرفوه فتحوا له الباب وسقفوا له
وساروا امامه الى دار امارته فلما جاء اتى له عظماء البلد وهنؤه بالسلامة فقام فيهم خطيبا
وقال لهم إعلموا ان الله انقذني وانجاني وقد جرى من حديثي كذا وكذا واني عاهدت
أمير القوم ان اسلم اليهم هذه المدينة ويوليني على نصيبين الصغرى والسويدا وحلفت له
على ذلك واني سوف اوفي بعهدي واشهدكم ان كل دين يخالف دين الاسلام فهو باطل
وأنا أشهد أن لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله قال فلما سمع أهل حران ذلك قالوا
لقد أراد الله بك خيرا ونحن نوافقك على اسلامك فاسلموا الا قليلا منهم

(ذكر فتوح قلعة رأس العين)

قال حدثنا ربيعة بن هيثم عن عبد الله التنوخي عن عبدان بن عطية قال ما اسلم أهل
الجزيرة الا لاجل حران ولما رآهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دخلوا
في الاسلام قالوا اللهم ثبتهم على دينك ولا تمكن من بلادهم عدوا واعادوا الكنائس
مساجد وجوامع وسلموا الصحابة ما حول حران والرها تسليما واتى يوقنا من الرها
الى حران واجتمع باصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاورهم في أمر الرها وكيف
يكون حكمها فقال سعيد بن زيد انك قد أخذت هذه البلاد بحيلتك وقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقد صارت وكل من فيها عبيدا للمسلمين هم وأموالهم
فقال يوقنا أنتم تعلمون ان أكثر الجزيرة ما ملكتموه وتم الى الآن حصون موانع والصواب

ان تدمعوا جيلا وخيرا ابطوا به ذكركم ويرتفع به فخركم فقال له سعيد اذا كان الامر على ماذكرته فاتركوهم على حالهم حتى نرى ما يرى فيهم الامير عياض ابن غنم قال ففعلوا ذلك ثم ان الاخبار اتصلت بالملك شهرياض ان حران والرها وسروج والصخن وداكساس والعمق قد صارت كلها للعرب فايقن بزوال ملكه فدخل الى رأس العين هو ومن يثق به وصلوا في بيعة نسطوريا وفي الجامع اليوم فلما فرغوا من صلاتهم قال يامعاشر الروم اعلموا ان العرب قد شاركونا في بلادنا وقد صار لهم معاقل يجتمعون فيها وتقوم باودهم ويصل اليهم منهم الميرة والعلوفة وتجيئهم منها الاموال والخابور كلها لهم بحكمهم ومابقي بيننا وبينهم الاهذا المصاف فان كان لنا فلا مقام للعرب بيننا وان كان للعرب فالبلاد لهم من دوننا وقد رأيت رأيا فيه السداد فقالوا وما هو قال ارى ان اماطلهم بالمصاف ونكتب للملكين المعظمين سقر وزعفرة فلعلهم يجدونا بعسكرهما ونكاتب الملك حرفناس بن فارس ونكاتب الملك الانطاق صاحب نينوى وبلادها والى الجبر بن صالح الهنكارية فاذا ارسلوا الينا عساكرهم نستعين بالمسيح ونلقى المسلمين والله يعطي نصره لمن يشاء فقالوا هذا رأى جيد فكتب الكتب وأرسل الرسل الى الملوك المذكورة وعاد الى عسكره (قال الواقدي) رحمه الله ورضي عنه ومامنع عياض بن غنم عن حرب القوم الا انه رأى ان البلاد تفتح لاصحابه دون قتال فلم يستعجل لانه قد قوى ظهره بالبلاد التي فتحت وايضا انه كتب الى أبي عبيدة ابن الجراح يطلب منه خبرا يأتيه قال ووصلت كتب الملك شهرياض الى أصحاب الاقاليم فامنعهم الاعين عسكر النصرته قال ووصل مكتوبه الى صاحب اخلاط وكان له بنت ذات جمال فائق وكانت من الشجاعة على جانب عظيم وكانت اسمها طاريون وكان مستقرها بجبل سموه باسمها وكان كل من خطبها الا ترضى به الا ان تلقاه في الميدان فان قهرها كانت له زوجة قال وانها غلبت جميع خطابها وكان من جملة من خطبها غلام اسمه سوسى بن سلنطور صاحب جبل السناسنة وكان قد قدم الى اخلاط بهدية من أبيه الى ابيها فقالت هي على شرط معروف فبارزته في الميدان فقهرته وجزت ناصيته ومرت الايام والليالى فلما بعث الملك شهرياض يستنجد الملوك وارسل الى صاحب اخلاط فارسل اليه أربعة آلاف فارس وامر عليهم ابنته طاريون وقال لها أى بنية قد قدمتك على الجيش واريد منك ان تظهرى على العرب ما كنت تظاهرين به على الفرسان حتى تشكرى عند أمة المسيح قال وارسل معها ملك السناسنة نجدة وهم ألف رجل وكان المقدم عليهم ولده فسار في صحبتها وكان الغلام قد كمل شأنه وحسن كماله وابتدر هلاله ولم يكن أحد في زمانه يوصف بجماله فلما نظرت طاريون الى حسنه وجماله نظرته بعين المحبة فوقع

قلبها فى سكة عشقه فسيرت رجالها مع رجاله (قال الواقدى) رحمه الله تعالى ورضى عنه
واحسن ما رأيت فى هذا الفتوح انه كان لهذه الجارية ابن عم اسمه برغون وكان يحبها
ولا يستطيع ان تسمع بذكره وكان من أهل الشجاعة والشدة وكان تحت يده من
المعاقل حيران والمعدن وارون وقف وانار وبدليس وارزن وانه سار نجد شهرياض
فى ثلاثة آلاف فلما عبر جيش ابنة عمه طاريون ببدليس اهتم لها واكرمها واهدى لها
الهدايا والتحف وسار معها الى ان عبروا حصن كيفا واخذوا طريقهم على الموزر ونزلوا
على حصن يعرف بالمناخ على طريق النهر وكان لابن عمها عيون يطلعوه باخبارها
قال فلما نزلت على النهر ارسلت الى الغلام سوسى الذى تحبه وهى تقول له اعلم ان المحبة
الصادقة لا تكون الا بعد العداوة المفرطة وقد ندمت على ما فات وما كان منى اليك
وقد عرفت على انه بعد رجوعنا من قتال العدو ان ترسل الى أبى وتطلبنى منه ولكن
اريد منك ان تصل الى ليلا فى خفية من ابن عمى برغون حتى احلف لك وتحلف لى انك
ترسل الى أبى وتطلبنى منه واحلف لك انى لا أريد سواك وبعثت بهدايا مع بعض
خدمها وارسلت معه شيأ من الهدية والحلوى وارسلت مثلها لابن عمها ولكل أمير
صحبها حتى لا ينكر عليها قال وان ذلك الخادم قد علم بما جرى وكان هذا الخادم قد ربى
ابن عمها على كتفه وكان يحبه محبة شديدة فاعلمه بما وقع من حديثها مع الغلام سوسى
ابن سلطور وهى تريد تجتمع به الليلة حتى تحالف له انها ما تريد غيره قال فكتم برغون
أمره فلما جن الليل طلب عظماء جيشه وقال لهم اعلموا انى ما وليت عليكم الا وقد علم
المسيح ان عقلى اوفر من عقلكم قالوا أيها الصاحب اعلمنا بما تريد حتى نقبل قولك ونطيع
أمرك قال يا قوم اعلموا انا سائرون على غرة وعن قليل ترون الخيل تنوشنا والرماح
تحوسنا قالوا وكيف ذلك قال لان العرب لا تنام ولا ترام وقد عاد النصر اليهم واعلموا
ان الملك شهرياض ليس باعظم همة ولا أعظم جنودا من هرقل ولا من ملوك الارض
وقد ملكت العرب دولتهم واخذوا اموالهم واحتاروا ملوكهم وانما اعلم ان شهرياض
لا ثبات له مع العرب يوم المصاف قد ملكت بلاده وهى حران والرها وسروج والبيرة
والخابور وقد أخذوا ماردين وقلعة ماردين يعنى قلعة المرأة وأخذوا ارسوس
وابنته مارية وكانكم بالعرب قد ملكت دار شهرياض وعادت اليكم وملكت داركم
وسبت حريمكم واعلموا ان الحق مع العرب وانهم اذا قالوا قولا وفوا به ومن اسلم اليهم
امن على نفسه وأهله وماله سواء رجع الى دينهم او أقام على دينه واعلموا ان بقلبى النار
من هذه الجارية طاريون وقد ارسلت اليها لتكون لى أهلا واكون لها بعلا فابت ذلك
وهى تحب ابن ملك السنا سنة فان تزوجت به وصار وايدا واحدة أخذ اموالنا قلنا

وملكوا حصوننا ولا يكون لنا معهم مقام وقد رأيت انني في هذه الليلة اقبض عليها ثم انه اخبرهم بما حدثه به الخادم قالوا أيها الملك اذا أخذتها أي أرض تأويك وأي حصن يحميك قال نقصد الى عسكر العرب ونأخذ لنا منهم أمانا قالوا اذا كنت عولت على ذلك فاعزم قال فخذوا على انفسكم وتاهبوا للرحيل ففعلوا قال الواقدي رحمه الله تعالى ورضي عنه فلما جن الليل تزيا برغون ابن عمها بزي الغلام سوسي وسار الى سرادق الجارية فلما رأته ظنت انه سوسي فوثبت اليه قائمة وسلمت عليه وصفقت له وكانت قد ابعدت الحرس عنها والغلمان والحجاب حتى لا يطلع أحد على سرها قال ثم انها تحققت انه ابن عمها فاستحت منه ووجلت فلم يمكنها الا انها تخدمه باعظم خدمة فقال لها يا طاريون ظننتي اني لا اقف على سرك ولا ابحث عن أمرك يا ويحك أي مناسبة بين الروم والارمن حتى انك ملت الى ابن ملك السناسنة وتركت مثلي ثم انه مال عليها بشدته وقبض عليها والجمها اكرة وكتفها واخرج بها الى عسكره فوجد اصحابه قد لبسوا وركبوا ورموا المضارب وشالوا اثقالهم فلما وصل اليهم حملها على بغل وساروا ونظر اصحاب سوسي الى رحيل برغون فقال لهم امهلوا أنتم بالرحيل الى ان يطلع الفجر فان هذا طريق ضيق تزدحم فيه الخيل والبغال قال ففعلوا ذلك وجد برغون في السير فما اصبح الا وهو على السور فنزل هناك وأما الغلام سوسي فانه لم يمض الى الجارية ولا سأل عنها ولا سار اليها لانه خاف ان يكون ذلك منها مكرا به فتقبض عليه فلما اصبح امر غلمانه بالرحيل وركب وأتى الى سرادق الجارية طاريون فوجد قومها ينتظرون خروجها من سرادقها فدخل عليها خادمها وخرج وقال لهم ان الملكة ما كان من امرها ولا سبب لغيبتها قال فماج اصحابه وارادوا الرجوع فقال لهم صاحبها ان عدنا الى الملك فلا نامن ان يرمي رقابنا ويقول كيف غفلتم حتى أخذت ابنتي من بينكم وما عندكم خبر وما أخذ الملكة الا برغون بن عمها لان في قلبه منها شيأ ثم انهم ركبوا وجدوا في طلبه قال وان برغون لما نزل في مرج السور واستراح وهم بالمسير واذا بالقوم قد أشرفوا عليه وهم يزعقون يا ويلك اترك الملكة من يدك قبل حلول منيتك فاستقبلهم ومن معه من بنو عمه وأقاربه فعندها قال لبني عمه اعلموا الان العرب ما نصروا على أعدائهم الا بالصدق في دينهم وقتالهم عن دين الله واعلموا ان هؤلاء القوم الذين طلبناهم لا يخذلون لا سيما اذا اعلموا اننا قصدناهم واردناهم من غير قهر لكن من طريق العقل وان دينهم أفضل من ديننا لانهم يشيرون الى الله بالوحدانية ونحن نعبد الصلبان والصور ونقول ان للخالق زوجة وولدا وهو واحد احد فرد صمد وقد بلغني انهم يقولون انه من قتل منهم صار الى الجنة ومن قتل منا صار الى النار لانا عندهم من الكفار فان كنتم

تردون الدهر على أعدائكم فاقروا لله بالوحدانية وقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله
قال فاعلنوا بكلمة التوحيد فدرت من اصواتهم الجبال والتلال والرمال والشجر والحجر
فلما سمعوا اعداء الله ما نطقوا به علموا انهم دخلوا في دين الاسلام فتقدم سوسى وقد
داروا برغون وأصحابه وقال له يا ويلك يا برغون أما كفاك أن تكون غادرا حتى تكون
بدين النصرانية كافرا انظن أن يرجع علك الى دينهم ينصرونك علينا وان العرب
وما يصل صاحبك اليهم الا ونحن ورغامنك وقتلنا كم أشر قتلة الى آخركم فقولوا الحمد
بصبركم ثم انهم حملوا على برغون ومن معه فاستقبلوهم بنية صادقة وهمم متوافقة
واعلنوا بكلمة الحق والصلاة على سيد الخلق وبدلوا صوارمهم في الاعداء واوردوهم
شراب الردا وقصدوا نحو اعدائهم وطلبوا بجهادهم منازل الجنة وطلقوا الدنيا ثلاثا
وكانوا يمشون في ظلمات ثلاث فانقدح نار شوقهم بزناد صدقهم فاحرق ردع الشك فاصبح
هشيما تذروه الرياح فلما أضاءت لهم الافكار ولاحت لهم لوائح الانوار لم يجدوا من
يشار اليه بالوحدانية ويوصف بالالهية وينعت بالازلية الا الواحد القهار فركضوا في
ميدان الاعتذار ونادوا بلسان الاقرار آمنا بالله الواحد القهار فلما سرحوا خواطر
الافتكار في اسرار الاعتبار قالوا كيف عبدنا سواه وما ثم لنا معبود الا اياه فواخجلتنا
اذا وقفنا بين يديه يوم العرض عليه وبأي عمل نلقاه وبأي بضاعة نقصد رضاه فأشار
اليهم منادي الايمان من القرآن وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر
سيئا عسى الله أن يتوب عليهم فلما رحلوا في عسكر الطاعة رجاء وامن هول يوم الساعة
وجعلوا ارجل رجائهم في ركب اقبالهم وساروا في موكب عزهم وجلالهم واشرقت
شموس اسلامهم فلك استسلامهم وانقضت بارات افراحهم من جو أتراحهم ومنادى
جهادهم يناديهم يا أخيار سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار (قال الراوي)
ودارت بهم الاوغاد يشرعوا نحوهم الصعاد واشرف برغون وأصحابه على الهلاك واذا
باب السور قد فتح وخرج منه مائة فارس كالليوث العوابس وقد رفعوا أصواتهم
بالتهليل والتكبير وينادون يا من نعلة وابكلمة التوحيد ابشروا بالنصر والتأييد ها نحن
قد لبينا دعوتكم وخرجنا لنصرتكم وسوف نخلصكم من الأمر المهول نحن أصحاب
الرسول (قال الواقدي) رحمه الله تعالى ورضي عنه وكان هذا السور حصنا من
الحصون وكان قد سلمها مينا لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد أرسل
عياض بن غنم عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق في مائة فارس ليأتوه بالميرة وكان فيهم
المقداد بن الاسود وضرار بن الازور وسعد بن غنيم الاسدي ومعمر بن ماجد السلمي
وباري بن مرة القسوي وهلال بن عامر الانصاري وعيينة بن رافع الجهني وخضر بن

يعشو الفزارى ومثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم أجمعين فلما وصلوا الى السور تلقاهم طالوت صاحب الحصن وأنزلهم وأكرمهم وأمر لهم بالطعام وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى جاء برغون وكان من أمره ما كان فلما سمعوهم يكبرون قالوا هؤلاء قد دخلوا فى ديننا وقد وجب علينا نصرتهم فخرجوا كما ذكرنا وحملوا على أعداء الله ونصروا برغون ومن معه وانهزموا فى الليل الى مرج رغبان الى عند الملك شهرياض فاخبروه بما جرى عليهم قال فايقن بذهاب ملكه قال فلما اصبح برغون أتى الى الصحابة وشكر الله اذ نجاه ومن معه على أيديهم وقد ازدادوا ايمانا وحدث الصحابة بما كان من أمرهم وسار معه الى عياض بن غنم فلما جازوا على ماردين نزل اليهم ميتا وكان قد بلغه ما جرى فسلم عليهم وهناهم بالسلامة وقال لبرغون وأصحابه ان كنتم تريدون الثواب الجزيل من الملك الجليل فتمموا اسلامكم بما القيه عليكم فقال برغون وكيف العمل قال ميتا انزل هاهنا أنت ومن معك فاذا غربت الشمس سيروا على بركة الله وعونه واقصدوا كفرتوثا فاذا جئتم اليها ليلا فقولوا لاهلها نحن قد وجهنا الملك اليكم لحفظ المدينة فاذا صرتم داخلها فثوروا على اسم الله وبركة نبيه قال ففعل ذلك برغون وجلس الى أن جن الليل وارتحل بجيشه وثقله وودعوا الصحابة وساروا بالميرة وسار برغون الى أن وصل الى كفرتوثا وكان آخر الليل والفجر بدر فلما وصل اليها أمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بذكر شعارهم حتى لا ينكر منهم القوم وجاءت الاثقال والبغال وسمعوا أهل كفرتوثا ضجة العسكر فاشرفوا عليهم من أعلا السور وسألوهم من أنتم قالوا نحن من عسكر الملك شهرياض وقد بعثنا لتكون عونا لكم (قال الواقدى) رحمه الله تعالى ورضى عنه والعجب ما فى هذه القصة ان الملك شهرياض قد بعث اليهم يعرفهم انى مرسل اليكم جيشا مع الحاجب فاذا وصلوا اليكم افتحوا لهم الباب فان العرب فى آثارهم قال فلما وصل اليهم برغون ومن معه قالوا لهم نحن من عسكر الملك ففتحوا لهم ودخلوا ولم يتكلم حتى انه نزل فى دار الامارة فلما استقر به الجلوس وثق من الابواب وصعد الى الصور وأمر اهل البلدان يستريحوا لان الملك قد اوصانى بالحرس على البلد فقالوا له أيها السيدان كتاب الملك قد جاءنا بما قلته بأن لا يتولى حفظ البلد الا الحاجب قال فلما سمع برغون قولهم علم ان الملك يريد أن يرسل لهم جيشا فقال لهم انصرفوا الى منازلكم واياكم أن يظهر منكم أحد فى الليل فانى ان وقعت بأحد منكم قتلته قال فانصرفوا ولم يبق عنده سوى الوالى الذى كان من قبل توماهو وغلمانه فقبض عليهم برغون وضرب رقابهم وتركهم فى بعض الابراج المهجورة وقال لاصحابه كونوا على حذر فان شهرياض يريد أن يرسل جيشا الى هذه المدينة فاذا رأيتموهم قد وصلوا فانزلوا وافتحوا لهم الباب وردوا

الباب الواحد وكلما دخل فارس ابعدوا به عن الباب وانزلوه عن فرسه وخذوا عدته وكتفوه والقوه فى البرج قال فبينما هو يوصيهم اذ وصل الجيش وهم ألف فارس والمقدم عليهم صاحب الملك الكبير فصاحوا عليهم افتحوا للجيش الملك فتبادرت أصحاب برغون ففتحوا درفة الباب الواحدة وقالوا لا يمكن أحدا يدخل الا واحدا واحدا مخافة من يوقنا وأصحابه فانا نخاف أن يدخلوا فى جملتكم فبقى كلما دخل فارس رجلوه بعد ان يبعدوا عن الباب ويأخذوا سلاحه وجواده ويكتفوه الى أن دخلوا الالف والحاجب بعدهم فلما اجتمعوا نادوا بأعلا أصواتهم بسم الله الله أكبر الله أكبر فتح الله ونصر وجاء بالظفر قال فارتج كفرتوثا ووقع الرعب فى قلوب أهلها وعلموا انهم ملكوا بلدهم فلم يجسر أحد منهم أن يظهر فى المدينة ومن ظهر قتل فلما أصبح طلب برغون اكابر البلد ومشايخها وبطارقتها والمحتفر واقبض عليهم وانفذ الى عياض بن غنم يعلمه بما صنع فلما وصلت اليه الرسالة سجد لله شكرا وكان عبد الرحمن بن أبى بكر وأصحابه لما وصلوا بالميرة أخبروا المسلمين والامير بما وقع وان برغون مضى الى كفرتوثا وكان منتظر المايأتى اليه من خبره فلما جاءه الخبر بالفتح حمد الله تعالى وتفاءل بالنصر (قال الواقدى) رحمه الله قال عياض بن غنم للصحابة اركبوا ودونكم والقوم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وأمر خالد بن الوليد أن يكون بأصحابه فى الميمنة من القوم وأمر عمر ابن سالم ان يكون على يسار القوم وقال لهم لا تخرجوا حتى يثبت نار الحرب وتشتعل بالطعن والضرب فاحملوا واعتمدوا على السيوف فانها أقرب للحتوف وليكن شعاركم التهليل والتكبير واقطعوا أجل امنيتكم من الحياة الفانية وارغبوا فى العيشة الراضية واياكم والميل الى دار الفرار فانها ساحل النوائب والثبور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور وقفوا بهممكم وقوف قوم عذروا بحلاوة ومسالة فصانوا وأمرهم بالوقوف على طاعته فهاموا وتجردوا فى الليل لخدمته وقاموا فاثنى عليهم اذ يحبه هاموا ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا قال فسارت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو الجهات التى ذكرناو زحف الموحدون ونشرت الرايات والبنود وتواعدوا اللقاء فى اليوم الموعود وقالوا الصامال بأس والشمس نصيرها فانعم المولى ونعم النصير قال ووقع الصائح فى عسكر الروم ان المسلمين قد زحفوا وأشرفوا قال فتبادروا الى القتال وتمسكوا بقول المحال ولبسوا وتدرعوا وعن الآخرة تزعزعوا والى الصليب تضرعوا ورفعوا رايات الطغيان وتلت عليهم الانجيل القساقس والرهبان وفتحت لهم أبواب النيران عندما أشركوا بالرحمن وصار على جيشهم من الكدر شبه الدخان وسار امامهم الشيطان وعلامهم الضجيج ووقفوا فى أمر مريج فلما نظر المسلمون

الى كثرة من اجتمع من قومهم استسلموا لحكم القضاء وقالوا رضي بما قدر وقضى فنودوا من سرائرهم قد شترنا منكم النفوس فاصبروا لحكم الملك القدوس ولا تولوا الادبار فقد سبق الحكم وطوى وخط القلم فى اللوح وجرى وكتب بامر الله ان الله اشترى قالوا وما الذى اشتراه من له المنة قال انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فقالوا نحن نريد التسليم لنصل الى جنات النعيم قيل لهم انهضوا الى سوق المبيع فقد هبت بشائر الربيع وتجلى لقبض ارواحكم البصير السميع فسجدوا وسجدوا ورفعوا اصواتهم بتوحيده وتمجيده فلما ايقنوا بالوصال طلع لهم سهيل الجمال وازهرت شجرة الاحوال واستدار لهم رقيبه فى فلك التيسير وناداهم انى بما تعملون خبير فلما سمعوا منادى الافكار يناديهم بالعشى والابكار بذلوا نفوسهم وارضوا قدوسهم وجاهدوا واجتهدوا وارتحلوا واقتصدوا ونهلوا من نهر الشهادة ووردوا ولم يزالوا فى حرب الاعادى وموارد الاجتهاد فى معانى ميادين الجهاد حتى خرجت الكفار وهبت عواصف رياح الفناء فذعروا فلما كان شدة الكفار من البناء وانتشرت استار ما املوه من الامانى والمنى فقلقلت بينهم الصناديد واصبحوا صرعى على وجه الصعيد وناداهم منادى التهديد ان عذابى لشديد وما هى من الظالمين ببعيد ولم يزالوا فى قتال الكفار الى أن مضى النهار وأقبل الليل بالاستتار والمسلمون يقرأون بالليل تمام الليل ما دام النهار ولا غلبة لجيوش الاعتكار واذ قد ظهرلهم على اطناب سرادق القتار ولا الليل سابق النهار قال فلما مضى الليل بغياهبه واقبل الصباح بجانبه فبادروا الى الحرب والطعن والضرب ولم يمهل بعضهم لبعض دون ان وقعت الحملة على المسلمين فانهزم الجناح الايمن وكان فيه اخلاط العرب قال وانهزمت ميسرة العدو ووقع فيهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل القتال فيهم وعليهم الى الليل فانفصلوا فلما كان اليوم الثالث تولى الحرب خالد بن الوليد ورتب الناس ترتيبا جيدا وجعل فى الميمنة باهلة وبلى وجعل فى الميسرة عدوانا ونمير وفزارة وفى الجناحين كندة وعاملة ومرة وفى القلب ابطال الانصار من ذوى الشدة والانتصار وجعل راية الميمنة بيد عامر بن سراقة وراية الميسرة بيد ضرار بن الازور وراية الجناح الايمن بيد عبد الرحمن الاشتر وراية القلب بيد عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق فلما رتبهم قال لهم اتقوا الله الذى اليه مسيركم واعلموا انه متكفل بتأييدكم ونصركم واياكم ان تؤتى المسلمون من قبلكم واتبعوا سنن الذين فتحوا الشام من قبلكم فمن ولى الادبار كان مأواه النار وغضب عليه الجبار واعلموا ان الله فرض عليكم الجهاد وقتل الاضداد واعلموا ان الاحب الى الله تعالى جل جلاله قطرتين قطرة دم جرت فى سبيل الله وقطرة دمع جرت من خشية الله وهذا اليوم له من الاجر ما لا يعد فاتقوا الله عباد الله

واثبتوا فى هذه المواطن كما ثبتم فى المواطن الكبار واياكم والفشل فتذهب ريحكم وقروا شريعة نبيكم واعلموا ان الله مع الصابرين ولا يضيع أجر المحسنين وها أنا أعود بجماعة من اخوانكم الى صليب القوم ولست براجع الا بحطم من حوله من الكفرة والمشركين قال جل ذكره وكان حقا علينا نصر المؤمنين فاذا رأيتم صليب القوم قد هوى الى الارض فاحملوا ولا تمهلوا قال فلما وعظهم خالد رتب كل صاحب راية فى موضعه وانتخب من انتخب من ابطال المسلمين وقال للناس اذا رأيتم الصليب قد وقع فاحملوا فان الله ينصركم وحمل هو ومن معه وقصدوا لواء شهرياض وصليبه الاعظم فما ردهم عن جائهم كثرة العساكر (قال الواقدى) رحمه الله تعالى ورضى عنه ولقد بلغنى ممن اثق به انهم لما حملوا حطموا العساكر وزعزعوا الدنا كروا ولا الابطال عن مراكزها والبطارقة عن مراتبها وما اعتمدوا الا على السيوف واستقبلوا بها الصفوف فلما رأى شهرياض فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى التاج عن رأسه وزعق بالبطارقة والاراجنة والقياصرة وقال يامعشر الروم من بنى الاصفر اعلموا أن ما بين ذهاب دولتكم الا هذا اليوم فاما أن تقاتلوا عن دينكم وحريمكم وملككم وذراريكم وأولادكم واياكم أن تولوا الادبار فمن تولى غضب عليه المسيح وأدخله النار قال الراوى وبلغنى أن فى ذلك اليوم وصل اليهم بتركهم الكبير المشار اليه فى دينهم ومعه كل قس وشماس ورهبان بأرض الجزيرة جاء ليحرض الروم على القتال وكان هذا البترك شاهد دين الدير وم وكان يسكن بدير يقال له دير قرقوت وانهم وصلوا قبل أن تحمل المسلمون فوعظهم بين الصفوف وقال من انهزم منكم حرمته فلا يقبله المسيح أبدا ثم انفصل من القوم هو ومن معه وتعلوا على رابية تشرف على القوم ورفعوا الصلبان وفتقوا الاناجيل وأشركوا بالله الملك الجليل قال الواقدى حدثنا عبد الله بن مالك عن موسى بن أبى العاص عن الاشعث عن يحيى قال حدثنا بشر بن عامر وكان ممن حضر وقعة مرج رغبان وكانت الوقعة يوم الثلاثاء ثالث شهر صفر سنة سبعة عشر وكان شهرياض قد أرسل الى رأس العين وسائر بلاده فاتوا بحريمه وحريم سائر الاجناد والبطارقة وأولادهم وأقامهم يوم المصاف على أبواب الخيام وقال لهم ما من امرأة الا ترفع ولدها وتصيح باسم بعلها وأخيها وانما فعل ذلك ليثبتوا فى القتال فاوقعوا الصياح من كل جانب وعلت القواضب وثبت الروم ثباتا عظيما لاجل حريمهم وأولادهم ولاجل البترك ووقف فى مقابلتهم رجال من اليمن يرمونهم بالنبل وأما خالد بن الوليد لما حمل باصحابه وهو يريد صليب القوم ومعه عياض بن غنم وهو يقول هذه الابيات

سنحمل فى جمع اللئام الكواذب * ونقرى رؤسا منهم بالقواضب

وتهزم جيش الكفر منا بهمة * تطول على أعلا الجبال الرواسب
وتنصر دين الله في كل مشهد * بفتيان صدق من كرام الاعارب
فيامعشر الأصحاب جدوا وجندلوا * وكروا على خيل كرام المناسب
فدونكم وقصد الصليب وبادروا * لترضى اله الخلق معطى المواهب

قال ثم قصدوا الصليب وكان الامين شهرياض لما صف الصفوف وأقام حول الصليب الاعظم اثني عشر ألف فارس كلهم لبس وترك امامهم حسكا من الحديد حتى لا يصل اليهم أحد فلما حمل خالد بأصحابه وقربوا من الصليب داست خيولهم على ذلك الحسك فانكبت على وجوهها ووقعوا عن ظهورها فانكبت عليهم الروم بغيظهم وحنقهم فاخذوهم بالاكف لانهم وقعوا من ظهور خيولهم من الحسك فاخذوهم عن بكرة أبيهم وارتفعت الطاعط من كل جانب وعملت المرهفات القواضب فلما نظر الامير عياض بن غنم ما نزل بخالد ومن معه صعب عليه واشتد لديه وقال لنفسه يابن غنم ما يكون عذرك بين يدي الله وقد مضت هذه السادة تحت رايتك فصاح باعلا صوته يامعاشر المسلمين احملوا ولا تمهلوا وأيقظوا هممكم وعجلوا واستخلصوا السادة من الاسر واطلبوا من الله النصر قال فلما صاح عياض أوقعوا خالد ومن معه امام الصفوف فتاسف بن وضاح بن عبيد بن نافور بن عمرو بن سالم بن النابغة الديباني وكان من أفصح الناس لسانا وأجراهم جنانا واحدهم لسانا واعلمهم بيانا وكان حليفا لخالد بن الوليد رضي الله عنه فرزيوه بمرج رغبان فقال أيها الناس ان الصبر والثبات جندان فلا يغلبان وهذا يوم بالله من يوم وما ترون من نخوتكم ومروءتكم ودينكم ان تدعوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يد الاعداء فاستنقذوهم من الردا واتقوا الله الذي اليه مصيركم واعلموا أن ترك الاشياء النفيسة لا يليق الا بالانفس الخبيثة أما تحققتم أن الدنيا تؤول الى الزوال والفناء والآخرة هي دار النعيم والبقاء أما علمتم أن الهمم العلية الروحانية والاشباح الجسمانية عولت على الانتقال من الدنيا الساحرة الى دار الآخرة وقالوا لابد من الرحيل لان البقاء في الدنيا قليل فتزودوا معاشر الارواح فقد قرب الرواح والقصد منكم قد عرفناه ومرادكم قد فهمناه وان سفركم سفر شاق يحتاج الى زاد ورفاق قالوا فما الزاد الذي نكثر منه ولا نعدل عنه قيل لهم الزاد الاوفى وتزودوا فان خير الزاد التقوى قالوا أما هذا الزاد فنا من يقدر عليه ومنا من لم يقدر عليه قيل لكم ولتعرض لهذا السفر بغير اعمال واعملوا ليوم لا بيع فيه ولا خلال فلما تزودوا وأخلصوا ومن جيفة الدنيا تخلصوا خلع عليهم خلع الانعام وتوجوا بتاج العز والاكرام بجعل لهم الفردوس منزلا وقال في حقهم كانت لهم جنات الفردوس نزلا واسمعوا ما قال

فيهم الملك المقتدر فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر قال فعندها حملوا باسرار صافية وهم وابية وطعنوا فى صدور الرجال ورفرفت على رؤسهم طيور الآجال ووضعوا السيف فى الروم وجعلوه عليهم يوم مشئوم قال ولم يزل القتال بينهم بقية يومهم الى الليل وانفصلوا عن القتال ورجع المسلمون وهم متأسفون على أسر خالد ومن معه ماتهم لما وقعوا فى الاسر وانفصل الناس من القتال وجن الليل أرسلهم الملك شهرياض الى رأس العين مع حاجبه نقيطا بن عدوس ومعه ألف فارس وأمره ان يسيرهم فى الليل ويجدهم فى السير وان يسلمهم الى والى رأس العين قال فسار بهم ولم يطلع الفجر الا وقد وصل بهم الى رأس العين وأرسل من يعلم الوالى بالقصة فخرج فى موكبه لالقائهم ووقع الصائح فى رأس العين بقدومهم ما تخلف أحد وكان لهم يوم مشهود فالقاهم الوالى فى الكنيسة العظمى التى هى الجامع اليوم وأوثقوهم فى الحديد قال حدثنا امام اليشكرى عن بشار بن عدى عن سراقة بن زهير عن خزيمة بن عازم عن جده عبد الله ابن عامر قال وانه لما فتح الرها وحران وسروج صلحا اجتمع يوقنا بروديس ومنهم أصحابهم فقالوا اعلموا ان الله سبحانه وتعالى قد فتح علينا هذه البلاد وان رأس العين مدينة عظيمة وأهلها قد استعدوا للقتال وآلة الحصار وربما صعب أمرها وعسر فتحها على المسلمين وانى لاحول ان أهب نفسى لله واسير مع أصحابى فلعلى ان احصل فى داخل المدينة ولعل الله أن يفتحها على يدى قال له سعيد بن زيد قوى الله عزمك وسدد أمرك قال وعول على المسير فى تلك الليلة واذا بعيون المسلمين قد أقبلت الى حران يخبرون أنه قد أتى عاصم بن رواحة المنصر فى خمسمائة فارس من قومه من اباذ الشمطا وكان قد وصل مع قومه الى قسطنطينة وقد ورد على الملك هرقل كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن يبعدهم عن دياره فابعدهم من أرضه فتفرقوا فى كل موضع واتى منهم عاصم بن رواحة هذا الملك شهرياض فى خمسمائة فارس وكان الملك يحبه ولما وصل الى البيرة كتب الى الملك يعرفه أنه خرج من بلاد القسطنطينة وأتيت قاصدا الى بلادك وخدمتك وبعث الكتاب مع رجل من بنى عمه اسمه رفاعة بن ماجد فوصل الى الملك وأعطاه الكتاب ففرح الملك بقدومه وأمره أن يجعل فى الحضور وأرسل الى والى رأس العين بأن يخلى له دارا ينزل فيها اذا قدم مع أصحابه فلما سمع يوقنا ذلك الخبر من عيونه فرح وقال من أى طريق تأتون قال من طريق سروج وبقى بينكم وبينه ليلة واحدة فخرج يوقنا ومن معه وصحبهم عمرو بن معدى كرب وسعيد بن زيد ومن معهم وكمنوا لهم فى موضع قد علموا انهم لابد لهم من العبور فيه فلما ضرب الليل سرادقات ظلامه ونصب على الخافقين اعلامه اذا أقبلت خيول القوم وسمعوا حسهم فصبروا

حتى توسطوهم من كل جانب وقصد كل واحد واحد فاخذوهم عن بكرة أبيهم ولم ينفلت منهم واحد واحتووا على أثقالهم ورحالهم ورجعوا الى كمينهم ونزلوا عن خيولهم فقال لهم سعيد بن زيد من أميركم حتى أخاطبه فاشاروا الى عاصم بن رواحة فقال له سعيد بن زيد يا ابن رواحة أي مناسبة بينكم وبين الروم حتى لزمتهم وملت الى جانبهم وتركت العرب العرباء فانت منا والينا وحسبك حسبنا ونسبك نسبنا الان اعمار واياذ وربيعة ومضر كلها ترجع الى نزار بن معد بن عدنان وان الله قد اختارهم لسكنى حرمه وجواربيته وقد كنا نعبد الاصنام ونقسم بالازلام ونتبع طرق الحرام حتى بعث الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وانزل عليه وانذر عشيرتك الاقربين وأمره بالمقام في دار الخيزران ثم دعاهم الى عبادة الملك الديان وقال لهم أنتم من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل وقد فضلكم بارى النسيم بسكناكم البلد الحرام والبيت المعظم وزمزم والمقام قال وأراكم على الاصنام عاكفين وبالازلام حالفين وفي ثياب الكفر لافين أما لكم عقول تردكم أما لكم بصائر تصدكم أما أنتم ذوي الحكم الراجحة أما أنتم ذوي الاراء الشامخة الهذا خلقكم أم به أمرتم نحتم من الاحجار الاصنام وسلكتم طريق الفجار وكفرتم بالواحد الجبار الذى زخر البحار وأجرى الفلك الدوار وخلق الليل والنهار اما تشكرون الصانع الذى جعل النجوم طوالع وكل اليه راجع قالوا يا محمد من أمرك ان تسب آلهتنا وتسفه احلامنا قال يا قوم العلم امرني والعقل بصرني أما علمتم انه من نظر في المصنوعات وتدبر علم ان لها صانعا لا يتغير فالنظر في المخلوقات حكمة والتفكر في صنعه والاقرار بوحدانيته نعمة والايمان به رحمة قالوا فمن تعبد قال اعبد الذى فطرني وصورني وشرح خاطري ونوربصائري وخالق المخلوقات وقد وضع المصنوعات وانزل الارزاق بقضاء وقد رليس في مشيئة كيف ولا في اقضيته حيف يقول ولا يتلفظ ويريد ولا يظاهر ويسمع ويبصر تعالى عن المكان والاين والشبيه والبين وقال لا تتخذوا الهين اثنين أما علمتم يا ابن رواحة ان ديننا هو الحق وقولنا هو الصدق وما بعث الله نبيا الا وامر أمته باتباع دين الاسلام قال الله في القرآن ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين وقال تعالى اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وقال وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وأنت تعلم الآن انكم في قبضتنا واسرنا فان آمنتم بالله وصدقتم برسالة نبيه صلى الله عليه وسلم كان لكم مالنا وعليكم ماعلينا وان ابيتم ضربنا اعناقكم قال فلما سمع عاصم بن رواحة ذلك من كلام سعيد بن زيد قال وان نحن رجعنا الى قولكم واتبعنا دينكم

ايغفر لنا ربنا ما سلف من الاشراك في ربوبيته والمعبود لغيره قال سعيد نعم لان
الاسلام يهدم ما كان قبله وجميع ما كنتم فيه لا يطالبكم الله به وتخرجون من الذنوب
كما خرجتم من بطون أمهاتكم الى الدنيا ثم تلى قوله تعالى قل يا عبادى الذين اسرفوا
على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم
فلما سمع عاصم كلام سعيد قال أنا أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله فلما نظر
أصحاب عاصم اليه قد أسلم أسلموا عن آخرهم ففرح المسلمون بذلك وقالوا قد وجب
علينا ان نطيب قلوب هؤلاء القوم ثم ساروا الى حران وانزلوهم وخلعوا عليهم فقال
يوقنا الآن فتحنا رأس العين ورب الكعبة فقال سعيد فكيف ذلك يا عبد الله قال
سوف أريك بيان ذلك ثم انه قال لعاصم ان رواحة في السر بينه وبينه أريد منك
ان تشدني كتافا أنا وأربعون من أصحابي وتجعلنا في طي وزر الجمال التي تحمل أثقالكم
ويركب هؤلاء السادة يعني الاربعين الذين هم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم وتسير وامن ليلتكم هذه الى رأس العين وتقولوا لهم لما عبرنا الفرات خرج
هؤلاء علينا فنصرنا المسيح عليهم فقتلنا من قتلنا واسرنا هؤلاء وأتيناهم اليكم واياك
ان تمكنه ان يقتل واحدا منا واذا أراد ذلك تقول له ان المصاف بين يدى الملك وبين
العرب ولا يدرى من يؤخذ من أصحابنا فيكون عندنا الفداء قال عاصم ولم لا نسير نا جمعنا
وبأصحابي كلهم فقال يوقنا ان الاسلام لم يتمكن بعد من قلوب القوم ونخاف أن أحدا
منهم يغر علينا فيفسد علينا الحال والثقة بكل أحد عجز فقال والله لقد صدقت في قولك
فنزل بنى عمه الخمسمائة في حران وانما قال يوقنا ذلك ودبره ليكونوا على سبيل الرهان
قال فكتفوا يوقنا ومعه الاربعين من بنى عمه وتركوا الصحابة يرى أباذ الشمطا وخرجوا من
حران في الليل وطلبوا رأس العين فلما وصلوا الى مكان يعرف بعلوى واذا بقرع حوافر
الخيل فاخفوا أمرهم حتى وصلوا اليهم واذا هم بارعمائة عبد اسود وخمسين وهم يقرؤن
القرآن وبعضهم يسبح فاستقبلهم سعيد بن زيد ومن معه وكبر وامثل تكبيرهم وتقربوا
منهم فاذاهم موالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمقدم عليهم دامس أبو
الهول رحمه الله وكان السبب في ذلك أى قدومهم أنه لما بعث عياض بن غنم كتابا الى
أبى عبيدة يستنجده على القوم ويعلمه بمن قد اجتمع من الكفار ببرج زغبان فلما قرأ
الكتاب أرسل دامس ومن معه لنصرة الاسلام وكانوا اسم سمياط وبلادها ومذ فتحوها
استمروا بها حتى جاءهم كتاب أبى عبيدة فترك دامس على سمسياط وبلادها من يثق به
وجاء في العدة التى ذكرناها فلما التقاهم سعيد بن زيد سلم بعضهم على بعض وفرحوا
باجتماع الشمل ونظر دامس الى الجمال وعليها يوقنا وأصحابه فقال أظفرتم بهؤلاء

في طريقكم فقال سعيد هذا يوقنا عبد الله واصحابه قد باعوا نفوسهم لله قال فلما سمع أبو الهول كلام سعيد سجد لله على قربوس فرسه وانى الى عبد الله يوقنا وسلم عليه فقال له مرحبا بقوم قد طلقوا الدنيا بتاتا وزهدوا وطلبوا مرضاة الله ثم انه قال لسعيد بن زيد يا صاحب رسول الله اشركونا معكم في هذه الحيلة قال نعم ولكن اصحبوا هذه الجمال واخفوا الدروع والعدد واحتزموا وافوقها وسوقوا الجمال امامكم كانكم عبيدنا فانه لا ينكر عليكم من رآكم قال ففعلوا كما أمرهم سعيد واخفوا سلاحهم في وسط الجمال واقبلوا على سوقها فلما وصلوا الى الزليخة نزلوا هنالك ولبسوا وتدرعوا ونشرت الاعلام والصلبان التي كانت مع اباذ الشمطا وداروا بيوقنا واصحابه وجعلوهم بينهم وساروا حتى قربوا من رأس العين فبعث سعيد رجلا من خلفائهم الى والى رأس العين يبشره بقدوم عاصم بن رواحة وباباذ الشمطا فلما وصل اليه الرسول خرج بالموكب الى لقائهم وقد اعلمه الرسول بقدوم يوقنا اسيرا ومعه أربعون من أصحابه فصاح الصائح بذلك فما بقي أحد الا وخرج امام الوالي والتقوا بالصحابة وهم بزي أصحاب اباذ الشمطا وقد داروا بعاصم بن رواحة وكان الوالي يحبه ويعرفه فترجل اليه وترجل عاصم وتعانقوا واقبلت المواكب يسلم بعضها على بعض فقال الوالي كيف أخذت هؤلاء وهذا المارق يعني يوقنا قال له انا لما وصلنا الى الفرات وعدينا خرج علينا برجاله فقاتلناه وقاتلنا فانصرنا المسيح عليهم بعد ما قتلنا منهم خمسين رجلا واخذنا هؤلاء وانهزم الباقي قال ففرح الوالي واقبل على يوقنا يوبخه بالكلام وهو لا يرد عليه والروم تشتمه وتسبه وهو لا ينظر اليهم ولا يكلمهم الى ان دخلوا رأس العين وأمرهم ان يجعلوهم عند الاسارى في بيعة نسطور يا وان يحتفظوا بهم حتى نكاتب الملك ويرى فيهم رأيه قال فجعلوهم عند خالد واصحابه ثم ان عاصم قال للوالي أنت تعلم ما بيننا وبين هؤلاء القوم من العداوة وان كانوا عرب مثلنا ونخاف انك تجعل على حفظهم أحدا من الروم او من الارمن ان يحدثوا معهم باطلاقهم وتدخل المضرة على الملك وعليكم والصواب ان تجعل بعضنا في البيعة وبعضنا خارجها فانه من اتى الى الجهاد لا يركن الى الراحة فانه من تعب في الدنيا قليلا استراح في الآخرة طويلا قال فاستصوب الوالي رأيه وانزله في البيعة هو واصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واضاف يوقنا الى خالد قال الواقدي رحمة الله ورضي عنه فحصل ستمائة فارس من المسلمين قال الراوي فلما استقروا في البيعة وجن الليل قام سعيد ابن زيد الى خالد وسلم عليه وبشره بالفرج فقال يا ابن زيد لقد علمت بذلك منذ قيل ان يوقنا قد اوتي به ومعه أربعون فنظرت بنور الايمان فعلمت صحة ذلك قال وان الوالي بعث الى الملك يبشره بأخذ يوقنا ومعه أربعون من أصحابه وقدوم عاصم بن رواحة ومعه

خمسة من أصحابه فلما بلغه الخبر أسرع بالبوقات فضربت فسمعت المسلمون بذلك فقالوا
ما ضربت البوقات الا لأمر مهم وإذا بعباد بن بشير وهو متنكر وأتى الى عياض بن
غنم فلما رآه قام اليه وسلم عليه وقال يا ابن بشير بم تبشرني أقر الله عينيك فلم يرد عليه
شيئا حتى خلى به وحدثه بجميع ما جرى فلما سمع عياض بشارة عباد بن بشير سجد
شكرا لله فقال عباد أيها الأمير ان سعيد بن زيد ومن معه يسلمون عليك وعلى من
معك ويقول لك اجبر المصاف فلعل ان يفتح على يديك فما بينك وبين فتح رأس العين
الا أن تهزم القوم وقد فتحت فقال عياض توكلنا على الله فلما جن الليل جمع أصحاب
الرايات وحدثهم وقال لهم لا تعلموا أحدا خيفة من جواسيس الروم ولا تخلوا يصبح
الصباح الا وأنتم على أهبة الحرب قال فما أصبح الصباح الا والمسلمون قد أخذوا أهبة
الحرب فلما علت الشمس وانبسطت على الارض علت على الخيل وركابها وحملت
بأصحابه ووثب من الحرب نارها وطار شرارها وقطعت الجماجم واسرعت الملاحم
وصالت أسودها وتعفرت خدودها وصبرت على شدة قتالها وحان منهم آجالها وتدانت
آجالها وهم في الحرب متراميون وفي العدد والعدة متقاربون وفي الزحف الى الفزع
عجلون والعجاج ثائر والدم فائر والاسلاب مطروحة للضباع ولحوم القتلى رزقا للطير
والسباع ولقوة الغنائم تشتكي منها الاسماع والشمس تتحير منها الجسوم والنفوس
والحرب قد أخذت أمرا بقطع الاجل وقد شمرت عن ساق وسروال والوطيس
قد حميت جوانبها واستعبت عن عجائبها والصفوف تدانت الى الهياج وقد غيمتهم غيم
العجاج وكل مقدم قد شدته جيشه وتكدر بعد الصفو عيشه والخيل تتكرر كرات
وتجتمع مرات والسيوف تقطع البيض والنفوس تكاد تتميز من الغيظ والغبار قد سحبت
ذيل سحبها واتصل واسبل على الوهاد رداء سحبها والطير قد حامت وكان القيامة قد قامت
واستقبل المسلمون هذا الحرب الخطير والصدام المستطير وحل بالروم العقاب وسمعوا
سقوم هم والتقوا أليم العذاب ونال المسلمون ما رغبوا فيه في حسن المآب (قال
الواقدي) رحمه الله ورضي عنه والتقى عبد الله بن عياض بن وائل وعبد الله بن
قرط بالملك شهرياض وقد عول على الهروب وكل من في جيشه قد اشتغل بنفسه عن
نصرته وليس عنده سوى عشرة من غلمانه فأطبق عليه عبد الله بن قرط وعبد الله بن
عياض (قال الواقدي) رحمه الله تعالى ورضي عنه ولم أدر أيهما كان أسبق بالطعنة
طعنه في صدره أخرج السنان من ظهره فلما نظر غلمانه الى ملكهم مجدلا ولوا على
أدبارهم ونزل عبد الله فاحتز رأسه وجعله على رمحه وركب وصاح الا ان الملك
قد قتلته فمن كان منكم يثبت للحرب فليثبت وصالت المسلمون على أعداء الله ووضعوا

فيهم السيوف فقتل من قتل وانهزم الباقون بعدما اسروا منهم من اسروه وقد نزلوا الانقال على حالها والاموال والسرادقات فاحتوى عليها المسلمون قال حديد بن ناشب الضمري كنت مولعا اذا سكنت الحرب بعدد من قتل من الروم فأخذت مخلاة على عاتقي وملأت حجري حصى فكنت لا أمر بمقتول الا طرحت عليه حصوة ثم عددت الحصى فاذا هم ثمانون ألفا وسبعمائة وخمسون وأما الاسرى فلا يقع عليهم عدد فلما وضعت الحرب اوزارها أمر عياض بالانفال والاسرى الى كفر توثا وبعثها مع الصلت ابن مازن ومعه ألف فارس وامره ان لا يبرح منها حتى تفتح رأس العين قال ثم ارتحل عياض في أثر الوقعة الى رأس عين وردة وبات ليلته يتلوا القرآن قال ووصل المهزومون الى رأس العين وهم باسوء حال ووقع الصايح بجوانب المدينة بهزيمة الجيش وقتل الملك شهرياض فعظم عليهم وكبر لديهم واستوثق الوالي مرسيوس من المدينة والاسوار وعول على انه في غداة غد يضرب رقاب المأسورين وكان من عادة الروم اذا قتل منهم ملك يقتلون عليه مائة أسير من اعدائهم فلما كان من الغد ركب عدو الله مرسيوس الوالي الى وسط المدينة وامر ان يؤتى بالاسرى وهو خالد ومن معه ليضرب رقابهم فارادوا ان يأتوه بهم واذا بعياض قد صبحهم صباحا فشغلهم عن ذلك ونزل على باب اسطاحون وهو الباب الشرقي وكان قد ضرب على الباب المذكور قبة من الديباج المدثر برسم عدو الله مرسيوس والى جانب القبة منجنيق عظيم متعلق في حباله مائة رجل وكان صاحبه ابن عم الملك وكان اسمه مترقيس بن اشفكيناص وكان أبوه هو الملك قبل شهرياض وهو صاحب الدنانير الاشفكياصية قال وانما تقدم عياض بالمسلمين للقتال حتى يشغل أعداء الله ويشغلهم عن خالد ومن معه بالمدينة فصاروا يرمون بمنجنيقهم وسهامهم وكان قد وصل مع عياض غلام من أهل المدينة اسمه سعد الداري وكان ارمى خلق الله بالنبل وكان قد وصلت له أم عجوز فلما كان ذلك قال يا اماه أريد ان اجاهد هذا اليوم في الله حق جهاده فلعلي ان الحق باخواني وجدي الذين قتلوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعها وسار فقالت يا بني سر الله ينصرك ويؤيدك قال ثم انه تقدم ووقف وهو متستر وكان قد شاع ذكره بين العرب وانه كان ينظر الى الطائر في الجو فيقول اني قد عولت ان اضرب هذا الطائر في موضع كذا فيضربه فيقع الطائر والضربة في المكان الذي ذكره فلما كان يوم قتال عين وردة تقدم وجعل يضرب البطارقة من اعلا السور فلا يقع سهمه الا في فؤاد او في حدقة حتى قتل ثلاثين بطريقا منهم من وقع الى المدينة ومنهم من وقع الى الخندق قال وكشف برج الباب قال وكان عدو الله مرسيوس المتقدم ذكره صاحب المنجنيق أرمى خلق الله

فجعل يعبر ويرمى فقال الناس لجميل بن سعد أيها الغلام ابعد لئلا يصل اليك حجر المنجنيق فانا نخاف عليك منه فقال ياقوم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى كتاب الله العزيز اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ولابد ان أثبت لهم ثم انه رمى رجلا من الذين يجرون الحبال فقتله وثانيا وثالثا فقتلهما قال فهربت البطارقة عن الحبال وقالوا لاطاقة لنا بالوقوف فى هذا المكان من هذا الغلام فقال مرسيوس البسوا الدروع واستتروا ففعلوا وقعدوا فى الحبال ورمى بحجر فوقع فى رجل من بجيلة فقتله ولم يزل حتى قتل ستة رجال قال وان جميل بن سعد يرمى ولا تخطى نباله وهو يقول واشوقاه الى الشهادة وان أصل الى دار العلم والشهادة فنودى من سره ان أردت ذلك نبادر الى ذلك ولاتخف فبادر واطلق عنان كلبك فى ميدان طلبتك واياك والتخلف عن بابنا فمن أراد نا اردناه ومن احبنا أحببناه فقال ها انا اتقدم وجنانى فى الحقيقة لايتألم وقد بعت ملك نفسى فاقبل شراها فعسى آتى الجنة واراها قيل له قد قبلناك فامرح واطلق لسانك بشكرنا وافرح فمن باع نفسه منا لم يكن مغبون واسمع ماسطرناه فى الكتاب المكنون ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون قال فبينما هو كذلك اذ عبر عليه عدو الله ورماه وكذلك جميل قصده بنبلة فوقعت فى صدره مرقت من ظهره ونظر جميل الى الحجر وقد قصده فعلم انه ميت فالتفت الى ابن عم له اسمه رافع بن خالد وقال له بلغ العجوز سلامى وأنشدها هذه الابيات وجعل يقول

ابا رافعا الا حملت رسالتى * مخبرا انى لقيت حمامى

وان جئت أمى واخوتى وعترتى * فخصهم عنى بكل سلامى

وان سألت عنى العجوز فقل لها * قتيل حجار لاقتيل سهامى

طريحا بباب الحصن لما تطايرت * من الحجر الصلد الاصم عظامى

ولست ابالى ان قتلت لاننى * ارجو بقتلى فى الجنان مقامى

قال وعلم عياض بقصته فبكى رحمة لامه وأمر به فدفن بعد ماصلى عليه وبلغ خبره الى أمه فصبرت صبر الكرام وقالت يابنى عشت سعيدا ومت شهيدا وسلكت سبيل آبائك فرحمك الله وآنس غربتك ونفعنى بك يوم القيامة ثم قرأت الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون قال حدثنا معمر بن الجون السهانى وكان ممن حضر جده سراقة فى فتح رأس العين قال لما قتل جميل بن سعد فرحت الروم وان عدو الله مرسيوس صاحب الامر بعد شهرياض لما رأى ان المسلمين معولون على حصاره مضى فى الليل الى بيعة نسطوريا وصلى بها وقرب القربان وكان من بغضه للمسلمين قد صور على

باب البيعة صورة رجل من العرب وكتب عليه هذا بنى العرب فكل من دخل البيعة
بنصق عليه وكان فى داخل البيعة صورة القيامة والميزان والصراط والجنة والنار
وكانت صورة عيسى وبيده صليب وكانت أمه تحت لوائه على باب الجنة قال فلما صلى
قال لعاصم بن رواحة لقد اردت المسلمان أقرب عشرة من هؤلاء العرب الاسرى
فى بيت المذبح فقال له عاصم ليس هذا برأى أيها الملك حتى نرى مايكون من أمر العرب
وهذا بين يديك قال فسكت وخرج وان عاصما لم يترك فى البيعة أحدا من الروم
واستوثق من أبواب البيعة ودخلت الصحابة الى بيت المذبح فوجدوا فيه سلاحا كثيرا
مما كان يجتمع من النذور فأخذوه وعولوا على ان فى صبيحة غد اذا اشتغل أهل المدينة
بالقتال يثورون فى المدينة قال ولما دخل الليل قاموا يذكرون الله وينظرون الى تلك
الصور المصورة وصفة القيامة والصراط والجنة والنار فقال عاصم بن رواحة لسعيد بن
زيد المرب الى دين رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد فى الايمان قال نعم فان ابراهيم
اذا كان يوم القيامة يوم الحسرة والندامة اذا عصفت رياح الطامة وحشر الخلق والورى
وبرزت الجحيم لمن يرى وصفت صفوف التقين وحييت جوانب المتقين الموقنين
ونشرت رايات الصادقين ورفعت أعلام المحققين ونصبت منابر الانبياء والمرسلين
وتصدرت مراتب الصديقين وفرحت أرواح الموحدين وضاقت أرواح الكافرين
وزهقت نفوس المشركين وقيل بعدا للقوم الظالمين وذلت الملوك والجبابرة وطاطات
رؤس الاكاسرة والقياصرة واستبشرت الابرار وبئست الفجار ونادى منادى الملك
الجبار لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ألم نحذركم دار البوار ألم يأتكم الانذار ألم تسمعوا
ما أنزل على السيد المختار اقل تمتعوا فان مصيركم الى النار هذا يوم الفصل جمعناكم
والاولين هذا يوم العرض هذا يوم الوفا هذا يوم الجزا هذا يوم الراجفة هذا يوم الآزفة
هذا يوم الفصل هذا يوم العدل فاذا انفض الموقف باهله وقدم كل ذى جهل بجهله
وعضت الانامل اسفا وطارت القلوب لهفا ونادى المنادى يامعشر المجرمين امتازوا
فان المتقين قد فازوا أما سمعتم فى الكتاب المكنون وامتازوا اليوم أيها المجرمون فبينما هم
قد كظمهم العطش ولحقهم الدهش وعظم الارق واشتد القلق وسال العرق ونادى
المنادى وهم يسمعون وقفوهم انهم مسئولون قفوهم حتى يرواهيبتى ومملكتى قفوهم
حتى يشاهدوا سلطانى وعظمتى قفوهم حتى يعرضوا على قفوهم حتى أناقشهم الحساب
اين من عصى واجرم اين من طغى واظلم أنا الجبار الاعظم لا أرحم من لا يرحم اين أمة
نوح اين من كان يغدو فى البطالة ويروح اين قوم هود اين آل ثمود اين أمة التظالم اين
أمة شعيب اين أهل الشرك والشك والريب اين أمة التوحيد اين أهل الصلاة

والتمجيد ابن أمة القرآن ابن أمة راكب البراق ابن أمة طاهر الاخلاق هادي الامم في الحساب وقد تجلى رب الارباب لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب والمصطفى صلى الله عليه وسلم في كبكبة حشمته وموكب زينته على رأسه تاج الرضى مكتوب عليه بقلم الامضا ولسوف يعطيك ربك فترضى وبيده لواء الحمد وبين يديه سحائب السعد وعن يمينه الانبياء وعن يساره الاولياء والملائكة وقوف بين يديه وأهل الموقف ينظرون اليه وأمته يصلون عليه وقد تهللت وجوههم فرحا وقد أسبل عليهم الاسلام سرباله وأوصل بهم حباله وقد نادوا ربهم بالتمجيد وازعجوا الموقف بالتوحيد وتداعى نورايمانهم وعرجوا على دياتهم واستشهدهم على الامم فشهدوا وانقبلت شهادتهم وغيبت عنهم هموم الافلاس وآمنوا من الهول والباس ونادى مناديهم كنتم خير أمة أخرجت للناس وأهل الموقف ينظرون جمالهم ويستعجبون من هيبة جلالهم ويقولون لقد فاز من اتبع ملتهم وصدق شريعتهم قال مالك يوم الدين ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين فاذا ورد مقامه أمال فيه هناك قيامة وبسط كف ابتهاله ويخلص في طلبه وسؤاله ويقول اسألك قبول شفاعتي في العصاة من أمتي واذا بالنداء وعزتي لا اخلف لك وعدا ولا انقض لك عهدا ولازين أهل الموقف علو شانك ورفيع مكانك ولاعطينك حتى ترضى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال فازداد عاصم ايمانا فلما كان وقت السحر وثبت الصحابة على اقدام الحزم والعزم وخرجوا على أهل المدينة فاستعانوا بالله وقالوا اللهم انصرنا كنصر نبيك يوم الاحزاب قال خالد اياكم ان تتفرقوا فتذهب ريحكم واتقوا الله الذى اليه مصيركم واعلموا أن الاعداء يجتمعون عليكم والدماء يرجوكم والشباب يقاتلوكم واياكم ان تطمعوا أحدا في محارا الحرب بل صبرا على مر الحرب والضرب وانما تبين صبر الرجال عند ملاقات الاهوال وما نحن ممن يفرح بهجوم الاجال لانا قد تحققنا ان لكل ما أجلا لا يتعداه ومن خاطر بعظيم نال عظيم وهذه المدينة اسمها عظيم والجمع فيها أعظم وهى قصور ديار بكر وربيعة وقد حصلنا في وسط مدينة القوم فان كنتم طالبين الظفر فاصبروا ولا تجعلوا فالصبر مقرون بالظفر والعجلة مقرونة بالزلل والصبر عقبته النصر واعلموا أن هذه البيعة هى بيعتهم المعظمة ولا بدلهم من من القدوم الى الصلاة فاذا حصل واليهم ها هنا ومقدم عساكرهم اطبقنا عليهم من كل جانب ونضعهم بالقواضب فانه اذا قتلت الملوك وعظماء البطارقة فلا يجسر بعدهم أحد ان يرفع يده وأما العوام فلا اعتبار بهم فقال عاصم بن رواحة لله درك أيها الامير ما أخبرك بالامور والحروب ولقد تكلمت بالصواب وأحسنت في الخطاب فيقر كل واحد منكم في مكانه واخفوا سلاحكم في أعبائكم فاذا اشتغل القوم في صلاتهم

ثرنا عليهم ومددنا أيدينا اليهم فاستصوبوا رأيه قال وكانت الصحابة في بيت كبير في البيعة كان برسم النذور وفيه شيء من الامتعة لا يمكن لكثرته (قال الراوي) حدثنا عبد الله بن يانس عن جده فياض بن زيد وكان من جملة من ذكرناهم من الصحابة وحضر فتوح رأس العين قال هكذا كانت قصتنا وكنا قد دبرنا هذا التدبير ثم رجعنا عنه وكان من الامر المقدر ان ذلك اليوم الذي رجعنا فيه لم يقاتل فيه أحد من جند رأس العين وكان له سبب نذكره (قال الراوي) رحمه الله وكان من قضاء الله السابق في خلقه انه كان للوالي أخ عاقل لبيب له رأي وتدبير وكان يعرف من الحكمة التي وصاه بها فهرابس بعض حكماء اليونانيين وقد عرف من علم الملاحم وكان صاحب سرشهرياض فما كان يفعل شيأ الا بمشورته وكان قد نهاه عن قتال العرب وقال له ما أرى لك في قتالهم خيرا والامر عليك لا لك فلما كان من الملك ما كان وقتل جيشه ورجع الامر الى مرسيوس قال له أخوه الحكيم وكان اسمه ارسالوس معناه حكيم زمانه أعلم يا أخي أنه ليس يجب للعاقل اللبيب الفاضل الاديب ان يرمي نفسه في غير مراميها ولا ينقاد بزمام شهوة النفس فانه من أطاع نفسه هوى في مهاوى الذل ونسب الى الجهل فان الشهوة عرض واتباع الهوى مرض والاستمتاع باللذات سبب المهلكات ولا خير في لذة تؤدي الى الفناء وتورث صاحبها العناء الشهوة حين والامل شين والاستمتاع بين والتمتع دين وحب الدنيا مين وما ندم عاقل ولا ساد جاهل ولا وقف عجول ولا رأى ملول ولا سعد خاين ولا صدق ماين ولا عظم بخيل ولا قدم ذليل ولا فخم نبيل ولا حقر جليل ولا نال العبادة من زهد في الافادة ولا أمن في الآخرة من سر في الدنيا الساحرة ولا سدد من ظلم ولا حرم من حلم ولا حزم من ندم ولا خاف من تاب ولا رد من أناب ولا هجر من لزم الباب ولا ذل من اتبع الصواب واعلم أن بالسياسة تدوم الرياسة وبالعدل تدوم الدول وبالجور هلك الاول وبقلة التدبير يحصل التبذير ومن بذل جهده كلت أوصافه ومن أفشى السلام فضله الانام واصلاح السريرة نعم السيرة وجمالة الانسان فصاحة اللسان وزينة الرجال كرم الخلال وخير الاصحاب التقوى وشر الاخوان اتباع الهوى ولا خاب من قصد طوره ولا ارتفع من جهل قدره والتعلق بالامال ضياع الاعمال ومعالي الاخلاق نعم الرفاق وممارسة الحلال نجاة من الاهوال وحب العاجل يبين الآجل وارتكاب العصيان علامة الخذلان وعلامة التوفيق تيسير الطريق والنظر في العواقب أمن من المعاطب ومن نظر الى الدنيا بعين الفناء أدرك في الآخرة ما تمنى واعلم يا أخي انك قد أصبحت مقيدا بحب الدنيا سابحا في بحار أهوالها متعلقا بأذيال محال أمالها وقد تزينت لك برياشها

ووقفت لك على قدم احتياشها وازوت عنك جل مصايبها ونصبت لك شبكة مصايدها ووضعت لك تاج شهواتها على مفرق رأس آمالها حتى اذا أشرت اليها بالوصال مطلك لذيذ الاتصال واحسنت لك صحبتها شهرا ورمتك بسهام الهجر دهرا وطالبتك بما كتبت عليك مهرا حتى اذا علمت غريم الانغاص عيرانك منقاد للقصاص القدك فى بحر الافات وحجبتك فى بحر الغفلات وصغرت أمرك عند الماس وولكان بك سحايب الوسواس فلا تبرح تذكر الانسان بما كان فيه حتى تخرج روحه من فيه واعلم ان من جملة ما ذكر لنا عن عيسى بن مريم أنه رأى طائرا مليح الشكل حسن الريش كامل الزينة فقال من أنت قالت أنا الدنيا ظاهرى مليح وباطنى قبيح قال عيسى عجبت لغافل ليس بمغفول عنه ومؤمل اتمام شىء والموت يطلبه وانما ضربت لك هذه الامثال لتتعظ بها وبما نزل بالملك شهرباس كان بالامس على السماط واليوم نزل على الصراط بالأمس كان فى سلطانه وملكه باهى واليوم صار فى الحفر واهى ما افاده الغنى اذهبه الفناوذهب الفرح بالترح والنوم على السرير باليوم على العفير ومعانقة الاتراب بالتعفر فى التراب بدل عن كل خل وودود بمجاورته الدود وجار وما أجار واشتغل بالدارعن الجار وبالرماد عن المهاد وانظر بأى سنان بتروبأى آلة كيف هجر وصار قصره مهجورا وعمارته خرابا بورا وتبدل السرور بالثبور ومانفعه الجيش وكثرته ولا الخزائن وعدته أصبح والله ذليلا وبهذه الكثرة قليلا فلا عمل صالح ولا عزرا جح ولا ثواب يقطع ولا جميل يدفع وقد بقى مرتهنا باعماله موثقا بافعاله وأنت تريد ان تسلك مسالكه وتتبع سبيل ما اهلكه فاحذر سفعك ولا عمل يتبعك اتق الله فى نفسك وفى أهل ملتك وبلدتك واعتقب انك من هؤلاء العرب صلحا واقبل ماقلت لك نصحا واحقن الدماء وارحم النساء والاماء وسلم تسلم وهؤلاء القوم ما قالوا قولا الاوفوابه لان الصدق دليلهم والايمان يقينهم ماهم ممن يطلبون الملك وينازعوا عليه ولا يميلوا اليه بل طالبهم الآخرة وماعند الله وبالامس وفوا لرودس صاحب حران ورجع عن دينه ودخل فى دينهم وكذلك الملكة مارية ابنة أرسوس وقد دخل فى دينهم جبابرة ملوك الروم مثل يوقنا وبرغون وعمودا ومينا الذى هو أعلم ما فى ديننا وقد ملكوا الارض فى الطول والعرض وانما يحاصر عن نفسه من له ميرة وعدد وجيش وسلاح وعدد يقدر على محاصرة البلد وهو بلد عظيم وما فيه ما يقوم باهله سنة أو أقل فان لم تسلم أنت سلموا أهله وسلموك اليهم برقبتك وهذه حران لهم وكفرتوثا والرها وسروج وسميساط وماردين والصور والخابور وماعدا الفرات الى الشام الى أرض مصر وجيوشهم قد طبقت المراق وملأت الآفاق وقد بلغنى ان الملك كسرى قد عاد الى المحاق فابعث الى أمير هؤلاء

العرب واطلب منه مانات فانه يعطيك وتريح نفسك ومالك وأهلك وولدك وعش في ظل القوم ان شئت على دينهم وان شئت على دينك فانهم لا يغضبونك قال فلما سمع مرسيوس كلام أخيه الحكيم ارسالوس غضب عليه وضربه بمقرعة كانت في يده وقال أنت ما خلقك المسيح الا ذليلا وكيف تأمرني ان اسلم ملكي للعرب وتعرضني للعطب اخرج يا ويلك عني فان وقعت عيني عليك بعدها قتلتك قال فخرج من عنده وهو غضبان وأما اللعين مرسيوس فانه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا في كنيسة بيعة نسطور يا حتى يحلفهم فمضى شاويشه فجمعهم وجمع مشايخ البلد وكبراءها ورؤساءها وأحضر الاقسة والرهبان والشمامسة وبترك ديرمقرب حتى يستحلف أهل المدينة فلما حصلوا في البيعة أغلقوا أبوابها حتى لا يدخل اليهم أحد من العوام وحصلوا كلهم فجلس الملك والبترك وشرعوا يحلفوهم وهم آمنون مطمئنون اذ خرجت عليهم اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل سيف مسلول وعزم غير محلول وصاحوا بالتهليل والتكبير ونادوا نحن امة التنزيل واصحاب النبي الجليل نحن حملة القرآن وصوام رمضان قد أخذ الله ما منكم بذنوبكم وهتك ستوركم وعصفت عليكم المحن ابن الصلبان وعبادتها ابن الصور وحشمتها ابن تقريب القربان أين تدبير الرهبان ادعوا اربابكم ينصرونكم هيهات والله ذهب باطلكم وهلك بالشرك باهلكم واضمحلت أيامكم وذهبت دولتكم ووضعوا فيهم السيوف وعجلوا لهم الحتوف وقتلوا البطارقة بالنية الصادقة فما وعى آخرهم فلما رأت الروم ما نزل بهم ضجوا وبأصواتهم عجوا فقال خالد أولياء الله جودوا الضرب في أعداء الله واهريقوا دماء من أشرك بالله قال فقتلت الطراخنة وذوو الحشمة الشامخة فلما بلغ الخبر العوام انهزموا عن الأسوار لما حل بقومهم البوار وحات بهم الاقدار فذهب دامس الى الابواب ففتحها فدخلت المسلمون بالتهليل والتكبير ولم يزل القتل يعمل في رأس العين وقد وردوا موارد الحين وفاح عليهم غراب البين وأبدت شريعة سيد الكونين (قال الراوي) وكان فتح رأس العين في ربيع الاول سنة سبعة عشر فجمعوا الاموال والرجال وكان عدتهم عشرين ألفا منها عشرة آلاف محاربة فاسلم كثير من القوم وأسلم الحكيم ارسالوس وجميع من لاذ به (قال الواقدي رحمه الله تعالى ورضي عنه) ولم يؤخذ من ديار بكر بالسيف الا رأس العين قال واخرج الخمس من المال وأرسله الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وكتب له كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عياض بن غنم الاشعري الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه اما بعد فان الله قد فتح علينا

بيراما كان عسيرا وكان لعدة الغيان شعاع يخطف العيان فلما تسابقوا امامى وازدحموا قدامى عاينت جيشا كثيفا وسدا منيفا قد اقبلوا من الامواج وتتابعوا كالامواج وتناصروا من كل صوب واشتهروا فى كل ثوب والحديد يتألق كالحريق وقد تطايرت السيوف فلا والرماح كموا وانقضت المدة وقد وضعت الحرب أوزارها والمقات نارها بعد ما قتل المسلمون أهل الطغيان الفاسقين ونصر الله الكفاة وخذلت العتاة وولت الاعداء الادبار وأراح الله من مضرتهم وطهرت البلاد من كفرهم وكان زعيمهم الخائن وملكهم أول مخذول وأهون مقتول وبعد ذلك فتحنا رأس العين ونحن بعد ذلك معولون على ديار بكر والله المعين وبه نستعين والسلام عليك وعلى جميع المسلمين واقرأ سلامنا على قبر سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه مع الخمس لعبد الله بن جعفر الطيار وضم اليه مائة فارس من المهاجرين والانصار فسار عبد الله ومن معه وأقام المسلمون على رأس العين شهرا وعمل بيعة نسطور باجامعا وصلوا فيه وبنوا الكنائس مساجدا وترك عرفجة بن مازن العامرى عليها واليا ومعه مائة فارس وأخذ مال الرها وكفرتوثا ما خرج منه الخمس وأرسله بعد عبد الله بن جعفر مع سلامة بن الاخرص ومعه خمسين فارسا

(ذكر فتح دارا وبيرما وباعما)

فتح دارا وبيرما

قال ورحل عياض بن غنم من رأس العين ونزل على كفرتوثا وأقبل اليه الغلام يرغون فرحب به وولاه على المدينة وأعرض الاسلام على الجارية طاريون فاسلمت وزوجها ابن عمها وبنى البيعة جامعا وارتحل منها الى دارا فنزل عليها وخرج اليه أهلها واعتقبوا لهم منه صلحا وكان جملة ما صالحوا عليه أهل دارا عشرين ألف مثقال ذهب وثلاثين ألف فضة وان لا يبقوا سلاحا فأجابوا الى ذلك وبنى كنيستهم جامعا وما أسلم منهم الا القليل وأقرهم على أداء الجزية وارتحل عن دارا وقصد بيرما فصالح أهلها على ربع ما صالح عليه أهل دارا ورحل عنها وكانت بنو اسرائيل تعظمها وتقصد اليها بالنذور وكان بانيها اخرقيا بن تورخ بن بازيا احد انبياء بنى اسرائيل فخرجوا الى عياض وصالحهم على قدر ما صالح به أهل دارا غير ان مقدمهم قال انى لم أزل أملك البلد حتى يأتينى الموت ومن أراد ان يدخل فى دينكم من اهل بلدنا فلا مانع يمنعه فقال له عياض ما اسمك قال اسمى طرباطس فقال يا طرباطس انا نحكم على العدل فما أمرنا الله علينا الا باتباع الحق وسلوك طريق الصدق والعدل فى الرعية وان نجتنب البغى والظلم وما قصدنا قاصد الا وجدنا وأنتم منذ خرجتم البناو ورددتم علينا فنحن نجيبكم الى سؤالكم ونمضى الحكم على ما صالحنا عليه أهل دارا فقال طرباطس وتصالحوا أهل معرين على

ماصالحتم عليه أهل بيرمافاجابهم عياض الى ذلك ونزل على باعساود برفال وثما أجابه عياض الى ذلك واين له العريكة حتى بلغ الخبر الى أهل ديار بكر فجيبون طائعين ويسامون لهمن غير منازعة وكان قد بلغه تحصن بلادهم وامتناع قلاعهم قال فدخل طرباطس وأخرج المال من خزائنه ولم يأخذ من أهل بلده شيأ ودفعه لعياض فقبله منه وكتب له كتاب الصلح وشرط عليهم الجزية كما فعل أهل دارا من العام المقبل فلما تم ذلك دخل المسلمون اليه وبنوا جامعا فلما بلغ أهل نصيبين حسن سياستهم وعدلهم وجودة احكامهم اسلم اكثرهم وكان فى جملة من أسلم أصحاب دير المذور واخربوه وبنوه جامعا وأقام عياض على نصيبين شهرا فلما أراد الرحيل جاءه طرباطس وقال قد زدتم فى اعيننا بما رأينا من صلاتكم وعبادتكم فاسلم وحسن اسلامه ولم يزل ملكا حتى مات فى خلافة عثمان ونزل فى مسجد كندة اسامة بن عامر الكندى وعشرة من بنى عمه وارتحل عياض ونزل تحت قلعة المرأة وفيها مارية وولدها عمود افنزلوا اليه بالاقامة والضيافة وسار الى أن نزل على آمد لسبع خلون من شهر جمادى الاولى

(ذكر فتوح ميافارقين وآمد)

وكان بآمد اخوان شديدا البأس اسم الواحد بطرس والآخر يوحنا وكان بطرس فى شرقى البلد ويوحنا فى غربيها وكان ليوحنا بنت اسمها رغورة ولبطرس بنت اسمها صفورا وكل واحد مشغول بما هو فيه وأن يوحنا أراد أن يتزوج فارسل الى صاحب دارا وهو مرطاوس فزوجه ابنته مريم وحملت من بلد أبيها اليه وكانت صاحبة حيلة ومكر فلما حصلت بآمد نظرت الى المدينة وكثرة مائها وتحصن أهلها وسورها وغزارة بساتينها فقالت لدايتها فى السير يادايتى ما رأيت أحسن من هذه المدينة ولا احصن منها ولا امنع الاترين الى الاعين المخترقة فى وسطها والى الجبال التى قد دارت بها تغنى سورها لاسر دفمن بناها على الحقيقة قالت لها اعلمى انه قد ملك بلاد الروم أجمع من أول بلاد اليونان الى بلاد عمودية ملك يقال له طيماوس بن ارساوس بن ميهاط بن مكلاوكن بن الاصغر بن العيص بن اسحاق وكان أول من بنى بيت الحكمة فى بلده رومية الكبرى وكان قد فتحت له المطالب ونشر فى الارض العجائب وانه حدثته نفسه بملك الارض لكثرة المال فانتهى الى سويفة وكان له ولد اسمه اصطنبول فقال لابيه طيماوس أريد ان أبنى لى هذا آمد سنة اذكر بها قال يابنى افعل وامده بالمال والرجال فادار سورعلى ستة فراسخ وسماها باسمه وعاش أربع سنين ومات وخلف ولدا اسمه قسطنطين فاتم بناها فسميت باسمين اصطنبول باسم أبيه والقسطنطينية على اسم ابنه وأما أبوه فانه سار يفتح البلاد حتى وصل الى هذا فرأى هذه الاعين والدجلة

فاستحسن المكان وطلب أرباب دولته وكانوا اثنين وسبعين ملكا وقال قد اخترت ان أبني ههنا مدينة لا يكون على وجه الارض مثلها ولا احصن منها ولا امنع ولكن أريد ان كل واحد منكم يبني لنفسه مدينة وبرجا فقالوا جميعا نفعل أيها الملك فركبوا واختطوا المدينة وشرعوا في بنائها وأتوا بالصناع من أقصى البلاد واختص كل ملك بمدينة وبرج وحمام وكنيسة فلما اتموا بناءها مات الملك فسميت امدا لانقضاء مدته بها وما زالوا الملوك يتوارثونها الى أن انتهت الى هذين الاخوين بطرس ويوحنا قال فتعجبت مريم من قول دايتها وكتمت الامر وكان لبطرس ولد اسمه لاون فطلب من أخيه ابنته صفورا لولده وقال له زوج ابنتك لولدي حتى ازوج ابنتي لولدك فامتنع ووقع الشر بينهما وكان في وسط البلد سور وأبواب فاغلقت وصار كل واحد منهم مشغول بناحيته فلما رأت مريم ذلك دخلت بينهم بالصلح وقالت هذا الايحوز وانما الخوان وطمع فيكما ملوك ديار بكر وركبت بنفسها واصلحت بينهما وفتحت الابواب التي داخل المدينة وصنعت وليمة عظيمة ودعت اليها بطرس وولده لاون وأبنته صفورا فاكلوا وليتها وقدمت لهم الخمر ممزوجا بالسم فلما تمكن منهم قتلوا عن آخرهم وكذلك فعلت بزوجها وولده وصارت ملكة وبنت بيعة لم ير ببلاد الروم مثلها ورشت أرضها بالفصوص والرخام الملون وزخرفت الحيطان بالذهب والفضة وعلقت فيها ستور الديباج المذهب وطلبت كل عالم مشهور وأزالت عن أهل البلد جميع ما كان عليهم من الحيف وعدلت فيهم فاحبها أهل البلد وشكروا سيرتها واستخدمت الرجال وزادت في اكرامهم وقصدها الناس من كل مكان لاجل عدلها وأقامت في تلك امدا اثني عشر سنة وبعدها نزل عليها عياض بن غنم ومن معه وأحاطوا بالمدينة (قال الواقدي رحمه الله ورضي عنه) بلغني أن عياض نزل على التل ونزل سعيد بن زيد على باب الروم ونزل معاذ على باب الجبل ونزل خالد على باب الماء فلما نظرت الملكة مريم الى ذلك ورأت ان الصحابة قد عولوا على حصارها ركبت الى كنيستها وجمعت أرباب دولتها وقالت اعلموا ان هؤلاء العرب قد حلوا بساحتكم ونزلوا على مدينتكم وقد طمعت أنفسهم بأخذها وأنتم تعلمون ان هذه قفل ديار بكر وبيتي فتحوها فقد أخذوا ديار بكر عن بكرة أبيها واضمحل دين المسيح ولا يبقى له ذكر في هذه البلاد وانا أعلم ان الملوك ومن يشار اليهم من أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية كلهم ينتظرون ما يكون منا وتعلمون ان مدينتكم لو أقاموا عليها مائة سنة ما قدروا عليها فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم واصعدوا فوق الاسوار وقاتلوا هؤلاء العرب وطلبت الاقسة والشمامسة والرهبان وأمرتهم ان يحلفوهم على ان يكونوا يدا واحدة ولا يخامرون عليها ففعلوا ذلك وصعدوا على الاسوار

واشهروا

واشهروا السلاح وآلة الحرب وأقاموا الصلبان والرايات والاعلام وتولى كل طائفة بحفظ برج من الابراج قال فلما نظر عياض الى ذلك وانهم قد عولوا على القتال من أعلا الاسوار جمع امراء جيشه اليه. قال لهم ان هذه المدينة حصينة وهي عين ديار بكر ومتى فتحها الله علينا فقد ملكنا ديار بكر فما الذى ترون من الرأى وكيف يكون قتالها واعداء الله قد تحصنوا بهذا الحصن المنيع فقال خالد أيها الامير اعلم اننا ما ملكنا الله البلاد بقوة ولا بكثرة مدد ولا بعدد بل بتيسير الله لنا ونرجوا الله أن يفتحها ببركة نبينا صلى الله عليه وسلم وبذلك وعد الله فيه وأن هؤلاء القوم ان باسطونا على ظاهر مدينتهم بالقتال رجونا تسهيل الامر وان أقاموا على ما هم عليه فالصبر فان عاقبة الصبر النصر ولعل ان يأتي في المرضيات ما لم يكن في الحساب واكتب الى هذه المرأة كتابا وخوفها ثم منيها بكل جميل فلعل الله تعالى أن يلين قلبها للايمان أو تسلم لنا صلحا فدعى عياض بدواة وبياض وكتب اليها يقول بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد وآله من عياض بن غنم أمير جيوش المسلمين بارض ربيعة وديار بكر الى مريم الدارية أما بعد فان الله سبحانه وتعالى قد نصرنا بجميع الكفار وقد ظفرنا وعلى قبض ماو كما ايدنا وما نزلنا على بلد الا ملكناه ولا قابلنا جيشا الا هزمناه والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين وليس حصنك بامنع من تدمر ولا أحصن وهو الحصن المنيع الذى بناه سليمان بن داود وما هو الا أن نزل عليه المسلمون حتى ملكوه وكذلك بعلبك وحلب وانطاكية دار الملك هرقل ولم يبق بين أيدينا صعب الا سهله الله علينا وبذلك وعدنا الله في كتابه العزيز فقال وكان حقا علينا نصر المؤمنين فاذا وصل اليك كتابي هذا فسلمي تسلمي واياك تخالفي تندمي وما أردت بلغناك واسنا نكرهك على دينك ولا على احد من أهل بلدتك قال الله تعالى لا اكراه في الدين وان تمسكتي بالهوى فستعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا وسلام على عباده الذين اصطفى ثم طوى الكتاب وختمه وسلمه الى رجل من المعاهدين وقال له ادن من الحصن وناولهم الكتاب وقف حتى يردوا عليك الجواب قال فذهب ودنى من السور وناداهم بلغتهم وأشار اليهم بالكتاب فادلوا له حبلا فربطه لهم ووقف ينتظر الجواب قال فاوصلوا الكتاب الى الملكة مريم فقرؤه عليها فلما فهمت ما فيه قالت لارباب دولتها ما تقولون فيما كتب الينا أمير العرب قالوا أيتها الملكة الرأى لك فمهما أمرتينا به امتثلناه فقالت ياقوم أنتم تعلمون ان النار ولا العار ومتى سلمنا لهؤلاء العرب عيرتنا الروم ويقولون كيف سلمتم مدينتكم وما حاصرتم سنة ولا عشرة ومدينتكم أحصن بلاد الروم واذا شئتم كان لكم موضع تزرعون فيه والمياه عندكم وكلما تحتاجون اليه وقد وصلت الى

الكتب من جميع ديار بكر وعدوني أن يرسلوا عساكرهم الى نصرتنا فقالوا ابتها الملكه
هذا هو الرأى الرشيد فاكتبوا للقوم كتابا أن يقطعوا طمعهم مسافكتبت تقول أما بعد
فقد وصلني كتابك وقرأت خطابك فأما ماذكرت من نصر الله لكم أما علمت أن
المسيح يمهلكم ولا يهملكم وانما استدراج لكم ثم يأخذكم بعد ذلك وكانكم بالملوك
وأبناء الملوك وقد أقبلت عليكم بسواعد شداد وسيوف حداد وجيوش وأمداد
فيأخذون منكم بالثار ويكشفون عن عباد المسيح العار وما كتابالذى نسلم حصننا
اليكم أبدا فان شئتم المقام وان شئتم الرحيل والسلام وربطوه بالحبل وأعطوه للمعاهدى
فأخذه وأتى به الى عياض فلما قرأه وفهم مافيه قال توكلنا على الله وفوضنا أمرنا اليه
ثم قرأ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا قال
وعول عياض أن يقيم على آمد وخيله تغير على المتاج رميا فارقين وسائر تلك البلاد
قال وسمعوا ضرب الناقوس فقال عياض أتدرون مايقول هذا الناقوس قالوا وما
يقول قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمه عليا ومعه جماعة من المسلمين
ليغار على أطراف تبوك فاجتازوا بدير الراهب وذلك الراهب يضرب بناقوسه فقال
علي لمن معه أتدرون مايقول هذا الناقوس قالوا الله ورسوله أعلم وأنت ياعلى فقال
يقول مهلا مهلا يابنى الدنيا مهلا مهلا ان الدنيا قد اغوتنا واستغوتنا واشغلتنا غدا نرى
ماترى ماهن يوم يمضى عنا الا اوهى منا ركنا ياابن الدنيا جمعا جمعا يابنى الدنيا شرطا شرطا
ما من يوم يمضى عنا الا اثقل ظهرا اماما من يوم يمضى عنا الا صارما جهلا قد ضيعنا دارا
تبقى واستوطنا دارا تفنى قال عياض فقالوا ياابن عم رسول الله أويعلم النصرانى ذلك قال
لايعلم ذلك الا نبى أوصديق قال حدثنا الربيع أبو سليمان عن موسى بن عامر عن جده
قرأه عليه بالخضراء من عسقلان قال فأقام عياض على آمد اربعة اشهر وقال فخرج من
جيشه الحكم بن هشام واستأذن عياضا ان يشن الغارة على ميافارقين فاذن له فأخذ
معه من الصحابة مائة من المهاجرين والانصار فخرجوا بعد ماصلوا الظهر وعبروا الدجلة
وساروا والارض تطوى لهم فمامضى قليل من الليل الا وهم على ميافارقين فداروا بها الى
ان وصلوا الى برج يعرف ببرج الشاة فقال الحكم بن هشام وددت من الله لوفتح لنا هذه
المدينة بلا قتال قال فما استتم كلامه حتى انفتح لهم باب من حائط البرج فدخلوا وهم
يخترقون الطرق الى وسط المدينة الى عند كنيستهم العظمى وتعرف ببيعة مارماروكانت
تلك الليلة عيد عند النصارى فلما أقبلوا الى الصلاة وجدوا أصحاب رسول الله وهم
نزول على باب البيعة فصاحوا وتسامعوا الناس فأتى صاحب البلد وكان اسمه
اسلاعورس فلما رآهم قال من أنتم قال له الحكم نحن اصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم

وسلم قال ومن أين جئتم قالوا من عسكرنا قال ومتى جئتم قالوا بعد ما صلينا الظهر قال ومن فتح لكم مدينتنا قال له الحكم فتح لنا من بيده مقاليد الامور قال أو ما تفزعون منا فقال الحكم وكيف نفزع من مخلوق لا يضر ولا ينفع وهو تحت أحكام القهر وقد قال ربنا في كتابه فلا تخافوهم وخافوني ان كنتم مؤمنين فقال اسلاعورس ان دينكم دين محدث وديننا دين قديم والقديم أفضل من المحدث فقال له الحكم اذا كان ما قلته حقا فقد فضل ابليس على آدم لانه اقدم منه أما علمت أن طينة آدم مشكاة وقد قال الله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه اشرق نور قلبه في وقت تجليه واستعل بالاتعافيه فنظر اليه ابليس وظن قميص عبوديته أبيض بالتوحيد واذا هو اسود بالشرك فبان نعته القديم عن نعت وقته بقوله وكان من الكافرين كان سائرا في أرض الشرك تحت ظل الجهل بالعواقب فما زال يقطع منازل العبادات بالعبادات وهو في عماية عن ابصار جمال المشاهدات فلما ظهرت أنوار مصباح الالهية من مشكاة الابدية استنار وجه صورة حاله فاذا هو قد فهم من جواده وان عليك لعنتي واعل آدم لما طار من وكر بشريته باجنحة همته في جو الطلب تعالى عن حطيطة انسانيته حتى دنى من نيران المحن فافترقت أنوار القسم باجنحة اصطفائه وحصن قوادم ارتقائه فوقع في حبال وعصى آدم ربه فلما تاه في اودية محبته هطلت عليه سحائب محنته ورمى بعصا بها بصواعق اهبطا فلما خرج الى بيداء كرباته اشتملته مواكب الآية وبشرته باجتبائه ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال وان اسلاعورس أمرهم أن يدخلوا البيعة فقال الحكم بن هشام وما الذي نصنع في بيعتكم قال تذكرون فيها ربكم قال ما كنا ندعى الى ذكر ربنا فنتأخر عنه قال فربطوا خيلهم ودخلوا وانما اراد اسلاعورس بذلك الا انه قد زخرفها وصور فيها بيت المقدس والصخرة وقبة السلسلة ومحراب داود ومهد عيسى وصورته وامه مريم فلما توسطوها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الحكم ابن هشام واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ورفع بها صوته فقال لا والله وانما أقول لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله قال فوالله لقد ماجت بيعة القوم وتزلزلت وصفقت القناديل بعضها ببعض قال وكان للبيعة شيخ عالم بالاديان والشرائع وكان اسمه عبد المسيح فلما نظر ما حل بالبيعة والقناديل صلب على وجهه وكذلك كل من كان فيها وقالوا للملك هم انت ما أردت الا هلاكنا اذ أدخلت هؤلاء العرب الينا اما ترى كيف غضب المسيح علينا فقال البطريق لا وحق المسيح ما هو الا توحيدهم الله وذكر نبيهم ظهر لكم من معجزة نبيهم ما رأيتموه يا ويلكم اذا كان قد فتح لهم باب في السور ودخلوا منه علينا فكيف لا تهتز

البيعة وتصفق القناديل لما دخلوها وانا كنت فى شك مما ذكرت والآن فيما طرىء لى كان على دينهم قال الواقدى رحمه الله تعالى وكان هذا الخادم بترك بيت المقدس وكان فى المقدس يوم فتحت على يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسمع من البترك فى القدس وهو يقول هذا الذى يفتح الارض فى طولها والعرض ومحمد هو الذى بشر به المسيح بن مريم ولقد سأله رجل لما رأى المسلمين يعظمون الصخرة ويقبلون القدم الذى فيها فقال البترك نرى المسلمين يقبلون قدم المسيح فقال له يا بنى نحن نقول انه قدم المسيح وانما هو قدم نبيهم محمد بن عبد الله لما عرج به الى السماء قالوا أوعرج به فقال نعم أسرى به من مكة الى بيت المقدس وصلى بالنبيين واسرى به قال الواقدى رحمه الله وذلك لما استبشرت به النفوس وبلغ خبر رسالته وانه زيد كماله واشرقت أنوار جماله وأراد الحق ان يشرفه على أهل الكونين باقترابه من قاب قوسين فنودى فى عالم الملكوت تاهبوا ثم تادبوا فهذه ليلة الدنو والاقتراب هذه ليلة عتق الرقاب هذه ليلة الحبور وهذه ليلة السرور وهذه ليلة الابتهاج هذه ليلة المعراج انصبوا سلم الارسال وافرشوا فرش الاطلال وقوموا على اقدام الاسترسال ياجبريل زخرف الجنان وزين الحور والولدان ياجبريل أنزل بالتهان الى بيت أم هان ايقظ حبيب مملكتنا واركبه على براق قدرتنا البريه من آياتنا فأخذ جبريل مطية خلقها عجيب ونعتها غريب فالجمها بلجام القرب واسرجها بموكب الحب وسار بها فى ميدان وهو ينادى سبحان الذى اسرى فلما وقف ببابه ورفع حجابه ونظر واذا هو متدثر بعبادة تذلله متوسد بوسادة عمله قد احله الشوق واذا به التوق فنشر عليه أنوار السعد وبشره بثمار الوعد وقال له يا أيها المدثر قم على قدم همتك وقوم بوارد عزيمتك واركب الى السماء فى واصعد معراج الدنو والارتقاء فقام السيد وانشمر وجسمه من الحياء قد رشح وقد باح باستيلامه وركب مركب تحيته وسلامه ورفعه على رأس سحابة الاحترام واسرى به من البيت الحرام ذكره جليسه وفكره انيسه وشوقه دليله وجبريل خليله فلما ولج دائرة القدس وحصل فى فناء المسجد الاقصى دخل فجليت عليه أرواح الانبياء فى حال الانوار والبهاء فبادروا الى سلامه وتحيته واكرامه وجليت بين يديه واثنوا بالصلاة عليه وأراد كل منهم ان يصف منزلته ويذكر فضيلته فقال آدم الحمد لله الذى خلقنى بيده ونفخ فى من روحه واسجد لى ملائكته واسكننى دار كرامته وقال ادريس الحمد لله الذى رفعنى مكانا عليا وبوأنى مجلسا سنيا وقال نوح الحمد لله الذى نجانى من القوم الظالمين وجعلنى أبا للمؤمنين وقال ابراهيم الحمد لله الذى اتخذنى خليلا وجعل النار بردا على وسلاما واصلح لى زوجى بعدما كان عقيما وقال موسى الحمد لله الذى أعطانى تسع آيات بينات وكتب لى

فى الالواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء واهلك عدوى فرعون ونجاه منى وفلق لى البحر وكلمنى تكليما وقال لى انى أنا الله وقال سليمان بن داود الحمد لله الذى سخر لى الانس والجن والطير والريح وعلمنى منطق الطير وآتانى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى وقال عيسى الحمد لله الذى لم يخلقنى من نطفة قدرة واحيا لى الموتى وابرء لى الاكمه والابرص فلما افتخروا بجميع كراماتهم قال النبى صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذى خلقنى من أنوار البهاء ورفع قدرى فى الارض والسماء وكتب اسمى على ساق عرشه وقرن اسمى باسمه ونزه ذكرى فى معالم قدسه وشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ورفع قدرى وغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ولاد فى على من كفر وبعثنى بالرعب وارسلنى بالحنيفية ونصر وجعل أمتى خير الامم وفرض طاعتى على العرب والعجم وجعل لى الارض مسجدا وترابها طهورا وشفعنى يوم القيامة فى أمتى ونسخ سائر الشرائع بشريعتى وادخل سائر الامم فى شفاعتى وجعل الكعبة قبلتى واسمعنى صلاة أمتى من بعدى لاشهد لهم يوم القيامة وجعلنى شاهدا وامتى شهودا على من جحد وظلم وكتب اسمى على الافلاك وقال جل وعلا انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا قال الواقدى رحمه الله فلما سمع البطريق ميا فارقين هذا الكلام من الحكم بن هشام قال والله ما فى دينكم مرى وأنتم على الحق ولقد كنت أسلمت على يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ببيت المقدس ثم جئت الى هذه المدينة وكان عليها اوال فمات ووليت الامر من بعده فرجعت الى دينى الاول فان أنا تبت اليه و رجعت الى دينكم يقبلنى على ما ارتكبت من المعاصى فقال له الحكم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوما لاصحابه بأى شىء يكون ابن آدم أشد فرحا فقالوا بالاهل فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكت الناس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون ابن آدم أشد فرحا منه اذا كان فى مفازة ومعه راحلته عليها زاده وماؤه ومنافعه فاذا كان فى بعض المفازة فاشتد عليه الحر فاوى الى ظل فنزل عن راحلته وتوسد ذراعه فنام ثم انتبه وقد ذهبت راحلته وعليها طعامه وشرابه وغذاؤه ومنافعه فانطلق فى طلبها يمينا وشمالا فلم يجدها فرجع الى موضعه ليموت فيه وقد ايقن بالهلاك فنام ثم انتبه فوجد راحلته كما هى فأخذ بخطامها ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من ذلك الرجل بتلك الراحلة قال فلما سمع اسلاعورس كلام الحكم بن هشام دمعت عيناه وأخذهم الى دار ولايته وقال والله لقد بان الحق وظهر الصدق فأسلم وحسن أسلامه وطلب جماعته فاسلموا باجمعهم ثم انه طلب اكابر البلد واخبرهم باسلامه وقال لهم انى أريد منكم ما أريده لنفسى وان دين هؤلاء يعلو ولا يعلى عليه فمن أسلم منكم أمن

فى الدنيا والآخرة وهم قد نزلوا على امد ولا بد لهم من ديار بكر جميعا فى حالهم وعدى نهبوا البلد واستعبدوا أهله وولده فان أسلمتم لهؤلاء القوم أمنتم على أنفسكم وبلادكم فقالوا أيها الصاحب امهلنا ثلاثة أيام حتى ترى ما فيه من الصلاح فتركهم وانصرفوا من عنده فلما كان الليل اجتمعوا وتحالفوا ان لا يسلموا للعرب أبدا ولو هلكوا عن آخرهم وأصروا على القتال فبعد ثلاثة أيام طلبهم ولم يأته الا قليل وانت اليه العين الصافية أخبرته بما عزم عليه أهل البلد لبسوا سلاحهم واتوا اليه يقاتلونه فخرج اليهم بجماعته ومعه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا قتالا شديدا فلما جن الليل قال لهم أرسلوا الى أميركم ينجدنا فارسل واخذ منهم مما بعد عن البلد حتى سمع قرع حوافر الخيل فلما دنت منهم فاذا هم من عسكر الموحدين واذا هم خمسمائة فارس وعليهم ضبة بن عدى وكان السبب فى ذلك ان عياض بن غنم رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام واخبره بقصة ميافارقين وما جرى له مع أهل بلده وامره ان يرسل اليهم جيشا فاستيقظ من نومه وأرسل اليهم ضبة بن عدى ومعه خمسمائة فارس واذن الله للأرض ان تطوى لهم فوصلوا اليهم فى تلك الليلة فأتى بهم الى باب السر وكانوا قد وكانوا به من يحفظه فنادى بهم ففتحوا لهم فادخلهم فقالوا لهم من اعلمكم بقدومنا فقال صاحب البلد اعلمنى بكم النبى صلى الله عليه وسلم رأيته وقد نمت من ضيق صدرى بقتال هؤلاء القوم أهل البلد فنمت فرأيت شخصه الشريف فبشرنى بقدومكم فلما حصلوا بأجمعهم خرجوا لقتال أهل البلد فصاح بهم المسلمون يا أعداء الله قد حل بكم البوار واحاطت بكم الاقدار من أصحاب محمد المختار ووضعوا فيهم السيف ونزلوا الى منازلهم ودورهم ليلة صنعوا بها وقد علموا انه قد نزل بهم ما لا طاقة لهم به فنادوا الموت فقال لهم من أتى اليهم وآمن فحرجوا فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنا كم على جميع ما لكم الا السلاح قال فأتوا بجميع ما عندهم من السلاح وسلموه للصحابة فلما رأوا منهم صدق القول أسلموا الا قليلا منهم وعملوا البيعة الكبيرة جامعا وأقاموا ثلاثة أيام وتركوا عندهم الحكم بن هشام ومعه عشرة من أصحابه ليعلمونهم شرائع الدين وأتى ضبة ومن معه الى عياض وأخبره بما جرى ففرح بذلك قال وان أهل امد لم يفتحوا بابا ولا باشروا قتالا وضاق صدر عياض ومن معه من ذلك قال الواقدى رحمه الله وبقوا خمسة أشهر وكان خالد بن الوليد كاذ كرنا على باب الماء وكان فى كل يوم يركب بجيش الزحف ويدور حول المدينة فاذا أتى الليل نزل فى منزله وكان غلامه همام يخبز له فى كل ليلة أقراص شعير ويتركها له فى قبته فاذا صلى المغرب أكل تلك الأقراص الشعير عند الافطار وانه استمر ثلاثة ليال لم يجد شيأ يفطر عليه فقال لغلامه همام

أنت ياولدى ماعندك ماتفطرني عليه ولك بهذه الليلة ثلاث ليال لم تصنع لى شيأ فقال والله يامولاى انني فى كل ليلة اصنعهم واضعهم لك ولم يكن عندى منها علم وماظننت الا انك تأكلها فلما كان فى الليلة الرابعة وصنع همام الاقراص على عادته واخفى نفسه وجلس لينظر من يأخذها فاذا هو بكلب قد أقبل من نحو المدينة ودخل القبة وأخذ الزاد وخرج فتبعه همام فاذا به قد دخل من مشرب الماء فى جانب السور فتركه همام وعاد فلما أتى خالد من صلاته أقبل وطلب الفطور فقال له همام يامولاى كان من الامر ما هو كذا وكذا قال خالد ياهمام أرنى الموضع فمضى همام امام خالد وأراه الموضع الذى دخل منه الكلب فلما رآه قال الله أكبر فتح الله ونصر وعاد وطلب أصحابه واعلمهم بالقصة وقال لهم قد عولت ان ادخل المدينة من مشرب الماء وأريد منكم مائة رجل يهبون نفوسهم لله تعالى وتعلمون ان الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار غناء لمن أخذ منها ودار رجاء لمن تزود منها ودار نجاة لمن فهم عنها الدنيا مهبط وحى الله ومصلى ملائكته ومسجد أحبابه وأوليائه اتخذوها مزرعة فرحمنا الله واياكم وكان لنا ولكم فمن أراد الزاد من هذه الدنيا الفانية الى يوم حشره فليبادر الى التجارة الرابحة ولا يغره طول الاجل ليطمئن الى التقصير فى العمل الاوانى قد وهبت نفسى لله وقد اشترى ثم قرأ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة فمن باع فليبادر ولا يجزع مما يحاذر فالموعد بيننا فى عرصات القيامة وموقف الحسرة والندامة فاتبعوا اسلافكم الطاهرة والدين الباهر فعولوا على بركة الله وعونه واختار من أصحابه مائة وامرهم بلبس السلاح وركب الى عياض واعلمه بما عزم عليه من دخوله المدينة من المشرب وقال له كن على أهبة اذا سمعت التكبير والتهليل فقال علمت ذلك وأنا على اهبة بحمد الله امض اعانك الله ونصرك سر على بركة الله وعونه قال فودعه خالد ورجع الى أصحابه فوجدهم قد استعدوا فسار امامهم وهم رجالة الى ان أتى الى باب المشرب وكان نصف الليل وأمر الله سلطان النوم فاستولى على من كان على السور والحرس لانه شأنه اذا أراد أمرا بلغه وهيأ أسبابه قال فاول من دخل من المشرب خالد رضى الله عنه وتبعه عامر بن الاخوص وحذيفة بن ثابت وعمران بن بشر وتمام المائة رضى الله عنهم ومامنهم الامن تسرب ودخل ومن كان جسيما لا يقدر على الدخول رجع وهو متأسف على الشهادة فحصل فى المدينة ثمانون رجلا ولم يصحبهم الامن دخل من المشرب ثم ان واحدا من الذين تأخروا عالج فى حجر فقلعه فاتسع المكان ودخلوا باجمعهم وادركوا أصحابهم وقد توسطوا المدينة وارتجت بها الاصوات واستيقظ الراقد وارتعد القاعد وقصد خالد مطالع السور ومنع الناس من النزول وأخذتهم الاحجار وأرسل خالد عشرة

من أصحابه الى الباب بكسيروا الاقفال وفتحوا الباب وكان عياض قد ركب وايقظ الناس وقد تهيأ للحرب فلما كبر خالد ومن معه بادر عياض ومن معه الى الباب فوجده مفتوحا فدخلوا وأقبل أهل المدينة يهربون الى السور والليل قد غسق والظلام اتسق والقتام قد اطبق فما بقي الواحد يقوم من مرقده الا والسيف قد برى راسه عن جسده ومنهم من خرج من عند أولاده والسيف قد قطع فؤاده وخالد ومن معه يكبرون وقد تقطعت باهل آمد الاسباب وأحاط بهم العذاب قال ولم تزل الابطال تبطح وتطرح وصدور المسلمين تشرح والصدور الكفرة تذبح والعواتق تقطع والشجعان للرؤس تقرع والصوارم ترقع والانوف تجدع وقلب الذليل يفرع والجبان يجزع والعيون تدمع والمسامع لا يسمع ولا شافع يشفع ولا مانع يمنع ولا دافع يدفع ولا واثب يخشع حتى اداولى الليل وانترع والصباح عول على ان يطلع وخالد يصيح صياح الصيدع حتى اطوى الليل بمطارف الدياجي عند انتشار رايات الضيا فنظر أهل البلد الى ما حل بهم ونزل عليهم فاقبلوا الى دار الامارة يطلبون الملكة مريم فلم يجدوها قال وكان السبب في ذلك انها سمعت باب الصحابة قد حصلوا في المدينة فعلمت انها لا تخرج من أيديهم فاخفت نفسها ومن معها ونزلت في سرب في دار الامارة وأخذت ما تقدر على حمله وخرجت من ذيل الجبل وطلبت بلاد الروم قال الواقدي رحمه الله فلما علموا أهل المدينة ان ملكتهم هربت نادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السيف وجمعهم اليه فاجتمعوا في ميدان المدينة فقال لهم عياض أما بعد فان الله تعالى قد نصرنا عليكم وصبرنا وظفرنا بكم ولولا ان الله جعل نبينا نبي الرحمة واسكنها في قلوب المؤمنين لابدناكم بالسيف عن آخركم ولكن قد أمرنا ربنا في كتابه بكظم الغيظ والعفو فقال الله تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ثم نظر فيهم فمن أسلم قبله ومن لم يسلم ضرب الجزية عليه من عامه قال الواقدي رحمه الله وكان شاهد الجمع في فتح امد زيد بن حالوك اليهودي وكان عالما في دين اليهودية والنصرانية وكان يزعم انه من أولاد داود عليه السلام وكان بنوا اسرائيل يعظمون شأنه ويأتونه بالهدايا والتحف وانه لما دخل عياض بن غنم رضي الله عنه الى امد وجمع أهلها في الميدان وتكلم الشيخ بما تكلم وانه قام وهو من وسط قومه وكان اسمه مليا في حنيفا وعرف المسلمين بكتابه وانه مقدم على بني اسرائيل وانه من ذرية داود وقال أنتم أصحاب نبي الرحمة وان الله خالق الرحمة واسكنها في قلوبكم وان الله فضلكم على سائر الامم وقد أنزل في صحف ابراهيم وموسى يقول اني ابعث في آخر الزمان نبيا أميا واجعل أمته أفضل الامم واسكن الرحمة في قلوبهم وبهم أباهي ملائكتي وابعثهم غرا محجلين من آثار الوضوء وان داود عليه السلام

لما أصاب الذئب ونفرعنه الوحش خرج الى فلاة من الارض وقال الهي بحق النبي العربي الذي تبعثه في آخر الزمان الاغفرت لي فأجاب دعوته فقال عياض ان الله يحب العفو وقد عفونا عنكم فقالوا أهل المدينة فاذا عفوتم عنا نرجع الى دينكم فأسلم أكثرهم وضربت الجزية على من لم يسلم في العام المقبل على كل بالغ أربع مثاقيل ذهب وأخذوا سلاحهم وخلوا لهم شطر أموالهم فجملها وبنى البيعة المعروفة جامعا وأقام بها اثني عشر يوما وولى عليه صعصعة العبدي ومعه خمسمائة من بني عمه من العرب

(ذكر فتوح اليمانية وجبل الجودي)

قال وارتحل عياض الى الحصون وهي حصون الجبابرة وانفذ الى أهلها فاسلموا وأرسل النعمان بن معرف الى أهل انكل فاسلموا وسميت باليمانية لانها فتحت على يد حذيفة بن اليمان ومضى عياض الى جانبيه ففتحها صلحا ونزل الى أهل جبل الجودي والسيوان ردوا القرض فأخذوا من المسلمين صلحا وعهدا على تقرير بينهم وارتحل المسلمون حتى نزلوا على الهتاج فابوا أهله ان يسلموا وعولوا على القتال ونصبوا الرعادات والمجانيق فنظر عياض الى ذلك فعظم عليه وقال هذا حصن مانع ومتى تركناه ومضينا عنه غاروا على أهل هذه البلاد واذاقوهم الشر وقد لزمنا من أسلم ومن صالحنا ملازمتنا ولا نحيد عنه حتى نفتحه ان شاء الله تعالى فقال خالد انزلوا بنا عليه ولعل ان يأتي من عرضيات الامور مالم يكن في حساب قال الواقدي رحمه الله وكان صاحب الهتاج شيطانا مريدا وجبارا عنيدا وكان اسمه يانس بن كليوس وكان قد تزوج ببيرونة ابنة بريونة ابنة بريول بن كالوص صاحب قلب والحصن الحديد وكانت قد زفت عليه وأقامت عنده سنة ثم انها مضت الى زيارة أبيها وأمها وأقامت عندهما شهرا فلما خرجت من عندهما ومضت الى الهتاج عند زوجها فهي في نصف الطريق اذ بلغها ان المسلمين قد نزلوا على الهتاج فجلست في مكانها ولم تبرح وكان عدو الله يحبها ولا يجد عنها صبرا فلما رأى المسلمين وقد نزلوا عليه علم انه لا يقدر ان يجتمع بالجارية فاتفق رأيه ان يصالح المسلمين حيلة منه ومكرا وخديعة حتى تحصل زوجته عنده ويغدر ولا يعطي أحدا طاعة فارسل الى عياض يقول له انك لو أقمت علينا بقية عمرك لما قدرت علينا ولكن تصالحونا سنة كاملة شمسية فان أنت فتحت ما بقي من ديار بكر فنحن نرجع الى طاعتك وان لم تقدر على فتح البلاد فلا طاعة لك علينا والسلام وأرسل الى عياض رجلا من متنصرة العرب من ربيعة الفرس وكان ذلك الرجل مدبر بلاد الهتاج هو وبنو اعمه وكان اسمه مرهف بن واقد وكان ميله الى العرب أكثر من الروم فلما ادى الرسالة الى عياض أجابه الى الصلح لئلا يطول مقامهم فلما هم مرهف بالرجوع قال لعياض اما والله أيها الامير

ما كنت بالذى ادع النصيحة للعرب واستعملها للعلوج وهذا العلج قد اتفق رأيه على كذا وكذا فان كنت ترحل وتكمن لزوجته وتأخذها ومن معها وتطلب منه فانه يسلم اليك لوقته فافعل فقال عياض ما كنا نقول قولا ولا نفى به ولعل الله ينظر الى صدق نياتنا فيغنمه علينا حدثنى مالك بن بشر بن عامر وكان ممن حضر فتوح الشام وديار بكر وديار ربيعة قال بينما مرهف يحدث عياضا واذا بغبرة قد أقبلت فقال عياض لميسرة بن مسروق اركب وانظر ما هذه الغبرة فركب ومضى هو وجماعة من الصحابة وعاد ميسرة وهو يقول ابشر أيها الامير بالفتح قال وما الخبر يا ابن مسروق قال هذا جيش ابن هبيرة المازنى قد أغار على البلاد وأتى بالاموال والرجال قال فظهر البشر فى وجه عياض وجعل يتطاول الى قدوم ابن هبيرة المازنى حتى وصل وسلم على عياض وعلى المسلمين واعرض عليه الغنائم ومرهف بن راقد ينظر أمامه الى ان عرضت عليه جارية رومية تخجل الشمس منها وعليها زى الملوك فأطرق المسلمون الى الارض يستعملون الادب مع الله فى قوله قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فلما نظر اليها مرهف قال أشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمدا رسول الله وان دينكم الحق وقولكم الصدق فقال له ما بالك أيها الرجل قال هذه زوجة يانس صاحب المتاج وقد نشرها الله فى أيديكم فسجد عياض شكرا لله فلما رفع رأسه قال ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب (قال الواقدى) رحمه الله وكانت ميرونة قد خرجت من عند أهلها ومعها جماعة من بنات البطارقة فجاء طريق قيس بن هبيرة على تلك الارض فأخذها ومن معها وأتى بها الى عياض فقال عياض لمرهف ارجع الى يانس واكتم اسلامك واخبره بما رأيت واستعمل النصح للمسلمين وقل له ان أراد اهله فيسلم لنا هذه القلعة وهذا ما اردنا منه قال فرجع مرهف الى يانس وحدثه بما جرى فعظم ذلك عليه وكبر لديه وقال لمرهف ما الذى ترى من الرأى قال اعلم ان هؤلاء القوم ما قالوا قولا الا وفوا به وبذلك نصروا علينا ومن الرأى ان تسلم لهم القلعة ويعطوك زوجتك وجميع مالك وأنا الضامن لك عنهم ذلك فقال يانس أنزل اليهم وائتنى بعشرة رجال يحلفون لى على ما أريد فان أجابونى على ذلك سلمت اليهم القلعة ولا تأتنى الا بمن يقبل قوله ويشكر فعله حتى استوثق منهم لنفسى ولعل يكون الرجل الذى شاع ذكره بالشجاعة وفتح البلاد والشام يعنى خالد بن الوليد وانما أراد الملعون ذلك حتى يقبض عليهم ويخلص بهم زوجته قال فنزل الى عياض واخبره بذلك وبما قاله يانس فقال عياض يا مرهف يريد الملعون ان يخدعنا ونحن ثمرة الخداع ونرجو من الله ان يرجع مكره عليه ولديه ثم قرأ ان الله لا يصلح عمل المفسدين قال خالد دعنا أيها الامير نصعد اليه والله الموفق للصواب فقال عياض اعزموا على بركة

الله

الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فنهض خالد والمقداد وعمار وسعيد بن زيد
وعمرو بن معدي كرب والمسيب بن نجيبة وقيس بن هبيرة وميسرة وضرار بن الازور
وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين وساروا ومرهف امامهم الى
ان وصلوا باب القلعة وكان قد رتب عدو الله غلمانه في دركات القلعة وامرهم ان يأخذوا
منهم سلاحهم ففعلوا ذلك الا خالد وعبد الرحمن وضرار فقالوا ما كنا نسلم عدتنا لغيرنا
فان أراد ان ندخل عليه بسلاحنا والا رجعنا من حيث أتينا فدخل مرهف عليه وقال
ان هؤلاء الثلاثة امتنعوا من اعطاء السلاح وما الذي يقدرون على ان يفعلوه دعهم
يدخلوا كيف شاؤا ولو كانوا نارا ما احرقوا ولا ترهم الجزع فيطمعوا فقال وحق المسيح
لقد صدقت دعهم كلهم يدخلوا بعددهم حتى يسلموا اننا لانخافهم ولا نرهب وأيضا الثلاثة
تنفر قلوبهم منا فرجع مرهف وأمر الغلمان ان يردوا اليهم أسلحتهم ودخلوا فلما توسطوا
القلعة واذا ببانس واقف فلما وقعت عينه عليهم دخل الرعب في قلبه لان من خاف الله
أخاف منه كل شيء فجعل يهتز ويقع وكان قد وصى جماعته بانه اذا رأيتموني قد قربت
منهم وصافحتهم فدونكم واياهم فنظر خالد اليهم فعلم ما في قلوبهم فقال له أيها البطريق
قف مكانك فانا قوم لا نؤتى بحيلة ولا مكر لا نناقهر نا الملوك وأخذنا بلادهم بهذه الاشياء
ثم انه امتشق سيفه وزعق ببانس ادهشه وخيل له ان كل من في القلعة منهم وتقدم
اليه وضربه على حبل عاتقه اطلع السيف من علائقه فهجمت الصحابة على أهل القلعة
ووضعوا السيف فيهم وتكاثر عليهم العدد وتزايد المدد قال وكان في داخل المدينة خلق
من الرستاق من قرى المتاج من فسطاس وفرساط وكان بانس قد جمعهم لقتال المسلمين
قال فلما قتل خالد بانس ونظروا الى صبر الصحابة على قتال أهل القلعة قالوا لبعضهم أنتم
تعلمون ان العرب ما يسكتون عن أصحابهم وقد فتحوا آمد والبلاد فلا يمتنع منهم المتاج
وغيرها فيتخذ السكم عند المسلمين يدا وقاتلوا معهم أهل القلعة قال ففعلوا ذلك وجردوا
سيوفهم وضربوا معهم من كان في القلعة وسمع عياض الصياح فقال اما والله ان خالدا
ومن معه غدر بهم فبادروا اليهم أيها المجاهدون قال فبادر أبو الهول وأصحابه الاربعمائة
وهم رجالة فتسلقوا في الجبل وقصدوا القلعة فمن انهزم منهم وضعوا فيهم السيوف فما نجى
منهم أحد وما وصل أبو الهول الى القلعة الا وقد ملكها خالد واحتوى عليها وصعد عياض
والمسلمون وأخذوا كل ما كان فيها وولى عليها ولاة مسلما وجعل عنده مائة رجل
وكتب الى أهل فسطاس وفرساط ومن في القلعة ان لا يزنوا بامرأة أبدا واشهد عليهم خالد
والمقداد وعمار ومعاذ وشرحبيل وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وضرار واطلق عياض
الاسارى الذين اتى بهم قيس بن هبيرة وارتحل يطلب ميافارقين فالتقاه في طريقه أهل

تلك الجبال وأهل الجزيرة وقلب ومنان وحزب الكلاب فاعطاهم الامان وضرب عليهم الجزية وردهم الى بلادهم واتى اليه أهل ميافارقين لقائه وشكروهم على حسن سيرتهم وعدلهم وأخرجوا لهم الضيافات والعلوفات ونزل من جهة الميدان فى لحف الجبل وأقام بها عشرة أيام ثم جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشارهم وقال انى عولت على المسير الى ديار أرمينية والى اردن الروم فاشيروا الى يرحمكم الله أى طريق نسلك فقال رجل من المعاهدين ممن هو أعرف الناس بتلك البلاد أيها الامير أتأذن لى ان أتكلم فقال من كان له رأى فليتكلم فقال اعلم انك اذا قصدت بلاد ارمينية فيطول مكثك فيها واعلم ان بالقرب منك حصن منيع يقال له حصن لغوب وغلب عليه اسم صاحبه وهو بطالقون بن كنعان بن عيدبوس وله جيش عرمرم يزيد على ثلاثة آلاف فارس

(ذكر فتح حصن لغوب)

ثم قال اعلم أيها الامير ان تحت يده معاقل كثيرة وربما انه رحل بركابه من هنا فولع بهذه البلاد وشن الغارات على أهلها ومن الرأى انك لو وجهت اليه جيشا لعل الله ان يفتح عليك فان أنت فتحت هذا الحصن مضيت حيث تريد وتكون طيب القلب على من تستخلفه من أصحابك فقال عياض لاصحابه ما تقولون فيما تكلم به هذا الرجل فقال خالد لقد تكلم بالحق ونطق بالصدق فاعزم وتوكل على الله ثم انصرفوا من عنده وبات ليلته مفكرا فيمن يبعثه الى الحصن فوقع اختياره على يوقنا فدعاه اليه وقال له يا يوقنا يا عبد الله قد اتفق الرأى عليك ان تمضى الى الحصن فما الذى تراه فقال يوقنا أصلح الله الأمير قد بلغنى ان الحصن مانع وربما اذا نزلنا عليه طال الأمر وتنفد المدة وينقضى هذا الوقت ولا ندرى ما يكون ولكن أهب نفسى لله ولرسوله وآخذ مائة من بنى عمى ونتزيا بزى الفلاحين ونأخذ نساءنا وأولادنا نتركهم على البقر وندخل فى جملة أهل البلاد الفلاحين فان حصلنا فى الحصن فنحن نملكه ان شاء الله تعالى فقال عياض يا عبد الله قد اشتهر أمرك عند جميع النصرانية ونخاف أن تسير فتستغرر بنفسك ومن معك فيقبض عليكم والله تعالى قال ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة قال فاذا أبيت فاذن لى ان أشن الغارة على بلاد القوم فقال قد أذنت لك فخرج يوقنا ومن معه وهم ألف من قومه وساروا على اردن وسردو وسعردو وباباسا وحيزان والمعدن (قال الواقدى) رحمه الله وكان من قضاء الله وقدره ان صاحب سعردو وحيزان والمعدن وباطلسا وعبردو وطراجر وسلواس وكان بينه وبين بطالقون حرب وكانوا يغزون بعضهم على بعض واخربوا المعاملتين فلما انتشرت الاخبار بقدوم أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم وانهم على مبارزتين فجفل أهل تلك البلاد وعلم بذلك حرسلوا
صاحب سعرد وانه لا طاقة له بالعرب فاخذ هدية سنية وذهب بنفسه لبطالقون بن
كنعان حتى يصطلح معه ويكونوا يدا واحدة على قتال المسلمين فبينما هو سائر والهدية
معه وقد نزل على قرية اسمها ارغير وعلق على خيله وهو معول على المسير فهو ينتظر
الخيل تقطع عليقها واذا قد كبسهم يوقنا وقد أحاط بالقرية واخذ كل من فيها واسر
البطريق ومن معه وبات ليلته فلما اصبح اعرض الاسرى وقال لهم ان الله قد ظفرنا بكم
ونصرنا عليكم واعلم اني ملك من ملوك الروم ملكت البلاد وقدت الجيوش وأمرت
ونهيت وعبدت الصليب وقربت القربات فلما أتى الله بهؤلاء القوم اختبرتهم ونظرت
ماهم عليه فعلمت ان الحق معهم فتبعتهم وقلت بقولهم وقد كنا بالشام تفزع منا
ملوك العجم وكسرى بن هرمز والديلم والترك وكان لنا الكرة الارض وكنا لا نلتفت
الى العرب حتى خرجوا علينا فاذاقونا مرا وذهبت شجاعتنا وملكوا معاقلنا وحصوننا
واحتووا على ملكنا ونصرهم رب الارض والسماء علينا لانهم يشيرون اليه بالوحدانية
فان آمنتم بالله وحده كان لكم الربح في الدنيا والآخرة واطلق سراحكم وان أبيتم
قتلتكم عن آخركم فقالوا اتركنا يومنا هذا الى الليل ندبر امرنا فتركهم وخلى بحرسلوا
البطريق وحدثه في السر وقال له اعمل في خلاص نفسك ورقبتك من النار واسلم
ونادى نفسك حتى تنال ماقد بلغني من الوقايع بينك وبين صاحب الحصن فقال
البطريق لقد صدقت فمن اعلمك فقال له ما السبب في العداوة بينك وبينه فقال انه
طلب ان يتزوج ابنتي وبعث الى هدية فرددتها عليه فصار عدوي وغار على بلادي
وغرت على بلاده والآن قدمت اليه بهدية حتى اكون انا واياه يدا واحدا فاتيت أنت
الى واخذتني فقال يوقنا اني أريد لك من الخير ما أريده لنفسي ولست اجبرك على ان
تترك دينك ولكن تعاهدني على ان لا تغدر وانا اخلي سبيلك وتمضي الى صاحب الحصن
وتدني نفسك بين يديه وتقول أيها الصاحب قد ندمت على ما كان مني اذ رددتك عن
تزويج ابنتي واني كنت أخذتها وزينتها وسقت معها أموالها على اني اهديها لك فلما
كنت في قرية كذا وكذا خرج على قوم من العرب فاخذوا المال والرجال وقد نجوت
اليك بنفسي لتأخذ بيدي وتستنقذ ابنتي من العرب فانه اذا سمع دعاء الطمع واستجره
الامل حتى يخرج الينا ولعل الله تعالى ان يظفرنا فاذا ملكنا الحصن ان شاء الله كنت
انت تبقى على بلادك وكنت آمنا مطمئنا واعلم ان زمامي هو زمام العرب ومهما فعلته
امتثلوه وامضوه فلما سمع البطريق كلام يوقنا رحمه الله قال افعل ذلك ولكني أخاف
من المسيح ان يغضب على اذا خامرت على أهل ديني فقال يوقنا انا احمل هذه الاوزار

عليك ودع عيسى بن مريم به البنو يوم القيامة فقال البطريق ان كان هذا الذي قلته
فانا افعل ولدي يصعب علي ولكني أخاف ان فعلت ذلك الذي أمرتني به أن لا يرحل من
الحصن وربما يبعث معي بعض أصحابه ولا يحصل طائل من عدوكم فقال يوقنا وما يكون
التدبير فقال البطريق الرأي عندي غير هذا قال وما هو قال تبعث من أصحابك جريدة
بالخيل وانا اكون معك فاصبح الارنحن على الحصن فاذا أشرفنا عليه تعطيني
جوادي وسلاحي واركض على فرسي في حال العجلة فاني أجده في الميدان مع أرباب
دولته فاذا وقعت عيني عليه ترجلت وحثيت التراب على رأسي واصيح ايها الملك
العرب قد اخذوا أصحابي وغلماني وماجاءني برسلك فاذا قال واين هم اقول على
قرب من بلدك فانه اذا اسمع قولي لا يمكنه التأخير عن نصرتي ولا له الا السرعة اليكم
واعلم ان اكثر جنده قد فرقهم على الحصون وما عنده الا الف فارس او اقل قال فلما
سمع يوقنا ذلك من قوله وثق به وبعث الاسرى الى عياض فلما وصلوا اليه قال لهم ان
اطلقكم تعرفون لماذا قالوا نعم وكيف لا نعرفه اطلقهم حتى تسمع أهل البلاد فينزلون
الى طاعته وأما يوقنا رحمه الله فانه سار جريدة بقية ليلته فما برق ضياء الفجر الا وقد
اشرفوا على الحصن فعندها اطلق البطريق ووثق منه بالعهود واعطاه جواده
وسلاحه وسار كانه قد فلت نفسه وساق على شوط واحد الى الحصن والقضاء المقدر
انه قد وجد البطريق قد عبر الى جانب سمرد ومعه ألف فارس والف راجل وكان
السبب في ذلك ان قوما من أصحاب البطريق حرسلوا كانوا في كنيسة يوقنا فاتوه
وحدثوه بما تم عليهم من القوم فعبر لعله يستخلصهم من يد يوقنا فلما وصل اليه البطريق
ترجل ووقع له وحدثه فرق له وقال كيف تخلصت قال خلصت يدي من الكتاف
وركبت هذا الفرس فلما احس واني ركبوا وراءي وها هم في اثري بالقرب من با ماعا قال
فلما سمع باطالقون بن كنعان أمر بالركوب وسار من وقته طالب يوقنا وقال هذا الذي
أردناه من أمر الجهاد قد قربه الله الينا فدونكم والقوم ولم يمهل بعضهم بعضا وطاعنوا
بالرماح وصبر يوقنا صبر الكرام ووقع الصائح من كل جانب ونشرت اجنحتها النوائب
واستعان أصحاب يوقنا برب المشارق والمغارب فبينما هم قد اشرفوا على المعاطب اذ
اشرفت عليهم غرر الخيل وهم يتساقطون فنظر اليهم يوقنا واذا هم أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة آلاف فارس يقدمهم خالد بن الوليد وكان السبب في
قدومهم ان عياضا خاف على يوقنا وبني عمه فارسل في أثرهم خالدا فوجدهم في القتال
فاطلق عنانه وقال يا أهل الايمان وحملة القرآن دونكم وعبدة الصلبان ارفعوا
اصواتكم بذكر ربكم قال ونظر يوقنا النصرة وقد أقبلت فعظم شأنه والتقى بصاحب

الحصن

الحصن فعرفه بزيه فتطاعنا طعنا كافيا وتضاربا ضربا شافيا الا ان يوقنا طعن صاحب الحصن فرماه الى الارض قتيلا وصنع خالد رضى الله عنه والصحابة رضى الله عنهم كما تصنع النار فى الحطب ولما قتل يوقنا صاحب الحصن قطع رأسه وجعله على سنانه ونادى عمن تقاتلون وقد قتلنا صاحبكم فلما رأوا الرأس ولوا الادبار ومات اكثرهم وولى الباقون نحو الجبل ووقع الصايح فى الحصون بان بطالقون قد قتل فولوا الادبار (قال الواقدى) رحمه الله تعالى ورضى عنه وكان لبطالقون زوجة عاقلة لبيبة صاحبة رأى وتدبير فلما رأت ماحل بزوجها وان أهل الحصن قد قتل اكثرهم وتفرقوا بالهزيمة ايقنت بزوال ملكها وخراب بيتها فجمعت المشايخ من أرباب دولتها وقالت لهم اعلموا ان الملك قد قتل وقد تفرق شمل من كان معه وقد وصلكم ماصنع هؤلاء العرب مع ملوك دين النصرانية وبنى ماء المعمودية وكيف ملكوا الشام وأرض ربيعة وديار بكر وديار مصر وقد دانت لهم الامور وانتشر شرعهم وعلا ذكرهم ودخل فى دينهم الملوك والبطارقة ومانزلوا على حصن الاملكوه ولا وافوا جيشا الاهزموه وقد دخلوا أرضكم وحلوا ساحتكم فما ترون من الرأى الرشيد فقالوا أيتها الملكة ماتكلمتى بشئ الافهمناه وعرفناه والامر اليك فقالت الصواب انكم تحقنوا دماءكم وتصونوا حريمكم واموالكم وتدخلوا فيما دخل فيه أهل البلاد وتصالحوا العرب فتأمنوا على أنفسكم وتعيشوا فى ظلهم فقالوا هذا هو الصواب قالت فينطلق منكم رجال الى هؤلاء العرب ويعتقبوا النامهم صلحا قال فخرجوا من عندها وسار منهم ثلاثون رجلا من خيارهم وعبروا الشط الى عسكر خالد فلما رآهم خالد والمسلمون علموا انهم من أهل الحصن فاستقبلوهم وسلموا عليهم ورحبوا بهم ومشوا معهم الى قبة خالد واذا هو جالس على التراب ووجوه أصحابه حوله وهم يكثرون من ذكر الله وليس لهم حاجب ولا بواب فسلموا عليهم فقرأ خالد واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أوردوها فتقدم كبراؤهم وعلماؤهم فى دينهم وقالوا ايكم الامير حتى نخاطبه فقالوا ليس فينا أمير ولا من يلحظ أخاه بعين الذل لان الاسلام شملنا والدين جمعنا ونحن عباد الله فلما سمع القوم ذلك قالوا باجمعهم والله مانصركم الله علينا الا باتباع نبيكم وقول الحق فى دينكم ونحن نريد منكم ان تحملونا على القول وتشركونا فيما دخل به أهل البلاد فقال خالد كم تبذلون لنا من المال فقالوا مهما أردتم امتثلناه فقالوا انا لانريد الا ماترضى به اهل الذمة الذين فى البلد حتى تطيب قلوبهم ومن لايرحم لا يرحم ولقد سمعت نبينا صلى الله عليه وسلم يقول لاتنزع الرحمة الا من قلب شقى قال فلما سمع القوم ذلك تهللت وجوههم فرحا وقالوا لقد نصركم الله بحق وما نرى دينكم الا حقا فاسلموا عن آخرهم وعادوا الى قومهم

واجتمعوا في كنيستهم وحدثوهم بما كان وبما رأوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن سيرتهم فقال أهل البلد ما كنا بالذي نرفع أنفسنا عنكم لأنكم أولوا الرأي والدين وقد رضينا بما رضيتم به لأنفسكم فأسلموا إلا قليلا منهم وأما الملكة فلما سمعت ذلك طاب قلبها وبعثت بالإقامة والعلوفة إلى خالد وأمرتهم أن يعبروا إلى جانبهم ونصبت لهم الجسر فعبر خالد ومن معه ونزلوا بالبيعة بحيث أن الملكة تشرف عليهم وتنظر إليهم فرأت قوما قد تركوا الدنيا وطلبوا الآخرة رضي الله عنهم وليس فيهم من يسهر ولا يسفه ولا يخالف أخاه قد اشتغلوا بالذكر ونسبوا بالصبر فلما نظرت إلى حسن عبادتهم نزلت إليهم وأسلمت على يديهم فقال خالد تقبل الله منك ورضي عنك فالرمي قلعتك ولا سبيل لأحد عليك ونظر برقنا إليها فقال وددت لو كانت هذه أهلي فأنفذ خالدا يشاورها فأجابت إلى ذلك وبعث خالد إلى عياض يشاوره فبعث إليه الجواب بأن زوجه ولا تترك من بلاد الحصن مكانا إلا تنزل فيه

(ذكر فتح طنزو بهرد وسعرد)

قال نعول بالعبور إلى جانب سعرد وبهرد وإذ قدم عليه أهل حصن طنز للصلح وأن يكونوا لوعا للمسلمين فقال خالد من أسلم منكم قبلناه وكان له ما لنا وعليه ما علينا ومن بقي على دينه كان عليه الجزية من العام القابل فأجابوه إلى ذلك فكتب لهم عهدا وعبر إلى طنز وبهرد وسعرد والميدن وارزن وقرروا صلحا وصوابه قال وانقضت عدة صاحبة الحصن وهي جانوسة وتزوجها برقنا رحمه الله تعالى ولحق خالد بعياض فوجده على سوفاريا وهي مدينة جالوت ولما وصل خالد إليه سلم الناس بعضهم على بعض وأقاموا هناك خمسة أيام وعزلوا أن يسيروا إلى بدليس وأخلاط وإذا قد جاءهم الخبر أن طاريون ابنة الملك وهي زوجة الغلام برغون الذي فتح كفرتوثا وكان من أمرها ما ذكرناه بأنها هربت إلى أبيها ورجعت إلى دينها قال فصعب ذلك عليهم (قال الواقدي) حدثني محمد بن يونس قال حدثني إسماعيل عن قيس قال رحمه الله تعالى أن طاريون لم تتنصر ولا عادت عن الإسلام وإنما مضت إلى أبيها لتدبر عليه حيلة وتسلم البلاد للمسلمين لأنها أرادت تصنع كما صنع زوجها برغون بكفرتوثا فتفق رأيها ورأي زوجها على ذلك فقال برغون أما أنا فلا أتبعك لأني أفزع من أبيك أن يقبض علي فقالت له الزم مكانك ولبست ثيابها وعولت على المسير وجمعت غلمانها في محل خلوة وقالت لهم اعلموا أني قد عزمت على أمر أفعله وأنا أبوح به إليكم قالوا أيتها الملكة ما على العبد إلا الطاعة لمولاه فاوقفينا على سرك قالت لهم اعلموا أني كرهت المقام بين هؤلاء العرب وأيضا قد اشتقت إلى وطني وعولت على أني أخرج بكم إلى الصيدفي

الجبل فاذا جن الليل طلبنا أرضنا فلما سمعوا قولها فرحوا وقالوا نعم الرأى فقالت انى لست اكرهكم فمن كان له خاطر ان يلبث ههنا وهو مائل الى هذا الدين فليقم غير ملوم ومن أراد الى وطنه فيعزم بى فانى امضى فى هذه الليلة وحق ما اسير اليه لئن بلغنى ان احدا منكم افشى سرى الى برغون أو غيره من الناس لاضربن عنقه فمن كان عازما على صحبتى فليتبعنى فاجابوها الى ذلك فلما جن الليل ودعت برغون وخرجت ومعها اثنى عشر نفرا كانوا لا يريدون الاسلام وكان لها بكفرتوثا اثنى عشر غلاما قد رسخ الاسلام فى قلوبهم واحبوا المسلمين قال وسارت نحو الجبل ومضت الى ان تركت ارزن خلف ظهرها واشرفت على بدليس فنزل صاحبها اليها وقدم لها اقامة وعلوفة واقامت هنالك بقية يومها.

(ذكر فتوح بدليس وارزن واعمالها)

وكان من قضاء الله السابق وقدره ان عياضا المنازل على سوقاريا ولحق به خالد ومن معه ولحقهم يوقنا ففرح المسلمون بسلامتهم وحدثه بما جرى فسجد لله شكرا ثم بعث يوقنا رسولا الى صاحب بدليس وكانت ارزن وبدليس ووقف وانظر وغيرهم من القلاع لبطريق واسمه سروند بن بولص والجارية طاريون نازلة هنالك وسروند عندها فلما علموا بقدوم يوقنا ركبوا الى ملتقاه واختلت به طاريون وقالت له يا عم لا تظن انى هاربة ولا الى الروم طالبة وانما أريد أن انصح لله ولرسوله وللمسلمين واريد ان اغدر بابى واقتله واسلم معاقله للمسلمين ولكن يا عم اشر على بما اصنع فانت تعلم ان هذا المضرب لبدليس واخلاط عليه قلعة قف وانظر واذا أرادت العرب العبور فليس لهم قدرة فما الذى تراه وأخاف ان حصلت عند أبى لا اقدر على الرجوع الى بعلى والى المسلمين قال لها يوقنا اعلمى انك اذا سرت بهذه النية فان الله جل وعلا يفتح عليك أبواب الخير وامضى على ما انت عليه وانا لا بد لى ان امضى برسالة الامير عياض الى ابيك وها انا ابكر فاذا حصلنا هنالك كان لنا من التدبير ما يريده الله ونصل ان شاء الله الى ما تريد وعلمها ما تصنع وودعته وعادت فقالت ان هذا المديم العقل يلح على ويعذلنى على ان أرجع واعود عما عزمت عليه من الرجوع الى دين المسيح ولولا انى أخاف ممن معه ومن صاحب هذا الحصن ان يعينه علينا لكنت قبضت عليه ثم انها ركبت وسارت تجد السير وارسلت بعض غلمانها يبشر اباها بقدومها فلما وصل البشير ارتجت المدينة وركب أبوها والبطارقة وأهل البلد للتقاها فالتقوها عند خضريا فلما رأت أباها ترجلت وترجل أبوها والعسكر جميعه وصقعوا بين يديها وضمها أبوها الى صدره وقال لها يا بنتى كيف كان أمرك فقالت ان برغون نصب على ووصل بى الى عسكر

المسلمين واسلم فلم يكن الا انى اطارعه خيفة منهم الى ان دخلوا دار ابى بكر فهربت اليك
فصلب أبوها على وجهه وهناها بالسلامة وركب وساروا والمواكب حولهم الى ان
دخلت البلد ودخلت دار المملكة فالتقوها الجوار والخدم وصفقه والماو بكوا وبكت
واخرجت الصدقات والنذور للبيع والكنايس وباتت تحدثهم بما جرى لها وحديث
شهرياض وكيف أخذت رأس العين فقال أبوها يابنية كيف رأيتيهم فى دينهم قالت
أيها الملك القوم يتظاهرون بالدين وانهم يطلبون الدين والعدل حتى يرجع الناس
اليهم وما والله دين أفضل من دين المسيح وقد نذرت نذرا متى خلصت من يد العرب
الى لا اقرب قربانا ولا اشرب الخمر ولا اكل لحم خنزير ولا انغمس فى ماء المعمودية حتى
اتعبد فى بيعة يوحنا شهرين كاملين فاذا انا تطهرت من دينهم اقرب القربان واقبل
الصلبان ففرح أبوها بذلك فلما كان من الغد مضت الى البيعة واخلت لها موضعا
وجعلت تتصدق على الفقراء وتظهر النسك والعبادة واقامت تنتظر ما وعدها به
يوقنا من القدوم بالرسالة الى ابيها (قال الواقدى) رحمه الله ورضى عنه حدثنا
أبو محمد قال حدثنى من اثق به عن قيس بن هبيرة قال كنت من أصحاب يوقنا حين
سار بالرسالة الى بدليس وتحدث مع طاريون وانعد صاحب بدليس اليه وكان لما
بلغه قدوم يوقنا صعد الى حصنه فاستحضره وانا معه فوجدناه على سرير مملكته
فسلما عليه فقال يوقنا ان أمير جيوش المسلمين بارض ربيعة وهو عياض
ابن غنم وقد أرسلنا اليك ندعوك الى توحيد الله ورسالة نبيه ولكم مالنا وعليكم
ما علينا واعتبر بمن تقدم من الملوك واصحاب الاقاليم والعز وقد اصبحوا هالكين
فاجوا بك فقال أيها السيد انى قد كنت اردت ان ارسل رسولا الى اميركم فى طلب
الصلح واعطيه شيأ وانى ابقى على دينى ومن أراد من أهل بلدى ان يرجع الى دين
القوم فلست امنعه فقال يوقنا كم تطيب قلبك ان تدفع فى صلحك على بدليس واررن
وما تحت يدك من البلاد فانى اذا مضيت لك الصلح فقد رضيت به العرب فقال أيها
السيد اعطيهم مائة الف دينار وخمسمائة زردية والف قوس وان لا تتولى على مملكتى
غيرى حتى اموت وان لا يبقى عندى من قبلهم الا رجلا او رجلين حتى يعلموا من اسلم
شرائع الاسلام وان يكون أمرى نافذا فى مملكتى ومن أسلم يكون أمره لان يكون
عندنا من قبلكم وما يكون لى عليهم حكم فقال يوقنا قد امضينا صلحك واتممنا عهدك
وانا اعطيناك عهد الله ورسوله على ما ذكرته قال واعطاه عهد الله ورسوله واداه
على الهيئة التى هادى رسول الله صلى الله عليه وسلم هرقل ملك الروم وحلف له
عن المسلمين كلهم قال وان قيس ذهب الى عياض فاعلمه بما استقر بينهم فلما وصل

كتاب

كتاب يوقنا الى عياض رحل من مكانه الى ان نزل على بدليس فوجد البطريق قد اخرج ماوقع عليه الصلح فلما قدم عياض نزل اليه البطريق والتقاهم وحياهم باحسن تحية وانزلهم في احسن منزل وقدم لهم الاموال وكتبوا بذلك عهدا قال ونظر المسلمون من أهل اليمن وبادية العرب الى البنات وحسنهن فمالت أنفسهم اليهن وشرب أكثرهم فلما رأى عياض ذلك صعب عليه فامران يؤتوه بمن فعل ذلك فاقام عليهم الحد وأخذ منهم حق الله وقال لهم اكفر بعد ايمان ابهذا أمرتم أم لهذا خلقتم اما سمعتم ماقال من أمره بين الكاف والنون قال فتاهبوا باجمعهم فلما جن الليل اجتمع يوقنا بعياض وحدثه بامر طاريون وماوافقته عليه وانها قد وهبت نفسها الله تعالى ومضت تدبر كيف تعمل في تسليم البلد للمسلمين واني وعدتها ان اصيرالها واعينها على ذلك وقال عياض اذا كان الامر كذلك فيجب علينا ان نظهر عليه خالدا واصحابه فقال يوقنا افعل مافيه الصواب فارسل الى خالد ومعاذ وقيس والمسيب بن نجبيه وعمرو بن معدى كرب وعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهم وحدثوهم بالحديث وقالوا لهم ماترون من الرأى

(ذكر فتح ارمينية واخلاط وقف وانقلو)

قال خالد اصلح الله الامير اذا كان الامر كذلك فابعث يوقنا رسولا ونحن معه فاذا حصلنا هناك بفعل الله مايريد الحاضر يرى مالايراه الغائب قال فسيروا على بركة الله تعالى فتأهبوا وساروا وسار مع يوقنا خمسة وثلاثون من الصحابة وعشرون من أصحاب يوقنا فلما وصلوا الخلاط ونظرت اليهم الروم والارمن علموا انهم رسل فاعلموا بذلك الملك وانهم رسلا من العرب فأمر باحضارهم فاتتهم الحجاب الى باب رومية وهو باب بدليس فرأوهم على خيولهم فقالوا لهم ادخلوا فأخذوهم الى دار الامارة واعلموا الملك نوسطيوس بذلك فامر باحضارهم فلما توسطوا الدهليز ارادوا الغلمان ان يأخذوا اسلحتهم فقال خالد انا قوم لانسلم سيوفنا لغيرنا وان الله بعث نبينا بالسيف وقد قلدنا اياه ولسنا نزيل ماخصنا الله ورسوله به فدخل الحجاب واعلموا الملك بما قال خالد فقال الملك دعوهم يدخلوا كيف شاؤا لئلا يظنوا انا نخافهم واتما ذلك ناموس الملك فدخلوا بهم فلما رآهم وسلموا عليه جلسوا على الارض كانهم السباع وكل منهم قد جعل يده على مقبض سيفه وقد بلغ الملك ماهم عليه من الدين والزهد في الدنيا فاوصى اصحابه ان لا يأمروهم بأن يصقعوا له فانهم لايجيبونهم لذلك قال فلما استقربهم الجلوس قال لهم ترجمانه ياهؤلاء فيما اتيتم به الينا فقال يوقنا ان امير جيوش المسلمين بارض بدليس قد بعثنا اليكم رسلا ندعوكم الى شهادة ان لا اله الا الله وحده لاشريك له وان

محمدا عبده ورسوله اوتدخلوا فيما دخل فيه الناس وان تؤدوا الجزية عن يد وانتم صاغرون فاعلم الترجمان الملك بما قاله يوقنا قال حدثنا قدامة انه لم يكن بينهم ترجمان وانما كان المتكلم يوقنا بالرومية وهو لسان القوم قال الواقدى رحمه الله تعالى حدثنى من اثق به قال كان الترجمان بينهم لان الملك ارمنى لا يفهم الا بلسان الارمن ويوقنا كان روميا لا يفهم لسان الآخر فلما بلغه الترجمان غضب وقال وحق المسيح والانجيل لا نعطيهم ولا ندخل فى دينهم او نموت عن آخرنا ولا يحسبوا اننا مثل ما لاقوا من جيوش الروم ولسنا الشدة والباس والقوة والمراس ونحن نرمى عن الاقواس بالنشاب والعرب تسميه قاطع الشهوات والاسباب وانا ابعث الى صاحب خوى وسلوس واستنصرهم عليهم باسرأغوص ملك المرج ونردهم على أعقابهم ونستخلص منهم البلاد وليس عندنا جواب غير هذا قال فبلغهم الترجمان ما قاله فقال يوقنا يأذن لنا بالانصراف لنعلم صاحبنا بهذا الجواب فقال الملك بيتوا عندنا هذه الليلة وفى غد تنصرفون وامر بهم ان ينزلوا فى المكان الفلانى فخرجوا من عنده الى المكان الذى أمر به فنزلوا به ينتظرون ما يكون من الجارية طاريون قال ولما خرج الصحابة من عنده ركب من وقته الى بيعة يوحنا واجتمع بابنته وقال لها ان العرب قد وجهوا الى رسولا ومعه جماعة وقالوا لى كذا وكذا واجبتهم بكذا وكذا فما ترين من الرأى فقالت أيها الملك اين هم قال عوقتهم هذه الليلة حتى أشاورك فى أمرهم فقالت أريد ان انظر من هم فانه لا يخفى على أمرهم ان كانوا من وجوه العرب السادة أمرهم فامرنى ان اتحدث معهم وأطيب قلبهم بأنك تصالحهم واطمعهم بذلك فاذا اطمأنوا بذلك أمرتك بالقبض عليهم واتركهم عندك حتى لا يكون لهم خلاص فاذا قبضت عليهم ترسل الى صاحبهم تقول له متى تقدمت الينا مرحلة واحدة بعثت اليك رؤسهم فاذا سمع ذلك لا يتقدم ويقع الصلح على ان نسلم اليه أصحابه وينصرك المسيح بطول عمرك ويرفع قدرك وينصرفوا عنك وما ثم رأى اوفق من هذا فقال لها يا بنية المسيح يطيل عمرك ويرفع قدرك فقومى لنا اليهم ودعى هذه البيعة والرمى البيعة التى فى دارنا فانك كلما اقمت ههنا كان اخوف بنا وان كان مقصودك العبادة ففى أى مكان كنت فيه كان لك معبدا فلما سمعت قوله قالت لست ابرح من ههنا حتى يأمرنى بترك هذا المكان فارسل الملك وراء البترك فلما حضر قام الملك له قائما وعظمه واجلسه الى جانبه وحدثه بقصة ابنته فقال البترك قد اذنت لك ان تتعبدى حيث شئت وقد استوهبت ذنوبك من المسيح وغفرلك قال فصلبت وجهها ودعت له وقدموا لها بعض مراكب أبيها فركبت ومضت الى المكان الذى فيه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يدخل فيه سواها وابيها الملك فلما رأت يوقنا فرحت واستبشرت وقالت له

أيها السيدان أبي جاهل بكم غير عارف بقولكم وسوف أكشف له عن اموركم وحق ديني ما رأيت منكم الاخير اوسوف اجازيكم على ذلك ولولا محبة الاهل والوطن ودين المسيح ما كنت فارقتكم وخرجت هي وابوها ومضت الى القصر وقالت له ايشر عاسرك هؤلاء وجوه القوم وساداتهم والذى عليه زى الروم هذا يوقنا بطريق حلب الذى طرده المسيح عن بابه والرأى عندى ان نطلبهم الى عندنا الى هذا القصر ونقبض عليهم بحيث ان لا يقف احد على سرنا قال ففرح ابوها بقولها وبعث حاجبه الى الصحابة فاتى بهم وأنزلهم في بعض حجر القصر (قال الواقدى) رحمه الله وكان عمال أبيها من البطارقة والمقدمين على القلاع قد اتوا يهنون أباها برجوعها الى دين المسيح فقالت طاريون من الصواب ان نمضى انا وأنت الى هؤلاء العرب ونجلس عندهم ونأكل معهم حتى يطمئنوا الينا وأقول لهم انى اريد ان اشاور أهل بلدى وارباب دولتي فاما ان نصالحكم ونؤدى اليكم الجزية اونقاتلكم ونبعث اليهم طعاما منجا فاذا اكلوه وحكم فيهم البنج قبضنا عليهم ونفعل بهم ماتريد واشيربه عليك قال فلما جن الليل أتت هي وأبوها الى عندهم وتحدثوا ساعة ومضوا فلما كان من الغد جلس أبوها على سريره وعلمت ابنته انه اشتغل بما هو فيه أتت طاريون الى عند الصحابة وقالت لهم اذا جئت الليلة أنا وأبي فدونكم واياه ولا تمهلوه فقد اتفق رأيه على كذا وكذا فشكروها على فعلها ومضت عنهم فلما كان الليل جاءت ومعها أبوها وتقدمت كأنها تحجبه وأشارت اليهم بان لا تعجلوا وأمهلوه فأمسكوا عنه وتحدثوا ساعة وخرجوا من عندهم فلما خلى مع ابنته قال لها ما قولك نقبض على هؤلاء العرب فليس بصواب وانى أريد ان اجمع بطارقتي وولات أمرى من الحصون والقلاع وآخذ ذلك عليهم عهدا أن لا يخامروا عليك أبدا وان يطيعوك وأرسل المال والذخائر وما نخاف عليه الى قلعة برقنوس فانها امنع قلاع الارض (قال الواقدى) رحمه الله وهذه القلعة التى ذكرت في وسط بحيرة ارجيش لا سبيل لاحد عليها قال لها واذا وليتك عليها اطلق هؤلاء العرب فانه ما سبقنى أحد من الملوك على قبض الرسل وأيضا يقال عنى انى فزعت من العرب وقد عولت على لقائهم فان نصرت عليهم فذلك هو المراد وان نصروا على فلى اسوة بامثالى من الملوك وقد أرسلت الى الملك درفشيل صاحب أرزن الروم بان يأتى الى بجنوده وعدته وعبيده ووعدته ان أزوجه باختك فاذا ترين من الرأى قالت له أيها الملك اذا عزمت على هذا الامر فلا تترك هؤلاء يمضوا حتى يجتمع العسكر ويقدم الملك درفشيل بجيشه ولا يتخلف عنك أحد وبعد ذلك اترك هؤلاء فاذا ساروا الى عند صاحبهم تسير أنت في اثرهم بالجيوش واكبس عسكرهم فقال يا ابنية ليس هذا من الرأى ان نطلقهم من أيدينا بل نبعث الى صاحبهم

تقول له انهم مكرمون عندنا وقد رأينا اننا في يوم عيدنا ندبر فيه أمرنا فاما ان نصالحكم باداء الجزية واما ان نقاتلكم والله ينصر من يشاء ونأمرهم ان ينزلوا في مرج بطان فانه مرج واسع يصلح لملتقى العساكر ونضرب معهم مصاف ونحن أخبرهم بالبلاد ونسلك عليهم الدروب فما ينجوا منهم أحد ونسير الى ديار بكر فنملكها ونأخذ أرض ربيعة ولا يبقى في هذه البلاد ملك سوانا فقالت له طاريون افعل ما تشاء فانا بحلمك وتركته وانصرفت الى مكانها فلما رءت ان اباها قد اغلق أبوابه أتت الى عبد الحمامة وعرفتهم بما قال أبوها فقال خالد اللهم يسر لنا الامر من غير تعب واذا أراد الله أمرا هيأ اسبابه فقال يوقنا وكيف ذلك يا صاحب رسول الله فقال خالد نعم نحن امورنا بحمد الله منوطة بالصبر وقد كفانا كل أمر اعلموا ان هذا الرجل قد عول ان يبعث يجمع ملوكه وجيوشهم ويحرضهم على قتالنا والصواب اننا نصبر حتى يجتمعوا فقالت طاريون لقد نطقت بالصواب يا صاحب رسول الله ووفقت ولعل ان يحصلوا كلهم في أيديكم ان شاء الله فان أبي لا يقدر ان يولي الا في البيعة بحضرة أصحاب القلاع والحصون ويأخذ عليهم العهد وبعد ما يفعلوا ذلك ثوروا عليهم ان شاء الله ولعل ان يكون في جملتهم صاحب ارزن ونرسل العبد الصالح يوقنا نزى صاحب ارزن فلعله يملكها ان شاء الله تعالى ونكون ظفرنا بالارب وخرجت من عندهم (قال الواقدي) رحمه الله حدثنا صالح بن عمران عن عبد الرحمن بن الحسن عمن حدثه قالوا جميعا ومن قال منهم انه لما اتفق الرأى من الملك صاحب اخلاط على ما ذكرنا واصبح الصباح أرسل وراء صاحب أعماله وولاة الحصون ان يحضروا عيده فاتوا باجمعهم ولم يتخلف منهم أحد وأتى درفشيل من ارزن ومعه عسكره وكان اجتماعهم في ليالي عيدهم الكبير فزينوا البيعة وجاءت الاقسة والرهبان من كل مكان ودخلوا البيعة وصلوا وقربوا القربان فلما فرغوا من قربانهم وصلاتهم جلس الملك على سريره وابنته واقفة عن يمينه فقال للملوك والبطارقة اعلموا انني ما جمعتكم الا لامر عرضته عليكم وفيه سداد امركم وملككم ودينكم وقد عولت على انني اولي امركم الى الملكة طاريون فانها كما علمتم من أصحاب العقل والرأى والتدبير في الحرب والشجاعة والبراعة فان قضي على الامر فانها تكون مالكة أمركم فما تقولون فقاموا باجمعهم وصقعوا له وقالوا نعم الرأى الذى رأيته أيها الملك فانجز امرك فعندها رتب قائما وازال التاج عن رأسه ووضعه على رأس طاريون ومسك بيدها واجلسها على السرير ووقف عن يمينها كانه حاجب ووقف صاحب ارزن عن يسارها وصقعت لها الملوك وبايعوها وتقدمت الاقسة والرهبان وأخذوا لها عليهم العهد والميثاق وأجابوا بالسمع والطاعة وبعدها زوجوا اخت طاريون بولد صاحب

ارزن

ارزن وخرجوا من البيعة في خدمة طاريون الى قصر الملك وا كاروا السماط واخلعت عليهم وزينت المدينة وضربوا خيامهم بظاهر البلاد وعولوا على قتال المسلمين (قال الواقدى) رحمه الله حدثنى اسرائيل بن اسحاق عن أبى الاخوص قال بلغنى ان عياض بن غنم لما وجه خالدا الى ملك أرمينية وهى اخلاط واستبطاهم ساءت به الظنون فيهم فارتحل من بدليس الى أرض ارزن ونزل بالمرج ووجه عيونه الى اخلاط فغابوا عنه اياما وعادوا اليه واخبروه ان الملك قد ولى ابنته طاريون على المملكة وقد عقدوا لها التاج على رأسها وبايعوها الملوك وزينوا المملكة من أجل ذلك وقدم صاحب ارزن الروم وزوج اخت المملكة لابنه وان القوم قد عولوا على لقائكم فلما سمع عياض ذلك قال لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم غدروا وأصحابنا فقال المسلمون كيف ذلك يا صاحب رسول الله قال لان أصحابنا مضوا الامر يرومونه وقد انفسد عليهم فقالوا ثق بالله وتوكل عليه وأقام عياض على المرج عشرة أيام وحصل له مرض على أمر الصحابة فاتته الناس يعودونه فقال اذا أراد الله بعبده خيرا زاره الناس (قال الواقدى) رحمه الله ورضى عنه وعوفى عياض فبينما هو قد ركب مع وجود الصحابة وهم يسيرون وقلبه مشغول من قبل خالد ومن معه واذا قد اتاه سعيد بن زيد وهو ينادى الوحا الوحا العجل العجل فاسرع اليه عياض وقال مالك يا ابن زيد يرحمك الله فقال الحق خالدا ومن معه فقد دوقعوا فى بحر لجاج وهم فى وسطه فلما سمع عياض قال وكيف ذلك قال ان طاريون لما ولاها أبوها الملك وجعل العهد لها ظفرت بابيها فقتلته وبعثت وراء الملوك على لسان أبيها فلما جاءوا اليها قتلتهم وان بعض غلمانها اطلع على سرها فمضى الى بقية البطارقة والولاة فاخبرهم بما صنعت فلبسوا السلاح وقعدوا على اهبة فلما كان بالامس ركبت هى فى جيش أبيها الى الميدان وركبنا نحن لركوبها فما علمنا الا والقوم اطبقوا علينا وقالوا ناطنتم ان المسيح غفل عن أمركم وانه لا يؤاخذكم بذنوبكم وقد امكن الصليب منكم وهم وا باخذنا فقاتلناهم قتالا شديدا ما سمع أحد بمثله وملأنا الارض من قتلاهم فلما جن الليل وضعت الحرب اوزارها وانفصل الجيش مع صاحب ارزن الروم وبقى مع الجارية نفر يسير من غلمانها وغلمان أبيها فأفاضت عليهم الخلع والنعم وبعثت الى الارمن تقول لهم انما فعلت ذلك شفقة عليكم وعلى حريمكم لانهم أرادوا ان يقبضوا على هؤلاء العرب ويقتلوهم فيكاتبوا أصحابهم لا يتركوا منكم مخبرا فلما بلغهم ذلك قال العقلاء منهم والله لقد فعلت معنا كل خير واجابها من القوم خمسة آلاف رجل وانى تركت المصاف وجئت اليك مستنفرا فلما سمع عياض كلام سعيد أمر الناس بالرحيل وساروا التقريب والخبب الى ان أشرفوا عليهم واذا بالحرب قد قام على ساقه

فكبر عياض ومن معه فارتجت منهم تلك الارض والجبال رجاً واركان خالد واصحابه قد ارضوا الله بقتالهم قتالا ما سمع على وجه الارض مثله ولم يزالوا كذلك حتى انقشع الغبار وانفصل القتال وافتقدوا من قتل فوجدوا قد قتل من بادية الاعراب مائة وعشرون رجلا وافتقد معاذ بن جبل ولده فلم يجده فلما جن الليل دخل ومعه رجال من المسلمين الى المعمعة فوجدوه وهو يجود بنفسه وقد ناله جراحات فحملوه الى رحله وجلس أبو عبيدة رأسه فقال عبد الرحمن بن غنم أخو عياض لما رأيته يجود بنفسه بكيت وانتحبت فقال لي مه هذه الغزوة أحب الى من كل غزوة غزوتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له يا بني اتق ربك وكان لما اذن المؤذن للظهر فما انصرف العسكر من صلاتهم الا وقد كفنه في ذراعته وهو متضمخ بدمائه فجاءه الناس فوجدوه وقد دفنه فقالوا له رحمك الله هل لا كنت انتظرتنا حتى نحضر جنازته قال ليس ذلك من السنة وان ذلك فعل الجاهلية وقد كنا نشتهي ان نبطئ بموتانا وانما أمرنا باعجال موتانا فلما دفنه اتى القبر ورجع الى رحله غسل رأسه ولحيته واكتحل ولبس برديه وأتى الى خيمة عياض وهو يكثر من الابتسام والتكبير وليس به الا ما يسلي عن ذلك وقال هنيالك يا ولدي فقال له عبد الرحمن وماذا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من مات له ابن وكان به صيدا وكان عليه عزيزا فحسن عليه عزاؤه ولم يرمه شيء في قضاء الله الا غفر له والميت وابدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من اهله وزوجه الله من الحور العين ولما طلع النهار ركب المسلمون وطلبوا الجهاد واذا بخيل قد أتت وعليها فرسان بغير سلاح فلما قربوا منهم ترجلوا وقصدوا الامير بادر اليهم قوما وقال لهم من أنتم قالوا نحن أصحاب ارزن الروم وهذا مقدمنا واشاروا الى شيخ منهم حسن الشيبة وراطمه يوقنا وقال ان الله دلني عليكم وبت الليلة على نية القتال فرأيت المسيح ابن مريم في النوم وهو يامرني باتباع محمد وقال لي ان نبي هؤلاء العرب هو الذي بشرت به فمن عدل عنه فليس مني فلما سمع يوقنا قوله ترجل هو وجميع من كان معه ومشوا معه الى عند عياض وحدثه بجميع ما جرى فقام له عياض وصافحه هو والمسلمون وحدث عياض بما حدث يوقنا ثم أسلم هو ومن معه ففرحت بذلك الجارية طاردون وسلمت اليه اختها وسار بها الى ارزن الروم وارسلوا معه عشرة من المسلمين ليدعوا ارزن الروم الى الاسلام ويعلموهم شرائع الدين (قال الواقدي) رحمه الله وهو راحة بن عبد الله وسلامة بن عدي والمرقال بن الاكوع وابن خويلد وجرير بن ساعد وعبد الله بن صبرة وسهل بن سعد ومصعب بن ثابت وحازم بن معمر وابو يزيد بن بشار قال وودع درفشيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتحل والعشرة معه حتى وصل ارزن الروم ففرح

أهل المدينة بهم وخرجوا الى لقائهم فلما استقر الملك في مجلسه طلب اكابر الناس وحدثهم بما رآه وعرض عليهم الاسلام فاسلم اكثرهم واقبل العشيرة يعلمونهم شرائع الاسلام والقرآن قال وسلم القلاع والحصون التي كانت لاخلاط الى المسلمين فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على اداء الجزية من عامهم الآتي وبعث عياض الى خوى وسلواس ومايلي تلك الارض فاسلم أهلها الا القليل وبعث من المسلمين رجالا يعلمونهم الشرائع واقرطاريون على اخلاط والله تعالى هو الموفق للصواب واليه المرجع والمآب

(ذكر فتح ارزن وسعرد وجبل مارون)

(قال الواقدي) رحمه الله قال عبد الله بن عقيل الجعدي عن أبي اسحاق الهمداني قالوا جمعا وفرادى أنزين قال منهم انه لما فتح الله ديار بكر وأرمينية وهي اخلاط على المسلمين على يد عياض بن غنم بعد فتوح أرض ربيعة ارسل وراء الغلام برغوث في كفرتوثا فلما قدم عليه قلده أمر ارمينية هي واخلاط له ولزوجته طاريون وأخذ عليه موثقا من الله ان يعاملوا الناس بالعدل وان يتبعوا الشريعة وان يأمروا بما أمر الله ورسوله فقبلا ذلك وارتحل عياض من أرض ارمينية بعد ان بعث افلح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مائة رجل الى بلاد العراق حتى يدعوا أهلها الى الاسلام ووعدهم بالاجتماع هنالك قال فانصرفوا بالرسالة وأما عياض فانه سار على طريقه الذي ورد عليها الى ارزن الروم وخرج منها الى سعرد الى جبل مارون (قال الواقدي) رحمه الله كان الذي اسسها السموأل بن ماريا وكان قد سبق قبل ذلك الابلق الفرد من أرض تيما ولما جاء وزير كسرى وطلبه هرب الى هذه الارض وبنى له فيها هذه البلد فلما نزل عياض عليها دعاهم الى الاسلام فاجاب العقلاء منهم ومن أبى اقر عليه الجزية وكتب لهم عهدا ورحل حتى نزل على الشمطاء واساوخ فاجاب أهلها ولم تكن الجزيرة يومئذ محددة وان الذي بناها رجل من أهل برقعيد يقال له عبد العزيز بن عمرو وكانت دجلة قبل ذلك فلما نزل عياض عليها ازارها ومن معه جبل الجودي وموضع السفينة وبجنبها الخبات كثيرة فكانت أهل تلك البلاد تنزح الاخبات وكان ملكها الجزيري صالح أجاب واطاع وكان يسكن بعماديا وكانت تحت يده كواس والزعفران وقنبيزو ودربيس وأماكن كثيرة قال ولما بلغه الرسالة أجاب وصالح واطاع فاقبل الى عياض واسلم وكتب لاهل بلده عهدا وانفذ من يدعوهم الى الاسلام

(ذكر فتوح الاسماعيليات)

قال وارتحل عياض الى الجانب الغربي ونزل على بلد فيها بديع القبطي فاجاب صلحا على

ماتقرر عليه وارتحل عياض الى ان نزل بالاسماعيليات و بعث عمرو بن جندب ابغار على الموصل واغار المساقفى وغار وأخذوا الغنائم ووقع عليه الصائح فخرجوا عليه وقاتلوه وانثر عوامه العيمة وقاتل حتى قتل ودفن بالجانب الغربى فلما بلغ عياض ذلك ارتحل من الاسماعيليات ونزل على الموصل فخرج اليه أهلها بالعدد والسلاح فكر عليهم خالد بجيش الزحف فجعلهم حطاما ولم يكن عليها يومئذ سور يمنع فأخذها بالسيف ونظر الى نينوى فاذا هى مدينة قد أخذت السهل والجبل فقال ماهذه فقيل هذه نينوى فقال لعلها مدينة يونس بن متى عليه السلام (قال الواقدى) رحمه الله وكان عليها يومئذ الملك ابفاق فكاتبه عياض فأبى فانفذ اليه الجزيرى صالح فقال له لئن لم تجب هؤلاء الى ماأرادوه والا أذقتك شرا ولا أترك لك عيشا فكتب اليه يقول انى أصالحهم الى ستة أشهر حتى أرى مايكون من أمر كسرى فان فتحوا بلده دخلت فى طاعتهم قال وكان هو من تحت يد كسرى فاجابه المسلمون الى ذلك وصالحوه على موجدا ومرجها وكتب عياض الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلمه بما فتح الله عليهم وكتب اليه يقول بسم الله الرحمن الرحيم من عياض بن غنم الاشعرى الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه اما بعد سلام الله عليك ورحمته وبركاته فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو واصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فالحمد لله الذى ايد الاسلام بنصره ومحص الشرك بقهره فلله الحمد على ماأولى ومنح فأزال وكشف ورفع وصرف من عظائم وأخذ من غنائم حمدا يزيد الآمال انفساحا والصدور انشراحا وقد لانت الشدة بعد صلابتها ورقت الايام بعد قساوتها ويسر الله تعالى أمرها وقد أوردت الاعداء موارد المهالك وضيقت عليهم المسالك فارتبكوا فى رقاقهم واشتركوا فى وثاقهم ولم يجدوا فى الارض ولا فى السماء مرتقا واشتد بهم الفرق فأزعجهم القلق وانهم امالوا وخابوا وادهنوا واسلموا واظهروا القصد من الايام والدخول الى الاسلام والتردد به من الظلم والجنوح الى السلم فاقررناهم على ذلك بعد ان اشرفوا على المهالك فمنهم من أسلم وبايع ومنهم من أقام تحت الذمة وتابع وقد نشر الله أعلامنا وأعز ديننا وقهر عدونا وشد سيوفنا واعلا كلمتنا واظهر شريعتنا وقد صرف الله صورتهم واخمد نورهم وازال نصرتهم وكفى البلاد والعباد مؤنتهم والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته و بعث خمس مائة عمل بن دينار بكر مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحى رسول الله صلى الله عليه وسلم وضم اليه مائتى فارس وسلمه الكتاب وامره بالمسير فسار شرحبيل وبعد أيام وصل الى عياض من العراق عامر بن مزينة رسولا من سعد بن أبى وقاص يستنجد عياضا على

كسرى

شوحم يوز

كسرى فانفذ له نجدة ثم فتح الله العراق على يد سعد وما جرى له من الحروب والوقائع نذكر من أمره ما كان والله الموفق

﴿ ذكر فتوح العراق ﴾

قال حدثنا عبد الله بن محمد قال اخبرنا عبد الله بن جابر قال الواقدي رحمه الله قال اخبرني من اثق به قال لما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص بالجيوش الى العراق ولم يزل سائرا حتى قدم أرض الرجبة واتصلت الاخبار باليعمور بن ميسرة العبسي وكان يومئذ ملك العرب بعد اياس بن قبيصة والنعمان بن المنذر ملكا من قبل كسرى بن يزدشير فكتب اليه يعلمه ان جيوش المسلمين قد أقبلت من المدينة وقد وجهها عمر بن الخطاب رضي الله عنه اليك وقد عول على أخذ العراق فاستيقظ أيها الملك من غفلتك وانظر في مصالح دولتك واعلم ان هذا الزمان الذي كنا نسمع به ولا نصدق ونكذب به ولا نحقق ولا نظن ان أحدا يجسر علينا ولا يصل بجيشه الينا حتى جاء الوقت المقدور وولي المدينة عمر وهو صاحب الفتوح ومصبح الملوك بشر صبوح فقم على قدم الهم وسر الى أعدائك وتقدم وقد اعلمناك لتكون على بصيرة من الامر واياك ان تهمل الامر فرب صغير امر عاد كبيرا ويسير عاد عسيرا والحرب أوله شر وآخره نار تسعر والسلام قال وبعث الكتاب مع نجاب فلما وصل به الى كسرى وقرئ عليه انتفض لذلك واهتز على سريره واحضر الاساورة والمراوزة والديلم والسمارجة وقرأ عليهم كتاب الملوك وقال لهم ما ترون في هذا الامر الذي قد وقفنا عليه واشرفنا من زماننا عليه واعلموا ان هؤلاء العرب قد أخرجهم كلب والجهد مان ينظر والهم مواضع يسكنون اليها وينزلون وقد اذاقوا الروم شرا وأنزلوا بهم ضرا وملكوا المدائن واحتووا على الخزائن وكانت الروم قد اجتمعوا عن بكرة أبيهم وما كان منهم أحد الا أتى الشام وتلاقوا في الحرب بمكان يقال له اليرموك وهذه شرذمة من العرب قد سرحوا الى بلادكم وقد عولوا على ان ينزعوا الملك من أيديكم ولا ينفعكم الا ان تكشفوا عن ساق العزم وتتشحوا بوشاح الحزم وتذبوا عن أهلكم وأموالكم وأولادكم وحريمكم وبلادكم واعلموا ان العرب لهم الطمع وقد دخل في قلوبهم ان يملكوا بلادكم وحصونكم ومتى رأوكم ناكلين عن قتالهم فشلين عن نوالهم مالوا عليكم ميلة الاسود على فرائسها فاحذروا مؤذنهم من أول يوم وقد قيل في الآثار من نظر في العواقب امن غائلة النوائب ثم انه فتح خزائن الاموال والخلع وخلع على الهرمزان وقدمه على خمسين ألفا وخلع على عطارد بن مهرود وقدمه على عشرين ألفا وخلع على فارس بن همان وقدمه على عشرين ألفا وأمرهم ان يضربوا خيامهم بارض زربدان ففعلوا ذلك وكتب من وقته الى خراسان

وماوراء النهر يستنفرهم وما معهم من الاجناد على قتال اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وصلت الكتب اليهم اقبلوا يهرعون الى العراق كالجراد المنتشر وكان فى جملة القوم شهريار بن كباد والهرجان الاهوازى والمزبل بن جسوم وجاسر الهمذانى ومعه أربعون فيلا وقد الجالنيوس بن قتاده (قال الراوى) فلما اجتمعت الجيوش خرج كسرى يعرضهم بأرض شهرطاق ومراشة وكان رأس جيشه بهرمان فاعرض الجيوش فاذا هى مائة ألف وخمسين ألفا غير الاتباع وقدم الديلم والعجم وامامهم الفيلة وعقدوا على ظهورها الاسرة بثياب الديباج وعلى كل سرير أربعون رجلا مقاتلة وهم يضربون بالطبول والصنوج وفى خراطيمهم اعى الفيلة السيوف ايقاذ لواتها وكان فيهم فيل اعور كانه الجبل العظيم وكان هو المقدم عليهم أى الفيلة حيث ماسار ساروا وراءه وان وقف وقفوا ومربوط وراء الفيلة عجل يحمل بيوت السلاح والاموال فلما عولوا على المسير عاد الملك اردشير الى ماذكر من المقدمين وقال اعلموا يا أهل فارس انكم ماز لتم ملوكا وهيبتكم فى قلوب الترك والديلم والروم والجرامقة وكذلك لما كنتم معدلين فى الرعية فادفعوا هذه القوم بالمال فان أبوا فدونكم والسيف وودعهم وساروا

(ذكر فتوح الخورنق وقتل النعمان بن المنذر وفتح الحيرة والقادسية)

قال رحمه الله حدثنا الحسن بن اسحاق قال اخبرنا سليمان بن عامر قال لغنى ان سعد ابن أبى وقاص قدم العراق فى ثلاثين ألف فارس من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة واخلاط العرب ومامنهم من قدم العراق الا باهله وولده وماقدم أحد من ملوك الفرس الا بماله كله حتى يقاتلون بجد وعزم وبذلك وصاهم الملك كسرى قال وان سعدا ارتحل من الرحبة الى الحيرة البيضاء وكان هناك جيش النعمان بن المنذر وقد ضرب خيامه والسرادقات الى ظاهرها وقد انضاف اليه جميع العرب وهم من العراق فى ثمانين ألفا وقد افاض عليهم النعمان النعم والخلع ووعدهم عن الملك كسرى بكل جميل وقال لهم ان هؤلاء عرب وأنتم عرب وهلاك كل شىء من جنسه وهؤلاء مثلنا وليس لهم فضل علينا وقد جعلونا الا كاسرة مقدمى دولتهم حتى نكون لهم ركنا وعلى أعدائهم عونا وليس لاصحاب محمد فخر يفتخرون به علينا لكن نحن لنا الفخر عليهم وهم يزعمون ان الله بعث فيهم نبيا وأنزل عليهم كتابا يقال له القرآن ونحن لنا الانجيل وعيسى بن مريم وجميع الحواريين ولنا المذبح ولنا القسوس والناقوس والرهبان والشمامسة وعلى كل حال ديننا عتيق ودينهم محدث فاثبتوا عند اللقاء وكونوا عند ظن الملك كسرى بكم قال فبينما هو يقول ذلك اذ جاءه الياس وهو صاحب الحرس فقال له أيها الملك ان أعداءنا قد انفذوا اليك رسولا فقال ائتنى به فاحضره وكان الرسول سعد بن أبى عبيد القارى

وال

فلما وقف بين يدى النعمان صاح به الحجاب والغلمان الارض قبل فلم يلتفت اليهم وقال
ان الله تعالى أمرنا ان لا يسجد بعضنا لبعض ولعمرى ان هذه كانت العادة المعروفة
فى الجاهلية قبل ان يبعث الله نبيه محمدا عليه السلام فلما بعثه جعل تحيته السلام
وكذا كانت الانبياء من قبله وأما السلام فهو اسم من اسماء الله تعالى وأما تحيتكم
هذه فهى تحية جبابرة الملوك فقال النعمان لسنا من الجبابرة بل نحن أجل منكم لانكم
توحدون فى دينكم وتقولون ان الله واحد وتجحدون ولده عيسى بن مريم فقال سعد
اخبرنى عن عيسى بن مريم اكانت القدرة فيه حالة اوربانية وجرى بينهم كلام كثير
قال فاعجب النعمان كلام سعد وقال له يا وضيع قومه ما الذى جئت به فقال ان الامير سعد
ابن أبى وقاص وجهنى اليك اذ انت من العرب ويصل اليك ما نقص عليك وهؤلاء القوم
علوج ليس لهم شريعة يؤدونها ولا فريضة يتبعونها ونحن ندعوكم الى شهادة أن لا اله
الا الله وأن محمدا رسول الله ولكم ما لنا وعليكم ما علينا فان أبيتم فأدوا الجزية وان أبيتم
الى ما دعوناكم اليه فأذنوا بحرب من الله ورسوله فلما سمع النعمان كلام سعد ضحك
استهزاء بقوله وقال لقد حدثتكم أنفسكم بالاباطيل اظننتم ان الفرس مثل الروم
لا وحق المسيح بل هؤلاء اثبت جنانا وأشد طعانا وأوسع ميدانا فليت شعرى من نفخ
فى معاطسكم وحسن الامل فى انفسكم حتى جئتم من قحط البلاد وترومون ملك
الاساورة وأخذ بلاد الاكاسرة ودونه حرب يصطلى اجرامه وتشب ضرامه وهذا
الملك اردشير قد انفذ جيوشه وعساكره كانكم بهم وقد اقبلوا فيذلون منكم ما يؤملون
وما حدثتكم به انفسكم تزيلونه من قلوبكم فقال سعد بن عبيد يا نعمان لقد تشرفت
بالباطل وتفوهت بالكلام غير عاقل أما علمت ان العاقبة للمتقين والله بكرمه يرفع عنا
البأس ويظفرنا بجميع الناس وقال نبيه صلى الله عليه وسلم ستفتح على امتى كنوز
كسرى وقيصر فاما كنوز قيصر فقد فتحها الله علينا وقد بقيت كنوز صاحبك فقال
النعمان من أين كان لصاحبك العلم ومن أين ورثه وقد بلغنا انه كان لا يكتب ولا يقرأ
فقال سعد بصره الله بالعلم فى القدم يعلم ما كتب فى اللوح المحفوظ بالقلم فلما سمع
النعمان كلام سعد قال له يا وضيع قومه ارجع الى قومك فليس عندنا جواب الا السيف
قال فركب سعد وعاد فوجدهم قد نزلوا بالقريب فحدث سعدا بما جرى له مع النعمان بن
المنذر وما كان من جوابه فقال الامير سعد بن ابى وقاص ينشد شعرا

ساحمل فيهم حملة عربية * ولا انثنى والله عنهم بعسكرى
فاما ترى النعمان فى القيد موثقا * واما طريح فى الدماء معفر

ثم أمر الناس بالرحيل فرحلوا وساروا الى ان اشرفوا على جيش النعمان قال فلما

اشرفوا على جيوش سعد أمر الناس بالركوب فتبادرت العرب الى خيولها فركبتها وجنبت الجنائب وضربت الكاسات وتبادرت الابطال ونشرت الاعلام فلما وصل سعد رضى الله عنه ولقى القوم قد أخذوا أهبتهم رتب جيشه وصفهم والهم وجعل فى الميمنة سعد بن عبيد القارى وفى الميسرة سعد العشيرة وفى الجناح الايمن سعد ابن بجيلة وعلى الجناح الايسر سعد بن الاقيس الهلالى وأقام الامير سعد فى القلب ومن معه أبو محجن الثقفى وزهير بن الحوية وشرحبيل بن كعب (قال الواقدى) رحمه الله حدثنا أحمد بن عامر قال أخبرنا على بن مسهر عن ابان عن الحسن قال فلما استوت الصفوف وترتبت كل قبيلة جعل الامير سعد يتخلل الصفوف ويعظ من فيها من عرب بجيلة وطى وبنى هلال والنخع وغيرهم ويقول هذا يوم لاترى بعده مثله أما بلغكم مافعل اخوانكم بالشام لما تكاثرت عليهم جموع الشام فاستيقظ المسلمون بقول سعد وقالوا نحن نحمل عليهم بشدة العزائم ولعل الله ان ينصرنا عليهم فصاحوا بخيولهم فخرجت كالرياح العواصف ولم يزالوا فى القتال الشديد الى ان توسطت الشمس فى قبة الفلك وقد ثبتت أصحاب النعمان بن المنذر للضرب والطعان قال الراوى وان القعقاع بن عمرو التميمى أو بشر بن ربيعة التميمى أحدهما التقى مع النعمان فى كبكبة من الخيل والازدهارات على رأسه فحمل القعقاع أو بشر على الكبكبة ففرقها وعلى الكتيبة فرقها واجاد النعمان بطعنة فى صدره أطلع السنان يلمع من ظهره فلما نظرت جيوش الحيرة الى الملك النعمان مجندلا ولوا الادبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس وغنم المسلمون رحالهم وأموالهم وباتوا فرحين وافتقدوا من قتل من المسلمين فكانوا خمسمائة وثلاثين غالبهم من أهل نخع وقد ختم الله لهم بالشهادة وفى ذلك قالت خزانة بنت خالد بن جعفر بن قرط ترثى من قتل من المسلمين فقالت شعرا

يا عين جودى بالدموع السواجم * فقد شرعت فينا سيوف الاعاجم
فكم من حسام قطع طرف دابل * وطرف كميت اللون صافى الدعائم
وابك على سعد وعمرو ومالك * وسعد سواء فى دائرات الغمائم
ومن فتية غر الوجوه اعزة * يخرقن الاوصال شعث الجماجم

قال وان المسلمين جمعوا الاموال واحتوى سعد على قصر الخورنق والسرير وترك جميع ما أخذه بالحيرة وترك عنده سالم بن نعيم بن مسروق وترك عنده مائة من أبناء المهاجرين والانصار قال واما من انهزم من جموع النعمان بن المنذر وردوا على القادسية وعليها جنود الفرس مع رستم زاد بن اسفنديار ومعه شهريار بن كبار والمزيل بن حسوم وحشرسوم الهمذانى والجماتيوس بن فناك وشماهير بن جسوسا قال فلما رأوا المنهزمين

من جيش النعمان ملك العرب سألوهم عن امرهم فاخبروهم بقتل النعمان وأخذ الحيرة وقصر الخورنق والسرير وجميع ما فيهم قال فوقعت الشوشة فى عسكر الفرس وتمكن الخوف من قلوبهم وكثرت الاراجيف وأما رستم فانه جمع الملوك والاساورة وملوك الديلم فى خيمته وقام على سريره خطيبا فقال اعلموا ان الدولة بالسياسة والناموس بالرياسة وكانكم بالعرب وقد اشرفوا عليكم فاخرجوا واذهبوا اليهم واركبوا فخرجوا من عنده واخذوا اهبة الحرب فبينما هم كذلك واذا بعسكر سعد قد اشرف عليهم وهم على الخيل المضمرة العربية وعليها الفرسان الاسلامية والطائفة المحمدية فرتبوا الصفوف وجعل رستم ملوك الفرس عن يمينه وملوك الديلم عن يساره ووقف رستم فى القلب ودارت به الاساورة فبينما هم كذلك اذ بعث الامير سعد رسولا الى رستم وكان الرسول أبو موسى الاشعرى فقصد القلب فلما رأوه الحجاب أتوا اليه والترجمان معهم وقالوا له يا عربى ما الذى تريد قال أنا رسول من صاحب الجيش فبلغوا رستم ما قاله أبو موسى الاشعرى فقال قولوا له مالك وصول الى المقدم ولكن افصح لنا عما تريد حتى نأتيك بجوابه قال فبلغه الترجمان ما قالوه قال قل لهم ندعوكم الى الشهادة فان ابيتم الاسلام فتؤدوا الجزية فان ابيتم فالسيف اصدق شاهد وقد قال الله فى كتابه العزيز وكان حقا علينا نصر المؤمنين فبلغهم الترجمان ذلك ورجع أبو موسى الى سعد فلما جن الليل هرب من عسكر رستم جماعة والتجؤا الى عسكر المسلمين فلما اصبح رستم بلغه ان جماعة من عسكره هربوا الى عسكر المسلمين فبعث رسولا الى سعد يطلب منه ان يرد عليه الذى هرب من الاساورة والمرازبة فقال سعد انا قوم لا نخفر زمامنا ولا ننقض عهدنا وقد أتوا الينا مستسلمين وفى صحبتنا راغبين فيجب علينا ان نذب عنهم ولا نمكن أحدا منهم فعاد الرسول الى رستم واعاد عليه الجواب فغضب وأمر الجيوش بالزحف قال وكان الذى هرب الى جيش سعد شاور بن سليم وسليك بن اكتم وضرار بن مكتال ومن تبعهم فلما رأوا العساكر قد أقبلت تريد المسلمين قال القعقاع أيها الامير قد تقدمت الاعداء والفيلة امامهم ولا مقام لخيل العرب عند رؤيتها وصياحها فقال سعد اخلصوا النيات وارضوا خالق الارض والسموات وارشقوا الفيلة بالنبل وقطعوا مشافرها بالسيوف قال وكان امام الفيلة فيل عظيم كانه جبل وكان اذا سار ساروا واذا وقف وقفوا واينما توجه كانوا وراءه قال فلما حملت الكتائب واضطربت المواكب وجاءت الفيلة كانها جبال وعلى ظهورها الابطال وقد أقبلت بالسيوف فى خراطيمها فاقتلعت عسكر المسلمين ولم تثبت لها خيول المسلمين فرفع سعد بن أبى وقاص كفيه مبتهلا بالدعاء لرب الارض والسماء وقال ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على

القوم الكافر بن قال زهير بن الحوية والله لقد رأيت سعدا يدعوا وعيني مع الفيلة واذا بالفيل الاعور قد ولى يريد المدائن والفيلة باجمعها والرجال لا يقدرون على ردها وهى سائرة على وجوههاوكفى الله المؤمنين القتال من الفيلة قال فلما ولت الفيلة غضب رستم واقبل بعموده الذى من الذهب يضرب به وجوه الفيلة ويطمطم بفارسيته ويحرض قومه على القتال وهم يحملون خوفامنه وهو يطلب من هرب من جيشه والخيل امامه منهزمة والمسلمون لا يتبعون المنهزمين ووقفوا مواقفهم وقد طابت قلوبهم بعسا لة الله وطعنوا فى صدور الاعداء وقد اطلع الحق على قلوبهم فما وجد فيها غيره فبينما الامير سعد يحرض على القتال اذ التقاه الاسود العبسى وهو طائش العقل ذاهل اللب فقال له ماوراءك يا ابن قيس فقال أيها الامير اياك ان تعبر هذا الصف فان فيه الموت الاحمر والصيم القسور وهو جبار من الفرس وقد قتل من المسلمين أربعة ولقد قاتلته حتى كاد ان يأتى على ولولا ان من الله على بخالد بن جعفر بن قرط لكان قتلنى لان فيه شجاعة وبراعة فقال له سعد يامسكين واين المفر من القدر وقد قدر الله الاقدار اما سمعت قول الملك الجبار أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ودخل الصف الذى ذكره الاسود واذا قد لقيه خالد بن جعفر ولونه قد تغير فقال له ماوراءك يا ابن جعفر فقال الثعبان الاغبر والاسد الغضنفر أيها الامير ارجع عن هذا الفارس فانه علج عنيد وفى يده عمود من الذهب يورث به خصمه العطب وقد قتل الاقران واباد الشجعان وقد كاد ان يقضى على لولا سعد العشيرة أدركنى لكان أهلكنى فلما سمع سعد ذلك عظم عليه وقصد مكانه يريد ان يفدى الناس بنفسه وبروحه ويبذل فى سبيل الله مهجته وهو يخترق الصفوف فلقى سعد العشيرة فقال له ماوراءك يا ابن لؤى قال ورائى جبار لا يقابل وبطل لا ينازل ولولا بشر بن ربيعة لسقانى من عموده كاس القطيعة فلما سمع قوله قصد نحوه فوجد بشرا مصفر اللون فقال له ماوراءك يا ابن ربيعة فقال ما قصر القعقاع انى لولاه لكنت من الهول على غرف فسار سعد على طريق بشر وقد سلك سبيل توفيقه والتقى القعقاع وهو يفرق الكتائب ويصدم المواكب فقال له لله درك يا ابن عمرو ابن فارس الروم وكيف خلص من يدك فقال أيها الامير لولا انه دخل الصفوف لسقيته كاس الحتوف وغاص فى وسط الخيل ولم ابلغ منه النيل (قال الواقدى) رحمه الله ولم يزل القتال بين المسلمين والكفار الى ان فرق الليل بينهم فرجعت كل طائفة الى مكانها فلما رجع رستم الى سرادقه بعث غلمانه الى مقدمى عسكره فحضروا فقال لهم لقد خذلتم وأنزلت بكم النار البوار فما الذى خذلكم وأى شىء شغلكم ونزل بكم وأنتم اولوا البأس الشديد والامر العتيد وهؤلاء قوم كنا لا نعبأ بهم ولا تحدثنا أنفسنا عنهم بامر وقد خذلوا

فرسانكم وأوردوهم موارد الهلاك وقتلوا منكم الصناديد فبأي وجه ترجعون الى المدائن وبم تحتجون عند الملك يردشير واني أرى دولتكم قد انصرمت وايامكم قد انقضت فقالوا أيها السيد لقد بلينا بقوم لا يرهبون الموت ولا يجزعون من الفوت وكلما طعنا صدورهم تقدموا وكلما قلنا نجوعهم صدموا فقال رستم ما أرى من الرأى الا ننا نصف الليل نكبسهم فلعلنا نظفر بهم ويكون لنا عند الملك اليد البيضاء فاستصوبوا رأيه وافترقوا ان يصلحوا شأنهم (قال الواقدى) رحمه الله حدثنا عامر بن سويد قال لما رجعنا من قتال العدو الى خيمة سعد فرأيناه باسطا على التراب فلما رآنا قال مرحبا بقوم هجروا الدنيا وطلبوا العقبى كيف كان يومكم قلنا لقد شفينا نفوسنا من الاعداء ونصرنا شرع نبينا المصطفى ولقد رميت منا رجال كثيرة من المسلسلة ونشابهم فقال سعد أجمعوا الى العسكر جميعه وامروا غلمانكم ان يجمعوا الشيح والقيصوم فاني أريد أمرا ارجوا لكم به النجاة من الله قال ففعل القوم ذلك فقال للموالي اجعلوا ما جئتم به من الشيح والقيصوم على ظهور الابل ووجهوها نحو المسلسلة فاذا قربتم منها اضرموا النار في ظهور الابل والذعوها باسنة الرماح حتى تدوسهم ونحن من ورائكم بسيوفنا قال ففعلوا ذلك فلما أتى الليل تقدموا امام العسكر بالاموال والموالي من ورائهم الى ان قربوا من المسلسلة واطلقوا النار في الشيح ولذعوها بالاسنة فلما رأت الجمال ما على ظهورها من النار وما حل بها من الاسنة داست صفوف المسلسلة دوس الحصيد وحطمتها على وجه الصعيد وركب الامير سعد مع الجيش ووضعوا السيف فيمن بقي من المسلسلة فبينما هم كذلك واذا بعساكر الفرس قد أتوا وارتفع الضجيج وعلا العجيج وسميت تلك الليلة بليلة الهديرة ولم يزالوا في القتال الى الصباح قال فسمعت قائلا يقول كفينا كم فقلت من أنتم فقالوا نحن من خزيمة النخع ولم يزالوا يقاتلون حتى والله ما بقي منهم أحد ولا بقي لهم فسل قال فلما طلعت الشمس ركب رستم بن اسفنديار وركب جيشه عن آخرهم ورجعوا باجمعهم فاستقبلتهم الموحدون وسعد يتخلل الصفوف ويعظهم ويوصيهم أي الامراء وكان في الليل تدطاف على العسكر فرأى أبا محجن الثقفي يشرب الخمر فقال له يا عدو نفسه لقد ضيعت أجر جهادك وعبادتك والله لآخذن منك حق الله وجلده الحد وقيده (قال الواقدى) رحمه الله أخبرنا يوسف بن عمر قال الاسدى عن طلحة ومحمد قالوا ان اول من فتح الحرب كان رستم وطلب البراز فخرج اليه بن نجيبة فقتله فخرج زهير فقتله فاراد القعقاع ان يخرج واذا بفارس قد أقبل الى رستم وهو كالريح في هبوبها فصاح برستم صيحة ادهشه وطعنه في خاصرته طلع السنان من الخاصرة الاخرى فنظر اليه سعد فاذا هو أبو محجن فلما رأى ابا محجن وقد صنع برستم فقال للثبركل عليه سألتك بالله

الاما تركني قال الواقدى رحمه الله تعالى حدثنا يوسف بن عبد الاعلا قال حدثنا عامر
ابن ابراهيم عن عبد الله بن المبارك قال لما نزل سعد بن أبي وقاص على القادسية وقاتل
عسكر الفرس وانهزمت الفيلة الى المداين وكان سعد رضى الله عنه يتسكر فى الليل
ويمشى فى عسكره فمر فى بعض الليالى برجال من ثقيف فوجد أبا محجن وهو يشرب
ويترنم على خمرته فلما رآه غضب وقال له لقد ذهب أجرك ونقص قدرك بعد جهادك
للكافرين تتعرض لغضب رب العالمين اترضى لنفسك بذلك ثم انه حده وقيده وجعل
عليه من يحفظه الى كان من الغد ووقع الزحف وبرز فارس العجم وكان منه ما ذكرناه عاد
الى القيد فلما قتل رستم بمشاهدة الناس أتى اليه سعد ليعلم حقيقة الامر فوجده فى القيد
فقال له يا أبا محجن أنت صاحب الفضيلة فقال الفضل لله ولرسوله فاقسم عليه فحدثه
بحديثه فقال له اذا كان هذا فعلك اذهب فقد عفوت عنك ومن عاد فينتقم الله منه
فقال أبو محجن والله ما عدت أشربها ابدا وتاب (قال الواقدى) رحمه الله تعالى حدثنا
رابدة عن جده مروان بن اوس قال كنت بالقادسية وشهدت فتحها لما قتل رستم
وولده بحر شير وولت الفرس على عقبها الا يلتفت أحد منهم الى ما وراءه من الاموال
والاصحاب ومالهم قصد الا السلامة لانفسهم وأتى نساء المسلمين ومعهم الماء فداروا
بين القتلا والجرحى فمن وجدوه من المسلمين فيه ارمق يسقوه الماء ويمسحوا على وجهه
ويسقلون من قتل من العرب الى العرب ويتركون رمم الفرس (قال الواقدى) رحمه الله
حدثنا سليمان بن بشر عن ام كثير امرأة همام بن الحارث قالت شهدت القادسية مع
سعد فلما نزل النصر وانهزمت الفرس شددنا ثيابنا وأخذنا الماء وابتغينا القتلى من
كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ومن كان من المشركين أخذنا ما عليه حدثنا
الحارث عمن أدرك ذلك قال لم يكن من قبائل العرب أكثر نساء من نساء بجيلة والنخع
وكانوا الف وسبعمائة امرأة قال وأخذت المسلمون عدتهم لم ير الراؤن مثلها وأصيب من
المسلمين سعد بن عبيد وسفيان بن سليم والمهلب بن غزوان والقادح بن عبسة ونعمان
بن نعيم وأربعون رجلا من المهاجرين والانصار وسذكر من قتل ممن كانوا يقرؤن القرآن
اناء الليل كدوى النحل قال وأخذ المسلمون من الاموال ما لم ير مثله ولما كان
بعد الفتح بيوم جاءت النجدة التى بعثها عياض بن غنم من أرض الموصل وجاء من شهد
الفتوحات بالشام مع عامر بن الجراح وكان الذين قدموا سبعمائة فلما وصلوا الى عين
التمر استعجل للنصرة فترك الجيش وسار فى سبعين فارسا وأتت بقية السبعمائة بعد
ذلك وكان معه قيس بن يغوث وقيس بن أبي حازم وسعيد بن ندار ومالك الاشتر النخعى
فتقدم هاشم وقيس معه فى السبعين (قال الواقدى) رحمه الله حدثنا ابراهيم بن

بشار قال اخبرنا محمد بن على عن سليمان بن ارقم ان عدة القتلى التى بالقادسية تسعة وثمانون رجلا وكان المشهور منهم قيس وعطارد وهشام ومدعور ومقرب الاسود وعمرو بن قيس والنعمان (قال الواقدى) رحمه الله تعالى ورضى عنه حدث عن رجل من تميم عن امرأة منهم قالت شهدت القادسية وصح للنساء لكل منهن ثلاثة وثلاثون مثقالا من العنبر ومثلها مسك وأما الكافور فلما كنا نعبأ به الامن عرفه وكانت العرب تقول للسوقة هل لكم من ملح طيب وكانوا يعطون كيل كافور بكيل ملح وان رجلا من العساكر عجن عجينا وجعل فيه من الكافور وجعل يذوقه بعد خبزه ويقول مال هذا الملح لا يطعم فى العجين وان رجلا من له خبر بالملح قال أعطيكم جراب ملح يطعم طعمه قال فاخذوه واعطوه ملأ جرابه كافورا قال وان سعد لما هزم الله العدو على يديه جمع الاموال كلها وكان الذى يقبض الاموال سليمان بن ربيعة قال فكتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عامله بالعراق سعد بن أبى وقاص الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب اما بعد سلام عليك وانى أحمد الله الذى لا اله الا هو واصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وانا وصلنا الى العراق والتوفيق يقدمنا والنصر يؤيدنا وقد اطلع الله على قلوبنا وامتحن خفى اسرارنا فما وجدنا فيها سواه ولا يعبد الا اياه فوفى لنا بوعده اذ وفينا بصادق عهده ولقينا العدو وهو شاك فى السلاح وغير راجع عن الطماح وقد شمر لنا عن ساق الجد فدارت لنا عليه الدوائر فهزمنا كتائبهم وزلزلنا مواكبهم واستاصلنا ساقتهم وقتلنا مقدمهم فجرى بذلك سابق القدر وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر وملكنا الحيرة والقادسية وأنزل الله باعدائنا الرزية فلما كان بعد الفتح بيوم قدم المرقال وهشام وسبعون رجلا من الصحابة وبعده بثلاثة ايام قدم سبعمائة من الشام من جند أبى عبيدة ولم اسلم لاحد شيأ من الغنيمة ونحن ننتظر أمرك فى ذلك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين وسلم الكتاب الى زيد بن عمرو فركب نجيبه وسار نحو المدينة قال اخبرنا احمد بن عمرو قال حدثنى سابق بن مسلم قال وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يركب فى كل يوم نجيبه ويقصد طريق العراق الى قريب الظهر وذلك لما بلغه ان رستم نزل على القادسية قال فخرج على عادته اذ لقيه البشير وهو نوفل فلما رآه نوفل ابرك ناقته وسلم على امير المؤمنين وقال له ابشر بكل خير ودفع اليه كتاب سعد وهو يقول قد هزم الله العدو ونصر الموحدين وملكنا الحيرة والقادسية ومشى هو واياه وهو يخبره بما كان الى ان دخلوا المسجد وهرع الناس اليهم الى ان غص المسجد بهم فرقى المنبر وقرأ عليهم كتاب سعد وقال الا ان اخوانكم المسلمين يقرؤنكم السلام وقد ابعدوا

الكتاب والسنة وتحادوا عن طريق البدعة واقاموا على شرائع الهدى وأرادوا المشورة فيمن قدم عليهم فاما الجواب فالعيمة لمن شهد الوقعة والمواساة لمن لحق بهم بعد الوقعة بثلاثة أيام ونزل عن المنبر وكتب الى سعد بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد سلام عليك فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو واصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقد وصلنى كتابك فحمدت الله كثيرا بما فتح الله على أيديكم وانى قد ابليت بكم وابليتم بى وانى والله لا احصى شيأ من أموركم فاكاد واما اذا اجتمع صلح عاد الشقق اوالى وبعض الرعية فعلى الوالى العدل والاحسان وعلى الرعية الصبر والشكر وأما الغنيمة فلمن شهد الوقعة والمواساة لمن أتى بعد ثلاثة أيام ومن شهد حربكم من مملوك وعتيق بعد ثلاثة أيام فاشركوه فهو الاحسان فيما فتح الله عليكم وختم الكتاب وسلمه للرسول فسار يجد السير الى أن أتى سعدا ودفع اليه الكتاب فلما قرأه كتب اليه بعد البسملة يعلمه بما تجدد اما بعد يا أمير المؤمنين فانى لم أر فارسا مثل القعقاع بن عمرو التميمى فانه حمل فى العدو فى يوم واحد ثلاثين حملة يقتل فى كل حملة فارسا ولم ار فارسا مثل الحارث الهمدى فانه كان يحمل فى المواكب فيقصم عروقها وارسل الكتاب الثانى والخمس مع سعد قال وو صلوا منهزمين الفرس الى المداين ودخلوا الايوان وحدثوا كسرى بما جرى وبقتل رستم وولده فاغتم لذلك وايقن ان دولة الفرس قد انقرضت وانصرمت فاحتجب ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع مات لانه حمل على قلبه فقام بعده ولده يزدجرد ولم يكن له غيره قال حدثنا عبد الله بن مروان قال حدثنا نعيم عن جده وكان احمل الناس بالفتوح قال لما وجه كسرى بن اردشير رستم الى قتال سعد انفذ معه نصف بيت ماله وهى ستمائة الف الف مرة بن الى المصاف فلما صفت الصفوف وضعها امام الجيش وقال كل من قتل فارسا كان له كذا وكذا ومن قتل راجلا له كذا وكذا فصار ذلك كله الى المسلمين أرسل سعد مع الخمس مائة ألف الف وعشرين ألف ألف دينار فلما وصل المال الى عمر بن الخطاب بكى وقال اف لمن يغتر بالدنيا أو يميل اليها ثم قرأ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى فوالله لم يلتمس منه قليلا ولا كثيرا ولا درهما ولا دينارا فقالت له حفصة يا أمير المؤمنين لو وقعت به نفسك واكلت طعاما اطيب من طعامك ولبست ثوبا ابين من ثوبك وقد فتحت لك الفتوح وأتت لك الاموال فتغير وجهه غضبا وقال لها ناشدتك الله اخبرينى عن افضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت مال المسلمين قالت ثوبين كان يلبسهما يوم الوفد ويخطب فيهما يوم الجمعة والعيدين فقال أى طعام كان يأكل عندكن قالت خبز الشعير وكان عندنا فى اسفل عكة دسم فان تظاهر طعمه بها يقول قد زدتن فى الدسم قال فاى بساط كان يبسط له

عند كن قالت كان لنا كساء نجعله فى الصيف تحتنا وفى الشتاء نفرش نصفه ونلتحف نصفه فقال ياحفصة ان مثلى ومثل صاحبى كثلاثة نفر تتابعوا طريقا فمضى الاول وقد تزود زادا فبلغ ثم تبعه الثانى فسلك طريقه فمضى اليه ثم تبعهما الثالث فان لزم طريقهما ورضى بزادهما كان معهما وان سلك غير طريقهم الم يجتمع معهما أبدا

(ذكر فتح نهرشير)

(قال الواقدى) رحمه الله وان عمر رضى الله عنه بعث الى سعد بأن يمضى الى المدائن وان يخلف النساء والاولاد فى الحيرة وعندهم من الجند جماعة ويجعل لهم شركة فى كل مغنم وكان مقام سعد بعد الفتح بالقادسية شهرين فلما استهل الشهر الثالث انفذ على مقدمته زهير بن الحوية واتبعه بعبد الله وشرحبيل بن السمط واتبعهم بهاشم بن عتبة وخالد بن عرفجة صاحب الساقة وقسم الجيش معهم وقد غنموا ما كان فى عسكر الفرس من مال وسلاح وكراع وكان رحيلهم من القادسية الى أيام مضين من شهر شوال قال ونزل زهير بالكوفة بن معه ولحق به عبد الله وشرحبيل ومن معه وتتابعت الجيوش وارتحل زهير سائرا الى البرس ونزل عليها واذا بأناس من أهل السواد أتوا اليه وطلبوا منه امانا فاعطاهم وقال لهم ما عندكم من خبر العدو فقالوا أيها الامير استعمل الحذر جلبا باواتيقظ بابا واعلم ان رجلا من المرازبة قد ضمن لكسرى لقاءكم وردكم ومعه عسكر جرار فقال زهير ابعد الله شره وجعل كيده فى نحره فبينما هو كذلك اذ اشرفت عليهم طلائع القوم وتباينت لهم البيارق والاذرع سارات فركب زهير الى لقائهم ورتب أصحابه الى الحرب وهو يقول ان ينصركم الله فلا غالب لكم (قال الواقدى) رحمه الله ولما اشرفت الكتائب اطلقوا السنتهم بذكر الله وتسارعوا اليهم فاوسعوا لهم فى الميدان وتقدمت الصناديد وتأخرت الرعاديد وضج المسلمون بالتكبير فطعنوهم فى صدورهم ونحورهم واذا قد وقعت عين زهير على فارسهم الصنديد وبطلهم الشديد فقصده دون غيره فتطاعنا وتضاربا وتقاربا وتباعدا ثم ان زهيرا اجاده بطعنة فى صدره اخرج السنان من ظهره فخر الى الارض صريعا فلما رأوه ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وكان فيهم رجل من أكابرهم ذو عقل سديد ورأى رشيد فلما رأى ماحل بقومه أتى الى زهير طائعا مختارا واعتقب له منه صلحا فاعطاه امانا وسأله عن خبر جيوش كسرى فقال ياسيد قومه اعلم ان اكابر من انهزم منهم بالقادسية قد اجتمعوا وهم بالهرجان والهرزاق الدارى والهرمزان فقال لهم القيروان بأى وجه تعودون للملك كسرى وقد اعطاكم الوظائف والاعطاآت والولايات فاقيموا هنا حتى تبيض وجوهنا عنده أونهلك عن آخرنا قال فلما سمع زهير وعبد الله وشرحبيل وهاشم وخالد

انتظروا سعدا حتى اتى واعلموه فقال استعينوا بالله وتوكلوا عليه وكانوا قدملكوا الجسر فعبروا عليه وعدوا الى الجانب الاخر واشرفوا على جموع القوم فوقعت فى الفرس الاراجيف وتمكن الخوف من قلوبهم وكلما عين الهرمزان والقيروان جيشهما وصفاصفا انتقض بغيره فعلم ان مافيهم خيرا وماكانت الاساعة حتى ورق الله جموعهم وبدد شملهم وانطلقوا على وجوههم فمضى الهرمزان الى الاهواز وكانت كور كسرى فى جبل ظاهر الاهواز وكان عليها مقدما نهاوند فلما بلغه هزيمة العسكر نهبها واما النهريان ومهران فانهما قصدا المداين وعبروا نهرشير وهى مدينة الذنب قال فلما حصلوا بالعدوة القصوى وقطعوا الجسر قصدوا الايوان ويزدجرد هناك فدخلوا عليه وحدثوه بما جرى لهم مع العرب فلما سمع ذلك ايقن بزوال ملكه فلما كان الليل عول على ان ينفذ امواله وذخائره الى نهاوند وتهيأ للهرب واما زهير فانه سار فى اثر القوم حتى جاوز سوار ونزل وأتى بعده هشام والمرقال ونزلا عنده حتى تكامل الجيش ونزل سعد بن ابى وقاص وارتحلوا الى كوثاريا واشرفوا عليها فلما رأوا الفرس عسكر المسلمين قد اشرف عليهم اخذوا اهبة القتال وتهيؤا ومقدمهم شهريار فلما وصل اليهم زهير ورآه شهريار وقع الرعب فى قلوب اصحابه وماج بعضهم فى بعض ولولا خوفهم من شهريار لولوا الادبار ورتب زهير اصحابه فلما استوت الصفوف خرج شهريار للبراز وعليه زى الملوك الاكاسرة وقال انا شهريار فهل يبرز الى فارس لفارس اواربعة لفارس اوعشرة لفارس فلما سمع زهير قال والله لقد اردت برازك غيرانى لاادع يخرج اليك الاعبدا ان قتلته فتكون قد قتلت عبدا وان قتلك فهو المراد ثم انه دعى مولاه ابانباتة الاعوجى فقال له دونك وهذا العلج واستعن عليه بالله فخرج اليه ابونباتة فلما وصل اليه ونظره استحقره لان شهريار كان مثل البعير فالقى نفسه على أبى نباتة وقد جرد سيفه فلما رآه ابونباتة قد وصل صادمه لله كأنه اسد وتضاربا بالسيوف حتى تكسرت فرمياها وتقابضا حتى سقطا الى الارض فوقع شهريار على ابى نباتة وهو يراوغه فوقعت ابهام شهريار فى فم ابى نباتة فقطعها فارتخت اعضاؤه فانفلت وانقلب عليه فصار فوقه وجرد خنجره وطعنه به فى نحره فقضى عليه فاخذ تاجه وسواريه وسلبه وفرسه وعدته وتوجه بهم الى المسلمين فلما نظر جيشه ماحل به ولوا الادبار واقام زهير هناك الى الصباح واقبل بقية جيش الموحدين فحدث زهير سعدا بما جرى لمولاه مع شهريار وكيف انهزم الفرس ففرح سعد بذلك وامران يحضر ابانباتة فاحضره فقال سعد عزمت عليك الا لبست سواريه ودرعه وتاجه وركبت جواده قال ففعل فاعطاه

السلب جميعه وقال له قد افلحت فكان أول مسلم سور بالعراق قال الواقدي رحمه الله تعالى حدثنا نوفل بن عدي قال اخبرنا وائل بن غانم اليشكري قال لما قدم سعد الى كوثاريا نزل في المكان الذي سجن فيه ابراهيم الخليل عليه السلام فصلى فيه وحمد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقرأ وتلك الايام نداولها بين الناس الآية قال وأقام سعد بمشهد كوثاريا أياما ثم دعى الناس اليه وقال لهم اعلموا ان الله تعالى قد نصركم في مواطن كثيرة وقد اراكم ما وعدكم نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم لما قال ستفتح على امتي كنوز كسرى وقيصر وقد ملكتم طرفا من كنوز كسرى والتمام على الله وقد عولت على العبور الى المدائن التي من الجانب الغربي فقالوا جميعهم أيها الامير ما منا من يخالف ولا يتخلف ولا يبخل بنفسه على الله ورسوله فاعزم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قال فلما سمع قولهم قدم زهير ابراته وجيشه وأمره أن يسير فسار في اثني عشر ألف فارس فما سار غير بعيد اذا رأى بين يديه خيلا وعليها فوارس فاخذوا أهبتهم فاذا هم زهاء عن مائتين فارس من الفرس فارسلوا منهم فارسا يعلم المسلمين انهم أهل ساباط ومقدمهم يقال له سرزاد وهو يطلب لاهل بلده صلحا وعهدا فقال له زهير ائتني به فلما اقترب منهم ترجلوا وأتوا المسلمين فتلقوهم بالبشر والسرور فقال لهم زهير من أنتم قالوا نحن أهل ساباط وهذا مقدمنا وقد أقبلنا نطلب صلحكم فقال زهير من قصدنا قبلناه ومن أراد صلحنا صالحناه ولسنا قوما نريد الفساد في الارض ثم امضى صلحهم على ما وقع عليه الاتفاق بينهم قال وانطلق سرزاد الى قومه ومعه جماعة فرحين بالصلح ولما نزل زهير في ساباط وجد كتائب الفرس وعليهم مقدم يقال له فيروز وهو فارس قومه ومعهم كبكبة كسرى الذي يعتمد عليها في وقت شدته قال واجتمعت جيوش الموحدين عند زهير مع سعد وتأهبوا للقتال قال الواقدي رحمه الله فلما ترتبت الصفوف كان أول من برز واشتهر وسمى وافتخر فيروز ورطن بالفارسية وقال يا هؤلاء العرب لقد أطمعتم أنفسكم فيما لا تصلون اليه وساءت ظنونكم وزعمتم انكم تملكون العراق وتأخذونه من ايدي الاكاسرة وهذا ظن لا يصير ابدا ونحن كتيبة كسرى اولو الشدة والباس والقوة والمراس وانا عقيدتهم والرئيس فيهم فليبرز الى مقدمكم ويفعل مثل ما فعلت انا من بين قومي قال فما استتم كلامه حتى خرج اليه هاشم بن المرقال يجر قناته من ورائه وحمل عليه وحصل بينهما حرب يشيب منه الطفل ثم ان هاشما طعنه في صدره واطلع السنان من ظهره قال فلما قتله هاشم ورجع الى المسلمين قبله سعد بين عينيه فترجل هاشم وقبل رجل سعد وقرأ اولم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم من زوال قال وارتحلوا في أثرهم الى ان نزلوا بمشير وبقي كلما اقبلت

قبيلة تكبرون نزل الى ان احاطوا بها من كل جهة فاظهر القوم الزينة والسلاح والعدد والمجانيق وهم على الاسوار (قال الواقدى) رحمه الله وأقام سعد على نهرشير شهرين وبث خيله للغارات على شط الفرات والدجلة فاتى ومعهم ألف فلاح نضمهم الى سرزاد مقدم ساباط حتى يأتيه الجواب فيهم من عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورجعوا الى مقرهم فكتب سعد الى امير المؤمنين يقول بعد البسملة امابعد سلام عليك ورحمة الله وبركاته فانى أحمد الله الذى لا اله الا هو واصلى على نبيه واشار لنا على نهرشير بعد مالقينا فيما بين القادسية ونهرشير عسكرا مع قرط بن فيروز وظفرنا الله به وبمن معه وان فيروز قتله هاشم وانهزم من بقى معه ونزلنا بعد ذلك على نهرشير وبث ناعساكرنا فاصابوا من الفلاحين الف نفر فما رأيك فيهم فاجابه ان من اتاكم من الفلاحين اذا كانوا مقيمين على عهدكم ولم يعينوا عليكم عدوكم فهو امانهم ومن لم يأتكم وهرب منكم وادركتموه فشأنكم واياه افعلوا فيه ماشئتم فلما جاء الكتاب خلى سبيلهم وارسل وراء الدهاقين فدعاهم الى الاسلام او الجزية فاجابوا الى اداء الجزية قال واما اهل مدينة نهرشير شرعوا يرمون عسكر المسلمين بالسهام والحجارة والمجانيق فلما نظر سعد الى ذلك دعى سرزاد وقال له ان اهل هذه البلد لم يتركوا للصلح موضعا واريد منكم ان تصنعوا لنا مجانيق ففعل سرزاد وعمل مجانيق فما مضت ثلاثة أيام حتى صنع له ذلك ونصب له على نهرشير أكثر من عشرين منجنيقا فاشغلوهم بها عن قتال المسلمين والعرب فرحت بذلك فلما طال على البلد الحصار خرجوا يقاتلون المسلمين وتبايعوا على الصبر فقاتلهم المسلمون قتالا شديدا وترامت الفرس بنشابها والعرب بنبالها وقاتل زهير بن الحويرية قتالا يرضى الله ورسوله ثم ان زهيرا قال لسعد دعنى اتقدم لعلى ارمى بنبلة او اضرب بسيفى هذا ضربة وتقدم ودخل العدو فالتقى بفارس اسمه شهريار فحمل عليه وطعنه طعنة اخرج بها امعاءه وقتله فاجتمعت عليه الاعاجم فقتلوه وانهزموا ودخلوا المدينة واغلقوا الابواب وصعدوا على الاسوار وبعدها اشرف علينا رجل منهم وقال ان الملك يقول لكم هل لكم فى الصلح على ان لنا مابين دجلة الى هنا ولكم ما يأتيكم من دجلة الى جبلكم فتقدم اليه ابو مقرة الاسود بن قطبة وقد انطقه الله بالا يدرى ماهو فاجابه بالفارسية وهو لا يعرف منها شيأ ولا يحسنها قال فرجع الرجل على السور وقلنا لابى مقرة ماقلت له فقال والذى بعث محمدا بالحق ما ادرى ماقلت له الا ان الله انطقنى بشىء ولعل ان يكون فيه خير للمسلمين ولا زالوا يسألونه حتى سأله سعد بن أبى وقاص فقال والله يا أمير ما اعلم ولا أدرى فتعجب سعد من ذلك وأمر الناس بالزحف والرمى ولا أحد من أهل المدينة يظهر لهم ولا يبان فقلنا العل

ان يكونوا يكيدون بمكيدة واذا نحن فى اليوم الثانى برجل قد خرج الينا وهو ينادى الامان الامان فأمناه وأتينا به الى الامير سعد فقال له ما الخبر قال ان القوم ليسوا فى المدينة وقد هربوا فقال سعد ومن أى شىء هربوا فقال الرجل ان الملك بعث اليكم رسولا يعرض عليكم الصلح فاجبتم انه لم يكن بيننا وبينكم صلح أبدا حتى نأكل عسل أفريذين بأترج كوثا فلما بلغه هذه الكلمات منكم قال واويلاه ان الملائكة تتكلم على ألسنتهم وترد علينا وتجيبنا عن العرب والله لئن لم يكن كذلك والا فهو انما هو الاشىء ألقى على فم هذا الرجل فابرزوا الى القصوى فخرجوا من البلد وقد تركوا المتاع والاموال والرجال ولم يكن غنيمة الا أنفسهم قال فلما سمع سعد ذلك من الرجل سجد لله شكرا وأمر المسلمين ان يدخلوا المدينة بالعدد خوفا من الكمين ففعلوا وركب سعد وتقدم المجاهدون ودخلوا وداروا البلد فلم يجدوا فيها شيأ أحدا من الفرس ووجدوا الاموال على حالها فاحتووا عليها وأقام سعد بها ثلاثة ايام وخرج الى الشط وأراد ان يعبر بالناس الى المدينة القصوى وهى اسبانير فلم يجد شيأ من السفن فأقام اياما من شهر صفر والناس يحرضونه على العبور الى ذلك الجانب وهو يأبى اشفاقا بالمسلمين فبينما هو كذلك اذ جاءه أعلاج فوقفوا بين يديه ودلوه على مخاضة تخاض فأبى

(ذكر فتوح الايوان ودخول المسلمين فى الدجلة وفتوح أسبانير وهى المدينة القصوى)

فلما دلوه على المخاضة أبى وقال بحر عميق وما كنت اغرر بالمسلمين والله يصنع لهم ما يشاء فبينما هو كذلك اذ أتوه بعلج وأثوابه تقطر بالماء فسأله سعد عن حاله فقال كيف حالى والملك قد رأى فى منامه ان المسلمين قد عبرت اليه وقد استشعر بزوال ملكه وهو معول على الهرب وان يأخذ أمواله ويمضى الى خراسان قال فلما سمع سعد ذلك جمع المسلمين وحمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس ان عدوكم قد استعصم منكم بهذا السفن وكسرى قد عول على الهرب بأمواله ورجاله وانى قد عولت على العبور ان شاء الله تعالى واعلموا أنه ليس وراءكم من تخافونه لان الله قد ملككم معاقلهم وبلادهم وقد رأيت من الرأى ان نقطع هذا البحر اليهم ونقدم عليهم فما أنتم قائلون قالوا جميعا قوى الله عزمك على الرشد فافعل ما أراد الله به فعندها قال سعد رحمكم الله ونصركم أيكم يبتدى او يتقدم ويجس لنا المخاضة وينبش عليها من على الشط حتى تتلاحق به الناس فانتدب لها عاصم بن عمرو وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات ممن شاع ذكرهم ونمى فخرهم وعلمت شدتهم وسار عاصم امامهم حتى وقف على الشط ومعه كتيبة الخرساء وهى كتيبة القعقاع بن عمرو رضى الله عنهم

(قال الواقدى) رحمه الله حدثنا يوسف بن عبد الاعلى عن يوسف بن عمرو قال ابتدر

عاصم وشرحبيل وأبو مقرن وبجل ومالك بن كعب الهمداني ومثل هؤلاء السادات
وركبوا خيولهم واقتحموا الدجلة واقتحم بعدهم الستون والستمائة في أثرهم وأول من نزل
في الماء عاصم بن ولاد وأبو مقرن وشرحبيل ومالك بن كعب وغلام من بني الحارث
فلما رأتهم الاعاجم وقد قربوا منهم وأعدوا الخيل التي تقدمت خيلاتهم فاقتحموا الماء
فاول من لقيهم من جيش سعد عاصم بن عمرو فلما التقى خيل فارس في الماء صاح باصحابه
وقال شرعوا رماحكم الى الاعلاج واقصدوا أعينهم فلما سمعوا كلام عاصم قصدوا
عيون الاعداء وسقوهم كاسات الرداء فلما رأت الفرس ثبات العرب في الماء كثباتهم
في الارض للطعن والضرب ولوا الادبار والمسلمون في أثرهم فقتلوا اغلبهم وما نجى
الى الشط الا القليل وملك المسلمون جانب الشط من جهة الفرس وتلاحق المسلمون
فلما علم سعد ذلك اذن للمسلمين بالاقتحام وقال لهم استعينوا بالله وتلاحق الجند
ونزلوا الدجلة وهي ترمي بالموج والناس يتحدثون في عومهم وهم لا يكترثون بالموج
ولا بتلاطمه وكانهم على وجه الارض ونزل باهل فارس مالم يكن في حسابهم وقاتلوا
قتالا شديدا (قال الواقدي) رحمه الله تعالى حدثني من اثق به ان أول من عبر من
الجيش ستون فارسا خرجوا زمرا اول زمرة تسعة أولهم عاصم والزمرة الثانية عشرة
والثالثة ثلاث وثلاثون قال عاصم بن عمرو وقد طبقنا الدجلة خيلا ورجالا ودواب
حتى نزلنا ولا نرى الماء من كثرة الناس وخرجت خيلنا وهي تنفض معارفها وتصهل
على الشط الهاما من الله قال ولما رأى الملك كسرى ان المسلمين قد عدلوا الى الجانب
أمر شهريار بن ساو ران يبرز للمسلمين ويقف في مقابلتهم ففعل وأخذ كسرى ما قدر على
حمله من أمواله من الدر والجواهر واليواقيت وما أشبه ذلك قال وان سعدا ليعوض
الماء خوضا وهو يقول ذلك تقدير العزيز العليم قال ولم يغرق من الناس أحد
(قال الواقدي) رحمه الله تعالى حدثني النعمان بن عاملة الصبي عن أبيه عثمان انهم
سلموا عن آخرهم وان رجلا من بارق يقال له عرقدة زال عن فرسه وكانت شقراء وكاني
انظر اليها وصاحبها غريق فضى اليه القعقاع بفرسه وأخذ بيده وجره حتى عبر به فقالت
الناس عجزت الاخوات ان تلد مثلك يا قعقاع ولم يذهب للناس في الماء شيء الا قدح
كانت علاقته رثة فانقطعت فذهب الماء بالقدح وقال صاحبه والله لاجهدن عليه
وما كان الله ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر فلما عبروا أتى ممن كان من الناس
ليغتسل واذا بالامواج قد رفعت القدح اليه فتناوله وأتى به الى العسكر فعرفه صاحبه
فاخذه (قال الواقدي) حدثني عمرو بن تميم قال بلغنا انه لما عبرت المسلمون تحامت
الفرس وقاتلت قتالا شديدا واحمت انفسها وعولت على ان تقاتل الى ان تموت وهم

خواص الملك وأصحاب الايوان والحصون والقلاع ومقدمهم شهريار بن ساور فطعنه خالد بن غير في عينه ففقأها وانثنى عليه بضربة بالسيف فقتله واذا جاءتهم خيل من نحو الايوان وقالوا لهم عن تقاتلون فان الملك هرب بأمواله وأهله وخدمه قال فلما سمعوا ذلك ولوا الادبار ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور المسلمين اليها وسموا يوم عبورهم الدجلة يوم الجراثيم لانه ما كان أحد يعبر الا ظهرت له جرثومة يسير معها وهي من القش المربوط حزم قال قيس بن أبي حازم خضنا الدجلة وهي تطفح فلما توسطناها كان يصل الماء للفرس للحزام فلما نظرت الفرس الى ذلك والمسلمون يعبرون من غير مشقة جعلوا يقولون بالفارسية ديو ر يعني جاؤا الجن وقالوا والله ما أنتم تقاتلون انسا انما تقاتلون جنا فانهزموا وأراد المسلمون الدخول الى الايوان فمنعهم سعد من ذلك وقال لهم اياكم والعجلة في الامور فانها تورث الندامة واني أخاف انها من بعض مكائد العجم فلم يدخل اليه أحد قال وتقدم سلام الحجازي الى سعد وكان غلاما وقال له أيها الامير والله لقد رضيت اليوم الله ورسوله وقتلت المقدم عليهم ثم انه استشهد بقية رفاقه الستين فلم يشهد له أحد منهم فقال الغلام الحجازي والله ما قتلته وأنشد يقول شعرا

انه ابلاء والرماح بشوارع * عشية عمنا البحر والجيش عازم

علام يعيرنا وينكر فعلنا * ويغدر عن تيار الماء عاصم

فنكس الغلام وأراد ان ينصرف واذا قد وثب رجل من الصحابة اسمه هاشم بن عتبة وقال لسعد أيها الامير أنا رأيته وقد قتل مقدم الفرس فصدقه سعد وأعطى الغلام سلبه (قال الواقدي) رحمه الله حدثنا عبد الله بن بشر قال حدثنا سليمان ابن عامر قال اخبرنا عبد الله ان يزدجرد الملك لما كان باعلا الايوان يوم خاض المسلمون الدجلة ورأى عبورهم والخيل لا ترجع والعرب لا تجزع والصحابة يتحدثون وهم في الماء كانهم على الارض أيقن بزوال ملكه وذهاب عزه فنزل وهو يبكي وأخذ من بيوت المال والخزائن من الثياب والانية شيأ لا قيمة له ولا يعرف له ثمن وترك ما بقي عنده من عدة الحصار من الزاد والبقر والغنم ومن كل الاطعمة والاشربة وكان أول من دخل المدينة القصوى مسكن الملك وهي اسبانير يعقوب الهذلي ومعه الكتيبة الخرساء كتيبة القعقاع بن عمرو فدخلوا يخترقون أزقة المدينة ولا يلقون أحدا قال فعزم سعد الى الدخول الى المدينة القصوى فأمر زهير بن الحويرية ان يذهب بعسكره ويتبع المنهزمين وسير كتيبة أخرى مع المرقال فلحق بحاجب من حجاب بن كسرى فخاطبه بالفارسية فقال ان العرب قد عبرت الينا ولم يعرفه فطعنه المرقال فقتله

واحذ علمائه اسرى وموجودهم وأتى به الى سعد بتمثال احدى مرازبة كسرى الكبار كان يوم دخول العرب المدينة داخلها وكان غيرمكترث بهم فخرج الى ظاهر داره ورجع يريد منزله واذا بغلمانه خارجين من الدار يهرعون وقد أخرجوا الامتعة فقال مالكم قالوا ان الرمايبرة غلبت على منازلنا فاخرجتنا قوة قال واشتد الصياح والبكاء والعويل من أهل المدينة وهم يلطمون على وجوههم فلما رأى المرزبان ذلك أخرج لامة حربه وليسها وأتوه بجواده فشده وأسرجه فاقتطع ثلاث مرات فمر به فارس من العرب وطعنه وقال خذها وانا ابن المخارق ومضى عنه ولم يلتفت الى سلبه قال ودخل سعد يطلب الايوان فلما دخل المدينة دخلها وهو يقرؤ وأورثناها قوما آخرين فلما دخل الايوان ترجل وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات لا يفصل بينها واتخذه مسجدا قال وكان فى الايوان تمثال الخضر فتركوها على حاله قال واتم سعد الصلوات من يوم دخل الايوان فانه أراد المقام بها واجمع وكانت أول جمعة صليت بالعراق بالمدائن فى شهر صفر ثم ان سعدا تحول من الايوان بعد ثلاثة أيام الى القصر الابيض وأقام سعد على قبض أموال الغنائم عمرو بن عمرو بن مقرن وأمره ان يجمع مافى القصور والايوان والخزائن والدور والاسواق وان يحصيها وكان أهل المدائن لما رأوا العرب فى أرض واحدة خرجوا فرارا وأخذوا معهم ماقدروا على حمله وماانفلت أحد منهم بشىء الا وأخذوه منهم المسلمون وأتوا الى سعد فتسلمه عمرو وصيروها فى جملة ماجمعوه من الاموال وكان أول شىء جمعوه يومئذ بالقصر الابيض ومنازل كسرى وسائر دور المدائن قال جهدا بن صبار دخلنا المدائن فمررنا بابيار عليها الغطية من رصاص فظننا انها طعام ففتحناها فاذا هى آنية من ذهب وفضة ورأينا كافورا كثيرا فحسبناه ملحا فما اعتبرناه قال وخرج زهير فى طلب المنهزمين فانتهى الى جسر النهروان واذا عليه كثير من الفرس باعظام عدة وأحسن زينة وهم يزدحمون على الجسر قال ووقع بغل فى الماء فتكاثروا عليه وكلبوه وصاح بعضهم على بعض قال ووقع منهم بغل آخروهم فى هرج ومرج فلما رأوه المسلمون قال زهيران لهذا البغل لشانا وما كلبوا عليه القوم وصبروا مع مافى قلوبهم من الخوف الالامر عظيم وقال احملوا عليهم وابذلوا فيهم السيوف قال فحملنا عليهم حملة صادقة فقتلنا منهم اناسا كثيرة وولى الباقى منهزمين وأخذنا البغل واذا عليه حلة كسرى وثيابه ودرعه ووشاحه الذى كان فيهم الجوهر وكان يجلس بهم للمباهات قال فاتينا بهم الى الاقباض قال سهل بن سابق لما أخذنا البغل واتينا به لم ندر ما عليه وعن يعقوب عن جده قال كنت مع من خرج فى طلب المنهزمين واذا نحن ببغلين مع اثنين وهما يرميان كل من يقربهما بالنشاب ولم يجسر احد يدنو منهما

فقصدتهما وحملت عليهما وقتلتهما واتيت بالبغلين الى صاحب الاقباض وهو يكتب كلما تأتى به العرب من سائر العراق فلما اتيته بالبغلين قال لى على رسلك حتى ننظر ما معك فحطيت عنهما فاذا فى الحمل الواحد تاج كسرى وجواهره وفى الحمل الثانى ثيابه وهم متوشحون بالذهب منظومين بالدر وعن محمد بن طلحة والمهلب قال خرج القعقاع فى طلب المنهزمين فلحق بفارس من الفرس وهو يكر على قوم من المسلمين وقد جزعوا منه وما أحد منهم يدنو اليه فقصده القعقاع بشدة عزمه وقال له دونك أيها الكلب اللئيم لقتال رجل لئيم وطعنه فقتله ووجد معه عيبات مغلقات ففتحهم فاذا بالعيبة الواحدة خمسة اسياف وفى الاخرى خمسة اسياف محلاة بالذهب ودروع كسرى ومغفره ومنطقته ودرع هرقل ملك الروم ودرع مايان ملك الترك ودروع جماعة من الملوك قد اجتمعوا عند كسرى من ايام غزواته اليهم وأما السيوف فكان سيف كسرى وسيف هرقل وسيف بهرام وسيف خاقان وسيف النعمان بن المنذر فلما رآهم سعد قال ياقعقاع خذ أى سيف شئت وجاهد به العدو فاخذ سيف هرقل واعطاه درع بهرام جور واما بقية الاسلاب فاعطاها للكتيبة الخرساء الا سيف كسرى والنعمان فامسكهما للامير المؤمنين يرسلهما مع الخمس مع التاج والثياب وعن رجل من الصحابة قال كنت مع الناس فى طلب المنهزمين من خيل كسرى فبينما أنا على طريق واذا برجل ومعه حمار وكان راكبا عليه فلما رآنى ترجل وجعل يحث حماره على السير حتى انتهى الى نهر وقد خرب فلم يمكنه العبور فدنوت منه فاخذ يرمينى بالسهام فرغت عن رميه وحملت عليه فقتلته وأخذت الحمار ووجدت آخر ومعه حمار فتركه وانهزم فاتيت بهما الى صاحب الاقباض فاذا على أحدهما فرس مصنوعة بالذهب والفضة مرصع بالدر والجواهر ولجامه كذلك وسرجه كذلك وعليه فارس كذلك واذا على الحمار الآخر ناقة من فضة وعليها كور من الذهب مرصع ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مرصع بالجوهر وكان كسرى يضيفهما للتاج وكان يباهى بهم ملوك الارض وعن أبى عبيدة الهبرى قال لما هبط المسلمون المدائن وجمع صاحب الاقباض الغنيمة وبقى الرجل يأتى بما معه فيدفعه الى صاحب الاقباض فقال صاحب الاقباض ما رأينا مثل هذا قط ثم قال للرجل الذى أتى بالجمار بن بالله عليك هل أخذت شيأ منه فقال والله لولا الله لما اتيتكم بهما فقيل والله ومن أنت فقال والله لا اخبركم لتحمدونى ولكن أحمد الله وارضى بثوابه ومضى فتبعه واحد من موالى صاحب الاقباض فسأل عنه فقالوا هذا عامر بن عبد القيس قال وبلغ الخبر لسعد رضى الله الله عنه فقال احلف بالله الذى لا اله الا هو اننا ما اطلعنا على أخذ من اصحاب جيش

القادسية يريد الدنيا واقتداتهم ثلاث نفر فانبعناهم فعجزنا عن وصف امانتهم وزهدهم وهم طلحة بن خويلد الذى ادعى النبوة بعد النبى صلى الله عليه وسلم والثانى عمرو بن معدى كرب والثالث هو قيس بن هبيرة قال حدثنا من شهد فتح المدائن قال خرجنا بعد فتح القصر الابيض وكان قد تحصن به رجال من المرازبة وكانوا أشد جلدا واقوى عزيمة من جميع الفرس وتحالفوا انهم لا يسلموا أبدا والذين حصلوا وتولوا حصارهم كتيبة الاهواز وهى كتيبة القعقاع فلما رأينا عزمهم على الموت بعدنا عن نشابهم وحجارة مجانيقهم وبال علينا ذلك وشكونا ذلك الى سعد وقلنا له قد حرمنا الجهاد لحصارنا لهؤلاء الاعلاج فقال سعد لسلمان تقدم اليهم ودبر شيأ فيه مصلحة للمسلمين وامنهم فتقدم اليهم سلمان وكلمهم بالفارسية فامسكوا عن رميه وقالوا له من أنت فقال أنا رسول من المسلمين فاعلموا ان الرجل يقاتل عن نفسه وماله وولده اذا رجى الخلاص وما أرى لكم من خلاص قط وهذا الملك قد انهزم واخذنا مملكته وخزائنه وما بقى فى المدائن أحد غيركم فاتقوا الله فى انفسكم ولا تهلكوها وسلموا لنا هذا الحصن ولكم الامان الى أى جهة توجهتم لا يعارضكم منا احد قال فلما سمعوا قوله قالوا لا نسلم حتى نهلك عن آخرنا ثم رموا سلمان بالنشاب فقرأ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا وأشار الى النشاب بيده فذهبت السهام يمينا وشمالا ولم يصبه منها شيء قال فلما رأوا ذلك قالوا نهار فعق من تشير اليه من أنت قال أنا روزبة وقد عمرت أربعمائة سنة ولحقت آخر أيام عيسى بن مريم وطفت الارض حتى لحقت بنبى هذه الامة صلى الله عليه وسلم فلما اتيته أكرمنى وخدمته فسمانى حتى انه جعلنى من أهل بيته فقال سلمان من أهل البيت فلما سمعوا قوله وحققوا معرفته علموا انه كان من عظماء أهل دينهم قال فصقعوا له وقالوا والله ما نخفى عليك شيأ من أمرنا وسبب قتالنا فانه ليس بسبب مال ولا متاع واعلم الملك قد مضى يريد نهاوند ولم يقدر على أخذ ابنته معه وهى مريضة وقد سلمها الينا فلزمنا من أمرها ما لزم فان كنتم تعطونا الامان عليها سلمنا لكم والا نموت يدا واحدة فلما سمع سلمان منهم ذلك قال دعوا الامر حتى أشاور الامير ثم عاد وحدث سعدا بما سمعه فقال يا عبد الله ان المسلمين قد انتشروا فى العراق ونخاف ان يقع بهم أحد فلا يبقى عليهم ولكن قل لهم لكم علينا ان نذب عنكم وتكونوا فى زماننا حتى تجاوزوا أى جهة تريدونها وبعد ذلك لا نضمن لهم ما يأتى عليهم قال فحدثهم سلمان بما قاله الامير فقال العقلاء منهم والله لولا ان العرب على حق ما نصروا علينا وعلى الروم ومن الرأى ان نرجع الى دين هؤلاء العرب ونعيش فى ظلهم وان القوم لا يريدون

ملكا وقد رأيتم هذا الرجل وما ظهر لكم من كرامته قال ففتحوا باب السور وخرجوا الى العسكر وأتوا الى سلمان فاتى بهم الى سعد واسلموا على يديه فلما جرى ذلك بكى سعد وقال اللهم انصر الاسلام وقرأ قوله تعالى وتلك الايام نداولها بين الناس وبعث الى صاحب الاقباض فاخذ جميع ما فى القصر الابيض من الاموال وخزانة الملك فلما قسم الغنائم على المسلمين اعطى اولئك أوفى نصيب وانزل كل واحد منهم فى داره فلما رأوا ذلك منه وما صنع مع هؤلاء دخل فى دين الاسلام منهم الوف اقتداء بالقوم (قال الواقدى) رحمه الله تعالى حدثنا موسى بن عبد الله عن عمرو عن جده يحيى قال بلغنا غير هذا وذلك ان هاشم بن عتبة تبع المنهزمين من جنود الملك فانتهى سيره الى مرج حلوان فالتقى بكتيبة من اهل فارس بالعدد والسلاح والهوادج والخدم والجوار والماليك وقد داروا بمحفة من العود الرطب وعليها من الثياب الملونة المذهبة وهلالاتها من الذهب مرصعة بالجواهر وهى تأخذ بالابصار فلما رأى هاشم ذلك كر عليهم بكتيبته وحملوا بحملتهم قال فصبروا لهم وقاتلوا دون المحفة قتالا شديدا وكانت المحفة لشاهران ابنة الملك يزدجرد بن كسرى وكان السائر بها ساقر بن هرمز فقتله وقتلوا اصحابه اكثر ما كان مع ساقر وولى الباقى منهزمين وتسلم هشام المحفة وما حولها وأتوا بذلك كله الى سعد واعلموه بان ابنة كسرى معهم فقرأ سعد قوله تعالى قل اللهم مالك الملك الآية ثم اشرف سعد على ما بقى من الخزائن فوجد صندوقا عظيما ظاهره وباطنه بالديباج المذهب وفى داخله بساط كسرى وهو البساط الذى كان يفتخر به على الملوك ملوك الدنيا كله ذهب منسوج بالحرير منظوم بالدر واليواقيت الملون والمعادن والجواهر الثمينة والزمرد وكان طوله ستين ذراعا قطعة واحدة فى جانب منه كالصور وفى جانب كالشعر والرياض والازهار وجانب كالارض المزروعة المقبلة بالنبات فى الربيع وكل ذلك من الحرير الملون والمعادن على قضبان الذهب والزمرد والفضة وكان الملك لا يبسطه الا فى أيام الشتاء فى ايوانه اذا قعد للشراب وكانوا يسمونه بساط النزهة والمسرات فيكون لهم شبه الروضة الزهراء فلما رأوا العرب قالوا والله هذه قطيفة زينة قال ولما قسم سعد على الناس الغنائم أصاب الفارس اثنى عشر الف دينار وكلهم كانوا فرسانا ولم يكن فيهم راجل واخرج للغائبين مع النساء والحريم فى الحيرة نصيبهم وقسم الدور بين الناس وكان قد ولى القبض عمرو بن عمر المدائن وولى القسمة سليمان بن ربيعة وكان فتح المدائن فى شهر صفر واخرج الخمس لعمر بن الخطاب رضى الله عنه وأراد ان يقسم البساط فلم يدر كيف يقسمه فقال سعد معاشر المجاهدين انى رأيت من الرأى ان نرسله الى عمر ليصنع فيه ما يختاره فاجابوا عن لسان واحد نعم ما رأيت أيها

الامير ردوه الى مندوقه واماه الى الخمس وكتب الى عمر رضى الله عنه يقول بسم الله الرحمن الرحيم الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عامله على العراق سعد بن أبى وقاص أما بعد فسلام عليك وانى احمد الله الذى لا اله الا هو واصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم على ما مضى بالظفر على العدو الذى اطاع شيطانه وارخى فى ميدان الغى عنانه وقد اجرانا الله سبحانه على جميل العادة واخذنا الملك من يزدجرد بن كسرى فى كثرة اسواره واحترز روس اجناده الذى جاشت الهيبة ديارهم وضربت الملائكة وجوههم وادبارهم ذلك بان الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم وقد انهزم عدو الله بعدما قتلنا جنده وأخذنا ابنته وانا منتظرون أمرك فيما يكون بعد هذا ونحن مقيمين على المدائن والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته وسلم الكتاب والمال الى بشر وضم اليه خمسمائة فارس وسلمه ابنة كسرى بجمعتها واخذ منها ثم ان سعدا رأى رأيا بان يسير بشيرا يبشر عمر بفتح المدائن ويقدم على الخمس وعلى ما انعم الله على المسلمين ليكون اريد هيبة وبهجة بالفتوح فارسل حبيش بن ماجد الاسدى وابن هلال والله أعلم فخرج على ناقته وقصد المدينة يجد السير قال وكان عمر رضى الله عنه فى كل يوم بعد ما يصلى الصبح يقرأ ما تيسر ويركب ناقته ويتوجه نحو طريق العراق ويرتقب ما يرد عليه من اخبار المسلمين قال فخرج على حسب العادة واذا هو بحبيش قد اقبل على ناقته فلما رآه عمر قصده وقال له يا عبد الله من أين اقبلت قال من المدائن يا امير المؤمنين قال فما عندك من الخبر اقر الله عينك وغفر لنا ولك قال ابشر يا أمير المؤمنين بالفتح العظيم والسعد الجسيم وان الله سبحانه وتعالى قد هزم جند المشركين وقطع دابر القوم المجرمين واخلى منهم ديارهم واخفى آثارهم وزعزع مراكبهم وحطم مواكبهم وكتائبهم وشتت جموعهم واخلى ربوعهم وقصر آجالهم ومزق احوالهم وترك مساكنهم خالية واوطانهم خاوية قال فلما سمع عمر رضى الله عنه هذا المقال حمد الله واثنى عليه وقال خذلوا من مأمنهم وسار وهو يحدثه بفتح المدائن حتى دخل المسجد وتسامع الناس وأتوا حتى غص المسجد بالناس واقبل حبيش يحدثهم وهم يكثرون الثناء على الله ويصلون على النبى صلى الله عليه وسلم وبعدها وصل بشر بالمال ومعه ابنة الملك كسرى ولباسه وتاجه وسلاحه والبساطه فلما نظر عمر الى ذلك قال أن الذى أهدى الينا هذا الامين فقال على كرم الله وجهه انك عففت فعفت الرعية فحمد الله واثنى عليه وافرد من الخمس سهم من غاب من المسلمين وقسم الخمس فى مواضعه ثم قال اشيروا على فيما اصنع فى هذه القطيعة اعنى البساط فقالوا رأيك اعلى فقال على كرم الله وجهه لم يدخل عليك جهل

ولا

ولا تقبل شكا وانه ليس لك من الدنيا الا ما اعطيت فامضيت ولبست فابليت واكلت فافنيت قال فوالله لقد صدقتني يا ابا الحسن ثم انه قص البساط قطعا بين الناس قال فاصاب كل رجل منهم قطعة فباعها بنحو العشرين الف دينار فلما فرغ من توزيعه وتوزيع مال الخمس دعي بمحكم بن رواحة وكان من أجسم أهل المدينة واجفاهم خلقة فالبسه زي كسرى ووشاحه وتاجه وسواره ومنطقته وحلاه بحليته وعصابته وسيفه وسلاحه وعدته ونظر الناس اليه كانه كسرى في ملكه فقال عمر رضي الله عنه اعتبروا بالدنيا وتقلباتها باهلها وما نرى من مصائبها وعطبها هذا كسرى مازال يفتخر على ملوك الدنيا بكثرة أمواله وذخائره وجواهره وعزه وجنوده ولم يقدم لنفسه شيأ ينفعه عند الله وغرته الاماني الكاذبة فاخذه الله من مامنه وبقي مرتهنا بما اكتسب في دينه ودنياه ثم قال ايها الناس هذا ملك المداين قد انتقل عن أصحابه وتوزع بين أربابه اين تلك الحشمة والسلطان اين الجنود والاعوان اين الغلمان اين المماليك والخدام اين التاج والاكليل اين الجيش والفيل اين الصاحب والخليل وقرأ قوله تعالى قل متاع الدنيا قليل ثم قال أيها الناس من له منكم يد سابقة فليقم فقام عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال أنا يا أمير المؤمنين ابن الصاحب والخليل وابن اول من آمن ووازر وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصر وانفق ماله وتصدق ودخل معه الغار وانتصر وجاهد بين يديه وحاج من كفر وجادل وافتخر وانزل الله فيه لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل فقال عمر رضي الله عنه والله لقد صدقت وبقليل من فضله قد نطقت ثم أمر له بخلعة وعشرة آلاف درهم ثم قال أيها الناس من يقم منكم فقام عثمان بن عفان وقال انا من جهز جيش العسرة وحفرت بئر رومة والفت القرآن وجمعته وختمته في ركعتين وتزوجت الابنتين وصليت الى القبلتين وانفقت المال في حبه وانزل الله في حقه امن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فقال عمر رضي الله عنه احسنت يا أبا القتيان فمثلك من رفض الكذب واتان وأمر له بعشرة آلاف درهم ثم انه نظر الى الاخوين الزاهدين والغصنين النضرين سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي نبي هذه الامة وقال لهما يا حبيبي ما الذي اخرجكما من مثلكما من يفتخر وقال أليس انتما سبطي الرسول أليس امكما فاطمة البتول أليس ابوكما سيف الله المسلول أليس في بيتكما نزل التأويل أليس كان سادسكما تحت العبا جبريل أليس فيكما انزل الله الجليل ما على المحسنين من سبيل فان افتخرتما فلكما الفخر البليغ ثم أمر لكل واحد منهما بعشرين ألف درهم فقال علي لله درك يا عمر ومثلك من تكلم ونشر ومدح أهل البيت وأثنى وذكر

خير او شكر ثم قال أيها الناس من كان لابيه سابقة فليقم فقام عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فقال يا ابت اما انا ابنك وانت أبى لك الفضائل والحمد والافتخار فى الامة ولك الوقار والرجاحة والفصاحة والصباحة نصرت الاسلام والمسلمين واتبعت سنن سيد المرسلين وأنزل فى حقك ارحم الراحمين يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وأنت الذى أظهرت الاسلام جهرا وانت لايعبد الله سرا فقال عمر يا بنى الشقى من يغتر بالدنيا الساحرة والسعيد من يعمل للآخرة وقرأ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم أمر له بألف درهم فقال يا أبت انا هاجرت وانفقت ونصرت وزعزعت مواكب الروم وما قصرت وتأمر لى باليسير من مال الله الكثير وتعطى هؤلاء ما اعطيت فقال يا بنى اسلك طريق الانصاف ولا تتبع الاسراف وأنا أقول لك ان كان لك جد كجدهما لأعطيتك او ام كامهما اوفيتك وان كان لك اب كابيهما أرضيتك يا بنى كل نسب يضمحل يوم القيامة ويخفى الانسب البتول قال ولما فرغ من ذلك أمر بابنة كسرى ان يوقفوها فاوقفت بين يديه وعليها من الحلى والحلل والزينة والجوهر شىء كثير وأمر ان ينادى عليها فقال المنادى ارفع عنها هذا المتاع ليزيد فى ثمنها فتقدم اليها المنادى ليزيل عنها ذلك فامتنعت وضربته فى صدره فغضب عمر وهم ان يعلوها بالدرة وهى تبكى فقال على كرم الله وجهه مهلا يا أمير المؤمنين فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ارحموا عزيز قوم ذل وغنى قوم افتقر فسكن غضب عمر رضى الله عنه ونظر اليها فرآها تحدق بالنظر الى الحسين بن على رضى الله عنهما فقال عمر رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وانى أرى هذه الجارية تحدق بنظرها الى الحسين بن على وما يخفى على انها ارادته من دون الناس أجمعين لان ما فيها اصبح وجها منه ثم قال يا ابا عبد الله خذها هدية منى اليك فشكره على ومن حضر من المسلمين (قال الواقدى) رحمه الله قال انس بن عبد الاعلى قرأت عليه فى المسجد الاقصى فى شهر ربيع الاول سنة مائتين وتسعين من الهجرة قال حدثنا عدنان بن ماجد الغنوى قال لما انهزمت الفرس من المداين واستولى عليها سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وكان من أمره ما ذكرناه فاستقر قراره بالقصر الابيض وجلس حيث كانت الاكاسرة تجلس ولبس عند ذلك ثياب النسك والخشوع وتسربل سربال الخضوع وعلم ان الدنيا أضغاث أحلام وان الآخرة هى دار المقام وكلما نظر الى آثار الاكاسرة وملكهم ازداد يقينا ودينا على دينه قال وانشد عاصم بن عمر فى ذلك بعد فتح المداين يقول

شهدنا بعون الله أفضل مشهد * وأكرم من قوى على كل مرقب

ركب على الجرد الجياد سوابح * ومعنا قنا سمر عوالى مقضب
بدجلة فى المرج الذى ذا اصطفافه * تكون المنايا عن منون مسلب
وعز جهاد قد ملكنا بأمره * من الماء جلبابا وليس بجلبب
ترابا وانا فى الحروب اسودها * لنا عزم فى كل الزمان مجرب
نجول ونحمى والرماح مشرع * ونطعن يوم الحرب كل مجنب
قدمنا على كسرى بشدة حربنا * وما حربنا فى النائبات بقنب

(ذكر فتوح مدينة نشاوور وهى آخر فتوح العجم والعراق)

قال أبو عبد الله الواقدى رحمه الله وكان من قضاء الله وقدره ان ابن كسرى لما انهزم من المداين مضى الى حلوان وانضاف اليه كل من وصل اليه من المنهزمين من الاساورة والمرازبة والديلم وغيرهم فقام فيهم خطيبا وذكر زوال ملكه واسرابته وخزائنه وأمواله وبكى وبكت أرباب دولته ثم قال يا أهل فارس ان الدنيا دنية الفعال سريعة الزوال قريبة الارتحال وهذا ملككم قد زال وعزكم قد حال وديارکم قد سكنت ومعاقلكم قد أخذت وحصونكم قد هدمت وأموالكم قد نهبت وبناتكم قد سبيت والعرب قد استولت على العراق ولا بد لهم منكم ولا غنى لهم عنكم وستنظرون خيلهم وقد طلبت خراسان والرى وهمدان وما بقى لكم جهة تتوجهون اليها الا بلاد آبائكم واجدادكم فانتهزوا الفرصة وازيلوا الغصة وادركوا ما بقى من أيامكم ولا ترتدوا على ادباركم وقد بلغنى ان الدوانوس العارى بن هرين كيقاد ابن يزدجرد التقى هو والاسكندر بن القليس الرومى وما زالا يقاتلان ويقتتلان حتى قتل أحدهما وانتم شمروا عن ساق الجد ودونكم والقوم هذه الكرة امالكم واما عليكم فلعل النار والنور ينصرونكم وانفق فيهم ما كان معه فاستعدوا للقاء وأخذوا على انفسهم وضربوا خيامهم فى مرج حلوان وجاءوا بأديانهم واوقدوا لهم النار وقربوا لها القربان وتحالفوا أن لا ينهزموا ولو ماتوا عن آخرهم قال ومضت نساؤهم وبنات ملوكهم وابطالهم الذين قتلوا فى الثياب ملطخات بالدماء وهم يستفزون الجيوش والعساكر من بلاد العجم وغيرها قال وان انجاب والمرازبة والاساورة تعاهدوا بأن لا يفروا أو يموتوا عن آخرهم (قال الواقدى) رحمه الله حدثنى محمد بن عاصم بالكوفة بعد ما أخذها المسلمون قال لما فتحت المداين واتخذها المسلمون وطنا فما كان دأبهم الا ان يحفروا دور الفرس ويخرجوا خباياهم وأموالهم قال عبد الله بن حنة حضرت العرب وقد اخرجوا من ازاء القصر الابيض من مصنع هناك للفرس الاكاسرة وفيه تمثال من الذهب على صفة الفارس وقد سكبوا عليه الماء حتى غار فى الذهب وكانت ملوك

الفرس جعفر بن يدلك على سائر الملوك بوالله لو سمع دلك على عرب بكر بن وائل لكانوا يسدهم سدا وجاءت عيون المسلمين الى سعد واخبروه بما فعل القوم واجتماعهم في مرج حلوان في مائة ألف وقد وجهوا اثقالهم وما يعز عليهم الى الجبل وهم يطلبون لقاءكم قال واجتمعوا المسلمون في الايوان وقالوا أيها الامير ان العدو قد اجتمعوا بمرج حلوان وتنادوا بأن لا ينهزموا أبدا وتواعدوا واحد يريدون مداينهم قال فكتب سعد الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بذلك ويقول له ان أهل الموصل قد مات ملكهم الاطلاق وقد تولى عليهم الشكان بن قابوس وارتدوا عن صلحنا وعول ملكهم بأن يكون عونا لاهل فارس علينا والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته فلما وصل الكتاب الى عمر أرسل يقول له يا سعد اعلم ان الله مصبر وعده ويبعث اليه هاشم بن عتبة في اثنى عشر ألف فارس من المهاجرين والانصار الذين والبقية من العرب قال وان ابن كسرى لما جمع حريمه وأمواله في الجبل أمر على عسكره مهران الدارى ووصاه وسار بالعسكر وركب معه ابن كسرى مقدار ميل وودعه ورجع الى حلوان والمدد يأتي اليه من سائر بلاد العجم قال وسار مهران الى مدينة نشاور ونزل بها في دار الولاية وأقام بها فلما كان من الغد ركب في وجوه قومه وداربهم على أسوارها وأبوابها وأمر بتحصينها في علو سورها ونصب آلات الحصار والعرادات والمجانيق وحفر خندقا عميقا وصنع حسكا من الحديد وجعله حول المدينة والخندق وما خلى من أهل البلد صغيرا ولا كبيرا حتى استعمله في السور والخندق وادخر القوت وعلف الخيل وما يحتاجه للحصار واستوثق من أهل البلد الكبير والصغير منهم وأخذ رهائنهم وحلفهم بأن لا ينهزموا أبدا قال فلما اتفق ذلك كله أقام ينتظر قدوم المسلمين قال وأما هاشم بن عتبة فانه سار في اثنى عشر ألف حتى اشرف على مدينة نشاور ووجدها محصنة بالعدد والعدد وقد اظهروا الزينة والسلاح على الابراج بالدروع والجواشن والمجانيق والعرادات والبيارق والاعلام ووضعوا في أركان المدينة على الابراج قبابا حديد ليضرموا فيها النار ويصعدوا الماء ويستنصروا بها على العرب فلما أشرف عليهم عسكر هاشم بن عتبة ضجوا بكلمة كفرهم واشاروا الى الشمس والنيران يسجدون لهم قال والارض ترتج من تحتهم والسماء ترعد من فوقهم والاكوان تسترجع وتضج في ملائكهم فنودوا من قبل الله ان اسكنوا عن اضطرابكم فانا الحليم الذى لا اعجل على من عصاني ولا اخيب من دعاني أنا الذى تسبح لى السموات ومن فيها والارضين بنواحيها وقد سبق في علمي ان اطهر هذه الارض من الارجاس وابدلها بقلب فيهم كنتم خير امة اخرجت للناس أنا الذى امهل ولا اهمل وعزتي وجلالي لاطهرن هذه الارض

من الكفرة الملحدين والفئة المفارقين ولا بدلي بيوت النار عباد اذكر فيها آناء الليل واطراف النهار بمرو وهار ومال قد احسنوا الظنون وذكرتهم في الكتاب المكنون ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون (قال الواقدي) رحمه الله حدثنا عمرو بن ربيعة الشيباني قال أخبرنا أحمد الطويل قال لما نزل هاشم بن عتبة على مدينة نشاوور بمن معه من المسلمين فلم يلتفتوا اليهم ولم يكترثوا بهم وأوروهم التجلد والشدة وجعلوا يطاولوهم ولا يخرجون اليهم فصعب ذلك على المسلمين والمدد واصل اليهم من عند يزدجرد بن كسرى فاشتدت قلوب أعداء الله فقالوا لمهران الداري أيها الصاحب ما الذي تنظر بشأني قعادنا ومقامنا في وراء السور وقد اشتقنا الى القتال فاخرج بنا الى هؤلاء القوم فقد ضاقت صدورنا وضاقت بنا المدينة وهذه الشمس المنيرة تنصرنا وتظفرنا على أعدائنا وكذلك النار والنور فلما رآهم معولين على القتال أمرهم بالخروج وحمل على خيله جوزان بن جهران وأمره ان يزحف بالجيش فلما فتح باب المدينة وخرج لفرس فرح المسلمون بذلك وتبادروا اليهم باشرار صافية وهم وافية يطلبون القتال في مرضات الله ذي الجلال وأنفسهم لذلك مستبشرة فارحة وهم الى الحرب مسرعة فارحة وقد سئموا من سكنى دار الفرار واشتاقوا الى سكنى القصور ومعانقة الحور وقالوا الهنا قد سئمنا من هذه الدار واشتقنا الى دار القرار ومجاورة المختار فانجز لنا ما وعدتنا وسامحنا اذا توفيتنا وأجرنا من عذاب النار واحشرنا مع الكرام الابرار الذين قلت في حقهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار قال ولما ركب المسلمون حمل على مقدمة الخيل طلحة بن خويلد وبقي هاشم على الساقة فقال أيها الناس والله لا تنال الجنة الا بحسن الاعمال فاتركوا من قلوبكم الميل الى دار اللهو والاموال والمقام في دار النوال وجاهدوا لتدخلوا جنة عرضها السموات والارض فهذه نار الحرب قد فاض تيارها وعلا دخانها واصطفقت أمواجها وبدأت عجاجها فاركبوا فيها سفينة النجا والانجاد واقطعوا بشراع الاجتهاد وانشروا أعلام الصدق قال واذا اصطفت عساكر العجم ودقت بوقاتها ونشرت ازدهارا راياتهم كذلك اذا اقبل عليهم ملك الري في اثني عشر ألف فارس فلما رأى هاشم ذلك قال يا فتيان العرب لا تنظروا الى كثرتهم وقلتكم فقد كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم بدر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وخذل الكافرين وقد كانت قريش في حدها وحديدها وعددها وعددها ونصر الله نبيه ورسوله قال الله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين واذا بالخيل قد جالت عليهم كأنهم السيل فقال هاشم اخلصوا النيات ولا تولوا الادبار واعلموا انه قد تولى عليكم الجبار قال

والتقوا الناس بعضهم ببعض وصاروا بين البسط والقبض وازدحمت الامم وقام الحرب على قدم وقاتلت أبطال العجم وضربت بجوانبها ورمت بصفحاتها وفوقت بسهامها واطلم الجو من الغبرة فى تلك الافاق واعتمدوا على الضرب بالاسياف الرقاق وطعنت العرب بالرماح الدقاق وقلعت عرب اليمن بنبالها الاحداق وادنت الاعمار الى المحاق وتلفت الارواح التراق وعظم الانين والزعاق وصبرت الاعاجم على مالا يطاق وسقوهم العرب من اسنة رماحهم كاس الفراق ولم يزالوا فى القتال الى ان ذهبت الانوار وجاء الليل ومضى نور النهار وفى آخر يومهم قدم القعقاع بن عمرو ومعه اثنى عشر ألف فارس فقويت قلوب المسلمين بقدوم عساكر الموحدين واعلنوا بكلمة التوحيد فدوت من اصواتهم الجبال والتلال والرمال والحجر والشجر فلما سمع أعداء الله مانطقوا به ارتعدت فرائصهم فاستقبلوهم بنيات صادقة وهم متوافقة واعلنوا بذكر كلمة الحق والصلاة على سيد الخلق فبذلوا اسوارهم فى الاعداء واوردوهم شراب الرداء وقصدوا نحو أعدائهم وطلبوا بجهادهم منازل الجنة وطلقوا الدنيا بتاتا وعلموا انهم يصيرون أمواتا وصاروا بعد الالفة اشتاتا فوقعت الهزيمة على عسكر العجم وحملوا المسلمون فى آثارهم وخذلهم الله فقتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا وهرب الباقون واخذ المسلمون مدينة نشاور وغنموا مافيها من الاموال وكان شىء لا يقع عليه حصر واقاموا فيها وبنوا الجامع وذكروا الله فيه ذكرا كثيرا واكمل الله لهم فتوح العراق وكتبوا بذلك كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعلمونه بذلك وبعثوا الخمس فوصل ذلك الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسر بذلك سرورا عظيما فحمد الله تعالى كثيرا وانسرت المسلمون سرورا زائدا على مافتح من بلاد كسرى وأعمالها على يد سعد بن أبى وقاص واستوطنوا البلاد رضى الله تعالى عنهم أجمعين

(ذكر فتوح البهنسا واعمالها وفضائل جبانتها)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم اعلم وفقك الله ان مدينة البهنسا ذكر بعض المفسرين ان الله سبحانه وتعالى ذكرها فى كتابه العزيز بقوله عز وجل فى حق عيسى عليه السلام وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين قال هى أرض البهنسا وكان من أمر عيسى عليه السلام ماسنذكره ان شاء الله تعالى واستشهد بها زهاء عن خمسة آلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم الاعيان والامارة زهاء عن أربعمائة ويتبعهم من الاشراف والصحابة نفر كثير منهم على بن عقيل بن أبى طالب والحسن بن صالح

ابن الحسين بن علي ابن أبي طالب الذي عمر جامعها وكان من أمره ما سنذكره
ان شاء الله تعالى وزياد بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب والفضل بن العباس
عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنذكر من استشهد من الصحابة الاعيان بها
ان شاء الله تعالى عند الفتوح وأبنائها وجماعة كثيرة وذكر جماعة من السادات
والاخيار انه من زار جبانة البهنسا خاض في الرحمة حتى يعود ومن زارها خرج من ذنوبه
كيوم ولدته امه وانه لا يزورها مهموم الا فرج الله همه ولا مغموم الا اذهب الله غمه
ولا صاحب حاجة الا قضيت باذن الله عز وجل والاماكن المستجاب فيها الدعاء منها
عند مجرى الحصا ومقطع السيل وان هناك خلقا كثيرا من الشهداء ومشهد الحسن
ابن صالح بن الحسين بن علي بن أبي طالب وعند قبر زياد بن أبي سفيان ابن الحارث
وعند قبر عبد الرزاق من داخل الباب وعند معبد عيسى بن مريم عليه السلام وعند
قبور الشهداء بسفح الجبل وقبليها مكان يعرف بالمراغة قبل الجبانة عند هذا قبور
الشهداء هناك بسفح الجبل روى جماعة من الصالحين انهم قدموا وزاروا الجبانة المذكورة
وكانوا من أرض المشرق من اقصى العراق وجماعة من اكابر الصالحين من أرض المغرب
من أقصى الاندلس مشاة لما رأوا من هذه الفضائل وبانت لهم فضائل وأنوار وشاهدوا
ذلك عيانا وروى أصحاب التاريخ رضي الله عنهم انه لم يكن بارض مصر من البحيرة
مشهد أكثر من أرض البهنسا وان مجرى الحصا عند مقطع السيل من الجهة الغربية
قيل هناك خلق كثير واستشهد بها أربعمائة رضي الله عنهم أجمعين وسنذكر ذلك عند
الفتح ان شاء الله تعالى وأما فضائل البحر اليوسفي الذي عليه هذه المدينة جانبه فهو
اكثر عجائب ومنها انه غزير البركة لانه يفيض حتى يروي ما حوله من القرى والبلدان
مع قليل من زيادة النيل ومنها انه اذا زاد النيل شيأ قليلا يزداد فيه شيء كثير ومنها
انه اذا انقطع عنه مدد النيل يتفجر من أصله عيونا فصارت نهرا جاريا وهذا لا يوجد لغيره
أبدا من الانهار ومنها انه يقسم بارض الفيوم ما يسير فيروي زراعات وأراضي شتى
وضياعا وهذا لا يوجد لغيره أبدا ومنها انه دفن فيه يوسف الصديق عليه السلام وأقام
الى زمن موسى عليه السلام فازداد بذلك بركة ومنها انه شقه جبريل عليه السلام
بخافقة من جناحه بامر الله عز وجل للسيد يوسف عليه السلام وحسدهم العمالقة
على ذلك وقد ذكرت الرواة انه كان بين يوسف عليه السلام وبين صاحب مصر كلام
بعد فروغ السنين المجدبة فانه لما اجتمعت بنوا اسرائيل عند يوسف عليه السلام
وحسدهم العمالقة على ذلك ذكروا ذلك لملك مصر فقال ملك مصر يا يوسف رد على
ملكي فاجتمع رأيهم على الفرقة والقسمة فقسمت الارض أي أرض مصر فوقع الجانب

العربى ليوسف عليه السلام وكان قفرا ورمالا وتلالا فاراد ان يجرى له نهرا من النيل فجمع له مائة ألف عبد ودفع لهم المساحى والزنابيل وأمرهم ان يحفروا من الجهة القبلية عند فه الآن فحفروا ثلاث سنين وقد اجرى لهم مؤنة من خزائنه فكان كلما جاء النيل سد ما حفروا فعل فى الجهة الشرقية كذلك فكان ذلك الى سبع سنين حتى اعياه ذلك وقلق قلقا شديدا فاوحى الله اليه يا يوسف قد استعنت برجالك ومالك ولم تستعن بى وعزتى وجلالى لو استعنت بى لحفرته لك فى اقل من طرفة عين فخر ساجدا لله تعالى وهو يقول سبحانك ما أعظم شأنك واعز سلطانك ثم قام من سجوده ونزع أثوابه واغتسل ولبس المسوح وخرج الى الربوة وخر ساجدا متضرعا الى الله تعالى فاوحى الله اليه ارفع رأسك فقد قضيت حاجتك ثم أمر الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام فخرقه بجانحة من جناحه وقال بعضهم بطرف ريشة من جناحه من فمه من الجهة القبلية الى آخر الفيوم فى أقل من طرفة عين بقدرة الله تعالى فعمر يوسف عليه السلام قناطر وبنى مدينة الفيوم وقسم الارض بينه وبين اخوته وبنيه فكانت أرض البهنسا لافرايم بن يوسف فشرع فى عمارتها وقطعت الاحجار وعمرت الاسوار والقناطر وكان النهر يجرى من وسطها من الجهة القبلية ثم يخرج من الجهة البحرية الى زمن الاسلام وسنذكر ذلك فى الفتح ان شاء الله تعالى وكان لها من الابراج والرساتيق مالا يوصف وسكن احفاد من بنى اسرائيل اتخذوا دورا ومساكن وذلك جميعه غربى مصر وأرض البهنسا الى آخر الصعيد من الجهة الغربية كلها مختصة ببنى اسرائيل لا يشاركهم فيها أحد غيرهم وجعل يوسف عليه السلام هؤلاء العبيد حوله فلاحين وزراعا بأرض البهنسا والفيوم وغيرها وشرع فى عمارتها وغرست بها الاشجار على جانب البحر اليوسفى من الجهة الشرقية والغربية وكانت المرأة تخرج بمكتلها ومغرلها فى يدها والمكتل على رأسها فلا ترجع الا وقد امتلأ من جميع الثمار من غير ان تمس شيأ بيدها فلما عصت بنوا اسرائيل وجحدوا نعمة الله عزوجل وعملوا المعاصى نزع الله تلك النعمة من أيديهم وأعطاها لغيرهم فاحتوا على الملك دونهم بجحودهم نعمة الله وقتلهم أنبياء الله الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى اتخذوهم اذلة بعد ان كانوا اسادات واستعملوهم خولة وعملة وبنائين وحجارين ونجارين واستخدموهم واستخدموا نساءهم وابناءهم ولم يزالوا بنو اسرائيل فى أضيق عيش وأعظم بلاء وأشد كربة وأعظم بلية من تكليف مالا يطيقون حتى انقذهم الله عزوجل ببعث موسى عليه السلام وليس هذا الكتاب مختصا بذلك واحتوا على المداين والمزارع والبساتين

(ذكر خروج عيسى عليه السلام من مصر واقامته بأرض البهنسا)

قال الله تعالى وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين الآية وتقدم أنها البهنسا على اختلاف المفسرين قال أصحاب التواريخ وهو المسعودي وأبو جعفر الطبراني والواقدي وابن اسحاق وابن هشام وأصحاب السير وأهل التفسير مثل سعيد ابن جبير وسعيد بن المسيب وابن عباس وممن تكلم في هذا الكتاب العجيب الذي لو كتب بالمذهب لكان قليلا وقد جمع فيه كتب كثيرة وتواريخ وتفاسير وفتوحات قالوا كان مولد عيسى لمضي اثنين وأربعين سنة من ملوك الطوائف وكانت الرياسة بالشام ونواحيها القيصر ملك الروم هرقل كما تقدم في فتوح الشام وكان بالبهنسا قنطاريوس والله اعلم باسمه فلما سمع الملك هيردوس بخبر المسيح قصد قتله وذلك انهم نظروا الى نجمه وقد طلع فعرفوا ذلك بحساب لهم في كتاب لهم فبعث الله ملكا الى يوسف النجار وأخبره بما أراد هيردوس ويعلم مريم ان تخرج الى أرض مصر فانه ان ظفر بولدك قتله فاذا مات هيردوس فارجعي الى بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها عيسى على حمار له حتى دخل مصر وورد أرض البهنسا وهي الربوة التي ذكرها الله في كتابه العزيز وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين وهناك بير في المعبد يستشفون بمائها من الامراض وهي التي كانت مريم وابنها يستقون منها ويتوضئون منها للصلاة وكانوا هناك في سرب تحت الارض قيل ان مريم لما دخلت بولدها أرض البهنسا وجدوا بئرا وليس عليها رشاء فطلب عيسى عليه السلام الماء ليشرب بعد ان عطش عطشا شديدا وبكى فحزنت أمه فارتفع الماء من قعر البئر حتى شرب منه وهي من ذلك اليوم تزيد ويعرف منها زيادة النيل ويجعلون النصارى لها عيدا الى يومنا هذا وهناك دير وزراعات والله اعلم ثم دخل مدينة البهنسا وأقام بها اثني عشر سنة وأمه تغزل الكتان وتلتقط السنبل في أثر الحصادين حتى تم لعيسى المدة المذكورة روى محمد الباقر قال لما جاء عيسى الى البهنسا وهو مع أمه ابن شهرين كأنه ابن سنتين فلما كمل تسعة أشهر أخذته والدته وجاءت به الى الكتاب بارض البهنسا فاقعدها المؤدب بين يديه وقال له قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال عيسى بسم الله الرحمن الرحيم فقال له المؤدب قل ابجد فرفع عيسى طرفه وقال أتدري ما ابجد فعلاه المؤدب بالدرة ليضربه فقال له يا مؤدب لا تضربني ان كنت لا تدري فاسألني حتى أعرفك فقال قل لي فقال انزل من على مرتبتك فنزل من على مرتبته وجلس عيسى مكانه ثم قال الالف آلاء الله والباء بهاء الله والجيم جلال الله والدال دين الله والهاء هوت جهنم وهي الهاوية والواو ويل لاهلها والزاى زفير جهنم والحاء حطت الخطايا عن المستغفرين والكاف كلام الله لا مبدل لكلماته والصاد صاع بصاع والقاف تقرب منها حيات جهنم فقال لها المؤدب خذي بيد ابنك فقد علمه

الله تعالى ولا حاجة له بالمؤدب حدثنا الحسين ومحمد بن الحسن المقرى قال حدثنا الحكيم محمد بن أحمد حمدون المذكور قال حدثنا محمد بن حمدون بن خالد قال حدثنا الحكيم بن نافع عن اسماعيل عن أبى مليكة عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عيسى عليه السلام أرسلته امه الى المكتب ليتعلم فقال له المعلم قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال عيسى عليه السلام وما بسم الله الرحمن الرحيم فقال المعلم لا أدرى فقال عيسى الباء بهاء الله والسين سناء الله والميم ملك الله ماجاء من الآيات والمعجزات التى ظهرت لعيسى عليه السلام بأرض البهنسا قال وهب كان أول آية أراها عيسى عليه السلام بمدينة البهنسا الناس فى صغره ان امه كانت نازلة فى دار بالبهنسا من أرض مصر عند دهقان من دهاقنة الملك انزلهما بها يوسف النجار عنده حين اتى بهم من أرض الشام الى مصر وكانت داره مأوى المساكين فسرق للدهقان مال جزيل من خزانته وكان الدهقان من أخصاء الملك صاحب البهنسا ولم يتهم المساكين فحزنت مريم على مصيبة الدهقان صاحب ضيافتها فلما رأى عيسى عليه السلام حزن أمه قال يا اماه أتحبين ان ادلك على ماله قالت نعم قال قولى له يجمع المساكين الذين كانوا فى داره فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع المساكين الذين كانوا فى داره فلما اجتمعوا أتى الى رجلين منهم أحدهم اعمى والآخر مقعد فجعل الاعمى المقعد على كاهله وقال له قم به فقال له الاعمى انى ضعيف على ذلك فقال له كيف قويت على ذلك البارحة فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الاعمى حتى قام به فلما استوى قائما وهو حامله أومأ له الى كوة الخزانة فقال عيسى عليه السلام هكذا أخذ مال البارحة لان الاعمى استعان بقوته والمقعد بعينه فقال الاعمى والمقعد صدقت فردا على الدهقان ماله ووضعه الدهقان فى خزانته وقال لمريم خذى نصفه فقالت انى لم اخلق لذلك ثم قال الدهقان أعطيه لابنك قالت هو أعظم منى شأنا ثم لم يلبث الدهقان الا قليلا وعمل لولده عرسا فجمع اليه أهل المدينة كلهم فكان يطعمهم شهرين فلما انقضى ذلك زاره اكابر البلاد ولم يكن له ماولم يكن عنده طعام ولا شراب ولا ادام ولما اجتمعوا أمر عيسى عليه السلام بجرار الخمر الفارغة ان تملا ماء ثم أمر بيده على أفواهها وهو يمشى فكلما مرت يده على جرة امتلأت شرابا هذا وهو ابن اثنى عشر سنة فازدادت أهل البهنسا فيه اعتقادا ومن حولها من المداين والقرى والسواد من أرض مصر آية أخرى بأرض البهنسا قال السدى كان عيسى عليه السلام يحدث الصبيان فى المكتب عما تصنع آباؤهم ويقول للغلام انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا فينطلق الصبى الى أهله ويبكى عليهم حتى يعطوه شيأ فيقولون له من أخبرك بهذا فيقول عيسى فحبسوا

أولادهم أهل البهنسا عنه ويقولون لهم لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في مكان فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم فقالوا لعيسى ليس هنا أحد فقال ما في هذا البيت قالوا خنازير فقال عيسى كذلك يكونوا ان شاء الله تعالى ففتحوا عليهم الباب فوجدوهم خنازير ففشى ذلك في الناس وهابته الناس قال السدي لما نزل عيسى عليه السلام بأرض البهنسا نزل في قرية من قراها على رجل فأضافهم وكان للملك خباز فجاء ذلك الرجل ذات يوم وهو مهتم حزين فدخل بيته ومريم عند زوجته فقالت لها مريم ما شأن زوجك أراه كئيبا قالت لا تسأليني فقالت لها اخبريني لعل الله ان يفرج عنك قالت لها ان ملك البهنسا اذا خرج من مدينته يجعل على كبير كل قرية يوما يطعمه ويسقيه الخمر فان لم يفعل ذلك عاقبه واليوم علينا وليس عندنا سعة قالت مريم قولي له لا يهتم فاني آمر ابني يدعو له فيكفي ذلك فذكرت مريم ذلك لعيسى عليه السلام فقال عيسى عليه السلام ان فعلت ذلك يقع شيء فقالت له أمه لا تبالي فانه أحسن الينا واكرمنا فقال عيسى قولي له اذا قرب الملك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم اعلمني ففعل ذلك واذا بالملك قد أقبل فارتجت الارض من الطبل والزمور والصناجق واقبلت العساكر فدعى عيسى عليه السلام ربه عز وجل فتحول ماء القدور لحما وطعاما ملونا وماء الخوابي خمرا لم ير الناس مثله قط فلما اكل الملك ذلك الطعام وشرب سأل الدهقان من أين لك هذا الخمر قال من أرض الفيوم فلم يصدقه فقال الملك انه يأتيني منها الخمر والعنب لعصره وليس يساوي هذا فقال من أرض اخرى فلما خلط عليه الكلام ذكر عليه قال اما أخبرك عندي غلام لا يسأل الله شيأ الا اعطاه وانه دعى الله تعالى حتى جعل الماء خمرا وكان للملك ولد يريد ان يستخلفه فمات قبل ذلك بايام وكان أحب الخلق اليه فقال ان كان كلامك صدقا فليدع ربه يحيي لي ولدي فدعى عيسى واعلمه بذلك قال أفعل فانه ان عاش وقع شيء كثير فقال الملك لا ابالي بعد ان أراه فقال عيسى ان فعلت ذلك تتركوني انا وأمي نمضي حيث شئنا قال الملك نعم فدعى الله تعالى فاحيى الغلام فلما رآه أهل المملكة قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا اكل أموالنا هذا الملك بظلمه حتى اذا دنى موته يريد ان يستخلف علينا ابنه فيأ كلنا كما أكلنا أبوه فقتلوهما فذهب عيسى وأمه والآيات في ذلك كثيرة يطول شرحها ذكرها أبو اسحاق الثعلبي في عرائسه والله تعالى أعلم

(ذكر فتح البهنسا وما فيه من الفضائل)

وما وقع فيه للصحابة رضي الله عنهم قالت الرواة باسانيد صحيحة ممن حضر الفتح من أصحاب السير والتواريخ مثل الواقدي وابن جعفر الطبراني وابن خلكان في تاريخ

البداية والنهاية ومحمد ابن اسحاق وابن هشام وكل منهم دخل حديثه في حديث الآخر لما في ذلك من اختلاف الرواة ممن حضر الفتوحات وشاهد الوقعات من الصحابة رضي الله عنهم وأكثر من ذلك معظم الصحابة وكبرائهم مثل عبد الله بن عمرو بن العاص أمير الجيوش على مصر واخيه محمد وخالد بن الوليد وابنه سليمان وقيس بن هبيرة المرادي والمقداد بن الاسود الكندي وميسرة بن مسروق العبسي والزبير بن العوام الاسدي وابنه عبد الله وضرار بن الازور ومن بني عم النبي صلى الله عليه وسلم مثل الفضل بن العباس وجعفر بن عقيل ومسلم بن عقيل وعبد الله بن جعفر ومن أبناء الخلفاء مثل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وابان بن عثمان رضي الله عنهم وقد اختصرنا في اسمائهم خوف الاطالة وكلهم حدثوا بما عاينوا من الفتوح وما شاهدوا من الوقعات وحدثوا بذلك أسماءهم رضي الله عنهم وقد أخذنا هذا الفتوح على قاعدة الصدق لاثبات فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم اذ لولاهم ما كانت البلاد للمسلمين ولا انتشر علم هذا الدين ولقد نفذت سراياهم في الارض شرقا وغربا حتى ولت الاعداء منهم هربا وسكبوا دماءهم في الارض سكبا واستباحوا أموال الكفار نهبا وسلبا والله قد جعل منهم في قلوب أعدائه خوفا ورعبا فهم نجوم الهداية وأهل الولاية وشرعوا الشرائع ورتلوا القرآن ترتيلا فالله في حقهم تبجيلا وتعظيما فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن المحدث المصري غفر الله له اطلعت على فتوحات كثيرة فوجدت فيها زيادة ونقصانا وكذلك تواريخ منقولة وكنت قدمت المدينة يعني البهنسا للزيارة حبا بها لما رأيت في ذلك من الفضائل والفضل والاجر والخير والحب وقال زيارتها تمحص الذنوب وتكشف الكروب وتحسن الاخلاق وتدر الارزاق وتورث النصر على الاعداء وتكفي البأس والرداء لما فيها من السادات الشهداء ممن باع نفسه لله وقتل في سبيل الله ابتغاء مرضات الله ممن قال الله في حقهم من له الفضل والمنة ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة فهم احياء عند ربهم يرزقون فزرنا الجبانة في ساعة الاسحار ورأينا ما فيها من الانوار وبزيارة قبور السادة الاخيار نرجو من الله ان يحط عنا الذنوب والاوزار فلما قضينا الزيارة ولاحت لنا تلك الاشارة اخبرنا عن تلك السادة الامجاد وما كان لهم من الصبر على الغزو والجهاد وسألني بعض الاصحاب عن سبب فتح مدينة البهنسا ليدوم البأس والرداء فحرك كذلك خاطري حتى أسهرت لذلك ناظري وطالعت التواريخ والفتوحات وتجنبت المراحات حتى انتخبت هذا الكتاب فهو كالدرة اليتيمة التي لا يعرف لها قيمة ترتاح عند سماعه النفوس ويزول الهم والبوس

ويشجع على الجهاد ويعين على اقامة العدل فى البلاد ابتغاء لوجه الله الكريم راغبا فى ثواب الله العظيم وذلك بعد الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ونحن نبتدى بسم الله الرحمن الرحيم قال حدثنى من اثق به من الرواة ممن تقدم ذكرهم قال لما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه مصر واسكندرية والبحيرة والوجه البحرى كله جميعا كان با صعيد نوبة وبربر وديلم وسقالبة وروم وقبط وكانت الغالبة للروم وكان اكثرهم روم ثم استشار عمرو بن العاص أصحابه أى جهة يقصد وهل يسير بالجيوش شرقا وغربا وما يصنع فاشاروا عليه بكاتبة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فكتب اليه يقول بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمرو ابن العاص عامل امير المؤمنين على مصر ونواحيها الى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد فانى احمد الله واثنى عليه واصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والسلام على من بالمدينة من المهاجرين والانصار والحمد لله قد فتحت انا مصر والوجه البحرى واسكندرية ودمياط ولم يبق فى الوجه البحرى مدينة الا وقد فتحت ولا قرية واذل الله المشركين واعلا كلمة الدين وقد اجتمعت اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السادات والامراء والاخيار والمهاجرين والانصار يطلبون الاذن من أمير المؤمنين هل يسيرون الى الصعيد أو الى الغرب والأمر أمرك يا أمير المؤمنين فانهم على الجهاد قلقين وباعوا انفوسهم لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم وكتب هذه الابيات

صوارمنا تشكى الظما فى اكفنا * وارماحنا تشكى القطيعة والهجر
المليك افتقاد الحرب باطيب الثنا * ويا من أقام الدين بالعز والنصر
فقد واعت خير الكرام الى العدا * بنو شيبة الحمد السرا وبنو فهر
وصالت لوى مع معد وغالب * وسادات مخزوم الكرام ذوى الفخر
تروم مسير اللعداة على شفا * تمكن من أعلاهم البيض والسمر
على كل طرف غائص فى دلاصه * تجمجم فى نقع كما ايج الجمر
بكل كميت صادق الوعد صائل * ترى درعه الزاهى تمكن بالصبر
يرى الموت فى وقع الوقائع مغنما * ويكسب من قتل العدا غاية الاجر

(قال الواقدى) رحمه الله فلما فرغ عمرو بن العاص من الكتاب عرضه على أصحابه ثم طوى الكتاب وختمه واستدعى برجل يقال له سالم بن بجيعة الكندى وسلم اليه الكتاب ودفع له ناقة عشارية فاستوى على كورها وخرج يريد المدينة وهو يقول

شعر

أسير الى المدينة في أمان * وارجو الفوز في غرف الجنان
وارجو ان يقرب لى اجتماعى * واعطى ما أريد من الامانى
ألا ناقتى جدى وسيرى * الى عز النبى بلا امتهان
واقريه السلام وانشديه * كلاما صادقا حسن البيان
ألا يا أشرف الثقلين يا من * به شرف المدينة والمكان
فكن لى فى المعاد غدا شفيعا * اذا ما قيل هذا عبده فى

(قال الواقدى) رحمه الله ولم يزل سائرا ليلا ونهارا حتى قدم المدينة الطيبة الامينة بعد صلاة العصر فدخل واناخ ناقته على باب المسجد وعقلها بفاضل زمامها ودخل الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم على قبره الشريف وصلى ركعتين بين الروضة والمنبر ثم تقدم فوجد عمر بن الخطاب فسلم عليه قال فرد على السلام وصافحنى وكان لما رآنى أقبلت واناف رحان فقال سالم جاء بكتاب من مصر قال مرحبا به ثم التفت وعن يمينه على بن أبى طالب وعن شماله عثمان بن عفان وحوله من السادات والمهاجرين والانصار مثل العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وطلحة ابن عبد الله وبقية الصحابة رضى الله عنهم حوله ثم ناولته الكتاب فقال ما وراءك يا سالم قلت سالم فى الدنيا والآخرة ان شاء الله تعالى فقلت الخير والبشرى والامن يا أمير المؤمنين فلما قرأ الكتاب فرح واستبشر وكانت تلك الغنائم قد وصلت الى المدينة قبل ذلك بايام وقسمت على الصحابة رضى الله عنهم فعندها استشار عمر رضى الله عنه على بن أبى طالب رضى الله عنه ومن حضر فاشار عليه على بن أبى طالب ان عمرو ابن العاص لا يسير بنفسه ليكون أهيب له فى قلوب اعدائه وان يجهز جيشا عشرة الاف فارس ويؤمر عليهم خالد بن الوليد رضى الله عنه فانه سيف الله فقال عمر صدقت وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد سيف من سيوف الله تعالى وفى رواية ان خالدا سيف لا يغمد عن اعدائه ثم بات سالم تلك الليلة فلما اصبح صلى الصبح فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اقبل على امير المؤمنين عمر يسأله الجواب فعندها استدعى عمر رضى الله عنه بدواة وقرطاس ثم كتب كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله على مصر ونواحيها عمرو بن العاص سلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد فانى احمد الله الذى لا اله الا هو واصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والسلام عليك وعلى من معك من المهاجرين والانصار ورحمة الله وبركاته وقد قرأت كتابك وفهمت خطابك فاذا قرأت كتابى هذا فاستعن بالله

ورابط الخيل وارسل الامراء لكل بلد أمير ليقيم شرائع الدين و يعلموا الاحكام ثم انتدب عشرة آلاف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر عليهم خالد بن الوليد وارسل معه الزبير بن العوام والفضل بن العباس والمقداد بن الاسود وغانم بن عياض الاشعري ومالك الاشتر وجميع الامراء وأصحاب الرايات ينزلون على المدائن ويدعون الناس الى الاسلام فمن أجاب قوله فله مالنا وعليه ما علينا ومن أبى فامره بأخذ الجزية وان عصى وامتنع فالحرب والقتال وامرهم اذا حاصروا مدينة يشنوا الغارات على السواد وان بصعيد مصر مدينتين كما بلغني أحدهما يقال لها اهناس قريب من مصر والثانية يقال لها البهنسا امنع واحصن وبلغني أن بها بطريقا طاغيا سفاكا للدماء يقال له البطليوس وهو أعظم بطارقة مصر كما بلغني وانه ملك الواحات ولا تقربوا الصعيد حتى تفتحوا هاتين المدينتين وليك بتقوى الله في السر والعلانية نت ومن معك وانصفوا المظلوم من الظالم وأمر بالمعروف وانه عن المنكر وخذ حق الضعيف من القوي ولا تأخذك في الله لومة لائم واقم انت بمصر وارسل الاجناد وان احتجت الى مدد ارسل كاتبني ارسل لك المدد والمعونة من الله عز وجل واسأل الله تعالى أن يكون لكم بالنصر والمعونة والفتح والحمد لله رب العالمين ثم طوى الكتاب وختمه بخاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفعه الى سالم فاخذه وودع الصحابة وودع قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن توضأ وصلى ركعتين وسار ولم يزل سائرا حتى قدم مصر فوجد عمرو والصحابة نازلين بارض الجيزة وكان زمن الربيع وهو جالس في خيمته وأصحابه عنده وهذه الخيمة كانت لملك القبط من الحرير الازرق والاحمر والاصفر سعتها ثلاثون ذراعا وقد فرش فيها فرشا كالقبط وهو جالس يتحدث مع المقداد وخالد والفضل وغانم والامراء جميعهم رضي الله عنهم وهو كاحدهم قال سالم فانخت ناقتي فسمعت عمرو يقول وأنا خلف الخيمة قد ابطأ سالم فقال خالد كأنك به وقد اقبل فهو يت فاحس خالد بي من داخل الخيمة ولم يرني بعينه ولا غيره فلا علم بي فقال سالم فقلت لبيك يا أبا سليمان فقال مرحبا بك يا سالم وحياك الله ثم تقدمت وسلمت على عمرو وخالد وعلى بقية الامراء ثم ناولته الكتاب فقرأه الى آخره وفهم ما فيه فلما سمعوا الامراء فرحوا بذلك فرحا شديدا ثم ان عمرا استشار الامراء في ذلك وكانوا لا يفعلون شيأ الا بمشورة بعضهم بعضا ولذلك مدحهم الله في كتابه العزيز بقوله عز وجل وأمرهم شورى بينهم فاشاروا عليه أن يرسل خلف الامراء والجنود المتفرقة في البحيرة شرقا وغربا وان يرتب الجيوش و يقصدون الصعيد ويتوكلون على الله عز وجل (قال الواقدي) وكانت الصحابة لما فتحت مصر والوجه البحري قد تفرقوا منهم في اسكندرية

وامسوس ودمياط ورشيد وبلبيس وكان أكثرهم بوسط الجيزة في المكان المعروف بالمرله مثل القعقاع بن عمرو التميمي وهاشم بن المرقال وميسرة بن مسروق العبسي والمسيب بن نجبة الفزاري فعندها استدعى عمرو رضي الله عنه بالصحابة والسعاة وعمرو بن امية الضمري ومثل هؤلاء رضي الله عنهم أجمعين وكتب الكتب وارسلها للامراء فعندها أجابوا باجمعهم لانهم رضي الله عنهم كانوا أشوق للقتال من العطشان الماء البارد الزلال ورجعوا الى البلاد والمدائن من بعد قتلهم ويحرسهم خيفة من العدو واقبلوا مصر مسرعين ونزلوا حولها وأخبروا عمرو رضي الله عنه فدخل دار الامارة وهي قريبة من الجامع العمري واقبلت السادات الامارية يسلمون عليه وكان ذلك نهار الاربعاء عشر شهر ربيع الاول سنة احدى وعشرين من الهجرة النبوية وقيل اثنين وعشرين والله أعلم قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا عبيدة بن رافع عن أبيه حيية عن جابر بن عبد الله الانصاري وحدث بذلك بن سلمة رضي الله عنه قالوا لما قدمت الامراء والاخيار من الصحابة رضي الله عنهم فاموا الاربعاء والخميس والجمعة فخطب عمرو رضي الله عنه بالناس فلما فرغ من خطبته امر الناس ان لا يتفرقوا حتى يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقرأ عليهم الكتاب فلما فرغ من قراءته تواثبوا كانهم كالاسود الضارية المشتاقة الى فرائسها وقالوا كلهم سمعا وطاعا ولارواحنا في سبيل الله بذلنا وللجهاد طلبنا وفي الثواب رغبنا والى الجنة اشتقنا ففرح عمرو بذلك (قال) ان أمير المؤمنين قد أمرني أن اولي عليكم سيف الله والنقمة على اعداء الله صاحب القتال الشديد والبطل الصنديد خالد بن الوليد قال الراوي وكان خالد بن الوليد صديق عمرو في الجاهلية واسلما في يوم واحد ثم التفت عمرو الى خالد وقال ادن مني يا أبا سليمان فدنى منه فقال عمرو يامعاشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم كلكم لكم الفضل واني لست بأفضلكم وفيكم من هو ذو قرابة ونسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم السادة والامراء واني كاحدكم وأنتم تعلمون ما فتح الله على يديه من البلاد وما أذل الله على يديه من الاجناد (قال الراوي) فوثب الفضل بن العباس رضي الله عنه وقال أيها الامير انا بذلنا أنفسنا في رضى الله عز وجل وما نريد بذلك الا رفعة عند الله عز وجل وان خالدا من خيارنا ولو أمرت علينا عبدا حبشيا امتثلنا أمره في رضاء الله عز وجل فما هيك بخالد وهو سيد من سادات قريش عزيز في الجاهلية والاسلام فتهلل وجه خالد وعمرو وترحالهم أمرهم بالرحيل جميعا بأرض الجيزة قريبا من الاهرام الشرقي واقبلوا يضربون خيامهم حوله حتى تكاملت العساكر رضي الله عنهم أجمعين (قال الراوي) بسنده الى الواقدي رحمه

الله

الله وابن اسحاق وابن هشام قال لما تكاملت الجيوش وهو في ربيع الآخر من السنة المذكورة صلى عمرو بأصحابه صلاة الصبح ثم قام من ساعته يمشي على قدميه وحوله جماعة من المسلمين ومعه خالد بن الوليد والمقداد بن الاسود الكندي والزبير بن العوام الاسدي والفضل بن العباس الهاشمي وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال والمسيب بن نجيبة الفزاري والعباس بن مرداس وأولاد عبد المطلب وبقية السادات حتى طلع على رابية واشرف على الجيش فلما رأى اجتماعهم سر بذلك سرورا عظيما ثم أمر بعرض الجيش فتقدمت الامراء أصحاب الرايات وصار كل أمير يعرض جيشه وبني عمه على عمرو بن العاص فكانت عدتهم فيما ذكر والله أعلم ستة عشر ألف فارس فانتدب منهم عشرة آلاف فارس كلهم ليوث عوابس وعليهم الدروع الداودية متقلدين بالسيوف الهندية معتقلين بالرماح الخطية راكبين الخيول العربية من خيار أمة خير البرية فعند ذلك قال لهم عمرو يا معاشر الامراء أصحاب الرايات والسادات الاخيار ان خالدا أمير عليكم فاسمعوا له واطيعوا وكونوا كلمة واحدة ونازلوا المدائن والقلاع وشنوا الغارات على السواد ولا تقاتلوا قوما حتى تدعوهم الى شهادة أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فان ابوا فاداء الجزية فان ابوا فالقتال بينكم وبينهم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين وارسلوا الطلائع ولا يكون في الطلائع الا كل فارس كرار في الحرب والقتال وثبتوا أنفسكم ولا يغرنكم كثرة أعدائكم فانتم الغالبون فقد ذكر الله في كتابه المكنون المبين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين واحسنوا نياتكم وثبتوا عزائمكم فانتم الغالبون والله معكم وأنتم كلكم اهل الفضل والسابقة واصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلتم بين يديه ولا تحتاجوا الى وصيتي بارك الله فيكم قال الراوي ثم ان عمرا استدعى باصحاب الرايات فكان اول من تقدم بعد خالد الزبير بن العوام رضي الله عنه وهو راكب على جواده الاغر شاك في سلاحه فسلمه الراية وأمره على خمسمائة فلما خرج بعسكره هز الراية وانشد يقول شعرا

انا الزبير وابن العوام * ليث شجاع فارس الاسلام
قرم همام فارس هجام * اقتل كل فارس ضرغام
وانني يوم الوغا صدام * وناصر في بأسها الاسلام

قال ثم استدعى بالفضل بن العباس وأمره على خمسمائة فارس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسلم الراية بيده وتوجه وهو يقول شعرا

اني أنا الفضل وابن العباس * وفارس منازل حواس

معي حسام قاطع للراس * فالق الهامات والاضراس
افني به الاعداني ساس * وما علي من أمرهم من باس

قال ثم استدعى زياد بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وسلمه الراية وكان رضي الله عنه فارسا عظيما وبطلا صنديدا فتسلم الراية وتوجه وهو ينشد

انا الفارس المشهور يوم الوقايع * بحد حسام في الاعادي قاطع
ورمحي على الاعداء ما زال طائل * اذا احتكم الاعداء للصد قامع
وعزمي في الهيجاء ما زال ماضيا * برأي سديد للمحاسن جامع
اصول على الاعداء صولة قادر * واشبعهم ضربا ببيض لوامع
امام الوغى من آل ذروة هاشم * حماة البرايا كالبدور الطوالع
انا ابن ابي سفيان من نسل حارث * تموت العدا مني اذا جئت فارع

قال ثم استدعى من بعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية وتوجه وهو يقول شعر

أسير الى الاعادي باهتمام * بقلب صادق حسن الزمام
بابطال جحاجحة اسود * سراة في الوغا قوم كرام
ابيدهم عداة الدين جمعا * ولا اخشى من القوم اللئام
اذا ما جلت في الهيجا بمحي * أصول به وفي ايدي حسام

قال ثم استدعى من بعده عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وأمره على خمسمائة فارس فتسلم الراية وتوجه وهو يقول

وحق من أنزل الآيات والسور * وأرسل المصطفى المبعوث من مضر
لانثني عن لقاء الاعدا ولو جمعت * حماة ابطالهم يوم الوغا زمر
حتى ابيدهم ضربا واتركهم * فوق الثرى خمشا مخدوشة الصدر
بكل قرم همام ماجد نجد * الى الوقائع يوم الحرب مبتدر
نحن الكرام الذي للدين أرسلنا * امام الورى غيث الندا عمر

قال ثم استدعى من بعده جعفر بن عقيل وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية وتوجه وهو يقول شعر

انا ابن عقيل من لؤي وغالب * همام شجاع للاعادي غالب
حماة الوغا أهل الوفا معدن الصفا * الى جود يمانا تحن الركائب
ولا يعرف المعروف الا بعرفنا * ولا الجود الا جودنا والمواهب
علا مجدنا فوق السما وسناؤها * علا شرفا من فوق كل الكتائب

فيا ويل أهل البغي منا اذا التقت * فوارسنا فيهم بحد القواضب

قال ثم استدعى من بعده أخاه الفضل وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتسلمها وتوجه وهو يقول

اني أنا الفضل وأبو عقيل * اسير للحرب بلا تمهيل

بحد سيف قاطع صقيل * به ابيد الكافر المجهول

وابن عمي أحمد الرسول * المبجل بصلاة الملك الجليل

قال ثم استدعى من بعده المقداد بن الاسود الكندي وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول

انا المقداد في يوم النزال * ابيد الضد بالسمر العوالي

وسيفي في الوغا ابدا صقيل * طليق الحد في أهل الضلال

معي من آل كندة كل قرم * يجيد الطعن في يوم النزال

فيا ويل العدا والروم منا * اذا اقتحم الفوارس في القتال

فنتركهم صرعا كاعجاز نخل * تقطعها الفوارس بالنصال

قال ثم استدعى من بعده عمار بن ياسر وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول

انا الهمام الفارس الكرار * افني بسيفي عصبة الكفار

ان جالت الخيل بلا افكار * وقام سوق الحرب أنا عمار

احمي لدين المصطفى المختار * صلى عليه الواحد القهار

وآله وصحبه الاخيار * ما بان ليل واضاء نهار

قال ثم استدعى من بعده العباس بن مرداس السلمي وأمره على خمسمائة فارس وسلمه الراية فتوجه وهو يقول

انا العباس رايي مستقيم * معي سادات آل بني سليم

اذل بهم حماة البغي لما * ترى الهيجاء كالليل البهيم

وسيفي ماضي الحدين اضحى * لاهل الشرك كالموت العميم

به أفني الطغاة بكل أرض * واقتل كل أفاك أثيم

ونحن بني سليم خيار قوم * هدينا للصراط المستقيم

قال ثم استدعى من بعده أبا دجانة الانصاري رضي الله عنه وسلمه الراية فتوجه يقول

اسير باسم الواحد المنان * جهرا لاهل الكفر والطغيان

اذيقهم ضربا على الابدان * بكل هندي مبيد الجاني

انصر دين المصطفى العدنان * صلى عليه الملك الديان
وآله والصحب والاخوان * ماناح قمرى على الاغصان

قال ثم استدعى من بعده غانم بن عياض الاشعرى رضى الله عنه وسلمه الراية فتوجه وهو يقول

انى اذا انتسب الفوارس اشعرى * قرم همام فى المعامع عنتر
بحسامنا ابطال الاعادى مزدرى * وبراحتى من القواضب ابتر
يوم التلاطم للفوارس مبكر * احوم حومات الفرار الجوذر
فلا قتلن فوارسا وعوابسا * واذيقهم منى العذاب الاكبر

قال ثم استدعى من بعده اباذر الغفارى وأمره على خمسمائة فارس فسلمه الراية فتوجه وهو يقول

سأمضى للعداة بلا اكتئاب * وقلبى للقا والحرب صابى
ولى عزم اذل به الاعادى * وارجو الفوز فيهم والثواب
وان صالوا الجميع بيوم حرب * لكان الكل عندى كالكلاب
اذلهم بابيض جوهرى * طليق الحد فيهم غير آب

قال ثم استدعى من بعده القعقاع بن عمرو التميمى والمغيرة بن شعبة الثقفى وميسرة بن مسروق العبسى ومالك الاشتر النخعى وذو الكلاع الحميرى والوليد وعقبى بن عامر الجهنى وجابر بن عبد الله الانصارى وربيعة بن زهير الحازمى وعدى بن حاتم الطائى ومثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم قد اقتصرنا فى أشعارهم خوف الاطالة وكل واحد يسلمه راية ويؤمره على خمسمائة فارس قال فلما تكاملوا وتجهز واخرج عمرو وأصحابه فودعهم وسارت الكتائب وتتابعت المواكب يتلو بعضها بعضا وخلفهم الدرارى والصبيان حتى أتوا الى الجيزة ونزلوا بمكان يعرف بالمرج الكبير قريب من تلك المدائن والقرى والرساتيق وتقدمت الطلائع يتجسسون الاخبار وقد كان بدهشور بطريق عظيم من قبل ماريوس صاحب اهناس وكان فارسا مكيدا وكان لعينا قاتله الله وكان يقول فى نفسه انه ساطر البطلوس فى ولايته لكن البطلوس صاحب البهنسا لعنه الله كان أشد بأسا واعظم مراسا واكثر عددا واقوى مددا واوسع بلادا وكاتبه فى ذلك وكاتب ورسال صاحب الاشمونين وكاتب اقرافيس صاحب قفط وكان يحكم على اخميم وكاتبوا السكيكلاج وكان يحكم الى عدن والبحر المالح الى بلاد البجاوة والنوبة وحد السواد وتسامع الناس بمسير العرب الى الصعيد وكاتبت الملوك بعضها بعضا وماج الصعيد باهله الى حد الواحات ووقع الرعب فى قلوبهم فعند ذلك

وثب مكسوح ملك البجاة وعليف ملك النوبة وجمعوا ما حولهم من أرض النوبة والبجاة والبربر وأتوا الى اسوان وكان مع ملك البجاة ألف وثلاثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفائح الفولاذ في كل قبة عشرة من السودان طوال القامة عراة الاجساد على أوساطهم واكتافهم جلود النمورة وغيرها ومعهم الدرق والحراب والكرابيج والقسى والمقاليع والاعمدة الحديد والطبول والقرون وكان عدتهم عشرين ألفا فلما وصلوا اسوان خرجوا الى لقائهم بعسكرهم واعلموهم بأمرهم وساروا اليهم بالملاقاة من الذرة والشعير والقصب ولحوم الخنازير والضباع وغيرها من الوحوش فانزلوهم وضيفوهم ثلاثة ايام ثم خرج بطريق اسوان ومعه جيش حتى وصلوا الى ملك قفط صاحب القرية التى قريبا من قوص وعمل معهم مثل ذلك وسير معهم جيشا وساروا حتى وصلوا الى انصنا وكان بها بطريق عظيم وبطل جسيم وكان منصبا وكان يحكم شرقا وغربا وكانت مدينته عظيمة على شاطىء البحر وبها جند كثير وعجائب عظيمة ولها حصن عظيم من الحجر علوه ثلاثون ذراعا ومن داخلها قصور ومقاصير وكنايس وقلاع على اعمدة الرخام وغيرها الى داخل المدينة فلما نزلت تلك العساكر على انصنا خرج اليهم بطريقها جرجيس بن قانوص وتلقاهم وأرسل معهم ابن عم له يسمى قبطارس وكان فارسا شديدا فى اربعة آلاف فارس ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا بوادى البهنسا عند بطريق يسمى قلوصا من بطارقة البطلوس فلما سمع بهم البطلوس خرج الى لقائهم فى عسكر عظيم زهاء عن خمسين ألف فارس من البطارقة وعليهم الدروع المذهبة واقبية الديباج المرقومة بالذهب الوهاج على رءوسهم التيجان المكللة باللآلىء والجواهر راكبين على خيول وبراذين مسرجة عليها سروج الذهب والجنائب مغطاة بغشيات من الحرير الملون المرقوم بالذهب والفضة والخز وكان معهم خمسون صليبا طول كل صليب أربعة اشبار من الذهب تحت كل صليب ألف فارس على كل صليب رمانة من الذهب المنقرش وهم فى زى عظيم عجيب وقد أكثروا من الطبول والزمور والضرب والقرون والمعازف حتى ارتجت الارض ومعهم الجمال والبغال والجاموس فلما التقوا ترجلت الملوك والبطارقة للقائه وسلم بعضهم على بعض وتكلموا فيما بينهم بسبب العرب فقال لهم البطلوس لا تطمعوا العرب فيكم ولا فى بلادكم فانما مثل العرب كمثل الذباب ان تركته اكل وان منعته فروهلك فاثبتوا واصدقوا العزم فلقد كانت لكم سراريب ملك برقة وكانت ملك الواح وكانكم بهم وقد أتوا اليكم ولولا انى اخشى ان العرب يأتوا الى بلادى لما يسمعوا انى خرجت اليهم فيشتغلون جماعة بقتالكم وجماعة يأتون الابلادى فيملكونها وليس فيها من يذب عنها اذا

نرجت معكم لكنت فى خدمتكم فانا نجد فى الكتب القديمة انهم اذا ملكوا البهنسا ونواحيها فلا يقوم لاهل الصعيد قائمة قال كرماس الرومى وكان ممن أسلم بعد ذلك وحضر وحدث به قال يامعاشر الملوك والبطارقة انى قد اطلعت على الكتب القديمة انهم اذا ملكوا البهنسا ونواحيها فلا يقوم لاهل الصعيد بعد ذلك قائمة قال فلما سمعوا الملوك ذلك سقم واله ثم انتدب من بطارقته عشرون ألفا ممن عرفت شجاعتهم وقوتهم وبراعتهم وملك عليهم صاحب الكفور وكان كافرا طاغيا وكان اسمه برلس لعينا ودفع له صليبا من الذهب وعلما من الحرير الاطلس الاصفر مرقوم بالذهب فيه صورة الشمس ودفع لهم مايحتاجون له من الجنائب والقباب والسرادقات ومضارب الديباج الملون واوانى من الذهب والفضة والصناديق المرصكة بالذهب والفضة والبراذين والبغال عليها الجلال الحرير الملون وبعضها محمل بالاوانى المذكورة والخيام والسرادقات وسارت العساكر وتتابعت الملوك بالمواكب يتلوا بعضها بعضا حتى قربوا من مدينة سبا الكبرى فخرج اليهم بطريقها منه دراس وتلقاهم وفعل معهم كما فعل البطلوس واضافهم وجهز معهم جيشا عشرة آلاف فارس من مناديد بطارقته وولى عليهم بطريقا اسمه داديس وكان ناظر بطاريق الكفور فى الشجاعة والقوة والبراعة وساروا حتى قربوا من مدينة برنشت فخرج اليهم بطريقها فتلقاهم وكان ناظر البطاريق الاعظم رأس بطارقة الكوة ولم يزالوا سائرين حتى ملؤا الارض شرقا وغربا هذا ماجرى لهؤلاء (قال الراوى) واما ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فانهم لما نزلوا قريبا من دهشور كما ذكرنا وكانت العيون من المسلمين من بنى طى ومدحج ينزلون ويتربوا بزى العرب المتنصرة يتجسسون الاخبار حتى اختلطوا بالعساكر المذكورة وكانوا اخذوا قاما متفرقين فلما رأوا ذلك هالهم أمرهم قال حدثنى سنان بن قيس الربعى عن طارق بن مكسوح الفزارى عن زيد بن غانم الثعلبى وكان ممن حضر الفتوح وشاهد الوقعة صحبة جيش خالد بن الوليد رضى الله عنه قال بينما نحن جلوس نصلح شأننا بالمرج ونحن على أهبة السفر اذ قدمت الجواسيس فاخبروا خالدا بقدوم العساكر فقال لهم هل حذرتم الجيوش فقالوا انهم نحو مائتى ألف فارس وخمسين ألف راجل من النوبة والبربر والبجاة والفلاحين والعشير وهم فى اهبة عظيمة ومعهم ألف وثلاثمائة فيل وعلى ظهورها الرجال كما وقع فى يوم حرب العراق فلما سمعوا الامراء ذلك اضطربوا وتبواجنانهم وقالوا لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا وقال خالد لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم ثم قرأ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ثم قرأ كم من فئة قليلة غلبت

فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ثم ان خالدا قال لاصحابه لا تهنوا والذلك واصبروا وانتم الاعلون والله معكم فليست جموعهم باكثر من جموع اليرموك ولا من جموع جنادين ومع ذلك فقد ملكتم مصرهم التي هي تاج عزهم وملكتم الوجه البحري وقتلتم مائة من ملوكهم وبطارقتهم وقد صارت الشام واليمن والعراق والحجاز بايديكم وقد دانت لكم البلاد وقد كنتم قليلا فكثركم الله وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها وقاتلتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصرتم بالملائكة ووعدكم على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم انه يستخلفكم في الارض كما استخلف الذين من قبلكم ومن قتل منكم كان له الجنة وتنتقل روحه الى روح وريحان ورب غير غضبان فلما سمعوا كلامه تهللت وجوههم فرحا وقالوا يا خالد نحن كلنا بين يديك وقد وهبنا أنفسنا لله ابتغاء وجه الله ومرضاته (قال الواقدي) رحمه الله ثم ان خالدا وجه يزيد بن معوج التنوخي الى عمرو بن العاص مصر اعلامه بذلك فترك في مصر ابن عمه خارجة وكان رجلا صالحا وخرج ومعه أربعة آلاف فارس وترك في مصر نحو عن أربعين فارسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء اليهم في أربعة آلاف فارس فلما اقبل سلموا عليه وقالوا كنا نحن نكفيك أيها الامير فقال لهم اعلم ذلك ولكنكم في أول بلاد العدو وما ينبغي ان اقعد عنكم ففرحوا بذلك وتأهبوا للقاء العدو وكانوا كل يوم يخرجون الطلائع ويتجسسون الاخبار فلما كان في بعض الايام خرج الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه عبد الله بن العباس وجعفر بن عقيل واخوته على ومسلم وعبد الله بن الزبير وسليمان بن خالد بن الوليد ومحمد بن فرحة بن عبد الله وعبد الله بن المقداد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعمرو بن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وزياد بن المغيرة ابن شعبة وتبعهم السادات نحو اربعمائة سيد من اولاد الصحابة والامراء أصحاب الرايات وألف وستمائة من اخلاط العرب من المهاجرين والانصار ولبسوا دروعهم وتقلدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم وتنكبوا بحجفهم وساروا الى قرب من دير هناك بسفح الجبل يعرف بدير المسيح يكشفون الاخبار فبينما هم كذلك واذا بغبار طلع الى عنان السماء وانعقد فنظر بعضهم الى بعض وقالوا هذا غبار وحش وقال بعضهم لو كان كذلك لكان تقطع قطعا وتفرق فرقا وانما هذا عسكر جرار وان الخيل اذا داست بحوافرها ارتفع الغبار (قال الراوي) حدثنا ابو الزناد عن عبد الله عن أبي مالك الخولاني عن طارق بن شهاب الجرمي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال بينما نحن نتحدث مع الفضل واذا بالغبار قد قرب منا وانكشف عن عشرة آلاف فارس

ومعهم الاعلام والصلبان فلما رأونا طمعوا وابلغتهم ثم لم يمهلوا دون ان حملوا علينا (قال الراوى) وكان ضرار بن الازور قد انفرد ومعه مائتان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الجدة وساروا فى طريق الجبل على غير الجادة فبينما هم يسيرون واذا بالغبار قد ثار وانكشف عمن ذكرنا فلما عاينوهم ايقنوا بالهلاك فعند ها وثب ضرار رضى الله عنه وقال لا فرار من الموت فلم يمهلوهم دون ان داروا عليهم فرأوا ان لابد لهم من القتال والتقت الرجال بالرجال وصبروا وصبر الكرام وأحاطت بهم الروم اللئام من كل جانب ومكان ولله در ضرار لقد قاتل قتالا شديدا فلم يكن غير ساعة حتى قتل من جماعة ضرار جماعة وكبا به جواده فاسروه واسروا جماعة من أصحابه وكان الذى قاتلهم رأس البطارقة صاحب بيا الكبرى فاوثقوا ضرارا وأصحابه كتافا وربطوهم على ظهور خيولهم وارسلوهم الى عند العسكر وافلت من القوم مولى من موالى عبد الرحمن ابن أبى بكر الصديق يقال له سالم فسار يجد فى مسيره حتى قدم على خالد وعمرو فعند ذلك وثب المسيب بن نجية الفزارى ورافع بن عميرة الطائى واخذوا معهما ألفا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وساروا ومعهما رجل ممن اسلم من الحيرة يدل بهم على طريق غير الجادة واكمنوا هناك عند الدير وقد سبقوا البطريق الذى اسر ضرارا وأصحابه وقد اختفى عنهم الاثر فقال الدليل اظنكم قد سبقتم القوم اكمنوا ها هنا وكان الذى مضى بضرار وأصحابه خمسمائة فارس قال الراوى وكانت خولة بنت الازور قد شق عليها اسر اخيها ضرار فلما سار المسيب ورافع وجماعتهما فى طلب اخيها تهللت فرحا واسرعت فى لبس سلاحها واتت الى خالد وقد هم القوم بالمسير وقالت ايها الامير سألتك بالطاهر المطهر الا ما سيرتنى مع هؤلاء عسى ان اكون مشاهدة لهم فقال خالد للمسيب ورافع انتما تعلمان شجاعتها وبراعتها فخذاها معكما فقالا السمع والطاعة ونزلوا بالمكان المذكور فبينما هم كذلك مكمنون واذا بغبرة قد لاحت لهم فقال لهم رافع ايقظوا خواطركم وايقظت القوم همهم فاذا بهم وقد أتوا محدقين بضرار وهو متألم من كتافه وهو ينشد ويقول

الا بلغا قومى وخولة اننى * اسير رهين موثق اليد بالقيد
وحولى علوج الروم من كل كافر * واصبحت معهم لا اعيد ولا ابدى
فلو اننى فوق الجواد راكبا * وقائم حد العضب قد ملكت يدى
أذل به للروم اذ لال نقمة * واسقيهم وسط الوغا اعظم الكد
فيا قلب مت هما وحزنا وحسرة * ويا دمع عينى كن معينا على خدى
فلو ان اقوامى وخولة عندنا * والزم ما كنا عليه من العهد

كأني جوادي فانتبذت على الوغا * واصبحت بالمقدور لم ابلغ القصد

(قال الراوي) فنادته خولة من مكمنها قد أجاب الله دعاءك وقبل تضرعك ونجواك انا خولة ثم كبرت وحملت وكبر رافع والمسيب قال جبير بن سالم وكنا اذا كبرنا تصهل الخيل الهاما من الله تعالى فما كان أكثر من ساعة حتى قتلناهم عن آخرهم وخلص الله ضرارا وأصحابه واخذنا خيل القوم واسلابهم وسلاحهم وكانت أول غنيمة (قال الراوي) ولما تخلص ضرار وأصحابه ركب جوادا عريانا وأخذ قناة كانت مطروحة وحمل على القوم وهو يقول شعر

لك الحمد يامولاي في كل ساعة * مفرج احزاني وهمي وكربتي

فقد نلت ماارجوه من كل راحة * وجمعت شملي ثم اشفيت علتي

سأفني كلاب الروم في كل معرك * وذلك والرحمن أكبر همة

فياويل كلب الروم ان ظفرت يدي * به سوف اعلوه بالحسام بنقمتي

واتركهم جمعا صرعا على الثرى * كرمة فوق الارض من عظم ضربتي

قال الراوي رحمه الله فلما فرغ ضرار من شعره واذا بالخيل قد اقبلت منهزمة وكان السبب في ذلك انه لما حملت الروم على الفضل بن العباس صاح هو وبنو عمه ولم يرعهم كثرة عدوهم وصبر اصبر الكرام واشتد الزحام وعظم المرام وجرت الدماء واسودت السماء وحمي الوطيس وهمهمت الابطال وقوي القتال بعظم النزال وقل الانيس ودارت رحى الحرب واشتد الطعن والضرب وجالت الرجال واشتد القتال وضربت الاعناق وسالت الاحداق وعظمت الامور وغابت البدور وكان المسلمون لايظهرون فيهم لكثرتهم ولا يعرف بعضهم بعضا الا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وقد صبر الفضل صبر الكرام فلله در الفضل لقد اصطلى الحرب بنفسه فكان تارة يقلب الميمنة على الميسرة وتارة يقلب الميسرة على الميمنة ويقاتل والراية بيده ولله در مسلم بن عقيل واخوته لقد قاتلوا حتى صارت الدماء على دروعهم كقطع اكباد الابل ولله در سليمان بن خالد بن الوليد المقتول بوقعة الدير قريب من طرى بقرية يسمى دير وط وقتل معه عبد الله بن المقداد وجماعة وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى قال محمد بن مسلمة الانصاري رضي الله عنه وقاتلنا قتال الموت وأيقنا ان المحشر من ذلك الموضع ولم نزل في قتال من ارتفاع الشمس حتى غربت وقد قتل من الروم مقتلة عظيمة وتقدم الفضل الى بطريق عظيم راكب كأنه برج من ذهب وطعنه في صدره أخرج السنان من ظهره فلما رأت الروم ذلك شجعوا انفسهم وفشا القتال بيننا وبينهم وقتل من المسلمين أربعون رجلا وقتل منهم ثلثمائة لكن الرجل ماقتل منا حتى قتل جماعة من الروم فبينما نحن

كذلك وقد أيقنا ان الموت فى ذلك الموقف ووطا ما عليه نعوسا واذا بغبرة قد طلعت والعجاج قد ارتفع وانقشع الغبار عن رايات اسلامية وعصابة محمدية زهاء الفى فارس وفى أوائلهم فرسان أمجاد سادات أنجاد أحدهم المقداد والثانى زياد والقعقاع بن عمرو وشرحبيل بن حسنة ومعهم ألف فارس ولم يمهل المقداد دون أن حمل وغاص فى الخيل وهو ينشد ويقول شعر

ألا انى المقداد فى الحرب صائل * وسيفى على الاعداء ما زال طائل

اذا اشتدت الاهوال كنت امامها * واضرب بالسمر الطوال الذوابل

ولى همة بين الورى تردى العدا * لها تشهد الابطال بين القبائل

فليس لسيفى فى الانام مبارز * وليس لشخصى فى الانام منازل

ثم انه غاص فى وسط الحرب وحمل من بعده زياد بن أبى سفيان وهو ينشد ويقول

أنا زياد بن أبى سفيان * جدى برى من أشرف العربان

وابن عمى أحمد العدنان * معى حسام ثم رمح ثانى

أطعن فى كل كافر جبان * وكل قلب ناقص الايمان

قال الراوى ثم غاص فى وسط القوم قلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة وغاص فى القلب فولت الروم من بين يديه منهزمين وهو يضرب بالسيف فيهم طولا وعرضا ثم حمل من بعده القعقاع بن عمرو التميمى وهو ينشد ويقول

أنا الهمام الفارس القعقاع * ليث همام ضيغم مطاع

معى حسام يبرى الاوجاع * ويقطع الهامات والاضلاع

يا ويل أهل الشرك والنزاع * منى اذا طال فى الحرب باعى

قال ثم حمل من بعده شرحبيل بن حسنة وهو يقول

ألا يا عصبة الاسلام صولوا * على الاعداء بالسيف الصقيل

وذيقوهم حياض الموت جهرا * بلذع السمهرى والرمح الطويل

وموتوا فى الوغا قوما كراما * وعنهم فى المعامع لا تزولوا

قال الراوى رحمه الله ثم تتابعت الفرسان يتلو بعضها بعضا هذا وزياد غائص فى القوم كاذ كرنا وقصد البطريق الاعظم صاحب الكبرى وضربه على عاتقه الايمن بالسيف اطلع السيف يلمع من عاتقه الايسر وقد أجابته المسلمون بتكبيرة واحدة وكبرت الجبال وارتجت الارض لوقع حوافر الخيل وحمل كل أمير على بطريق فقتله فلم تكن الا ساعة فولوا الادبار وركنوا الى الفرار لا يلوى بعضهم على بعض وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى بلغت الهزيمة حررة وميدوم فبينما ضرار وأصحابه مقبلون واذا

بالروم منهزمة كما ذكرنا وخيل المسلمين فى اثرهم يقتلون ويأسرون ولم يعلموا ماجرى لضرار ورفقته فلما رأوه سلموا عليه وهنوه وأصحابه بالسلامة فقص عليهم ماجرى لهم واجتمعوا بالمسيب واصحابه واوروهم مكان المعركة ومكان القتلى ففرحوا بذلك فرحا شديدا قال الراوى رحمه الله وان عمرا وخالدا لما خرج الفضل واصحابه قلقا عليهما فقال خالد لعمرو يا ابا عبد الله لقد غاب الفضل واصحابه ومن معهم من المسلمين وانى اخشى ان تكون للروم طليعة فيغيرون باصحابنا قال عمرو وكذلك حس بخاطرى يا ابا سليمان فما ترى من الرأى قال خالد الرأى عندى أن ارسل طليعة اخرى خلفهم قال نعم الرأى ثم استدعى بالزبير بن العوام وبابى ذر الغفارى رضى الله عنهما واعلمهما بذلك واراد خالد أن يركب معهم فمنعه الزبير وحلف لا يسير الا هو وانتخب معه فرسانا وساروا حتى قربوا من القوم والتقوا بالمسلمين فوجدوهم قد كسروا الروم كما ذكرنا ثم جمع المسلمون الاسلاب والسلاح والخيل ورجعوا الى أصحابهم وهم فرحون بالنصر على أعدائهم قال الراوى رحمه الله فلما رجع المسلمون الى العسكر وكان معهم ستمائة أسير اعلن المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فاجابتهم المسلمون كذلك ولما عاينوا الاسلاب والاسارى معهم فرحوا بذلك وسلم بعضهم على بعض وتلقاهم عمرو وخالد وباقى الامارى وتفاءلوا بالنصر وقدموا الاسارى وعرضوهم على عمرو وخالد واوقدوا النيران بالمرج وباتوا يقرؤن القرآن ويتضرعون الى الله الواحد المنان وليس فيهم الا من هو راكع وساجد (قال الراوى) رحمه الله هذا ما جرى لهؤلاء وأما المنهزمون فانهم مضوا الى البطارقة والملوك وأخبروهم بما وقع من امرهم فعظم عليهم من قتل واعتدوا للقتال وركبوا خيولهم وابلهم وافيالهم وتزينوا بزينتهم وساروا ويجدون المسير وقد اكثروا الطبول والزمور والصنوج قال قيس بن الحارث وأقام المسلمون بعد الوقعة يوما فبينما نحن فى اليوم الثانى بعد صلاة الصبح وكان الاجاويد من الامارى والابطال فى كل يوم يركبون ويستنشقون الاخبار فبينما هم ينتظرون اذ ثار الغبار حتى تعلق بالجو وانكشف عن رجال وخيول كالجراد المنتشر والسيل المنحدر وارتجت الارض من ازدحام الخيل وقعقعة اللجم فرجعوا واعلموا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاح الصائح فى العسكر النفير النفير يا خيل الله اركبوا وفى الجنة ارغبوا وفى الثواب اطلبوا فتواثبت المسلمون الى قدومهم ولبسوا دروعهم والى خيولهم فركبوها والى راياتهم فنشروها والى زينتهم فاظهروها والى قلوبهم من الغش فطهروها ونفوسهم لله باعوها فلم تكن الا ساعة حتى استعدوا وأقام خالد وعمرو يعبيان قومهما للقتال فجعلا فى القلب أصحاب الطعن والضرب مثل الفضل بن العباس

وبنو أعمه من سادات بني هاشم وهم جعفر وسلم وعلي أولاد عقيل بن علي بن أبي طالب وزياد بن أبي سفيان بن الحارث ومثل هؤلاء الابطال وجعل في الجناح الايمن الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود الكندي والمسيب بن نجيبة الفزاري وجعل في الجناح الايسر القعقاع بن عمرو والنهبي وهاشم بن المرقال وغانم بن عياض الاشعري وأبو ذر الغفاري وجابر بن عبد الله الانصاري ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم وثبت خالد وعمرو في القلب ومعهما عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر ابن الخطاب وعقبة بن عامر الجهني وبقية الصحابة من الامارى أصحاب الرايات ممن شهد الوقائع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن عبد الله بن زيد عن أبي امامة رضي الله عنه وكان من أصحاب الرايات قال بينما نحن كذلك واذا بأعلام المشركين قد انتشرت وراياتهم قد ظهرت وزينتهم وصلبانهم قد ارتفعت ولغتهم بالكفر قد طمطمت وافيالهم قد اقبلت ورجالهم للقتال قد تبادرت فلما رأى المسلمون ذلك أخلصوا نياتهم ولم يهلهم ما رأوا من عدوهم وتضرعوا بالدعاء لخالقهم وقد استغاثوا بمالكهم وأكثروا من الصلاة على نبيهم ولم يزالوا سائرين حتى قربوا من القوم ورأوهم رأي العين فعند ذلك أمسك المشركون أعنة خيولهم وسلاسل افيالهم وألقى الله الرعب في قلوبهم ثم خرج منهم بطريق من عظماء بطارقتهم كأنه برج مشيد من ذهب وهو لابس منه غير جماليق الحدق وتداوير الاحق وبين يديه فارس من متنصرة العرب وهو يصيح بأعلى رأسه يا معاشر العرب ارسلوا الى الملك أحداً يكلمه فاعلم المسلمون عمراً وخالد بن الوليد بذلك فأراد خالد أن يخرج اليه فمنعوه الامارى من ذلك فعندها وثب المقداد بن الاسود وحلف لا يخرج اليه الا هو بنفسه فقال عمرو وخالد يا أبا عبد الله انظر ما يكلمونك به هذه الاعلاج وادعهم الى كلمة الاخلاص المنجية يوم القصاص فان أبوا فالجزية عن يدوهم صاغرون فان أبوا فالسيف بيننا وبينهم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (قال الواقدي) رحمه الله فعندها ركب المقداد جواده وسار حتى وقف بين يدي البطريق وكان ذلك بولص صاحب الكفور الطاغي اللعين بطريق البطلوس وقد أتى باذن الملك والبطارقة فلما رآه كلمه بلسان عربي مبين ثم قال يا بدوي أنت أمير قومك قال لا قال فاني لا اريد الا الامير حتى اسأله عما بدا لي لعل أن تكون فيه مصلحة بينكم وبيننا فقال المقداد سل عما بدا لك وما تريد فانا قوم اذا فعل أحدنا أمراً وفيه نصح للدين ومصلحة للمسلمين لا ينكر عليه ذلك ويجوز له الامير ما فعل فاخبرني عن أمرك وشأنك قال لا يكلمني الا أمير القوم وان كان عنده خوف مني ألقيت سلاحي فقال المقداد وقد ضحك من كلامه ويحك يا عدو الله ولو كنت أنت وأمثالك بأسلحتهم ما افتكرنا فيهم وان الواحد منا لو وقع في

ألف منكم لا التقاها بنفسه ولا أهمه ذلك والمعونة من الله تعالى فانا وطنا أنفسنا على الموت ونعلم ان هذه الدنيا فانية ولا يبقى الا وجه الله تعالى فاسألني عما بدالك فقال له لا أسمع الا كلام الامير فدع عنك كثرة المطاولة قال المقداد ان لنا أميران أحدهما متولي الامر والاخر قائد الجيوش فأي أمير تريد قال أخبرني بأسمائهما قال أما الذي متولي الامر يسمى عمرو بن العاص والاخر يسمى خالد بن الوليد قال اني اريد خالدا فاني سمعت عنه أمورا وأحوالا وان الروم تحدث عنه بعجائب كثيرة قال الراوي رحمه الله وكان الملعون قد سمع بذكر خالد وفراسته وقال في نفسه لعلي اغدره فاني ان قتلته كان لي الفخر على جميع الروم وينكسر بذلك ناموس العرب وان لم أقدر عليه أسمع ما يقول من خطابه قال فعند ذلك ألوى المقداد عنان جواده ورجع الى خالد فعند ذلك قال خالد لاصحابه ان المقداد قد رجع وان عدو الله لا يريد الا أنا فان طلبني مضيت اليه وان رأيت منه غدرا أخذت روحه من بين كتفيه واستعين عليه بالملك العلام قال الراوي فبينما خالد يتحدث بهذا الكلام واذا بالمقداد قد وصل واعلم عمرا وخالدا بما وقع فعندها خرج خالد رضي الله عنه متبادرا وعليه لامة حربه فتعلق به أكابر اصحابه فحلف انه لابد له من الخروج اليه ثم خرج مبادرا حتى وقف بين يديه فلما رأى خالدا وقد وصل اليه احترز على نفسه وأراد أن يخدع خالدا ويهجم عليه فقال خالد أيها البطريق ها أنا خالد قل حاجتك والذي جئت به واياك والمخادعة فاني جرثومة الخداع فقال بولص يا خالد اذكر لي الذي تريد وقرب الامر بيننا وبينكم واحقن دماء الناس واعلم انك مسئول عن ذلك وتقف غدا بين يدي الله عز وجل فان كنت تريد شيأ من الدنيا فلن نبخل به عليكم وندفعه صدقة منا عليكم لانه ليس عندنا في الامم اضعف منكم حالا وقد علمنا انكم كنتم في بلادكم قبل ان تفتح البلاد في قحط وجوع وتموتون هزالا وانتم قد ملكتم بلادا وشبعتم لحما وركبتم خيولا مسومة وتقلدتم بسيوف مجوهرة وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم وان طلبتم منا شيأ اعطيناه لكم بطيبة قلوبنا فلا تطمعوا في بلادنا كما طمعتم في غيرها واقنعوا منا بالقليل قال فلما سمع خالد مقالته قال يا كلب النصرانية واحسن ممن غمس في ماء المعمودية انه قد بعث الله الينا نبيا فهدانا من الضلال وانقذنا من الجهالة وانا قد ملكنا الله بايدينا ما اغنانا به عن صدقتكم واحل لنا أموالكم واباح لنا نساءكم وأولادكم الا ان تقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله فان أبيتم ذلك فتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون فان أبيتم ذلك فالسيف حكم بيننا وبينكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين والله ينصر من يشاء وان الحرب والقتال أحب الينا واشهى من الصلح وان كنتم تزعمون انه لم تكن أمة

امنعف مناعندكم فانتم عندنا بمنزلة الكلاب فان الواحد منا يقاتل منكم ألفا وان هذا ليس بخطاب من يطلب الصلح فان كان هذا الطمع ترجوبه ان تصل الى بانه رادى عن أصحابى فذلك منك بعيد وان اردت القتال فدونك فانى كفؤلك ولا ضمانك ان شاء الله تعالى فلما سمع بولص كلام خالد وثب فى سرجه وقال ليس لك عندى الا هذا السيف ثم جرد سيفه ودنى من خالد رضى الله عنه وشابكه وضرب بيده فى درعه ومنطقته ووثق بعضهم من بعض واستغاث باصحابه وقال لهم بادروا اليه فقد امكننى الصليب من أمير العرب فابتدروا اليه البطارقة من كل جانب وخرج كردوس عظيم اكثر من مائتى فارس وجردوا السيوف وأتوا الى خالد رضى الله عنه فلما رآهم خالد مقبلين اليه وثب وثبة الاسد وصاح بجواده وانتزع نفسه من البطريق بعد ان أحاطت به الروم وجاء كردوس ثان وخالد يضرب فيهم يمينا وشمالا وعدوالله بولص يصيح ويقول ياويلكم خذوه قبل ان يفوتكم قال وكان ضرار والفضل بن العباس وعلى بن عقيل وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن طلحة وعبد الله بن المقداد وسليمان بن خالد رضى الله عنهم على كثيب قريب من عسكر الروم فلما رأوا الروم والسيوف بايديهم وقد أحاطوا بخالد ركضوا خيولهم وكان أول من ابتدرالهم ضرار بن الازور رضى الله عنه وهو ينشد شعر

عليك ربى فى الامور المتكل * اغفر ذنوبى ان دنى منى الاجل

رب وفقنى الى خير العمل * وامح عنى سيدى كل الزلل

انا ضرار الفارس القرم البطل * باعى على الاعداء أضحى متصل

اقع بسيفى الروم حتى يضمحل * مالى سواك فى الامور من أمل

قال الراوى رحمه الله حدثنا رفاعة بن قيس قال حدثنا حامد بن عياض عن أبيه عن جده عن نافع بن علقمة الربعى قال كنت فى القلب فى عسكر عمرو يوم وقعة الروم بمرج دهشور وقال بينما نحن ننظر اذ رأينا السيوف اجذبت واحاطت بخالد بن الوليد فخرجنا كردوسا من اجاويد الرجال من طرف الميمنة وبادرناهم ولحقناهم واذا قد سبق من ذكرنا يعنى ضرار والجماعة المذكورين فكان أول من قدم على الروم ضرار وهو عريان بسراويله قابضا على سيفه وهو يهدر كالاسد والقوم من ورائه متبعوه حتى وصلوا وضرار امامهم وهو واثب على جواده وثبة الاسد مسرعا وهو يهز السيف وهو زاحف على بولص فارتعدت فرائصه وقال ياخالد دعنى من هذا الشيطان واقتلنى انت ولا تدعه يقتلنى فانى اتشاءم من طلعته فقال هو قاتلك لا محالة هذا مبيد الاقران هذا قاتل وردان وهلاك التركان ومبيد عبدة الصلبان ومن يكفر بالرحمن فبينما هم فى المحاورة

واذا بضرار قد أقبل وهز سيفه وصرخ يا عدو الله لم تغن عنك خديعتك شيأ ولا بغدرك بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أراد ان يضرب بسيفه فصاح به خالد اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله ووصلت اليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل يبادر الى قتله فقال لهم خالد اصبروا قال ونظر بواص لعنه الله الى ما حل به وقد جذبه ضرار من قربوص سرجه واقتلعه وجلد به الى الارض فغشى عليه فاشار باصبعه وقال الامان الامان يا خالد فقال له خالد يا كلب النصرانيه انما يعطى الامان الا لاهل الايمان أنت رجل أردت ان تمكر والله خير الماكرين فلما سمع ضرار ذلك لم يمهل دون ان ضربه بالسيف على عاتقه الايمن أطلع السيف يلمع من عاتقه الايسر فسقط عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار وتبادرت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعوا السيف فيهم فلما رأوا الروم ما حل بهم حملوا باجمعهم وتقدمت أصحاب الافيلة وعلى ظهورها الرجال والتقى الجمعان واصطدم الفريقان واشتد القتال وعظم النزال وصفت الصفوف وازدحمت الالوف وبطل القيل والقال وتلفت النفوس وقطعت الرؤس وقتلت الرجال وزمجرت الابطال واشتد القتال واتسع المجال وعظم البلاء واسودت السماء وثار الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار وطمطمت السودان وكفروا بالرحمن وثار العجاج وزمجرت الاعلاج وقاتلت أصحاب الافيلة قتالا شديدا وقد قسموهم أربع فرق فرقة مما يلى الميمنة وفرقه مما يلى الميسرة وفرقة مما يلى القلب وفرقة مما يلى العسكر وصاحت النوبة والبجاة والروم فلله در خالد بن الوليد لقد قاتل قتالا شديدا فكان تارة فى القلب وتارة فى الميمنة وتارة فى الميسرة وكذلك الامير عمرو بن العاص والزبير بن العوام والفضل بن العباس الهاشمى والقعقاع بن عمرو التميمى وغانم بن عياض الاشعرى رضى الله عنهم على الساقة مع النساء والولدان والذرارى والصبيان وانقطع عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال الى كردوس من الروم ينوف عن ألف فارس من الروم والسودان فغاصوا فى أوساطهم وكان فيهم بطريق من بطارقة الكورة اسمه بحريان ابن ميخائيل فلما رأى ما حل به وباصحابه بادر الى الصليب ليقبله وينظر اليه ثم طمطم الروم بلغتهم وأحاطوا باصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا ان يمكنوا منهم فعندها وثب عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما الى ذلك البطريق وحمل عليه وكان عليه ديباجة صفراء من فوق درعه وعلى رأسه بيضة تلمع كأنها كوكب وفى وسطه منطقة من الجوهر فتعاركا مليا وتصادما الجودان ثم ان عبد الرحمن ضربه بالسيف فى نحره اطاح رأسه عن بدنه فلما رأوا الروم ذلك حملوا على عبد الرحمن

واصحابه باجمعهم حملة واحدة وصبر المهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل منهم مشتغل بنفسه عن نصرة صاحبه وايقنوا بالهلاك وخرج عبد الرحمن في يده جرحا هائلا والدم يسيل على درعه فتناول السيف بيده اليسرى وجعل يقاتل بها وجرح هاشم بن المرقال أحد عشر جرحا في يده وفي وجهه وهو يمسح الدم مرارا وايقنوا بالهلاك وكان الفضل بن العباس وبنو اعمه ممن ذكرنا تارة في الميمنة وتارة في الميسرة وحملوا في اعراض القوم حتى وصلوا الى الكردوس الذي فيه عبد الرحمن وعبد الله بن عمرو هاشم بن المرقال فوجدوا الروم قد أحاطوا بعبد الرحمن بن ابي بكر الصديق وعقروا جواده من تحته وأصحابه يذبون عنه وعبد الله بن عمر تارة يمنع عنه بالسيف وتارة بالرمح وجراحاته تدفق دما وقد جرح عبد الله بن عمر في يده ست جراحات ولما فلما رأى الفضل ذلك بادر هو وأصحابه وكانوا عشرين فارسا وخرقوا الصفوف وضرب فارسا ممن أحاط بعبد الرحمن على رأسه فقطع البيضة ونزل الى اضراسه فانجدل صريعا يخور في دمه وعجل الله بروحه الى النار فلما سقط عن جواده ابتدره عبد الرحمن وركب الجواد وقاتلوا أولئك حتى دفعوهم عن أصحابهم وكانت جماعة من الاوس وهمدان مما يلي الجناح الايسر فعطف عليها كردوس من الروم والسودان فازالوهم عن اماكنهم وكشفوهم عن مراتبهم وفروا بين أيديهم فصاح بهم أبو هريرة رضي الله عنه وابنه عبد الله ومالك الاشتر يا قوم لا تولوا فرارا من الموت أتريدون ان تكونوا عارا عند العرب فما عذركم غدا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أما سمعتم قول الله عز وجل فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الاية الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والموعد قبر المصطفى قال فلم يلتفتوا اليهم ولم يقبلوا كلامهم ووصلت الهزيمة الى غانم ابن عياض الاشعري وأصحابه والنساء والصبيان فلما رأت النساء ذلك صحن في وجوههم وفعلوا كما فعلوا يوم اليرموك وصاروا يضربون في وجوه الخيل بالاعمدة وقاتلت خولة بنت الازور قتالا شديدا فلما رأى غانم ذلك وكان معه قيس بن الحارث ورفاعة بن زهير المخزومي وخمسمائة فارس من أهل الشدة والنجدة فصاح غانم العجلة الجنة الجنة يا أصحاب رسول الله فتواثبوا اليهم وحملوا عليهم حملة واحدة بصدق ونية وثبات فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين قال الراوي رحمه الله ولم يزل السيف يعمل في الرجال من أول النهار الى وقت العصر وانزل الله النصر على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الافيال والرجال الذي على ظهورها تنضر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنشاب فجاء مفرج بن عيينة الفزاري الى فيل مقدم على أربعمائة فيل فطعنه في احدى عينيه فاشتبك الرمح في عينه وما قدر ان يجذبه فرجع الفيل هاربا

والقى ما على ظهره من الرجال ودهسهم برجليه فقتلهم فتبعته الافيلة التي خلفه
وألقت ما على ظهورها من الرجال وداستهم بارجلها فصاح مفرج دونكم وخراطيمها
ومشافرها فانها مقاتلها فاشتدت بنو افزارة وبنو اقراد وبنو اعبس يضربون مشافير
الافيلة حتى قتلوا منها مائة وستين فيلا وقتل ما على ظهورها من الرجال ولم تزل القوم
في الكر والفر والقتال الشديد حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين ورجعت الروم
والسودان الى اماكنهم وتفقد المسلمون من قتل منهم فاذاهم مائتان وأربعون رجلا
ختم الله لهم بالشهادة وتفقد المشركون قتلاهم فاذاهم خمسة آلاف من النوبة والبجاة
والروم فبات المسلمون يتحارسون الى الصباح ويقرؤن القرآن ويدفنون قتلاهم
فلما اصبح الصباح وقاموا الى اصلاح شأنهم واذا بالروم والسودان قد أقبلوا بعددهم
وعديدهم وقد اظهروا زينتهم واصطفوا خمسة صفوف كل صف أربعون ألفا والمشاة
بين أيديهم خمسون ألفا فقال قيس بن علقمة لقد دخلت العراق ورأيت جنود كسرى
والجراجمة واليرموك واجنادين ووقعة مصر والقبط وفتح اسكندرية ودمياط فلم أر مثل
كثرتهم في مرج دهشور فلما رآهم وقد ركبوا ركب خالد وجعل يتخلل الصفوف
ويقول لهم انكم لستم ترون بمصر والصعيد جيوشا بعد هذا اليوم مثل هؤلاء وان
كسرتموهم فلا تقوم لهم قائمة أبدا فاصدقوا في الجهاد وعليكم بالصبر واياكم ان تولوا
الادبار فتستوجبوا بذلك النار والصقوا المناكب ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة قال
الراوي رحمه الله ورضي عنه وان البطارقة لما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم قد عولوا على ضربهم شجع بعضهم بعضا وقال لهم بطرس أخو بواص المقتول اعلموا
انكم ان انكسرتم لا تقوم لكم قائمة بعد هذا أبدا ويملكون بلادكم ويقتلون رجالكم
ويسبون حريمكم وعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا وقدموا الافيلة
امامكم والرجالة خلف ظهوركم واستعينوا بالصليب فهو ينصركم قال الراوي وأما عمرو
وخالد فانهما قالا نريد من يكشف لنا عن القوم ويعود فوثب الفضل بن العباس رضي الله
عنه وقال أنا فسار حتى قرب من القوم ورأى زيهم واهبتهم ورأى شعاع البيض
والبيارق والرايات كاجنحة النسور فلما رأوه القوم قالوا فارس قد طلع ولا شك انه طليعة
فايكم يبتدره فابتدروه ثلاثون فارسا فلما نظرهم ولى كانه منهزم وركض قليلا حتى
أبعدهم ثم لوى عنان الجواد نحوهم وطعن أول فارس والثاني والثالث فدخل رعبه
في قلوبهم فانهزموا وتبعهم وهو يصرع فارسا بعد فارس حتى اصرع منهم عشرين فارسا
فلما قرب من الروم ولى راجعا الى المسلمين واعلمهم بذلك فقالوا له غررت بنفسك يا ابن
عم رسول الله فقال ان القوم طلبوني وخفت ان يراني الله منهزما فجاهدت باخلاص

فنصرني الله عليهم واعلموا انهم لساغيهم ان شاء الله تعالى قال واقبل عمرو وخالد رتبوا العساكر ميمنة وميسرة وجناحين كما تقدم في اليوم الاول فجعل في الساقة زياد بن أبي سفيان بن الحارث في ألف فارس حول البنين والبنات والاموال وكانت بين النساء اللاتي تقدم ذكرهن في اجنادين واليرموك وهن عفيرة بنت غفار وام ابان بنت عتبة اخت هند وخولة بنت الازور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت ذراع ولبناء بنت سوار وسلمى بنت النعمان وهند بنت عمرون وزينب الانصارية وهؤلاء من النساء اللاتي عرفن بالشجاعة فقال لهن خالد يا بنات العرب لقد فعلتن فعالا ارضيتن الله ورسوله والمسلمين وقد بقي لكن ذكر تحدثن به جيلا بعد جيل وهذه أبواب الجنان قد فتحت لكن وأبواب النيران قد فتحت لاعدائكن واني احرضكن اذا جاءت الروم والسودان اليكن فقاتلن عن أنفسكن كما قاتلتن في يوم اجنادين ويوم اليرموك فان رأيتن احدا هاربا فدونكن واياه بالعمد واشرفن عليه بولده وقلن له الى أين تولى عن أهلك وولدك وحريمك وحرضن المسلمين على ذلك فقلن أيها الامير ما يفرحنا الا اذا متنا امامك يا ابا سليمان لنضربن وجوه الروم والسودان حتى لا يبقى لنا عذر قال فشكرهن على ذلك ثم عاد خالد الى الصفوف وجعل يدور بينهم بجواده ويحرض الناس على القتال وهو يقول أيها الناس انصروا الله ينصركم وقاتلوا من كفر واحبسوا أنفسكم في سبيل الله واصبروا على قتال أعداء الله وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة ولكن سهامكم تخرج من كبد قوس واحد فان السهام اذا خرجت جميعا لم يخل ان يكون فيها سهم صائب واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون واعلموا انكم لم تلقوا بالوجه القبلي مثل هؤلاء الفئة فانهم حماتهم وبطارقتهم وملوكهم فقالوا سمعا وطاعة واقبل خالد ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة الطائي والمسيب بن نجبة الفزاري وذو الكلاع الحميري وربيعة بن عباس ومالك الاشتر والعباس بن مرداس السلمي ونظائرهم من بقية الامراء ثم زحفوا بسكينة ووقار فلما رأوا الروم ذلك والسودان زحفوا وكانوا ملأ الارض طولا وعرضا فلما التقت الفئتان وتزاحم الجمعان وقد اظهروا أعداء الله في زينتهم الصلبان والاعلام ورفعوا أصواتهم بالكفر والبهتان فبينما الناس كذلك اذ خرج راهب كبير عليه جبة سوداء وقلنسوة وزنار فنادى بلسان عربي أيكم امير القوم فيخاطبني ويخرج الي فخرج اليه خالد فقال له أنت أمير القوم قال خالد كذلك يزعمون مادمت على طاعة الله وسنة رسوله فان انا بدلت أو غيرت فلا طاعة لي عليهم ولا امارة فقال القس اعلم انكم قد ملكتم بلادا وقدمتم الى بلاد

ماجسر ملك من الملوك تعرض لها ولا يدخلها وان ملوكا كثيرة أرادوها فرجعوا خائبين وافنوا أنفسهم عليها وليس النصر يدوم لكم وان الملوك أرسلوني اليكم فان سمعتم نجمع لكم مالا ونعطي لكل واحد منكم ثوبا وعمامة ودينارا ولك أنت مائة ثوب ومائة عمامة ومائة دينار ولكل واحد حمل من البر وحمل من الشعير ولك عشرة أحمال ولصاحبكم عمر عشرة آلاف دينار ومثلها عمائم ومثلها ثياب ومائة حمل بر ومائة حمل شعير وارحلوا عنا وأنتم موقرون أنفسكم فاننا عدد الجراد ولا تغلبونا لكن لاقيتم من الفرس والروم وأهل الشام والقبط فان في هذا الجيش من النوبة والبجاة والسودان والروم وكبار البطارقة والاساقفة ونجمع عليكم ما لا ناقة لكم به من بلاد السودان والواحات وكافكم بالنجدة وقد وردت علينا وار بقية الروم لم تات اليكم وانما أرسلوا من يقاتل عنهم فقال خالد والله ما نرجع عنكم الا باحدى ثلاث خصال اما ان تدخلوا في ديننا او تؤدوا الجزية او القتال وأما ما ذكرت انكم عدد الجراد فالله قد وعدنا بالنصر على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزله في كتابه وأما ما ذكرت انكم تعطونا من الثياب والعمائم فعن قريب نلبس ثيابكم وعمائمكم ونملك بلادكم جميعا كما ملكنا الشام ومصر والعراق واليمن والحجاز والروم قال الراهب أنا ارجع واخبر أصحابي بذلك فاني قد أتيت من قبل البطلوس صاحب مدينة البهنسا وقد أرسلني الى صاحب اهناس واتفقوا الملوك والبطارقة وارسلوني اليكم وأنا ارجع اليهم واخبرهم بجوابك ثم ان القس الوى راجعا من حيث جاء فلما رجع اليهم واخبرهم بذلك كاتبوا ملوكهم على ذلك وارسلوا اجوابهم بالقتال فلما وصلت الكتب تقدمت الروم والسودان وقدموا بين أيديهم الافيلة وامامهم الرجالة بالقسي والسيوف والدرق والمزاريق فصاح الفضل بن العباس ورفاعة بن زهير المحاربي والقعقاع بن عمرو التميمي وشرحبيل بن حسنة والمقداد بن الاسود الكندي ومعاذ بن جبل وقالوا معاشر المسلمين اعلموا ان الجنان قد فتحت والملائكة قد اشرفت والحور تزينت واشرفوا من الجنان ثم قرأ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة ثم رتبوا الصفوف فتقدم خالد وقال لهم اقرنوا المواكب واثبتوا واعلموا ان هؤلاء اكثر منكم بعشرة أمثالكم وأزيد فطاولوهم الى وقت العصر فانها ساعة النصر على أعداء الله واياكم تولون الادبار وازحفوا على بركة الله وعونه قال الراوي وتزاحمت السودان والبربر والنوبة والبجاة فلما تقارب الجمعان أرمت أصحاب الافيلة نشابها فكانت كالجراد المنتشر فقتلوا رجالا وجرحوا أبطالا وخالد تارة يضرب بسيفه في الميمنة وتارة في الميسرة وكان في أصحاب الافيلة من السودان والبربر سواكن يسمونها القواد شغتيه

العليا مشقوقة وبها خزام من نحاس فاذا كان وقت الحرب لايخرجون ذلك القواد الا اذا حمى الحرب واشتد الطعن والضرب وكانوا سودا طوالا طول كل واحد منهم عشرة أذرع فاذا أرادوا الحرب يجعل فى كل خزام سلسلة وهى بطرفين فى كل طرف منها واحد من البربر فاذا وقع صلح بين الفريقين والا زحفوا بهم واطلقوا السلاسل ودفعوا لهم أعمدة من حديد طوال فيضربون الفارس والفرس فيقتلها بضربة ومنهم من يركب الافيلة ويقاتل على ظهورها فلما التقى الجمعان خرجت تلك القواد وعلى أجسادهم جلود النمورة فوق اكتافهم ومربوطة من على صدورهم وفى أوساطهم مثل ذلك وهم عراة الاجساد والرؤس ليس عليهم غير ما ذكرنا وبايديهم الاعمدة والرجال يقودونهم بتلك السلاسل والجيوش سطرون متى يؤمرون بالحملة فلما رأى المسلمون منهم من ثبت ومنهم من جزع قال وبرز البطريق أخو بولص المقتول وهو راكب على جواد عال وعليه لحاف من جلود الافيلة وقاتل قال الراوى حدثنى خالد بن اسلم عن طريف ابن طارق وكان من الازد قال لما فعل البطريق ذلك ولت الازد بين يديه منهزمين واذا بفارس قد اقبل وهو يركض جواده وهو عارى الجسد حتى قرب من القوم وأنشد يقول شعرا

لقد ملكت يدى سنانا وصارما * اذل عداة السوء ان جئت قادما
واتركهم شبه الرخام اذا مشى * عليه شجاع المصرخى القشاعما
والا كاغنام مصين بقفرة * واصبح مولاها عن السعى نائما
وقد ملك الليث الغضنفر جمعها * واصبح فيها بالمخالب حاطما

قال الراوى رحمه الله وصاح الفارس انا ضرار بن الازور انا قاتل ملوك الشام انا ناصر دين الاسلام والمسلط على من يكفر بالرحمن انا قاتل بولص الكذاب ذو الطغيان قال فلما سمعوا الروم كلامه عرفوه فتقهقروا الى وراءهم فطمع فيهم وحمل عليهم فقال بطرس من هذا البدوى الذى لم يزل عارى الجسد ويقاتل بالسيف مرة وبالرمح مرة قالوا هذا ضرار بن الازور فصبر الملعون وقال هذا قاتل أخى ولقد اشتهيت ان آخذ بثارى ثم عزم على الخروج اليه فسبقه بولس رأس بطارقة الكورة وقال انا آخذ بثارك ثم حمل على ضرار فتقاولا طويلا واعتركا مليا فما كان أكثر من ساعة حتى طعنه ضرار طعنة صادقة فى صدره خرقت الدروع وخرجت من ظهره فانجدل صريعا وعجل الله بروحه الى النار فقال بطرس هذا جنى وليس للانسان ان يقاتل الجن ثم لبس لامة حربه وتعصب بعصابة من اللؤلؤ الرطب ولبس فوق درعه مثل ذلك وخرج يطلب ضرار فسبقه شدم أدرس أحد بطارقة الكورة وحلف لايخرج اليه غيره وحمل على ضرار

وقال دونك والقتال فلم يفهم ضرار ما يقول ثم حمل عليه فاخرج صليبا من الذهب كان معلقا في عنقه فضحك ضرار عليه وقال أنت تستعين بالصلبان وانا أستعين بالملك الديان ثم أورى كل واحد منهما ما ادهش الناس من الحرب فصاح خالد وبقية الامراء ماهذه الفترة يا ضرار والجنة قد فتحت لك ولعدوك قد فتحت النار فاستيقظ ضرار وحمل على البطريق وصاحت الروم بصاحبها وصاروا في حرب عظيم وحميت عليهم الشمس وثار الحرب حتى كل منهما السـاعدان وعرق من تحتهما الجوادان فاشار البطريق الى ضرار أن يترجل ويترجل البطريق معه شفقة على الجوادين واذا براس بطارقة اهناس قد اخرج له جوادا عجلا بالحرير ليركبه فلما نظر ضرار الى ذلك صاح بجواده اثبت معي هذه الساعة والا أشكوك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فذرفت عين الجواد بالدموع و؟هم وجرى أكثر من جريه المعتاد وتلقى ضرار البطريق وحمل عليه وطعنه بعقب الرمح فارداه وأخذ جواده وأراد قتله واذا بكردوس خرج من الروم ومعهم الـكلب الـكبير شاول أحد بطارقة الاشمونين وأحاطوا بضرار وكان على رأس شاول تاج من الذهب الاحمر فلما رأوا الصحابة الكردوس الذى خرج على ضرار والتاج يلمع على رأسه قالوا لخالد ما سبب قعادنا عن نصرة صاحبنا وقد أحاطت به الروم فعندها خرج خالد رضى الله عنه في عشرة من خيار قومه وهم الفضل بن العباس بن عبد المطلب واخوه وعبد الله بن جعفر ومسلم وعلى أولاد عقيل وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن المقداد وقوموا الاسنة وأطلقوا الاعنة وصبر ضرار للروم حتى وصلت اليه الامارى وقالوا أبشر يا ضرار فقد أتاك النصر والفرج وقد ذهب عنك الخوف والجزع فلا تخف من الكفار واستعن بالله الواحد القهار فقال ضرار ما اقرب الفرج من الله والتقت الرجال بالرجال وطلب خالد صاحب التاج والعصابة وضرار مع خصمه فلما رأى المسلمين قد أحدقوا به وما حل بجماعته اندهش وارتعد شاول البطريق هذا وضرار مع خصمه وقد أراد الهرب فالقى ضرار نفسه من على جواده وتبعه حتى لحقه ثم رمى الرمح من يده وتواخذوا بالمناكب وتصارعا وكان عدو الله كأنه قطعة من جبل وضرار نحيف الجسم غير ان الله أعطاه حيلا وقوة فلما طال بينهما العراك ضرب ضرار بيده في بطن عدو الله فقلعه وجلد به الارض فصاح يستنجد بالبطارقة وتصارخت الروم والسودان وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يمهله ضرار دون ان ركب عليه وهو يعج كالبعير فعندها أظهر ضرار سيفه ومكنه من نحره فقتله فزعق زعقة سمعها العسكران فحملت الروم والسودان هذا وضرار قد احتز رأسه وقام عن صدره وهو ملطخ بالدماء ثم

كبرت المسلمون ودنى الفريقان بعضهم من بعض والتقمت الابطال وقوى القتال وعظم النزال وسال العرق وازورت الحدق وعلت الرايات واظلمت الدنيا ودارت رحى الحرب وقوى الطعن والضرب وضاقت الصدور واشتدت الامور وضاقت المذاهب وقطعت المناكب وما كنت ترى الا دما ثائرا وكفا طائرا وجوادا غائرا هذا وقد زحفت السودان وأصحاب السلاسل ذو الكفر والطغيان وضربوا بالاعمدة الحديد وكان يوم شديد وبانت الشجعان وفر الجبان وبقى حيران هذا وعمرو بن العاص يحرض الناس على القتال ويقول أيها الناس ويا حملت القرآن اذكروا عرض الجنان فسر الناس بقوله ونشطوا وصارت السودان يضربون الفارس مع الفرس بالعمد الحديد فيقتلونهما جميعا وكذلك أصحاب الافيلة يرمون بالنشاب ويضربون بالحراب الى أن جاء وقت العصر وقد قتل من الفريقين خلق كثير وظفر بالدبخمه شاول لعنه الله وضربه بالسنان فى صدره أخرج السنان يلمع من ظهره ووقع على الارض يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار قال ولما عظم القتال والبلاء قال رفاعة المحاربى وقد انتخب من بنى محارب ولبيد ومالك خمسمائة فارس وقصد الافيلة وقال يا وجوه العرب دونكم واعينها ودنى من الفيل الابيض وهو قائدهم وهم خمسمائة فيل وتقدم اليه والسيف فى يده وهو ينشد ويقول

يالك من جثة كبيرة * لقيت كل كبيرة خطيرة
اليوم قد ضاقت بك المصيرة * حتى ترى ملقى على الحفيرة

قال ثم ضربه بالسيف فولى هاربا ثم برك وكان عليه عدة من السودان فى قبة من الاديم فلما سقط الفيل الى الارض قام العلج عن ظهره وفى يده عمود فضرب به رفاعة فراغ عنه وضربه رفاعة على عاتقه الايمن أطلع السيف يلمع من عاتقه الايسر فسقط عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار فلاحقت العرب بأصحاب الافيلة وصاروا يطعنون الافيلة فى أعينها كاذكرنا فولوا منهزمين قال وقصد خالد والمقداد واجواد الامارى للقواد الذين تقدم ذكرهم وطلبوا من الله النصر والثبات وصاروا يأتونهم فارس عن اليمين وفارس على اليسار فيقتلون مساك السلاسل ثم يمسكون أطراف السلاسل وبه يلقون الاعمدة فينقاد معهم كالبعير الشارد فيأخذون العامود من يده ويقتلونه أشر قتلة ولم يزل القوم فى قتال ونزال وأهوال حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين وقد قتل من الفريقين خلق كثير فأما المسلمون فقد قتلوا منهم اثنى عشر ألفا من الملوك والبطارقة خمسة عشر بطريقا وملكا من السودان وغيرها وباتت المسلمون يتحارسون الى الصباح قال الراوى رحمه الله وكان قد اثخن بالجراح جماعة من المسلمين فى ذلك النهار وكانت

المسلمون طائفة يدفنون القتلى وطائفة يداوون الجرحا وطائفة يقرؤن القرآن وطائفة يصلون وطائفة نيام من كثرة ما لحقهم من التعب وخالد بن الوليد والزبير بن العوام والمقداد ابن الاسود وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم يدورون حول العسكر الى الصباح فلما لاح الفجر اذن المؤذنون وصلى عمرو بن العاص بالناس الصبح بسورة الفتح ثم دعوا الله عز وجل أن يرزقهم النصر ثم تبادروا الى خيولهم فركبوها ورتبوا صفوفهم كما ذكرنا فيما تقدم بالامس فلما فرغت المسلمون من تعبية الصفوف أقبلت الامارى يحرضون الناس على القتال وقد جعلوا على الساقة رافع بن عميرة الطاءى والحارث بن قيس ورفاعة ابن زهير في خمسمائة فارس قال الراوى قال عبادة بن رافع قال حدثنا سالم بن مالك عن عبد الله بن هلال وكان فى خيل رافع قال لما رتبت الصفوف والتقى الجمعان وكثر القتال وكل واحد اشتغل بنفسه ونحن نذب عن النساء والصبيان والنساء اللاتى تقدم ذكرهن يقاتلن أشد القتال اذ جاءنا كردوس عظيم من البطارقة والسودان والبجاة ومعهم زهاء عن ستمائة فيل وغافلونا ونحن مشغولون بالقتال واقتطعوا قطعة كبيرة من الابل والرجال والنساء والصبيان زهاء عن ألفي بعير ومائتى امرأة وغير ذلك وكان فى ذلك زائد بن رباح البكرى وعباد بن عاصم الغنوى ومعهما مائتى فارس فقاتلوا قتال الموت حتى أثخنوا بالجراح وقاتلت النساء بالاعمدة والسيوف والخناجر فلله در عفيرة بنت غفار وسلمى بنت زاهر ونظائرهن من النساء لقد قاتلن حتى ضربوا بالسيف على رؤسهن وسال الدماء على وجوههن وهن يقلن الله الله يا نساء العربيات قاتلن عن العسكر وعن أنفسكن والا صرتن بايدى الاعلاج القلف والسودان فقاتلن قتال الموت وقتل من المسلمين خمسة عشر نفرا ختم الله لهم بالشهادة وساقوا النساء والصبيان فرجع فارس الى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص واعلمهما بذلك وهم فى أشد القتال فتصايحت المسلمون وخرج جماعة من الامارى من وسط المعركة وهم الفضل بن العباس وعبد الله ابن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وزياد بن أبي سفيان وعبد الله بن أبي طلحة وضرار بن الازور وجماعة من الامارى وتبعهم ستمائة فارس من العرب من صناديد القوم وادركوهم عند أول الجبل وهم يريدون الى جهة الفيوم فعند ذلك زعق ضرار والفضل بن العباس الى أين يا اعداء الله فتراجعت الروم والسودان عليهم واقتتلوا قتالا شديدا فابتدر ضرار الى مقدم السودان وطعنه فى صدره أطلع السنان يلمع من ظهره وكذلك الفضل بن العباس تقدم الى بطريق عظيم وطعنه فى لبته أطلع السنان يلمع من قفاه فانجدل يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار قال واستمروا يتقاتلون حتى قتلوا مقتلة عظيمة فلما عاينوا ذلك القوا ما بايديهم من

العسية و ولوا وتوانبت المسلمون وردوا السبي والحريم وردوا الاسارى وحلوهم وساعدتهم النساء بالاعمدة والسيوف والخناجر فكانت النساء يضربن وجوه الخيل بالعمد فيكب الجواد به فتتعلق المرأة بالفارس وتجذبه الى الارض فتجلد به الارض ثم تضربه فتقتله حتى قتل منهم جماعة من الروم والسودان والبجاة وغيرهم فلما رأوا ذلك ولوا منهزمين من بين أيديهم وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم نحو ستمائة أسير من الروم والسودان وزحفوا وقد غنموا اسلابهم وخيولهم قال الراوى رحمه الله هذا ما جرى لهؤلاء وأما العسكر فانهم لم يزالوا فى قتال شديد وأمر عتيد وضرب وطعان وقتل رجال وجندلة أبطال وفرسان وقد قام الحرب على ساق وقدم وضربت الاعناق وصالت الشجعان وولى الجبان حيران ودارت رحى الحرب واشتد الطعن والضرب وقطعت المعاصم وطارت الجماجم وحامت طيور المنايا وعقامت الروايا واشتد الزحام وعظم المرام وضاقت الصدور وعظمت الامور واشتد الغبار وقل الاصطبار وقاتلت الامارى بالرايات وبربرت السودان بلغاتها ورفعت الروم أصواتها وضربت ببوقاتها وطعنت برماحها ورمت نشابها وحارت الافكار وعميت الابصار وثار الغبار وأظلم النهار وكان شعار المسلمين يا نصر الله انزل وصبرت المسلمون لهم صبر الكرام ولله در الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود والفضل بن العباس وعقبة ابن عامر والمسيب بن نجبة الفزارى ونظائرهم من الامارى ولقد قاتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا وصبروا صبر الكرام وأما عمرو وخالد والقعقاع بن عمرو وسعيد بن زيد فلقد كانوا يقاتلون قتال الموت وزحفت الافيلة برجالها وقاتلت الروم وأبطالها والسودان وافيالها وقد كانت الافيلة تعطف على خيل العرب ويرمون بالنشاب فيخرج كالجراد المنتشر حتى قلعت أعين كثيرة فى ذلك اليوم فما كنت تسمع الا من يصيح واعيناه وهذا يصيح وايداه والافيلة تحطم والسودان يرمون الابطال فعندها وثب رفاعة بن زهير المحاربى وأتى الى خالد وعمرو وقال أيها الامارى ان تم هذا الامر هكذا اهلكنا عن آخرنا قالا فما الرأى يا أبا حازم قال الرأى أن نجمع هدومنا ونغمسها ونجعلها على رؤس الرماح ونجعل فى اعلاها نارا ثم نأمر رجالا يجمعون القيصوم وغيره ونجعله فى غرائر على ظهور الجمال عريا ونشعلها بالقتال ثم تأتى الفرسان تمادهم وتساق عليهم الجمال فانها اذا أحست بالنار حطمتهم فلا يصبرون على ذلك والمعونة من الله تعالى فاستصوبوا رأيه واعدوا رجالا لذلك وناوشوهم القتال فلم يكن الا ساعة حتى تهيأت المكيدة وجمعوا الفرسان ألف فارس وصغروا تلك الهدوم بالدهن والزيت وادلقوا النيران برؤس الاسنة وجعلوا الغرائر بالقيصوم وغيره اشعلوا فيه نارا ونخعوا

الحراب في اجناب الابل فلما أحست بالحراب في اجسامها والنار في ظهورها فعندها حطمت على الروم والسودان فلما رأت الافيلة ذلك طارت عقولها وقطعت سلاسلها وداست قوادها ورمت ما على ظهرها من الرجال وداستهم باخفافها ورجعت خيل الروم وبرازينها وهربت بغالها وذابت قلوب رجالها وضربت الامارى في الاعداء بسيوفها وطعنت برماحها ورمت بنشابها قال المسيب بن نجبية ولقد رأينا طيوراً اظلتنا في زى النسور وكان الطائر يرفرف بجناحه على وجه الكافر ورأسه ثم يضع مخاليبه في عينيه فيرميه الى الارض فلم تكن الا ساعة بعد صلاة العصر حتى ولت الروم الادبار وركنوا الى الفرار وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى جاء الليل واظلم النهار ووصلت الهزيمة الى القرية المعروفة بالدير والى اللاهون والى اهناس والى ميدوم وتبعهم المسلمون الليل كله الى الصباح وقد تفرق شملهم وشرد جمعهم واسر منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف وقتل منهم ما لا يحصى قال رافع بن ازداد الجهني لما رجعنا الى مكان المعركة وجدنا الارض قد امتلأت من قتلى الروم والسودان والبجاة وغيرهم واختلط جماعة من قتلى المسلمين فيهم ما عرفناهم من الروم الا ان الروم كان بايديهم صلبان والمسلمون ليس لهم ذلك فميزناهم منهم بذلك وجمعنا جريد النخل والقصب ووضعنا على كل قتيل جريدة أو قصبة وذلك في مكان المعركة ثم جمعناهم وحصرناهم فاذا هم الكفار تسعون الفا وقتل في الجبال والطرقات ما لا يحصى وتفقد المسلمون من قتل منهم فاذا هم خمسمائة وثلاثون رجلا وجمعت المسلمون الغنائم والاموال ثم قسمت واخرج عمرو منها الخمس وكتب كتابا بالفتح وما جمعه من الخمس واستدعى بالامير هاشم بن المرقال رضى الله عنه وانتدب معه ثلاثون رجلا من خيار الجند وأمره بالمسير الى المدينة واقام المسلمون بالمرج بعد الوقعة خمسة ايام حتى استراحوا ورجع من كان خلف المنهزمين ثم اجتمعوا الى عمرو واستأذنوا بالمسير الى الوجه القبلي فاذن لهم وودعهم ودعى لهم وقال عزّ على فراقكم ولولا ان امير المؤمنين لم يأمرني بالمسير ما فارقتكم ثم رجع معه ثلاثة آلاف ومائة وعشرون وكان جملة من قتل ثمانمائة وثمانين ختم الله لهم بالشهادة وقيل ألف وقيل تسعمائة واربعون على اختلاف الرواة والله أعلم اى ذلك كان (قال الراوى) رحمه الله تعالى ما أخذت في هذا الكتاب الا على قاعدة الصدق والمعونة من الله تعالى فلما ملكت المسلمون البلاد وذلت اهل الشرك والفساد وذلك ببركة الصحابة رضى الله عنهم فهم الرجال الابطال والسادة الاخيار والمهاجرون والانصار واصحاب محمد المختار الذين فتحوا بسيوفهم الامصار واذلوا الكفار وارضوا العزيز الغفار وباعوا نفوسهم لله الواحد القهار بجنات تجرى من تحتها الانهار (قال الراوى) رحمه الله ولما

رجعت المهزمون الى الملوك والبطارقة واخبروهم بذلك وقع الرعب فى قلوبهم وحاروا فى نفوسهم ولم يدروا ما يدبرون وما يصنعون قال فصعب على بطريق اهناس وعلى صاحب البهنسا وما صنع ببطارقتها وعولوا على الحصار وجمعوا الآلة وصاروا يخزنون ما يحتاجون اليه وتيقنوا ان لابد للعرب من ارضهم ووطنوا انفسهم وكذلك بطارقة الصعيد وملوكه وضاقت نفوسهم مما حل بهم (قال الراوى) ووصل الكتاب الى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ففرح بذلك فرحا شديدا وقرأ الكتاب على على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والعباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحوا بذلك فرحا شديدا ثم قسمت الغنائم على أهل المدينة وقسم لنفسه كاحدهم رضى الله عنه وعنهم وكتب جواب الكتاب ودفعه لهاشم وقال له قل لعمرو يحث الصحابة ويحرضهم على فتح الصعيد (قال الراوى) واما عمرو بن العاص رضى الله عنه فانه لم يرجع الى مصر حتى قسم الغنائم بين الصحابة وفضل أصحاب الولاء وأهل السابقة ورجع الى مصر بعد ان جهز العساكر الى الصعيد (قال الراوى) رحمه الله ولما فارق عمرو بن العاص خالد بن الوليد والامارى رضى الله عنهم استشار بعضهم بعضا أى مكان يقصدون فاتفق رأيهم ان يسير ون ألف فارس طايعة وأمر عليهم قيس بن الحارث ومعه جماعة من أمرائهم منهم رفاعة بن زهير المحاربى والقعقاع بن عمرو التميمى وعقبة بن عامر الجهنى وذو الكلاع الحميرى رضى الله عنهم ويسيرون فى وسط البلاد وبقية العساكر وراءهم فمن أطاعهم وطلب الامان أمنوه وصالحوه ووضعوا عليه الجزية ومن أبى قاتلوه ومن أسلم تركوه وسار خالد ببقية الجيش يريدون اهناس فانها كانت أعظم مدائن الوجه القبلى بعد السكورة وكانت حصينة آهلة بالخيل والآلة والعدة ولما أحس بطريقها بمجىء الصحابة اليه جمع البطارقة وقد انكسرت جنودهم وخمدت نيرانهم وكلمهم بانهزام جيوشهم وشاورهم فى أمرهم وقال لهم خذوا اهبتكم وقاتلوا عن حريمكم وأموالكم والا صرتم عبيدا للعرب يفعلون بكم ما يختارون وان شئتم صالحناهم حتى يعلم ما يكون من بطارقته فاجابوه وقالوا لا نسلم البلاد حتى نغلب ونجمع أموالنا فى هذه المدينة الحصينة ونقاتل فان غلبنا عولنا على الحصار واتفق رأيهم على ذلك فكان الذى أجابهم الى ذلك خرج بنفسه وأمواله ومن لم يجبهم الى ذلك أقام وكذلك بطارقة البهنسا منهم من انتقل الى البهنسا بماله وأولاده ومنهم من أقام وبعض المداين ممن عولوا على الاقامة والحصار والقتال وسار خالد بالجيش حتى قرب من اهناس وبين يديه الطلائع والامارى وهم يشنون الغارات على السواحل والبلاد فمن خرج اليهم وصالحهم وعقد معهم صلحا

صالحوه ولهم الميرة والعلوفة والضيافة ومن أبى دعوه الى الاسلام فان أبى طلب وامنيه الجزية فان أبوا اشنوا عليهم الغارة حتى وصلوا قريبا من اهناس وبلغ الخبر الى عدو الله فقال لابد من لقائهم وقتالهم حتى انظر ما يكون من أمرهم ثم خرج الى ظاهر المدينة قريبا من السور ولم يبعد عنها وكان للمدينة أربعة أبواب فاغلق ثلاثة وفتح الباب الشرقي واخرج الخيام والسرادقات وأكثر من العدة والزينة وقال ان دخلت المدينة من غير قتال طمعت العرب في جانبنا ثم فرق بطارقته وعرض جيشه فكان عدتهم خمسين ألف وقال تثبتوا وقاتلوا عن حريمكم ولا تكونوا اول جند أخذوا وأقاموا يتأهبون للقتال وينتظرون قدوم الصحابة رضي الله عنهم (قال الواقدي) رضي الله عنه واما خالد لما اقترب من اهناس استدعى بالزبير بن العوام وضم اليه ألف فارس من الامارى وغيرهم وأمره بالمسير ثم استدعى بالفضل بن العباس وضم اليه ألف فارس وسار على أثره ثم استدعى بميسرة بن مسروق العبسي وضم اليه ألف فارس وسار على أثره ثم استدعى بزياد بن أبي سفيان وضم اليه ألف فارس وسار على أثره ثم استدعى بمالك الاشتر النخعي وضم اليه ألف فارس وسار على أثره وسار خالد ببقية الجيش قال ثم عون بن سعيد قال حدثنا هاشم بن نافع عن رافع بن مالك المدري قال كنت في خيل الزبير بن العوام رضي الله عنه لما توسطنا البلاد وتعرضنا لاهلها وشننا الغارة على السواد فوجدنا قطيعا من الغنم ومعهم رعاة فلما أحسوا بنا تركوها ومضوا فسقناها ثم سرنا قليلا واذا بنساء وصبيان مشرفة ونصارى من القبط وغيرهم فلما رأونا نفروا وكان معهم عشرون فارسا من العرب المتنصرة من جذام ومعهم بطريق من البطارقة عليه الزينة الفاخرة فلما عاينونا فروا من بين أيدينا واطلقنا الغارة عليهم فما كان غير بعيد حتى ادركناهم وقبضنا عليهم وسألناهم فاجابوا بانهم من قرى شتى وانهم يريدون اهناس فاعرضنا عليهم الاسلام فامتنعوا فاردنا قتلهم فمنعنا من ذلك الزبير رضي الله عنه وقال حتى يحضر الامير خالد ويفعل ما يريد قال وسرنا حتى قربنا من اهناس ورأينا المضارب والخيام والسرادقات فاعلن الزبير بالتهليل والتكبير وكبر المسلمون حتى ارتجت الارض لتكبيرهم وخرجت الروم الى ظاهر خيامهم ينظرون الينا وعدو الله مارنوس بن ميخائيل ينظر اليهم والحجاب والنوب وأرباب الدولة من البطارقة حوله وعليهم اقبية الديباج وعلى رؤسهم التيجان المكللة وبايديهم العمد المذهبة والسيوف وهم محدقون به عن يمينه وشماله قال فلما اقبلنا عليهم تصايحوا وطمطموا بلغتهم واعلنوا بكلمة كفرهم واستقلوا بنا في اعينهم ولما قرب الزبير من القوم هز الراية وانشد يقول

يا اهل اهناس الطغاة الكوافر * وياعصبة الشيطان من كل غادر
أتتكم ليوث الحرب سادات قومها * على كل مشكول من الخيل ضامر
فان لم تجيبوا سوف تلقون ذلة * ونقتل منكم كل كلب وفاجر

(قال الراوى) ثم نزل ساقريبا من القوم فلم يكن غير قليل حتى اقبل الفضل بن العباس رضى الله عنه وحوله السادات الاماجد فكبر وكبروا معه وهز الراية وانشد يقول شعر

يا اهل اهناس الكلاب الطواغيا * اتتكم ليوث الحرب فاصغوا مقاليا
وقروا بان الله لا رب غيره * والا تروا أمرا عظيما مدا نيا
وقروا بان الله ارسل احمدا * نبيا كريما للخلائق هاديا

(قال الراوى) رحمه الله ثم نزل قريبا من أصحابه فلم تكن الاساعة حتى اقبل الامير ميسرة بن مسروق العبسى وكبر وكبروا المسلمون فاجابه المسلمون فهز الراية وانشد يقول شعر

اتينا لاهناس بكل غضنفر * على كل صهال من الخيل اجرد
فان هم اطاعونا شكرنا فعالهم * والا ابدناهم بكل مهند
ونخرب اهناسا ونقتل أهلها * اذا خالفوا دين النبى محمد

(قال الراوى) رحمه الله تعالى ونزل قريبا من الفضل ولما كان غروب الشمس اقبل زياد بن أبى سفيان رضى الله عنه بمن معه وكبر وكبروا المسلمون وهز الراية وانشد يقول

هلموا الى اهناس يا آل هاشم * وياعصبة المختار نسل الاكارم
ودونكم ضرب السهام بشدة * وقطع رءوس ثم فلق جماجم
لنصر دينا للنبى محمد * نبى الهدى المبعوث من آل هاشم

(قال الراوى) رحمه الله وباتت المسلمون رضى الله عنهم يقرءون القرآن ويصلون على النبى صلى الله عليه وسلم وهم يتحارسون حتى لاح الفجر ثم أقبل المقداد رضى الله عنه باصحابه وكبر هو والمسلمون ولما قرب من أصحابه هز الراية وانشد يقول

انا الفارس المشكور فى كل موطن * وناصر دينا للنبى محمد
لعل ننال الفوز عند الهنا * بافوز من أضحى نزيل المؤيد
ونقتل عباد الصليب جميعهم * باسمر خطى وعضب مهند

(قال الراوى) رحمه الله ونزل بازاء الفضل وتكلمت الامراء المتقدم ذكرهم ولما رأونا ظنوا ان ليس وراءنا أحد وقعد ذلك اليوم ولم نكلمهم ولم يكلمونا فلما كان اليوم الثانى عند طلوع الشمس واذا بالغبار قد طلع والقتام قد ارتفع من خيول عادية وعليها

فوارس حازبة وكبرت وكبر المسلمون ورفعت راياتها الاسلامية واعلامها المحمدية
فسمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الصياح فخرجت الامارى الى لقائهم
واذا في أوائلهم خالد بن الوليد رضي الله عنه والى جانبه غانم بن عياض الاشعرى وابوذر
الغفارى وأبوهريرة الدوسى واسمه عبد الرحمن وبقية الامارى والمهاجرين والانصار
فلما رأت الروم ذلك من قريب دخل الرعب في قلوبهم ونزل أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم قريبا من اهناس كل منهم في مركزه وأقاموا ذلك اليوم فلما كان في اليوم
الثاني جمع خالد الامارى وأصحاب الرايات واستشارهم فيمن يمضي الى بطريق
اهناس فقال المقداد أنا له فقال له خالد أنت له فخذ من شئت فاخذ معه ضرار بن
الازور وميسرة بن مسروق العبسى وقال لهم خالد ادعوه الى الاسلام فان أبى فالجزية
فان أبى فالقتال واحرصوا على أنفسكم (قال الراوى) رحمه الله وساروا الى القوم حتى
قربوا من العسكر وهم يدوسون بخيولهم اطناب الخيام والسرادقات فصاحت بهم الحجاب
من تكونوا فقالوا نحن رسل فاعلموا البطريق بذلك فامر باحضارهم فلما حضروا بين
يديه صاحت بهم الحجاب والنواب الارض للملك فلم يلتفتوا اليهم ولم ينزلوا الا على باب
سرادق الملك ووقفوا على الباب فاذن لهم في الدخول فدخلوا ومسكوا لجم خيولهم
فأراد الغلمان ان يمسكوهم فامتنعوا من ذلك فاشار اليهم البطريق فتركوهم ثم دخلوا
عليه فاذا هو جالس على سرير من الذهب مرصع بالدر والجوهر وحوله البطارقة جلوس
والحجاب والنواب وارباب الدولة قيام وبأيديهم السيوف والاعمدة والاطبار فلما رآهم
تغير لونه واندهش واذن لهم بالجلوس فقالوا الانجلس على هذا الفرش فانه حرام علينا
فامر بالبسط الحرير فرفعت ثم فرش انطاعا من الصوف ثم أشار اليهم فقالوا لانجلس
حتى تنزل عن سريرك قال فطمطمت الروم فاشار اليهم فسكتوا وأرادوا ان ينزعوهم
سيوفهم فامتنعوا من ذلك فتركوهم وكلمهم الملك فابوا حتى ينزل عن سريره فنزل وكلمهم
بلسان عربي وسألهم عن حالهم فاجابوا انهم لايفارقوه حتى يسلم هو وقومه أو الجزية
أو القتال فامتنع من ذلك وقال اذهبوا والموعد غدا للقتال وخرجوا من عنده على
ذلك ورجعوا الى خالد واعلموه بذلك فتأهبت الامارى للحرب فلما أصبح خالد صلى
باصحابه صلاة الصبح وبادروا للحرب والقتال وصاحوا النصر النصر ياخيل الله اركبي
وللجنة اطلبي فركبت المسلمون خيولهم وركزوا راياتهم واصطفوا ميمنة وميسرة
وقلبا وجناحين وخالد في وسط الجيش وعلى الساقة ميسرة بن مسروق العبسى
ومالك الاشتر النخعي في خمسمائة فارس من المهاجرين والانصار (قال الراوى) فلم
تكن غير ساعة حتى برزت الروم واظهرت صلبانها قال حدثنا رافع بن مالك عن

عبادبن مازن عن محمد بن مسلمة الانصارى رضى الله عنه قال لما اقبلت رايات القوم عددناهم فاذاهم خمسين صليبا تحت كل صليب ألف فارس فكان أول من افتتح الحرب بطريقا عليه ديباجة حمراء وعلى رأسه بيضة مرصع عليها بعصابة من جوهر فبرز اليه فارس من خثعم يقال له زيد بن هلال فقتله ثم طلب البراز فبرز اليه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يمهله ان ضربه بالسيف على عاتقه الايمن خرج يلمع من عاتقه الايسر فانجدل عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وطلب البراز فبرز اليه فارس من الروم فقتله ثم آخر فقتله وطلب الميمنة وشوش صفوفهم وقتل ابطالهم ثم عاد الى القلب ثم خرج من بعده شرحبيل بن حسنة وفعل كفعله ثم حمل من بعده الفضل بن العباس ثم حمل من بعده العباس بن مرداس ثم من بعده ابوذر الغفارى ثم تبادرت المسلمون بالحملة فلما رأى الروم ذلك ايقظوا أنفسهم فى عددهم وعديدهم وتنادروا بالبيض والدروع ولم يزل القتال عمالا حتى توسطت الشمس فى قبة الفلك (قال الراوى) رحمه الله ورضى عنه فعندها حمل خالد بن الوليد وغاص فى الميمنة أقلبها على الميسرة والميسرة اقلبها على الميمنة وقاتلت العرب قتالا شديدا حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين وباتت المسلمون يتحارسون وتفقدت المسلمون بعضهم بعضا فاذا قتل منهم اثنان وأربعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة الاعيان منهم ربيعة بن عامر الداودى وزيد بن ربيعة المحاربى وغانم بن نوفل المحاربى وصفوان بن مرة اليربوعى والبقية من اخلاط الناس وقتل من اعداء الله ألف وثلثمائة وازيد ولما خلى عدو الله باصحابه تذاكروا ما وقع فى الحرب وصعب عليهم مالقوه من الحرب وغلبوا البطارقة عليه واعتدوا للحرب والقتال فلما اصبح الصباح ولاح بارق الفجر صلوا صلاة الصبح ثم اصطفوا على ظهور خيولهم واصطفت الروم وبرزت البطارقة واظهروا زينتهم وبرز بطريق عظيم يقال له صاحب طنسا وعليه لامة حربه وطلب البراز فبرز اليه الفضل بن العباس فتجاولا وتعاركا وتخالفا بضربتين فكان السابق بالضربة الفضل بن العباس فضربه بالسيف على راسه ووصل الى اضراسه فنجدل صريعا يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار وبرز بطريق ثان فقتله ولم يزل كذلك حتى قتل أربعة من خيارهم فحملت الروم حملة واحدة وحملت المسلمون وحمل ضرار بن الازور رضى الله عنه واظهر شجاعته وحمل مدعور بن غانم الاشعرى والفضل بن العباس ومحمد بن عقبة بن أبى معيط ومسلم وجعفر وعلى بن عقيل وعبد الله بن جعفر وسليمان بن خالد وعبد الرحمن بن أبى بكر وتجاهرت الامارى وعظم الخطب وكثر الطعن والضرب وثار

القتام حتى صار النهار كالليل وتراشقوا بالنبال واشتد القتال وتطت المعاصم وطارت الجماجم فما كنت ترى الاجواد اغائرا ودما فائرا واشتد الكرب وكثر الطعن والضرب وسال العرق واحمر الحدق وجال خالد كالاسد وارغى وازبد فعند ذلك رفع غانم ابن عياض طرفه الى السماء وقال يا عظيم العظماء انزل علينا نصرك كما انزلته علينا في مواطن كثيرة وانصرنا على القوم الكافرين فامنت جماعة من الامراء على دعائه فما كان غير بعيد حتى رأيت الرجال من الكفار متساقطون لاندري بماذا يقتلون فلما رأوا الروم ذلك فروا الى الباب وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون والحجارة تأخذهم من أعلى السور وهم لا يلتفتون الى ذلك ودخلوا الى الأبواب ودخل اللعين وساق خالد وجماعة من الامارى واقتطعوا قطعة من الروم نحو خمسة آلاف وكان المسلمون قريبا من العين فاقتتلوا عند الباب ورموهم بالحجارة فقتلوا منهم نحو عن ثلاثة آلاف وخرج من الباب قريبا من ألف فارس واحجوا الباقي ودخلوا واغلقوا ابوابهم وطلعوا على الاسوار واشتد القتال والحصار ورموا بالحجارة والنبال حتى فرق الليل بينهم (قال الراوي) رحمه الله وأقام المسلمون على حصار اهناس ثلاثة أشهر وفي كل يوم يتناوشوهم القتال والاسوار منيعة والابواب وثيقة وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم يشنون الغارات حتى يصلوا الى اطراف الكورة (قال الراوي) رحمه الله فضعف من أهل اهناس القوي ومات الضعيف وانقطع عنهم المدد وضاقت أنفسهم وطمعت فيهم الصحابة ثم ان خالدا استشار أصحابه ماذا يصنعون وقد اعياهم فتح الباب فقال له المرزبان رضي الله عنه وكان من مرازبة كسرى وقد أسلم وخرج الى الجهاد وحبس نفسه لله عز وجل وهو المقتول بالبهنسا قريبا من البلد شرقي البحر اليوسفي في وقعة صاحب طنجا ذات الاعمدة وسيأتي ذكر ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى فقال المرزبان انا في بلاد الفرس اذا حاصرنا مدينة ولم نقدر على فتحها أخذنا زيتا وكبريتا ووضعناه في صناديق من خشب وجعلنا لها اعواد تحملها رجال ورجال يذبون عنهم الى ان يصلوا الى الباب او الى قريب منه ويجعلون في ذلك الصندوق نارا ويولون تعلق النار في الابواب ويذوب الحديد فتنفتح الابواب وتعلق النار في الحطب والخشب والحجارة فتهدمها فقال خالد نفعلها ان شاء الله تعالى فلما أصبحوا فعلوا ذلك وأسرعوا في جميع ما ذكرناه ووضعوه في صناديق وجعلوا في اطرافها اعوادا طوالا من أسفلها حملتها الرجال وخرج خلفهم الفرسان يقاتلون والمرزبان امامهم يعلمهم كيف يصنعون وهم مستترون بالدرق والجحف والحجارة والنبال تتساقط عليهم من اعلا

السورحتى وصلوا الى أول باب من أبواب المدينة وهو الباب الشرقي وهو أعظم أبوابها فلما قربوا من الباب رفعوا الصناديق على الابواب والقوا النار في الزيت والكبريت ووضعوهم وانقلبوا فلم يكن اسرع من لحظة حتى تعلقت النار في حجارة الباب وفي الاخشاب والحديد وثارت النار الى أعلا السور حتى وصلت الى البرج فسقط البرج بما فيه من الروم وهلك منهم جماعة كثيرة وتبادرت المسلمون الى الباب وملؤا اقرب الماء واطفؤا ثائرة النار ودخلوا من الباب وقصدوا قصر الملك وكان حصينا على اعمدة من الحجارة المنحوتة واغلقوا أبوابه ففعلوا به كما ذكرنا ولما رأى الملعون ذلك لم يطق ان يصبر وامر بفتح الباب وصاح الأمان ومعه جماعة من حشمه وخدمه وبطارقته فعرضوا عليهم الاسلام فأبوا فأمر خالد بضرب اعناقهم فمن أسلم تركوه ومن أبي قتلوه واستغاثت بهم السوقة والرعية وقالوا نحن مغلوبون فمن أسلم تركوه ومن بقي على دينه ضربوا عليه الجزية وهدموا دورا واماكن حتى صارت تلالا وغنم المسلمون أموالا كثيرة من أواني الذهب والفضة والفرش الفاخرة ووضعوا فيها عبادة بن قيس مقيما بها ومعه ثلاثمائة من المسلمين وخرجوا بظاهر المدينة ولم يبق الا من أسلم ومن وضعت عليه الجزية وعمروا بها مسجدا ولما فرغ خالد من ذلك جمع الغنائم وخمسها وأرسلها الى عمرو بن العاص يرسلها الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى المدينة وأرسل لعمرو بن العاص سهمه ولاصحابه المؤمنين المقيمين بمصر ونواحيها وأقام خالد بعد ذلك باهناس هو وجماعته من الامراء أربعين يوما واستدعى خالد بعدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه وأضاف اليه ميمون بن مهران وضم اليه الف فارس وأمرهم ان ينزلوا الى بلاد البطلوس لعنه الله وينازل أهل الكورة واذا وصل الى قيس بن الحارث يأمره بالمسير الى قريب البهنسا ويقاتل من يقاتله ويسالم من يسالمه ويصالح من يصالحه حتى يأتيه المدد ثم أرسل في أثره غانم بن عياض الاشعري رضي الله عنه وضم اليه ألف فارس فيهم الفضل بن العباس والمسيب بن نجيبة الفزاري وأبوذر الغفاري والمرزبان الفارسي وجعفر ومسلم وعلي وعبدالله بن المقداد وولد خالد سليمان ومحمد بن طلحة وعمرو بن سعد بن أبي وقاص وشرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم خالد سيروا حتى تصلوا الى مدينة البهنسا وأنا في أثركم مالم يحصل لي ولاصحابي مانع وادعوا القوم الى الاسلام فان أجابوكم فلهم مالنا وعليهم ماعلينا ومن أبى فالجزية ومن أبى فالحرب والقتال ونازلوا المدائن وأقرنوا المراكب ولا تسيروا الابدا واحدة وفرقوا الكتائب وكونوا قريبين من بعضكم لبعض غير متباعدين فاذا وقعت كتيبة منكم

بما الاطاقة لهابه أتى اليها بالنفير وثبتوا هممكم وأخلصوا نياتكم وقووا عزائمكم
فاذا وصلتم الى البهنسا التي هى دار ملكهم ومحل ولايتهم فارسلوا الى الملك
وادعوه الى الاسلام فان أطاع فاتركوه فى ملكه وان أبى فالجزية عن يدوهم
صاغرون وان أبى فالسيف حكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين وبلغنى
انها مدينة كثيرا اهلها وانها كثيرة الخيل وحولها مدائن وبلاد وقرى ورساتيق فن
سالمكم وصالحكم فصالحوه ومن قاتلكم فقاتلوه وعليكم بالحزم واخلاص النية وصدق
العزيمة قال الله تعالى فى كتابه المكنون يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا
واتقوا الله لعلكم تفلحون ثم استدعى بالمغيرة بن شعبة رضى الله عنه وكان معه زياد
الاكبر أبوالمغيرة جدزياد الذى هو بقرية دربوط بقرب طنبدى وسيأتى ذكر زياد بن
المغيرة وأصحابه هنالك ان شاء الله تعالى عند وقعة الدير واستدعى بسعيد بن زيد أحد
العشرة رضى الله عنهم وابان بن عثمان بن عفان وجدد عليهم الوصية وودعهم قال الراوى
رحمه الله وسار عدى بن حاتم الطاءى وميمون حتى وصلا ميدوم وما حولها فوجدوا
قيس بن الحارث قد صالح أهل تلك الارض وعقدوا له صلحا واقرهم بالجزية ماعدى
جماعة وكذلك أهل برشلت بعد قتل بطريقهم وكذلك أهل تلك البلاد الى دهشور
ونادى فى ذلك الاقليم بالامان وجبوا له أموالا عظيمة على الصلح والجزية وعدوا جماعة
من المسلمين الى البر الشرقى وهم رفاعة بن زهير المحاربى وعقبة بن عامر الجهنى
وذو الكلاع الحميرى وألف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشنوا الغارات
من العقبة التى هى قريب من قبلى حلوان على تلك القرى والبلاد فن صالحهم صالحوه
ومن أبى قاتلوه حتى وصلوا الى اطفيح ثم الى البرنبل وكان هناك بطريق يعرف بصول
فخرج اليهم أهلها فصالحوهم على الجزية وعدوا من هناك وصار عدى بن حاتم حتى
اجتمع بقيس بن الحارث قريبا من القرية المعروفة بقمن ونزل ميمون هو وجماعة بالقرية
المعروفة بالميمون قال له قيس بن الحارث لا تنزل هنا حتى يفتح لنا ما حولها من البلاد
ويأتى خبر من الامير خالد بن الوليد ويأذن لنا بما نريد فأجاب الى ذلك ونزل عدى
بأولاده بالقرية المعروفة ببنى عدى ثم سار وترك ابنه حاتما واخوته واحاطوا بالقرية
وسار قيس واصحابه حتى وصلوا الى القرية المعروفة بنوس والبلد المعروفة بدلاص
فخرج اليهم أهلها بعد قتل بطريقهم وصالحوهم وتوسطوا البلاد على ساحل البحر حتى
نزلوا ببابا الكبرى وغانم بن عياض على أثرهم وكان بها دير عظيم يعرف بدير أبى جرجا
وكان له عيد عظيم يجتمعون اليه من سائر البلاد فوافق قدوم الصحابة قريبا من عيدهم
فجاءهم رجل من المعاهدين واعلمهم بذلك وانتدب قيس بن الحارث رضى الله عنه

ومعه جماعة من أصحابه خمسمائة وأمر عليهم رفاعة بن زهير المحاربي وان يشنوا الغارة على الدير قال وكان جماعة من رؤساء المكورة من الروم والقبط والخيول المسومة حول الدير يحرسونهم وهم في اكلهم وشربهم وزينتهم وبيعهم وشرائهم فما أحسوا الا والخيل على رؤسهم فما قاتلوا الا قليلا وانهزموا ونهب أصحابه جميع ما في السوق من اثاث وغيره وساقوا الغنائم واحاطوا بالدير فقاتلوا من أعلا الدير وقطعوا السلاسل والاقفال وتعلقت جماعة منهم على الحيطان ودخلوا الى الدير وأخذوا منه امتعة واثاثا واواني من ذهب وفضة واسروا اربعمائة أسير وساروا حتى توسطوا البلاد وكان بالقرب قريبا من البحر اليوسفي قرى كثيرة وبلدان وكان فيهم مدينة تعرف بسمراق وكان بها بطريق من عظماء بطارقة البطلوس فلما بلغه قدوم الصحابة جمع جنوده الى البلد المعروفة بافقهس والى البلدين المعروفتين بشمطا والبسلقون والى البلد المعروفة منشابة فلما بلغه قدوم الصحابة جمع الخيل والروم والفلاحين والنصارى ستة آلاف وخرج يكشف بهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيس بن الحارث خرج اليهم اهل ببا الكبرى وما حولهم من السواد وكذلك أهل هوريت وتقدموا لهم صلحا وساروا فلما قربوا من القرية المعروفة الآن ببني صالح فبينما هم سائرون واذا بالغبار قد طلع وانكشف عن ستة صلبان تحت كل صليب ألف فلما رآهم المسلمون لم يمهلوهم دون ان حملوا عليهم واقتتلوا قتالا شديدا وثار الغبار وقدحت حوافر الخيل اشرارا والتقى الجمعان واصطدم الفريقان فلله در رفاعة بن زهير المحاربي وعقبة بن عامر الجهني وعمار بن ياسر العبسي وميسرة بن مسروق العبسي قال الراوي وقاتلت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالا شديدا وصبروا صبر الكرام وكان عدو الله لاوي بن ارميا صاحب سيزا فارسا شديدا وبطلا صنديدا فجال وصال وقتل رجالا فعندها برز اليه فارس من المسلمين يسمى سنان بن نوفل الدوسي فقتله فخرج اليه عمار بن ياسر العبسي فتجاولا وتعاركا وتضاربا وتطاعنا ووقع بينهما ضربتان كان السابق بالضربة عمار فطعنه بالرمح في صدره أطلع السنان يلمع من ظهره فانجدل عدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه الى النار فعندها غضب الروم لاجل قتل صاحبهم وحملوا على عمار كبكبة من الخيل فنفروا الجواد من تحته وتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله وقتل من المسلمين خمسة عشر رجلا قال حدثنا سنان بن نوفل عن مالك عن غانم اليربوعي وكان في خيل رفاعة بن زهير المحاربي قال بينما نحن في القتال وقد عظم النزال ووطنا أنفسنا على الموت ورفاعة يحرض الناس على القتال وهو ينشد ويقول

يا معشر الناس والسادات بالهمم * ويا أهيل الصفا يا معدن الكرم

فاصدقوا العزم لا تبغوا به فشلا * ومكنوا الضرب فى الهامات والقمم
واتركوا القوم فى البيداء مطرحة * على الثرى خمشا بالذل والنقم

(قال الواقدى) رحمه الله وجعل يحرضهم ويقول يا معشر السادات والاقيال ابشروا فان الروم لم تقم لهم قائمة أبدا وابشروا بالحور والولدان فى غرفات الجنان وان الجنة تحت ظلال سيوفكم قال رفاعة فبينما نحن فى أشد القتال واذا بغبرة قد لاحت وانقشعت وانكشف الغبار عن ألف فارس فى الحديد غواطس عليهم الدروع الداودية وعلى رؤسهم البيض العادية المجلية معتقلين بالرماح الخطية راكبين الخيول العربية فتأملناهم فاذا هم سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد وعبد الله بن طلحة وأخوه محمد وزياد بن المغيرة والوليد ومحمد بن عتبة ومحمد بن أبى هريرة وجماعة من الصحابة والامراء وأبنائهم رضى الله عنهم وكان غانم بن عياض الاشعرى جهزهم طليعة قدامه فلما رأونا كبروا وكبرنا لتكبيرهم وخاضوا فى أوساطنا وطلب كل واحد منهم بطريقا من البطارقة فقتله فلما رأت الروم ذلك ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وتبعتهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلون وينهبون ويأسرون الى البلد سيرا وما حولها من السواد الى عند سلقوس فاسروا منهم نحو خمسمائة اسير وقتل منهم ثلاثة آلاف وهرب الباقون الى القرى والبلاد ولما قتل بطريق شنشدا خرج اليهم أهلها من النصارى والسوقة وعقدوا معهم صلحا واتفقوا على اداء الجزية وكذا من حولهم من القرى ونزل هناك عمرو بن الزبير وجماعة من المسلمين وسار قيس بن الحارث امام القوم حتى نزل قريبا من طنبدى والبلد المعروفة باسنا وكان بها بطريق يسمى بولياص بن بطرس وكان كافر العينا فخرج الى لقاء المسلمين هو وجماعة ومعه ميرة وعلوفة فكان ذلك مكيدة منه وعقد مع المسلمين صلحا ووافقهم على الجزية عن بلده وعن اسنا وكانت تحت حكمه وارتحل قيس بن الحارث ومن معه وتأخر زياد بن المغيرة ونزل بالقرية المعروفة بدر بوط فعقد مع أهلها صلحا ونزل سليمان بن خالد وعبد الله ابن المقداد وجماعة قريبا من البلد ومنهم من نزل عند القرية المعروفة باطينة وساروا جماعة يدخلون البلد ليلا ثم يعودون خوفا من المكيدة ولا حذر من قدر الله عز وجل (قال الواقدى) رحمه الله وكان المتخلفون خمسمائة فارس فجعلوا يسيرون على جانب البحر ويشنون أى يغيرون على أهل السواد فمن صالحهم صالحوه ومن أسلم تركوه وسار قيس بن الحارث حتى نزل بالبلد المعروفة الآن بالقيس وبه سميت وكان بها بطريق من بطارقة البطلوس وكان من بنى عمه اسمه شكور بن ميخائيل والله اعلم باسمه فدخل أهل السواد كلهم البلد وحاصروها حصارا شديدا نحو شهرين ثم اعانهم الله تعالى

وحرقوا بابا من أبوابها وفتحت ودخلوا اليها وكان بعد وقعة جرت بينهم فى مكان يعرف بكوم الانصار وهزموهم هناك وحاصروهم وفتحوا المدينة وقتلوا البطريق ونهبوا الاموال وأخذوا جميع مافيها بعد ان دعوهم الى الاسلام فامتنعوا من ذلك ثم شنوا الغارات على ماحولها من البلدان والبلد المعروفة بماطى ثم الى الكمور فخرج اليهم بطريق كان ابن عم المقتول بدهشه ورلعه الله وأخوه بطرس وعقدوا مع المسلمين عقدا على الصلح واعطاء الجزية وسارت العرب الى البلد المعروفة بالدروس وما والاها وماحولها من القرى ونزل زهير وجماعة من العرب بالمكان الذى يعرف بزهرة وأما بقية السواد الذى حول البهنسا شرقا وغربا بالمانحة فقوا مجيء العرب هربوا الى البهنسا بأموالهم ونسائهم وذراريهم وتركوا البلاد جميعا خرابا وكان البطلوس لعنه الله أرسل اليهم بطارقته فجعلوهم الى البهنسا واعتدوا للحصار وجمع عنده مايحتاج اليه مدة الحصار (قال الواقدى) رحمه الله هذا ماجرى لهؤلاء وأما عدو الله بوليامس صاحب طنبدى فانه كاتب البطلوس يقول انى ماصالحت العرب الامكيدة وانى أريد الغدرة بهم فجهز لى جيشا من البطارقة لعل ان اظفر بجماعة من أبطال المسلمين ونأخذ بثار من قتل منكم قريبا قال وكان عدو الله كل يوم تأتيه الاخبار من العرب المتنصرة ومن غيرهم من أهل البلاد والسواد بما جرى للعرب وباخبار من قتل من البطارقة وبأخذ البلاد والاموال فيحمل هما عظيما ولم يظهر ذلك لاحد من بطارقته وانما كان يطيب قلوبهم ويقول بلدنا حصينة وان قاتلونا قاتلناهم وان غلبونا دخلنا بلدنا فلوجاءنا أهل الحجاز جميعهم ماوصلوا الينا ولو اقاموا عشر سنين والله غالب على أمره وناصر دين الاسلام ومذل الكفرة اللئام فلما بلغ البطلوس مكاتبة عدو الله بوليامس فرح بذلك فرحا شديدا قال واستدعى ببطريق من بطارقته يسمى روماس وضم اليه خمسة آلاف فارس من الروم والنصارى وغيرهم من أهل القرى وأمرهم ان يسيروا تحت ظلام الليل فجاء نصف الليل حتى وصلوا الى طنبدى ودخلوا الى بوليامس ففرح بذلك فرحا شديدا واستعدوا للهجمة على المسلمين قال واصبح المسلمون وقد صلوا صلاة الصبح الا والخيل قد اقبلت اليهم فنادوا النفير النفير هاجونا وغدرونا فركبت المسلمون خيولهم وساروا الى قريب الدير واذا بالروم مقبلين فى عشرة آلاف فارس وكانوا أعداء الله قد اكمنوا كمينا قريبا من قنا طر كانوا هناك ونهر يجرى فيه من السيل فى أوانه عميقا غربى الدير قريبا من البلد (قال الواقدى) رحمه الله ولما رأت المسلمون لمعان الاسنة والبيض وخفقان الاعلام وبريق الصلبان الذهب والفضة تبادروا الى خيولهم فركبوها واعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير واقبلوا مسرعين نحوهم ولم يفزعوا من كثرتهم وحرض

بعضهم بعضا على القتال وكانوا قد سبقوا الى شرذمة من المسلمين كانوا نزولا قريبا من الديرو ومنعوا فيهم السيف واحاطوا بهم وجالوا واتسع المجال الى قريب من دربوط فخرج سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وعامر بن عقبة بن عامر وشداد بن أوس وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم واشتد القتال وعظم النزال وعميت الابصار وقدحت حوافر الخيل الشرار ولمعت الاسنة وقرعت الاعنة ودهشت النظار وحارت الافكار واحاطوا بالمسلمين من كل جانب فلله در سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد لقد قاتلوا قتالا شديدا وابلوا بلاء حسنا ولله در زياد بن المغيرة لقد كان يقاتل تارة فى الميمنة وتارة فى الميسرة وتارة فى القلب وأحاط بهم أعداء الله من كل جانب وقد صار المسلمون بينهم كالشامة البيضا فى جلد البعير الأسود وصبر والهم صبر الكرام وكان أكثر المسلمين قد اثخنوا بالجراح واشتد الكفار هذا والمسلمون قد انتدبوا أبطالا وجعلوها خلف ظهورهم وقاتلوهم قتالا شديدا هذا واعداء الله قد احاطوا بهم وحجزوا بينهم وبين البلد وقاتل سليمان وأصحابه قتالا شديدا ووطنوا أنفسهم على الموت وشجع بعضهم بعضا وصار سليمان بن خالد يقول الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والموعد عند حوض النبى صلى الله عليه وسلم وقاتل قتالا شديدا حتى اثخن بالجراح وقتل من المسلمين نحو مائتين وعشرين قريبا من التل الذى هو غربى البلد المذكورة وما قتل الواحد منهم حتى قتل من اعداء الله خلقا كثيرا (قال الواقدى) ولما رأى المسلمون وسليمان بن خالد ما حل باصحابه صار تارة يكر فى الميسرة وتارة يكر فى الميمنة واعانه بالحملة عبد الله بن المقداد وبقية الصحابة وتقدم سليمان بن خالد وطعن بطريق اسنا طعنة صادقة أرداه عن جواده وغاص فى القلب قال حدثنا أوس بن شداد عن علقمة بن سنان عن زيد بن رافع قال كنت فى الخيل صحبة سليمان بن خالد وقد احجزنا المشركين وتقهقروا من بين أيدينا ولم نشعر الا بهم كمينا اذ خرج الكمين علينا وقاتلناهم قتال الموت وقتل منهم جماعة نحو ألفى فارس وقتل سليمان بن خالد من الصناديد والبطارقة من خيارهم نحو ثلاثين فارسا وكذلك عبد الله بن المقداد فاحتاط بسليمان بن خالد رضى الله عنه كردوس نحو ألفى فارس وعقروا جواده من تحته فضرب بالسيف فيهم حتى قطعت يده اليمنى فتناول السيف بيده اليسرى فضرب بها حتى قطعت فأحاطوا به فلما تيقن بالقتل التفت وقال يعز عليك يا خالد بن الوليد ما حل بولدك ولكن هذا فى رضاء الله عز وجل وكان قد طعن فى صدره نحو عشرين طعنة حتى قل حيله وسقط الى الارض ثم تنفس وقال الساعة تلتقى الاحبة رحمه الله ولما رآه عبد الله بن المقداد على ذلك المصرع صاح لا حياة بعدك يا أبا محمد والملتقى

فى جنات عدن ثم غاص يقاتل واصحابه واشتبكت عليه الاسنة وضرب ضربات كثيرة فى وجهه وهو يقطع الرماح ويمسح الدم عن وجهه حتى سقط به الجواد وصاح واشوقاه اليك يامقداد ثم تبسم وقال مرحبا ثم مات رحمة الله عليه وايقنا كانما الموت وان القيامة هناك واذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن رايات اسلامية وعصائب محمدية وفى اوائل القوم القعقاع بن عمرو التميمى والمسيب بن نجبة الفزارى وسمرة بن جندب والفضل بن العباس وزياد بن أبى سفيان وبنو هاشم وبنو عبد المطلب وسادات الاوس والخزرج وغانم بن عياض الاشعرى ومن معه من الامارى والسادات فلم يمهلوهم دون ان حملوا عليهم حملة رجل واحد حتى جلوها وقتل البطريق بولياس لعنه الله ومعه بطريق البطلوس وانهزمت الروم وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون حتى بلغت الهزيمة الى البحر اليوسفى ورموهم فى البحر وغرق منهم جماعة كثيرة وقتل منهم فى المعركة نحو أربعة آلاف واسر نحو ألف ومائتين أسير وهرب منهم الى البطلوس جماعة واختفوا الى الليل ودخلوا الى البطلوس واعلموه بذلك فضاقت عليه الدنيا وضاق صدره وحار فى أمره واستعد للقاء المسلمين (قال الواقدى) رحمه الله هذا ما جرى لهؤلاء وأما أهل طنبدى واهل اسنا وكانوا لم يخرجوا ولم يقاتلوا منهم لما وردت عليهم الاخبار ومعهم البطارقة يسئلون بطريقهم القتال وكان نصرانيا ولم يكن روميا وكان اسمه لوص وبه سميت البلد فأبى فلما انهزمت البطارقة خرج لوص ومعه جماعة من أهل البلد وأتوا الى المسلمين وطلبوا منهم الصلح وصالحوهم وخرج أهل طنبدى واهل اسنا من السوقة والرعية وأولادهم وغيرهم وبكوا فى وجوههم وقالوا نحن قوم رعية وكنا مغلوبين على أمرنا فأهل ذمتكم ورعيتكم قالوا بشرط دلونا على من هربوا اليكم فأجابوهم الى ذلك وصاروا يأخذون المسلمين ويدخلون الدور والمساكن ويقبضون على الروم ويسلمونهم الى المسلمين وكان النصرانى يقبض على الرومى ويأتى به الى المسلمين حتى قبضوا من طنبدى واسنا نحو من ألف وخمسمائة رجل من المطامير والابيار التى كانوا يحبسون فيها الاسارى من المسلمين وغيرهم ولما اجتمعت الاسارى من الروم والنصارى امر غانم بن عياض بضرب رقابهم على تل هناك يعرف بالكوم ورجعت المسلمون الى مكان المعركة فلما عاينوا القتلى ورأوا سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وعبيد بن الدار بكوا عليهم وعلى من قتل معهم من الامارى رضى الله عنهم وحزنوا عليهم حزنا شديدا وأنشد عمرو ابن ياسر يرثى سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد ومن معهما يقوله شعر

يا عين جودى بالدماء الصبيب * ثم اندبى يا عين فقد الحبيب

وانى لمقتول غدا فى الفلا * بعند لاوسط الفيافى غريب
وابكى سليمان لا تغفلى * فامره والله أمر عجيب
قدكان لايفكر بكل العدا * ان سل من غمده القضيب
وتختشى الاعداء من بأسه * لوانهم أعداد رمل الكثيب
فيا حمام الايك نوحى اذا * على فتى قدكان غصنا رطيب
واعلمى خالدا بما قد جرى * لعل ان يبكى بدمع صبيب
واخبرى المقداد من بعده * بان عبدالله اضحى سليب
واندبى الامراء من بعدهم * وكل قرم فى المعامع مصيب
لاالتقى البطلوس خيرا ولا * اجناده الانذال أهل الصليب
قدا كمنوا جيشا لنا عامدا * يوم الوغامن كل كاب مريب
وحق من اعطى لنا نصره * فى كل واد ثم فتح قريب
لنأخذن الثار من جمعهم * جهرا ونطفى حرنارا لاهيب

(قال الواقدى) رحمه الله وان غانما رضى الله عنه جمع الشهداء ودفنهم فى ثيابهم ودروعهم وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله يوم القيامة وجراحاتهم تقطر دما اللون لون الدم والريح ريح المسك (قال الواقدى) واقام غانم رضى الله عنه بعد ان دفن الشهداء قريب التل والامراء يشنون الغارات على السواحل وعدى بن جابر بن عبدالله الانصارى وابوأيوب والمسيب بن نجبة الفزارى فى ألف فارس فغاروا على أهل شرونة فخرج اليهم بطاريق يعرف بصندراس الجاهل وبطريق اهريت فى خمسة آلاف فارس واقتتلوا قتالا شديدا عند سفح الجبل فبلغ الخبر غانم بن عياض الاشعرى فارسل اليهم كتيبة أخرى صحبة ابن المنذر والفضل بن العباس والمرزبان فى ألف فارس فلما رأى الروم ذلك وقع الرعب فى قلوبهم وكان بينهم حرب عظيم ثم ان الفضل بن العباس قصد البطريق الجاهل لعنه الله وضربه ضربة هاشمية على راسه فقطع الخودة والبيضة والرفادة الى ان سمع خشخشة السيف فى اضراسه فكبر وكبرت المسلمون لتكبيره فسقط عدو الله يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار وكان الفضل بن العباس فارسا شديدا وبطلا صنديدا فغاص فى وسط المشركين وفتك فيهم والمرزبان حمل على بطريق شرونة فقتله وحمل ابن المنذر على بطريق اهريت فقتله فلما رأى الروم ذلك ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون الى المكان المعروف بالدير واهريت وغرق منهم خلق كثير وقتل منهم ألف وخمسمائة فارس وأسر منهم ألف

وخمسمائة وتحصن منهم جماعة من الروم والنصارى فى مدينة الجاهل وكانت حصينة فحاصرها المسلمون سبعة أيام وحرقوا الابواب وهدموا الجدران وأخرجوهم من البيوت وأخربوا تلك المدينة الى يومنا وخرج الى المسلمين نصارى من شرونة واهريت وعقدوا مع المسلمين صلحا واعطوا الجزية وانزلوا مرة السكلبى فى مائتين من أصحابه وغيرهم وابن خالد بن أبى عمرو بن العاص فى المكان المعروف ببناء خالد فى مائتين فارس وعدى المسلمون البحر ونزل عامر بالعرب فى مائتين فارس قريب من طنبدى واستولوا على القرية وارتحل عامر بن عياض رضى الله عنه ببقية الجيش ولما تكاملت المسلمون ارسل بين يديه المسيب بن نجية الفرارى والعباس بن مرداس السلمى والفضل بن العباس الهاشمى وعامر بن عقبة الجهنى وزياد بن أبى سفيان بن الحارث فى ألف وخمسمائة فارس فساروا الى مكان يعرف بالجرنوس وكان هناك قلعة ومرج للملك البطلوس وكان فى زمن الربيع ينزل هناك بالخيام والمضارب حول القلعة وتجتمع عنده البطارقة ويقيم اشهر ثم ينزل على الاقليم ثم يعود الى البهنسا (قال الواقدى) رحمه الله وأرسل لوص الى البطلوس لعنة الله عليهم يطلب منه جيشا مصحبة بطريق من بطارقته فارسل اليه بطريقا كافر العينا اسمه شلقم وبه سميت البلد التى هى قريب من البهنسا وكان الجيش عشرة آلاف فارس والله اعلم قال حدثنا مسلم بن سالم اليربوعى عن شداد بن مازن عن طارق بن هلال انه كان فى خيل العباس بن مرداس السلمى قال بينما نحن نسير اذ رأينا غبرة قد ثارت وكان ذلك وقت الضحى فتأملناهم فانكشفت عن عشرة أعلام وعشرة صلبان من الذهب الاحمر كل صليب يلمع كانه كوكب فتأهبنا للحملة وتأهبوا القلتهم لو بادون ان حملوا علينا وحملنا عليهم واحاطوا بنا وقاتلت الروم قتالا شديدا وطمعوا بقلتنا واعلموا بكلمة كفرهم وصبرنا لهم صبر الكرام وقاتلنا قتال الموت فلله در عامر بن عقبة والمسيب بن نجية الفرارى والفضل بن العباس وزياد بن أبى سفيان لقد قاتلوا قتالا شديدا وعصب الفضل رأسه بعصابة حمراء وكذلك فعل زياد بن أبى سفيان بن الحارث كما كان يصنع عمه حمزة وقاتلا قتال الموت فلم تكن الا ساعة وقد قوى الحرب والقتال حتى أشرف علينا الامير عامر بن عياض الاشعرى مع بقية الجيش فقوى قلبنا وكبرنا فاجابونا بالتهليل والتكبير وتقدم الفضل بن العباس الى بطريق شلقم وكان فارسا شديدا وعليه ديباجة مقصبة بالذهب وفى وسطه منطقة بالذهب مرصعة بالجواهر وقد عصب رأسه بعصابة من الجوهر وبيده عامود من الذهب طوله ثلاثة أشبار واربد وهو تارة يضرب بالسيف وتارة يضرب بالعامود فلما رآه الفضل ظن انه يريده فحمل عليه الفضل وهو ينشد ويقول

يا أيها الكلب الامين الطاغيا * ومن أتى بليشنا معاديا
أبشر لقد وافاك أسد ضاريا * بعد سيف فى عداه ماضيا
كان له الرب العظيم واقيا * من كل كلب كافر وطاغيا

قال فلم يفهم ما يقول الفضل وحمل عليه وتعار كا وتجاولا وضرب الفضل رضى الله عنه فحاد عنها وعطف عليه وانتزع العامود من يده وضربه ضربة هاشمية قرشية ابان بها رأسه عن بدنه ونظر اليه فلم يسقط وعاد عليه وهو جثة بلا رأس فتلقاه فارس من المسلمين اسمه زهير فوجده مكلبا بكلاليب فى سرجه فنزع الكلاليب فسقط عدو الله كالطود بعد أن تضمخ تاجه ومنطقته دماء فقال له الفضل ان السلب لى فخذه لك فقد وهبتك اياه فقال لا أعدمنا الله مكارمكم يا بنى هاشم وعطف على لوص فقتله وقتل كل أمير بطارقته وحات المسلمون حملة رجل واحد بدد واشملهم فولوا منهزمين بين أيديهم واتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون الى ان وصلوا الى البحر اليوسفى والقوم فى مكان قريب من شاقولة فسميت القرية بذلك وتحصنت جماعة بقلعة المرج فاما طيها المسلمون وحرقوا الابواب وهدموا الجدران واستخرجوا ما هنالك وقتل من الروم مقتلة عظيمة نحو عن ثلاثة آلاف وأسروا نحو عن الف وقتل من المسلمين ثمانية وأربعون رجلا من اعيانهم سيف الانصارى رضى الله عنهم أجمعين ودفن هو وأصحابه بمكان الوقعة وكان زياد بن المغيرة وجماعته نزولا فى اماكنهم قريبا من طنبدى كما ذكرنا حول البلد المعروف بدريوط وكان زياد صديقا للامير سليمان بن خالد بن الوليد رحمه الله فكتب كتابا للامير خالد بن الوليد يعزيه فى ولده سليمان يقول شعر

يا خالدا ان هذا الدهر أفجعنا * فى سيد كان يوم الحرب مقداما
يجندل الفرس فى الهيجا اذا اجتمعت * ويصطاد يوم الحرب خصاما
يا طول ما هدم الاعدا بصارمه * ونالهم منه تنكيسا وارغاما
لا يملك الضد من أبطالنا أملا * ان حاز ساعده القصاص صمصاما
كأنه الليث وسط الذئاب اذ وردت * له العدا وعلى الاشبال قد حاما
يا عين جودى بفيض الدمع منك دما * واندبى فارسا قد كان ضرغاما
والسيد اللبيب عبد الله قد حكمت * به المنايا وحكم الله قد داما
نجل الفتى المقداد خير فتى * قد كان فى ملتقى الاعداء هجاما

(قال الواقدى) فلما وصل الكتاب الى خالد بن الوليد قريب من الدير بقية الجيش وهو ينفذ السرايا واهل البلاد يأتوه بما صالحوه عليه من المال وغيره وقد جهز عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع الفهرى

والزبير رضى الله عنهم بألف فارس من الفيوم وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى فلما ورد الكتاب على خالد سقط الى الارض ونحر مغشيا عليه ثم أفاق واسترجع وقال لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم انا لله وانا اليه راجعون ثم قال اللهم انى احتسب سليمان اليك اللهم اجعله فرطا وذخرا واعقبنى عليه صبرا واعظم لى بذلك اجرا ولا تحرمنى الثواب برحمتك يا أرحم الراحمين ثم قال والله لآخذن فيه ألف سيد من ساداتهم ولاقطعن بساداتهم وفرسانهم وانى أرجو ان آخذ بثاره ان شاء الله تعالى ولاقتلن البطلوس أشر قتلة لعلى أن أشفى بذلك غليل صدرى وحرارة كبدى وليكونن على يدى خراب دياره وانهزام جيوشه وزوال ملكه وهطلت مدامعه على وجنته أحر من الجمر ثم جعل يسترجع ويقول

جرى مدمعى فوق المحاجر مهمل * وحر فؤادى من جوى البين تشتعل
وهام فؤادى حين اخبرت نعيه * فليت بشير البين لا كان قد وصل
لقد ذوب الاحشا واجرى مدامعى * وعن نار الفؤاد فلا تسل
سأبكى عليه كل ما امسى المسا * وما ابتسم الصبح المنير وما ابتهل
لقد كان بدرا زائد الحسن طالعا * فاصبح بعد النور والزهر قد أفل
وكان كريم العم والخال سيدا * اذا قام سوق الحرب لا يعرف الوجل
أحاطت به خيل اللئام باسرهم * وقد مكنوا منه المهند والاسل
وعيشك تلقاهم صراعى على الثرى * عليهم يسوق الطير والوحش محتفل
وا اسفا وانى كنت حاضرا * بابيض ماضى الحد فى الحرب مستطل
وحق الذى حجت قريش لبيته * وارسل طه المصطفى غاية الامل
لاقتل منهم فى الوغى ألف سيد * اذا سلم الرحمن واتسع الاجل

(قال الواقدى رحمه الله) واقبلت الامارى يعزون خالدا ومدامعهم تفيض من عيونهم ويقولون اعظم الله لك أجرا واعقبك عليه صبرا وجعله لك غدا فى المعاد ذخرا والله لقد عدمنا القوى وقد ابيد القلب من حشا شتنا واكوى ونحن لقتله ذاهلون انا لله وانا اليه راجعون وكذلك يعزون المقداد فى ولده عبد الله وبلغ الخبر عمرو بن العاص بمصر وهو مقيم بها فكتب لهما كتابا بالتعزية وبلغ الخبر المدينة لعمر بن الخطاب فاسترجع هو وبقية الصحابة مثل على بن أبى طالب وعثمان بن عفان و طلحة بن عبد الله ومن كان حاضرا من الصحابة بالمدينة الطيبة رضى الله عنهم وعلى ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكتبوا الى خالد والمقداد كتابا يعزونهما فلما وصل الكتاب الى خالد والمقداد اطمأنا بما فيها من الصبر وما لهم من الاجر والثواب (قال الواقدى) رحمه الله هذا ما جرى

لهؤلاء وأما البطلوس لعنه الله فانه لما تحقق مجيء العرب الى مدينة البهنسا فتح خزائن الاموال وفرق المال والسلاح والعدة من الملبوس والدروع وغير ذلك وفرق على البطارقة وعلى غيرهم من الجند وكان هناك بيت مقفول كما ذكرنا فيه صفة العرب واسمائهم فأمر بفتحه وهو يظن ان فيه مالا مدخرا فمنعوه الاقسة والرهبان من ذلك فأبى ففتحه فلم يجد فيه الا صفة العرب واسماءهم كما ذكرنا أول الكتاب فنظر لذلك ودخل الكنيسة وجلس على سريره وجمع حوله البطارقة فاستشارهم في أمره فقام شيخ كبير راهب وكان مطاعا عنده مسموع الكلام كبير السن وكان عمره مائة وعشرين سنة فقام وعليه جبة سوداء وعلى رأسه قلنسوة وفي يده عكاز من الابنوس مطعم بالعاج والذهب فقرب من الهيكل وتكلم بكلام لا يفهم ثم قال بعد ذلك يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد كانت دولتكم قائمة وكلمتكم مسموعة مادمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعدلون في الرعية وتأخذون للمظلوم من الظالم وتنصفون الضعيف من القوي وتواسون الفقير ولا تمدون أيديكم الى شيء من أموال الناس وتهابون الزنا وكانت الدولة لكم وقلوب الرعية منجذبة وهي داعية لكم وكان الملك فيكم والآن لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر وظلمتم الرعية وجرتم في الاحكام وحكمتم بغير الحق ولا تأخذون للضعيف حقه من القوي ومددتم أيديكم الى اموال الرعية وفشت فيكم المعاصي فتغيرت قلوب الرعية ومدوا أيديهم عليكم بالدعاء ودعاء المظلوم مستجاب وكثرة الظلم خراب فيوشك أن تنزع هذه النعمة من أيديكم وتعود الى غيركم بكثرة ذنوبكم وشؤم معاصيكم وبدعاء المظلومين عليكم فلاجل ذلك سلطت عليكم العرب فملكوا بلادكم وقتلوا رجالكم ونهبوا اموالكم وسكنوا منازلكم واستولوا على معاقلكم فتيقظوا من غفلتكم وذبوا عن حريمكم واموالكم ولا تمكنوا العرب من جانبكم وهذه مقالتي لكم جميعا فلما سمع البطلوس لعنه الله كلام القس وما تكلم به التفت الى بطارقته وجماعته ونوابه وقال هل سمعتم ما قال أبوكم قالوا سمعنا قال فما عندكم من الرأي قالوا نحن معك وبين يديك ونقاتل العرب ولا نطمعهم فينا كما طمعوا في غيرنا وان غلبونا استعد نا للحصار وعندنا من الميرة والعلوفة ما يكفينا عشر سنين واربد وبلد نا حصين ولا نسلم أنفسنا ولا يكون علينا عار عند الملوك قال فشكرهم البطلوس على ذلك ووثب قس آخر وكان يناظر ذلك القس في المعرفة واستخرج كتابا معلقا كان عنده في صندوق من الابنوس مقفول باقفال من الفولاذ وقال يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية اسمعوا ما نعته لكم العلماء والكهان والحكماء انه يبعث نبي في آخر الزمان يسمى محمد بن عبد الله من بني عدنان يموت أبوه وامه ويكفله جده وعمه

يبعثه الله نبيا الى جميع البشر مولده بمكة ودار هجرته طيبة ثم يقيم أياما ويتوفاه الله عز وجل ثم يتولى الامر من بعده رجل يسمى أبابكر وتزداد العرب به فخرا ويجهز العساكر الى الشام ثم لم يلبث الا أياما قلائل ويتوفاه الله تعالى ويتولى الامر من بعده الرجل الاصلع الاجور المسمى بعمر وهو صاحب الفتوح ومبيد الاعداء بأيشم مبوح تفتح على يديه الامصار ويبعث سراياه الى سائر الاقطار وانا اجد في الكتب القديمة ان هذه المدينة تفتح على يد رجل أسمر وشجاع غضنفر فارس شديد وبطل صنديد يسمى خالد ابن الوليد وان سمعتم قولي وقبلتم ما قد وامع العرب صلحا فان الدولة لهم وبيديهم الحق ولو قاتلهم أهل المشرق والمغرب غلبوهم ببركة الله وبركة نبيهم محمد قال فلما سمعوا البطارقة كلامه غضبوا غضبا شديدا وارادوا قتله فمنعهم البطلوس من ذلك وقال له كأنك خفت من سيوف العرب وأنا أعلم ان الرهبان والقسوس لا قلوب لهم لانهم ليس لهم أكل الا العدس والزيت والليمون والاشياء الرديئة ولا يعرفون اللحم فلاجل ذلك ضعفت قلوبهم فلولا مقامك من قديم الزمان ورؤيتك للملوك القدماء لبطشت بك ولئن عدت الى مقالتك هذه لاقتلنك أشر قتلة قال فسكت القس الراهب وخرج البطلوس من وقته وساعته وجلس في قصره ذات الاعمدة ثم استدعى بطارقته وخلع عليهم ورفع لهم الاعلام والصلبان وعرض جيشه فاذا هم ثمانون ألفا غير السوقة والمشاة فسر بذلك سرورا عظيما ثم استدعى ببطريق من بطارقته يدعى قابيل وكان أحد حملة السرير وكان لا يقطع امرا دونه فخلع عليه ودفع له الانيس العادة مرة علاقات العرب ثم استشار خواص مملكته في الاقامة في البلد والخروج الى ظاهرها فقال له ذو الرأى من بطارقته أيها الملك انك اذا اقمت في البلد استضعفوا رأينا وأمرنا واذا كنت بجانب المدينة لا تجد العرب ان تصل الينا ونجعل البلد خلف ظهرنا ونقاتل من خارج الابواب ويساعدونا من فوق الابراج فاذا عظم الامر لندخل المدينة الامر أمر عظيم فاستصوب رأيهم ثم انه أمر الفراشين أن يخرجوا الخيام والسرادقات والقباب بظاهر المدينة واخرجوا له سرادقا عظيما سعته سبعون ذراعا وارتفاعه مثل ذلك على اعمدة من الخشب المصفح بالذهب والفضة وهو من الحرير الملون الازرق والاحمر والاخضر والابيض والاصفر والاسود وهو مقصب بقضبان الذهب والفضة مرصع باللؤلؤ وفيه تصاوير من داخله ومن خارجه من جميع أجناس الطير والوحش والكواكب وفرش فيه من الفرش والبسط الحرير الملون ووضع فيه المساند والوسائد والانطاع واطناب السرادقات حرير ملون باوتاد من عاج وابنوس في حلق من ذهب وفضة وعلق فيه قناديل وسلاسل من ذهب وفضة ووضع فيه سريرا من

خشب الصاج المنقوش المصفح بالذهب الوهاج على قوايم بزمامين من ذهب وفضة طوله
سبعة اذرع وعرضه مثل ذلك وارتفاعه مثل ذلك يصعد اليه بدرج من خشب مصفح
به فائح من ذهب وفضة وعليه فرش من حرير ووسائد ومساند ونمارق وحوله ثمانين
كرسيا مصفحة بالخشب الابنوس يجلس عليها ارباب الدولة واصحاب الصولة وضرب
حوله من الخيام والسرادقات مالا يوصف له عدة قال حدثنا بذلك جماعة من الصحابة
ممن شهد الفتح وعاين السرادقات لما هرب الملعون ودخل المدينة وكان السرادق
منصوبا مقابل الباب البحري المعروف بباب فندوس وأمر بطريقا من بطارقته اسمه
سمعان ان ينصب سرادقه الذي وهبه له عند باب توما وهو الباب القبلي وأمر البطريق
اسمه اصطافين ان ينزل في الجانب الشرقي قريبا من القناطر على ساباط معقود على
عدة من الحجارة فامره ان ينزل ومعه عشرة آلاف فارس حول القلعة قال هبار بن
أبي سفيان وسلمة بن هاشم المخزومي مانزلنا على مدينة من مدائن الشام ولا رأينا
اكثر عددا ولا أكثر زينة من مدينة البهنسا ولا اقوى قلوبا منهم واكثروا من الصلبان
ونصبوا السرادقات والمنجنيقات على الاسوار واسبلوا على الاسوار جلود الفيلة
المصفحة بصفائح الفولاذ ورتبوا الرماة والمجانيق والسهام وغير ذلك قال الراوي
رحمه الله هذا ماجرى لهؤلاء وأما الامير غانم بن عياض الاشعري رضي الله عنه
فانه لما قرب من البهنسا استشار أصحابه مثل أبي ذر الغفاري وأبي هريرة الدوسي
ومعاذ بن جبل وسلمة بن هاشم المخزومي ومالك الاشتر النخعي وذو الكلاع الحميري
رضي الله عنهم ومعهم ألفان من أصحابهم وأمرهم بالنزول في الجهة الشرقية وان قاتلوكم
قاتلوهم وتنازلوا القلعة حتى تأخذوها وعدى الامير غانم من الجهة الغربية ومعه أصحاب
الرايات والامارى وفي الطليعة من هؤلاء السادات وهم الفضل بن العباس وأخوه
عبد الله بن العباس وشقران وصهيب ومسلم وجعفر وعلى أولاد عقيل بن أبي طالب
وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبي سفيان وتتابعت خلفهم السادات وأصحاب المروآت
مثل نعيم بن هاشم بن العاص وهبار بن أبي سفيان وعبد الله بن عمرو الدوسي وسعيد
ابن زبير الدوسي وحسان بن النصر الطاى وجرير بن نعيم الحميري وسالم بن فرقد
اليربوعي وسيف بن اسلم الطائفي ومعمر بن خويلد السكني وسنان بن أوس الانصاري
ومخلد بن عون الكندي وابن زيد الخيل ومثل هؤلاء السادات أصحاب الرايات
رضي الله عنهم وتتابعت الكتائب يتلوا بعضها بعضا وعدوا الى الجانب الغربي فبينما هم
سائرون واذا بعدو الله قد اقبل بالبطارقة المتقدم ذكرهم فلما التقى الجمعان
عند سفح الجبل تحت المغارة اشار الى أصحابه فامسكوا عن المسير وتقدم الى راية

عالية والى جانبه رجل من العرب المتنصرة وأمره بان ينادى برفيع صوته قربوا الى البطريق رجلا منكم ذو خبرة يكلمه فوثب اليه جرير الحميرى وأتى الى غانم وقال أيها الامير اتأذن لى ان اكلمه قال نعم ان طلبوا الصلح ورفع القتال صالحناهم حتى يحضر الامير خالد بن الوليد ويفعل أمره وان أرادوا القتال قاتلناهم واستعنا بالله تعالى عليهم وهو حسبنا ونعم الوكيل (قال الواقدى) رحمه الله فعندها سار جرير حتى وقف بازاء البطريق وقال له قل حاجتك قال له أنت أمير القوم قال لا ولكنى متكلم عن الامير فقال له لم تركتم بلاد الشام والامم العظام واتيتم الى هذه البلاد وكنتم فى بلاد الحجاز تقاسون جوعا وعريا فاذ قتم فواكه الشام وثمار الحجاز وخيرات اليمن ولم يكفكم ذلك حتى اتيتم الى مصر وقهرتم القبط واتيتم بلاد الفرس وقهرتم ملوكها ولم تكتفوا حتى اتيتم الينا وهجمتم علينا فى بلادنا وقتلتم أبطالنا ونهبتم أموالنا ونحن نتغافل عنكم ونهمل أمركم حتى غلظت شوكتكم وقصدتم مدينتنا وطلبتم مدينتنا التى هى دار ملكنا ومحل ولاتنا ولقد ملكها قبلكم من الفراعنة والجبابرة والقبط والقياصرة والاكاسرة والجرامقة ورجعوا خائبين وانتم هجمتم علينا وقتلتم رجالنا فقولوا لنا ما الذى تريدون منا فان كنتم تريدون مالا وترجعون عنا فقت امان الملك بذلك وترحلوا عنا وتردوا الينا ما ملكتم من بلادنا وان الملك لا يخالف لى امرا واخبرونى ما الذى تريدون وما الذى تطلبون قال له جرير فرغت من كلامك فقال نعم قال له جرير خذ جوابك أما قولك كنا فى ضيق حال فهو كذلك ولكن انعم الله علينا بالاسلام وهو اول نعمة ثم أمرنا بالجهاد وان الله تعالى اباح لنا أموال المشركين ما دام محاربين وامرنا ان نجاهدكم حتى تؤدوا الجزية عن يد وانتم صاغرون اوتسلموا اوتقاتلوا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين واما قولك المال فليس هو غرضنا ولا متاع الدنيا شهوتنا وان بلادكم عن قريب تكون لنا وأموالكم غنيمة لنا نتقاسمها (قال الواقدى) قال فلما سمع البطريق الكلام غضب غضبا شديدا وقال انا كفوا لكم دون الملك ثم أمر أصحابه بالحملة على جرير فما الويت عنان جوادى الا والخيل قد ركبتنى فعندها تواثب المسلمون واقتتلوا قتالا شديدا وتبادرت الرجال وزمجرت الابطال وزحفت الاقيال وتراشقوا بالنبال وتضاربوا بالنصال وتطاعنوا بالعوال والتقى الجمعان واصطدم الفريقان واشتد النزال وكثرت الاهوال وقاتلت الفرسان وولى الجبان حيران فلله در المغيرة بن شعبة وعون بن ساعدة وعبادة بن تميم والفضل بن العباس رضى الله عنهم لقد قاتلوا قتالا شديدا وابلوا بلاء حسنا ولم يزل القتال يشتد من ارتفاع الشمس الى الغروب فعندها وثب عبد الله بن جعفر الى قابيل رضربه ضربة فحاد عنها عدو الله وولى هاربا وجنبه جماعة نحو ثلاثمائة فارس ولم يزل

انفريقان فى قتال ونزال الى ان غابت الشمس وافترق الجمعان وقد قتل من المسلمين نحو خمسين رجلا ختم الله لهم بالشهادة وقتل من الروم نحو ألفى فارس قال واجتمعت الروم حول قابيل وولى هاربا الى ان وصل الى البطلوس فلما رآهم وبخهم وقال لهم باى وجه تفرون من العرب ولم تصبروا لهم وقد فشلتم وجزعتم فقال له قابيل أيها الملك ليس الخبر كالعيان وهؤلاء ليسوا بانس وانما هم جان يهبونهم فى القتال ولولا الاجل حصين ما عدت اليك فغضب الملك وقال اسكت قد تمكن رعب العرب من قلبك وستنظر مايكون من أمرهم ثم بات فى قلق شديد حتى اصبح الصبح ولم يأمر قومه بالركوب وقال امهلوا حتى تنظروا مايكون من امرهم

(ذكر فتوح البهنسا ونزول الصحابة عليها وقتل البطريق)

قال الراوى رحمه الله تعالى ولما اصبحت المسلمون صلوا صلاة الصبح ثم تبادروا الى خيولهم فركبوها فلم يجدوا الاعداء الله خبرا ولا اثرا وتيقنوا انهم انهزموا ومضوا الى مدينتهم فسارت المسلمون الى ان قربوا من البهنسا فلاحت لهم المضارب والخيام والسرادقات والاعلام قال الراوى حدثنا قيس بن منهال عن عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل قال لما اشرفنا على مدينة البهنسا ورأينا تلك المضارب قال غانم رضى الله عنه اللهم اخذلهم وانصرنا عليهم اللهم احصرهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا واخرتهم انك على كل شىء قدير وأمن المسلمون على دعائه قال فلما اقبلنا على مدينة البهنسا كبرنا وهللنا فخرجوا الى ظاهر الخيام وبايديهم السيوف والدرق والقسى والنبال ورأينا خلقا كثيرة على الابراج وأرادوا جماعة من العرب الحملة عليهم فمنعهم الامير غانم وبقية الامارى من ذلك وقالوا الحملة الابعد انذارهم انهم لم يأتوا الينا ولا ناوشونا بقتال واستقلونا فى اعينهم (قال الواقدى) ونزلت المسلمون بجانب الجبل عند الكثيب الاصفر قريب من البياض التى على المغارة نحو المدينة هذا ماجرى لهؤلاء واما ابوذر الغفارى وأبوهريرة الدوسى ومعاذ بن جبل ومسلمة بن هاشم ومالك الاشتر وذو الكلاع الحميرى فانهم ساروا حتى نزلوا قريب القوم وباتوا تلك الليلة فلما اصبحوا خرجوا أعداء الله الى لقائهم فقال مالك الاشتر ياقوم ان أعداء الله قد خرجوا الى لقائكم فاشغلوهم بالقتال وأرسلوا جماعة منكم يملكون الجسر واستعينوا بالله فعندها خرج المرزبان ومعه ثلاثمائة فارس حتى وصلوا الى الجسر والحجارة تتساقط عليهم من اعلا السور حتى ملكوا الجسر وجعلوا فى اماكن المخاضات حراسا بسيوف محددة وقتل المسلمون وأعداء الله قتالا شديدا وتموا فى القتال سبعة أيام وكلما أتوا الى مكان المخاضة وجدوها مربوطة بالرجال وصار كل ليلة تهرب منهم جماعة من الروم ويهجون على وجوههم وساروا تحت

الليل يريدون الصعيد فلقاهم رافع بن عميرة الطائى ومعه سرية من أصحاب قيس بن الحارث عند البلد المعروف بادقارو وكانوا حول البحر اليوسفى يشنون الغارات على تلك السواحل فبينما هم كذلك يسيرون اذ سمعوا دوى حوافر الخيل فظنوا انهم مسلمون فكلموهم فلم يرد عليهم أحد فلحقوهم وحملوا عليهم وكانوا ستمائة فارس ففروا من بين ايديهم فقتلوا منهم نحو مائتين وهرب الباقون وقتل من المسلمين ثلاثة وهرب الروم نحو الجبانة فغرق منهم مائة واسر منهم مائتين وهرب الباقون وسألوهم عن سبب خروجهم فاخبروهم انهم يريدون فعند ذلك اوثقوهم كتافا وأتوا بهم مكتفين مع نفر من المسلمين الى ان أوصلوهم الى غانم بن عياض الاشعرى فاعلنوا بالتكبير والتهليل والصلاة على البشير النذير واقبلوا نحوهم ففرحوا بالاسارى ثم اعرضوهم على الامراء المقدم ذكرهم فاعرضوا عليهم الاسلام فابوا فضربت اعناقهم والروم ينظرون الى ذلك ثم زحفت عليهم الصلبان واقتتلوا اقتتالا شديدا وحمى الحرب وكثر الطعن والضرب من ارتفاع الشمس الى وقت العصر وفشى القتل فى الروم فلما رأوا ذلك ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وصعدوا الى القلعة وغلقوا الابواب واستعدوا للحصار ونصبوا آلات القتال قال هذا ماجرى لهؤلاء واما الصحابة رضى الله عنهم فانهم نزلوا فى سفح الجبل والوادى فى المكان المتسع من الجهة البحرية والجهة الغربية فلما جاء الليل أوقدوا نيرانهم واجتمعت كل قبيلة بنى عمها يقرؤن القرآن ويصلون على محمد أشرف ولد عدنان ومافيهم الامن هو راكع أو ساجد وداعى الى الله عزوجل لعل ان ينصرهم على عدوهم وباتت الروم اللئام يشربون الخمر داخل المدينة ومن خارجها وقد اعلنوا بكلمة كفرهم حتى ضجت منهم أرض البهنسا واستغاثت الى الله عزوجل فناداها بلسان القدرة اسكنى يامن فسا فوعزتى وجلالى لاهلكنهم ولاسكننك قوما يحدونى من خيار خلقى ولاجعلن ذات البيع مساجد للصلاة والجمع فلما سمعت الارض الخطاب من قبل رب الارباب استبشرت فرحا وطربا وبقيت منتظرة وعد ربها بالزوال كربها فلم يكن الاقليلا حتى ازال الله عنها أهل الكفر والطغيان وعبدة الاصنام واسكنها خير أمة الاخيار من المهاجرين والانصار من أصحاب محمد المختار يصلون بها آناء الليل واطراف النهار وجعلت البرية مدافن للسادات الشهداء الاخيار وصار عليها بعد الظلام أنوار وصارت زيارتها تحط الخطايا والاوزار (قال الواقدى) ولما اصبح الله بالصباح صلى المسلمون صلاة الصبح وجلسوا ينظرون مايكون من أمر الروم واذا بقس قد اقبل راكب بغلة وعليه مدرعة من شعر وقلنسوة وزنار فسار حتى وصل قريبا من العسكر ثم تكلم بلسان عربى وقال يامسلمين اريد أمير العرب قال حدثنا قيس بن شماس عن كعب بن همام عن

شداد بن أوس وكان من أصحاب الرايات قال بينما نحن جلوس نتحدث مع الامير غانم
ابن عياض اذ أقبل عبد الله بن عاصم وأخبر عن ذلك القس قال فاذن له الامير غانم
بالدخول فدخل القس فوجد الامير غانم جالسا في خيمته على فراش من أدم وحشوه
من ليف وفرش المشركين التي اكتسبوها مطوية على جانب وحوله السادات
والاماري رضي الله عنهم كلهم جالسين حوله وهو كأنه أحدهم وسيوفهم على افخاذهم
وعليهم هيبة ووقار فلما دخل القس اندهش وحار وأخذه الانبهار ثم التفت يمينا وشمالا
وقال يا قوم أيكم الامير حتى اكلمه فانكم كلكم أراكم سادات وأمراء وعليكم هيبة
ووقار قال فاشاروا الى الامير غانم فالتفت اليه وقال يا فتى أنت أمير قومك قال كذلك
يزعمون مادمت على طاعة الله عز وجل فقال له القس ان الملك البطلوس قد أرسلني
اليكم يريد ذا الرأي والخبرة يسأله عن أمركم فلعل ان يكون ذلك سبب احقان الدماء
بينكم وبينهم قال فعندها التفت الامير غانم الى اصحابه وقال ما تقولون فيما اتاكم به هذا
القس ومن ينطلق اليه ويخاطبه ويعود الينا قال فوثب المغيرة بن شعبة وقال انا
امضي اليه واريد معي عشرة من رجال الاماري من ذوي المروءة والباس فقال له الامير
اختر من شئت وفقك الله وسددك ورد الينا سالما غانما أنت ومن معك قال
فالتفت الى ورائه وقال أين سعيد بن عبد القادر أين أيوب الانصاري أين خالد بن زيد
الانصاري أين زيد بن ثابت الانصاري أين مسعود البدري أين جرير بن مطعم أين أبو
يزيد العقيلي أين معاوية بن الحكم الثقفي أين عمار بن حصين أين زيد بن ارقم فاجابوه
بالتلبية فقال لهم خذوا اهبتكم وانطلقوا معي على بركة الله وعونه قال فتبادروا هؤلاء
الاماري والسادة الى خيامهم ولبس كل واحد درعه وتنكبوا بجحفهم وتقلدوا سيوفهم
واعتقلوا برماحهم (قال الواقدي) رحمه الله ثم ان المغيرة رضي الله عنه دخل الى
خيمته ولبس درعه وشد وسطه بمنطقة وهي من الادم وفيها خنجران واحد على اليمين
وواحد على الشمال وتقلد بسيف من جوهر واعتقل برمح اسمر وركب جواده الادهم
وأخذ كل واحد منهما عبده راكبا على بغلة وودعوهم فالتفت الامير غانم وقال للمغيرة
اعرف يا أبا شعبة ما تكلم به هذا الملعون فاعرفتك الا مفلح الحجة فادعوه الى الاسلام
وما فرض عليه من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وما ابيح من الحلال وما حرم
من الحرام فان أبى فالجزية في كل عام فان أبى فالقتال بحد الحسام ونرجو النصر من
الملك الديان بجاه محمد خير الانام قال فقال المغيرة أرجو من الله الملك الوهاب المعونة
في رد الجواب وسارت الاماري والقس امامهم راكب على بغلة وعبيدهم خلفهم على
بغالهم وكل عبد عليه لامة حربه وساروا وهم معلنون بالتهليل والتكبير والصلاة

على البشير النذير قال ربادبن ثابت ولما قارب القوم الامير غانم نظرت اليه وعيناه تزرق بالدموع حتى بلت دموعه لحيته وهو يقرأ القرآن فقلت الا أيها الامير ماهذا البكاء فقال لى يا ابن ثابت هؤلاء والله أنصار الدين فان اصيب رجل منهم فما يكون عذرى عند الله عز وجل قال وسار المغيرة وأصحابه حتى اشرفوا على عسكر العدو واذا هو ملىء الارض وهو نازل حول مدينة البهنسا فصاح المغيرة ومن معه يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينماهم كذلك اذا أقبل اليهم بطريق من البطارقة ومعه رجل من العرب المتنصرة راكب الى جانبه ومعهما نحو مائة فارس وساروا بين أيديهم حتى وصلوا الى قريب سرادق الملك ولاح لهم البطلوس وهو جالس على السرير وبعد ذلك خرج لهم الحجاب والنواب وأرباب الدولة والصولة وقالوا قد وصلتم وبلغتم الى سرادق الملك فانزلوا عن خيولكم وانزعوا سيوفكم فقال المغيرة أما خيولنا فننزل عنها وأما سيوفنا فلا ننزعها فانها عزنا وما كنا بالذى ننزع عزنا الذى نعتز به دهرنا قال فاخبروا الحجاب الملك بذلك فقال دعوهم يدخلوا بسيوفهم فنادتهم الحجاب ادخلوا (قال الراوى) رحمه الله ورضى عنه فعندها ترجلوا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خيولهم وامسكوها العبيدهم واقبلوا يتبخترون فى مشيهم ويجرون حمائل سيوفهم ويخترقون صفوف الكفار وهم لا يهابونهم الى ان وصلوا الى سرير الملك ودخلوا الى ان وصلوا الى النمارق والفرش والديباج والملك جالس على سريره ولما نظر المسلمون الى ذلك عظموا الله تعالى وكبروه فارتج السرادق وتغيرت الوان القوم وصاح بهم الحجاب الارض للملك فلم يلتفتوا اليهم قال المغيرة لا ينبغى السجود الا للملك المعبود ولعمرى كانت هذه تحيتنا قبل فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم نهانا عن ذلك فلا يسجد بعضنا لبعض قال فسكتوا قال فامر لهم الملك بكراسى من ذهب وفضة فصبت لهم فلم يجلسوا عليها وكانوا من حين دخلوا امروا بعض عبيدهم يميرون البسط من تحت ارجلهم الى ان وصلوا الى فرش الديباج فشالوها على جنب فقالت لهم البطارقة قد اسأتم الادب علينا اذلم تسجدوا للملك ولا تمشوا على فرشنا فقال المغيرة ان الادب مع الله تعالى افضل من الادب معكم والارض أطهر من فرشكم لان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جعلت لى الارض مسجدا وطهورا وقال الله تعالى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (قال الراوى) رحمه الله لم يكن بين البطلوس والصحابة ترجمان لانه كان أعرف أهل زمانه بلسان العربية فعند ذلك أمرهم بالجلوس فقال المغيرة اما ان تنزل عن سريرك وتكون معنا على الارض أو تأذن لنا بالجلوس معك على السرير لان الله تعالى شرفنا بالاسلام قال فاشار لهم

بالجلوس

بالجلوس معه على السرير بعد ان ازالوا تلك الفرش وجلس المغيرة الى جانبه فالتفت البطلوس لعنه الله اليهم وقال لهم أيكم المتكلم عن أصحابه فاشاروا الى المغيرة رضى الله عنه والصحابة جلوس وأيديهم على مقابض سيوفهم فالتفت البطلوس الى المغيرة وقال له ما اسمك فقال عبد الله المغيرة فقال يا مغيرة انى اكره ان ابدءك بالكلام فقال له المغيرة تكلم بما شئت فان عندى لكل كلام جواب ثم ان البطلوس افصح فى كلامه وقال الحمد لله الذى جعل سيدنا المسيح أفضل الانبياء وملكنا افضل الملوك ونحن خير السادة فقطع عليه المغيرة فقالت الحجاب والنواب لقد أسأت الادب مع الملك يا أخا العرب فابى المغيرة ان يسكت وقال الحمد لله الذى هدانا للاسلام وخصنا بين الامم ببعث محمد عليه افضل الصلاة والسلام فهدانا به من الضلالة وانقذنا به من الجهالة وهدانا الى الصراط المستقيم فنحن خير امة اخرجت للناس نؤمن بنبينا ونبيكم وبجميع الانبياء وجعل اميرنا الذى متولى علينا كاحدنا لو زعم انه ملك وجار عزلناه عنا لسنا نرى ان له فضلا علينا الا بالتقوى وقد جعلنا الله نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونقر بالذنب ونستغفر منه ونعبد الله وحده لاشريك له ولو اذنب الرجل منا ذنوبا تبلغ مثل الجبال فتاب منها قبلت توبته وان مات مسلما فله الجنة قال فتغير لون البطلوس ثم سكت قليلا وقال الحمد لله الذى ابتلانا باحسن البلاء واغنانا من الفقر ونصرنا على الامم الماضية ولقد كانت جماعة منكم قبل اليوم يأتون الى بلادنا فيمتارون البر والشعير وغيره ونحسن اليهم وكانوا يشكروننا على ذلك وانتم جئتمونا بخلاف ذلك تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون المال وتنهبون المدائن والحصون والقلاع وتريدون ان تخرجونا من بلادنا وديارنا وانتم لم تكن امة من الامم اضعف حالا منكم لانكم اهل الشعير والدخن وجئتم بعد ذلك تطمعون فى بلادنا واموالنا وحولنا جنود كثيرة وشوكتنا شديدة وعصابتنا عظيمة ومدينتنا حصينة وانما جرأكم علينا انكم ملكتم الشام والعراق واليمن والحجاز وارتحلتم الى بلادنا وافسدتم كل الفساد واخربتم المدائن والقلاع ولبستم ثيابا فاخرة وتعرضتم لبنات الملوك والبطارقة وجعلتموهن خداما لكم واكلتم طعاما طيبا ما كنتم تعرفونه وملأتم ايديكم بالذهب والفضة والمتاع الفاخر واللآلئ والجواهر ومعكم متاعنا واموالنا التى من قومنا واهل ديننا ونحن نترك لكم ذلك جميعه ولا ننازعكم عليه ولا نأخذ عليكم ما تقدم من فعلكم من قتل رجالنا ونهب اموالنا والآن ارحلوا عنا واخرجوا من بلادنا والا فقد فتحنا خزائن الاموال وامرنا لكل رجل منكم بمائة دينار وثوب حرير وعمامة مطرزة بالذهب ولاميركم هذا ألف دينار وعشرة عمائم وعشرة ثياب ولكل

اميركم كذلك وللخليفة عليكم عشرة آلاف دينار ومائة ثوب حرير ومائة عمامة بعد ان نستوثق منكم بالايمان انكم لا تعودون تغيروا على بلادنا هذا كله والمغيرة ساكت فلما فرغ البطلوس من كلامه قال له المغيرة قد سمعنا كلامك فاسمع كلامنا ثم قال الحمد لله الواحد القهار الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقال له البطلوس نعم ما قلت يا بدوى فقال المغيرة اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله المرتضى ونبيه المجتبى فقال له البطلوس لعنه الله لا ادرى محمد رسول الله ولعله كما يقال حبيب الرجل دينه ثم التفت الى المغيرة وقال يا عربى ماهى افضل الساعات فقال ساعة لا يعصى الله فيها قال صدقت يا أخا العرب لقد بان لى رجحان عقلك فهل فى قومك من له رأى مثل رأيك وحزم مثل حزمك قال نعم فى قومنا وعسكرنا أكثر من ألف رجل لا يستغنى عن رأيهم ومشورتهم وخلفنا امثال ذلك وهم قادمون الينا عن قريب فقال البطلوس ما كنا نظن ذلك منكم وانما بلغنا عنكم انكم جماعة جهال لا عقول لكم فقال المغيرة كنا كذلك حتى بعث الله فينا محمدا صلى الله عليه وسلم فهدانا وارشدنا فقال البطلوس لقد اعجبنى كلامك فهل لك فى صحبتى فقال المغيرة يسرنى ذلك اذا فعلت ما أقول لك قال وما هو قال تشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله قال البطلوس لا سبيل الى ذلك ولكن ان أردت ان اصلح الامر بينى وبينكم قال المغيرة رضى الله عنه الاموال لله وأما قولك لنا انا أهل فقر وبؤس وضر فقد كنا كذلك وكنا أهل جاهلية لا يملك أحدنا غير فرسه وقوسه وابله ولا كنا نعظم الا الاشهر الحرم حتى بعث الله الينا نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم نعرف اصله ونسبه صادقا امينا تقيا اماما رسولا اظهر الاسلام وكسر الاصنام وختم به النبيين وعرفنا عبادة رب العالمين فنحن نعبد الله ولا نعبد غيره ولا نتخذ من دونه وليا ولا نصيرا ولا نعبد الا الله وحده لا شريك له ونقر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أمرنا ان نجاهد من كفر بالله واتخذ مع الله شريكا جل ربنا وعلا وهو واحد لا تأخذه سنة ولا نوم فمن اتبعنا كان من اخواننا وله ما لنا وعليه ما علينا ومن أبى الاسلام فالجزية تؤدونها الينا عن يد وانتم صاغرون فمن اداها احقن الله دمه وماله ومن أبى الاسلام والجزية فالسيف حكم بيننا وبينه والله خير الحاكمين وهى على كل محتلم فى العام دينار وليس على من لم يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع فى صومعته فقال البطلوس لقد فهمت قولك عن الاسلام فما قولك عن الجزية عن يد وأنتم صاغرون فانى لا ادرى ما الصغار عندكم فقال المغيرة رضى الله عنه وأنت قائم والسيف على رأسك فلما سمع البطريق كلام المغيرة غضب غضبا

شديدا

شديدا وثب قائما وثب المغيرة من موضعه وامتض سيفه من غمده وكذلك فعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفعله وهم يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله (قال الراوى) رحمه الله حدثنا مسلم بن عبد الحميد عن طارق بن هلال عن عبد الله بن رافع قال كنا مع المغيرة وجذبنا السيوف ووثبنا على القوم وأخذتنا غيرة الاسلام ومافى أعيننا من جيوش البطلوس شئ وعلمنا ان المحشر من ذلك الموضع فلما رأى البطلوس مناذلك وتبين له الموت من شفار سيوفنا فنادى مهلا يامغيرة لاتعجل فتهلك وأنا أعلم انك رسول والرسول لايقتل وانما تكلمت بما تكلمت لاختبركم وانظر ماعندكم والآن لانؤاخذكم فاغمدوا سيوفكم قال فاغمدنا سيوفنا وتقدم المغيرة حتى صار فى مكان البطلوس وزحزحه الى آخر السرير وكان المغيرة رجلا جسيما فاتكى عليه حتى كاد ان يخلع فخذه من موضعه قال ثم التفت الى المغيرة وقال ماتقولكم فى المسيح بن مريم قال المغيرة عبده ورسوله قال فمن ابن خالق قال خلقه الله من تراب ثم قال له كن فكان ودل على ذلك القرآن العظيم قوله عز وجل ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون قال فما الدليل على ان الله واحد فقال المغيرة القرآن العظيم قوله تعالى على لسان نبيه قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقال له البطلوس ما رأيت مثل حذقك وجوابك يا أعور وكان المغيرة رضى الله عنه أصيب فى احدى عينيه يوم اليرموك قال له المغيرة ان ذلك لايعيبنى ولقد أصيبت عينى فى الجهاد فى سبيل الله من مثل كلب مثلك وأخذت ثارى من الذى فعل بى فقتلته وقتلت جملة منهم والثواب من الله عز وجل اعظم من ذلك فقال البطلوس ما أحذق جوابك فهل فى قومك مثلك قال قد دللتك فينا اهل العلم والرأى من لا اساوى فى علومهم شيأ وأنا رجل بدوى فلو رأيت على بن أبى طالب بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم المختار وقاتل الكفار ومبيد الفجار والليث الكرار والبطل المغوار قال هو معكم فى هذا الجيش فقد سمعت بشجاعته وبراعته وأريد ان انظر اليه فقال له المغيرة قاتلك الله ان الامام على كرم الله وجهه اعظم قدرا من ان يسير بنفسه الى كلب مثلك قال فهل أحد غيره قال نعم مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى هو خليفتنا وعثمان بن عفان وعبد الرحمن وسعيد وسعد وأبى عبيدة ابن الجراح رضى الله عنهم وامراء متفرقين فى الحجاز واليمن والشام والعراق ومصر وكل أمير يقوم بالف مثلك فى الشجاعة والبراعة وغير ذلك وأما سيف الله الامير خالد بن الوليد أمير هذا الجيش ومعه عصابته من الامارى وكانك به وقد اقبل علينا برجال واى رجال سادات شداد وامراء امجاد فقال له عند ذلك انى اريد ان اصلح الامر بينى وبينكم

وار بد قبل الحرب ان اطرالى جاعة مماذكرت (قال الراوى) رحمه الله وكان عدو الله أراد ان يغدر باصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووهم المغيرة منه ذلك قال غداة غد آتيك منهم برجال تنظر اليهم قال ففرح عدو الله واضمر المكر لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورد الله كيده فى نحره (قال الراوى) ثم وثب المغيرة وأصحابه وخرجوا من عند البطلوس وماصدقوا بالنجاة وركبوا خيولهم وأمر البطلوس حجابه ونوابه ان يسيروا امامهم الى قريب عسكرهم قال ووصل المغيرة واصحابه الى الامير غانم بن عياض الاشعرى وحدثه بما جرى له مع البطلوس فقال غانم وحق صاحب الروضة والمنبر ماتركهم الا خوفا من سيوفكم وهذا رجل حكيم الا ان الشيطان قد غلب على عقله (قال الراوى) ولم ينامو اتلك الليلة الا وقد أخذوا اهبتهم للحرب واستعدوا فلما أصبح الله بالصباح اذن المؤذنون فى عسكر المسلمين فاسبغوا الوضوء وصلوا الصبح ثم ركبوا خيولهم وقد علموا ان العدو مصبحهم بقدهم وامفرهم وكانت الجواسيس من العرب يدخلون فى عسكرهم وينقلون الاخبار ووصلت جواسيس غانم بن عياض اليه واعلموه بذلك وان الروم متأهبون للقتال ورتب غانم جيشه ميمنة وميسرة فجعل فى الميمنة الفضل بن العباس وجعل فى الميسرة أبا أيوب الانصارى وجعل فى القلب القعقاع بن عمرو التميمى قال حدثنا قيس بن عبد الله قال حدثنا مالك بن رفاعة عن سعيد بن عمرو الغزوى قال حضر أرض البهنسا عشرة آلاف عين رأت النبى صلى الله عليه وسلم وفيهم سبعون بدريا والامارى وأصحاب الرايات نحو ألف وأربعمائة ودفن بارض البهنسا من الصحابة والسادات نحو خمسة آلاف وسيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى (قال الراوى) رحمه الله وكان على الرجالة معاذ بن جبل وعلى الساقة والنسوان والصبيان سعد بن عبد القادر والضحاك بن قيس قال وسار الامير غانم يتخلل الصفوف ويقول الله الله الجنة تحت ظلال السيوف يا أهل الاسلام اعلموا ان الصبر مقرون مع الفرج وان الله مع الصابرين والصابرون هم الغالبون وان الفشل سبب من أسباب الخذلان فمن صبر على حد السيف فاذا قدم على الله اكرم منزلته وشكر سعيه والله يحب الصابرين وصار يقول ذلك لاصحاب الرايات قال وما فرغ الامير غانم من تعبية الصفوف الا وعساكر البطلوس والروم قد أقبلت ومعهم النصارى والفلاحون والعرب المتنصرة وامامهم صليب من الذهب الاحمر زنته خمسة ارطال وفى أربع جوانبه أربع جواهر كالكواكب قال حدثنى سنان بن الحارث الهمدانى عن شداد ابن اوس وكان ممن حضر الفتوح الى آخره قال واقبلت الصلبان وأنا أعد صليبا بعد صليب حتى عددت ثمانين صليبا تحت كل صليب ألف ومعهم الاقسة والرهبان وهم

يتلون الانجيل واكثروا اعداء الله في عسكرهم من الرايات والاعلام فبينما الناس كذلك اذ أقبل بطريق وعليه درع مذهب ولامة حرب وهو يلاطم بلغته وطلب البراز فبرز اليه القعقاع وتعاركا وتجاولا ثم طعنه القعقاع في صدره اطلع السنان يلمع من ظهره فخرج علج آخر وقد غضب لقتل صاحبه وكان من أصحاب الجلوس على السرير مع الملك وطلب البراز فبرز اليه رجل من الازد فمنعه الامير غانم من ذلك وقال اذهب فلست كفؤاله قال فبرز اليه المسيب بن نجية الفزاري وضربه ضربة فالتقاها العلج بحجفته فطار السيف من يده وضرب العلج المسيب ضربة ونظر ان أحدا يناوله سيفا فلم يجد وأراد الرجوع واذا بالقعقاع بن عمرو وأقبل وبيده سيف وناوله اياه فكر راجعا وضرب البطريق على عاتقه الايمن اطلع السيف من عاتقه الايسر فانجدل صريعا يخور في دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار فلما رأت الروم ذلك حملوا على المسلمين حملة واحدة واشتد القتال وعظم النزال وعدو الله البطلوس راكب على جواد اهداه له صاحب مالك صقيلة والبرير يساوي خمسمائة دينار وكان أيام الحصار يصعد به ويرمح على أسوار المدينة وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى في موضعه وعلى بدنه درع مذهب و في وسطه منطقة من الجوهر وعلى رأسه تاج تلمع جواهره كالكواكب والصلبان والاعلام مشتبكة على رأسه وقد حمل كردوس من الروم على ميمنة المسلمين فصبروا لهم صبر الكرام ثم حمل كردوس آخر فلله در الفضل بن العباس وابن عمه الفضل وأخيه عبد الله وأولاد عقيل وعبد الله بن جعفر وسادات بني هاشم لقد قاتلوا قتالا شديدا وابلوا بلاء حسنا وتقدم الفضل الى حامل الصليب وطعنه في صدره اطلع السنان يلمع من ظهره وسقط الصليب منكسا الى الارض فنظر اليه البطلوس فايقن بالهلاك وهم ان يأخذه فلم يجد لذلك من سبيل قال فاحاطت به المسلمون وصار الفضل وسادات بني هاشم يذبونه ويرجعون الروم عن الصليب ولما رأى الفضل ازدحام النصارى والروم حمل عليهم حملة منكرة واسعفوه بنو عمه بالجملة والامارى فقهروا الروم وقتل منهم جماعة وازدحم المسلمون على الصليب يريدون أخذه فقال لهم الفضل انه لي دونكم ثم عطف عليه ومال في ركابه وأخذ الصليب وكر راجعا الى المسلمين وسلمه لعبد الله لعبده مقبل وكان راكبا مع المسلمين فاخذه ومضى الى خيمته قال وحمل الفضل بن العباس ثانيا وحملت الامارى واشتد القتال وعظم النزال وسال الدما وكثر العرق وازورت الحدق قال ولما رأى عدو الله البطلوس ذلك حمل على المسلمين ومعه طائفة من البطارقة نحو خمسة آلاف وكانوا على جناح الميسرة فقتلوا من المسلمين جماعة وانجرح جماعة وصبروا لهم صبر الكرام هذا والفضل رضي الله عنه تارة يكر في الميمنة وتارة يكر في الميسرة

وحلت الاماري جميعهم لله در القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجبة الفزاري والبراء بن عازب ومعاذ بن جبل وزيد الخيل لقد قاتلوا قتالا شديدا حتى بقي الدم على دروعهم كقطع اكباد الابل وتوسط المسلمون كتيبة منهم ببطريق عظيم الحلقة كانه برج وحمل عليه سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد ان يضربه وسطى عليه واد ابصرية اتته من خلفه اردته عن جواده وسقط والرمح مشتبك في اضلاعه وخشخشة الرمح في عظم ظهره ثم جذب الرمح وهو ملقى على الارض ونزل جماعة وأخذوا سلبه قال فتأملنا من ضرب البطريق فاذا هو زياد بن أبي سفيان رضي الله عنه قال فلما رأى الروم ذلك حملوا حملة منكرة وقام الحرب على ساق واحد وضربت الاعناق وشخصت الاحداق وتضاربوا بالصفاح وتطاعنوا بالرماح واشتد الكفاح وطمطمت الروم بلغتهم ولم يزالوا في قتال ونزال حتى غابت الشمس وافترق الجمعان وقد قتل من المسلمين نحو مائتين وخمسين ختم الله لهم بالشهادة ونالوا درج السعادة وبات العربقان يتحارسون والمسلمون يقرؤن القرآن ويصلون على محمد أشرف ولد عدنان قال وان المسلمين اوقدوا النيران واتوا الى مكان المعركة وميزوا القتلى فلما رأوا الاماري ما حل بهم وباولادهم بكوا وقالوا لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم قال رحمه الله وقتل من المشركين نحو الفين وخمسمائة وقتل من خيارهم وعظمائهم نحو عشرين من أرباب الدولة وحاشية الملك وأصحاب السرير فلما رأى البطاوس ذلك صعب عليه وكبر لديه وجلس في سرادقه وحوله اكابر دولته من حجابه وبوابه وقدم له الطعام والشراب فامتنع من ذلك ثم التفت الى حجابه وبطارقته ووبخهم توبيخا عظيما وقال مثلكم لا يصلح لخدمة الملوك فما هذا الخوف والفشل الذي دخل في قلوبكم وتريدون ان تبتغوا معيشة عند الملوك بفعالكم هذه فقالوا أيها الملك ان كان هذا اليوم ما أخذنا فيه اهبتنا وما كنا نظن ان العرب فيهم هذه الشجاعة فقال وما عندكم من الرأي اترضون بالعار والذل ولاسيما وقد أخذ الصليب من ايديكم وخذلتموه فقالوا أيها الملك سوف ترى منا ما يسرك في غد ونكمن لهم كمينا ونخرج لهم ونقاتلهم ويخرج عليهم الكمين ونامر جماعة يسلسلون انفسهم وهم الرماة كعادة الروم يفعلون ونقاتلهم ولا نمكنهم من مدينتنا ولو فنينا عن آخرنا فاستوثق الملك منهم بقولهم ثم كتب كتابا وارسله تحت الليل الى بطريق طغرا قلعة الابراج يسألهم النجدة وكانوا بطارقة شدادا كل بطريق تحت يده عشرة آلاف بطريق من جملة السلاح فلما ورد عليهم الكتاب جهزوا العدة والاهبة وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى (قال الراوي) رحمه الله واصبح المسلمون صلوا صلاة الصبح وتبادروا الى خيولهم فركبوها ثم صفوا صفوفهم ورتبوا مواقفهم كاذكرنا

أولا وسار الامير غانم يحرض النـاس وقد جعل فى مكانه المغيرة بن شعبة وعطفوا على أصحاب الرايات وقال لهم اطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة واذا القيتم العدو فاحملوا حملة واحدة ولا تخافوا ولا ترهبوا ورتب الامارى كاليوم الاول ولم يركبوا حتى دفنوا شهداءهم فى ثيابهم ودمائهم قال فما شعرنا الا والروم قد أقبلوا علينا وطمعوا وانقتهم علينا وانتدب منهم خمسة آلاف فنزلوا عن خيولهم وأرسلوها مع غلمانهم وحفروا لهم حفائرالى اوساطهم ووضعوا غرائر النشاب أى الصناديق بين أيديهم واقسموا بالمسيح لا نزولون ولو قتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة صفوف (قال الراوى) رحمه الله حدثنا سنان بن أبى عبيدة عن زياد عن الحارث عن عبد يغوث وكان من أصحاب الرايات قال فبينما نحن نتأهب للحرب والحملة واذا بالروم قد حملوا علينا حملة واحدة وحملت ميمنتنا واختلط القلب بالقلب ورمت المسلسلة بنشابها فكان يخرج منهم عشرة آلاف سهم كأنها تخرج من كبد قوس واحد كالجراد المنتشر او السيل المنحدر فجرحت رجالا وقتلت ابطالا وولت خيل العرب نافرة وصبرت جماعة من الامارى وحمل الفضل بن العباس وأخوه وسادات بنى هاشم وكذلك زياد بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة والمسيب بن نجبة الفزارى وجميع الامارى واقتتل الفريقان قتالا شديدا وفشى القتل فى المسلمين وثبت القوم لقتال العرب وعدو الله البطلوس تارة يكر فى الميمنة وتارة يكر فى الميسرة وتارة فى القلب وحوله كتايب المشركين قال الراوى فصبرنا صبر الكرام ووطنا انفسنا على الموت والامراء يحرضون على القتال وقد قتل من الفريقين طائفة الا انه لا بيان فى المشركين لكثرتهم ولم نظن ان القوم لهم كمين اذ خرج للقوم كمين من خلفنا والمسلسلة من بين ايدينا واحاطوا بنا وصرنا بينهم كالشامة البيضاء فى جلد البعير الاسود وقتل جماعة من السادة والامارى واخلاط الناس فلله در سادات بنى هاشم وابان بن عثمان بن عفان وقاتلوا أصحاب الرايات براياتهم وقاتل عدو الله فى القلب وانكى فى المسلمين وقتل رجالا وجندل ابطالا وكلما طلبه فارس من المسلمين لم يجده الا وهو قد صار فى وسط الروم قال فتقدمها تقدم القعقاع والمسيب بن نجبة الفزارى وقالا قربوا الجمال فى وجوه القوم يا وجوه العرب فاستاقوا الابل وجعلوها بين أيديهم تلقى النشاب وحملوا على المسلسلة وداسوهم بالابل وسنابك الخيل واقبلت الرجالة والرماة يقتلونهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة هذا والروم على حالهم فلما رأى عدو الله ما حل بقومه من فعل المسلمين بهم ازداد طغيانا ولم يزالوا كذلك حتى غابت الشمس ثم أنزل الله نصره على المسلمين فتظاهروا عليهم وتقدم جعفر بن عقيل الى كتيبة من الروم وغاص فى أوساطهم وطعن البطريق المقدم

عليهم فقتله فتكاثرت الروم عليه فقتلوه وكذلك فعل اخوه على فقتل منهم جماعة فقتلوه وكذلك زيد بن زياد فقتل منهم جماعة فقتلوه رحمة الله عليهم وعظم النزال واشتد القتال والجأوهم الى ورائهم فلما رأت الامارى والسادات وبنى هاشم ما حل بهم تواثبوا كالاسود الضارية وحملوا على الروم والجأوهم الى الابواب واقتتلوا قتالا شديدا عند باب الجبل والباب الصغير قال الراوى رحمه الله تعالى وكانت ليلة لم ترى الصحابة مثلها وقاتلوا الصحابة رضى الله عنهم الوفا وقتل منهم جماعة بظاهر البلد نحو خمسمائة واربد وتظاهر المسلمون بعد ذلك عليهم والجأوهم الى السور واقتتلوا قتالا شديدا وعظم البلاء وعدو الله يحمى اصحابه وهم فى اشد القتال وكان شعار المسلمين تلك الليلة يا مادرن يا محمد يا نصر الله انزل وقتل جماعة من المسلمين عند الابواب وعظم النزال وكان يسمع ضرب السيوف على الدرق كالرعد وبريق السيوف كالبرق ولمعان الاسنة كالكواكب واحدقت المسلمون بالروم وعدو الله يحمى قومه تارة يكون عند باب فندوس وتارة يكون عند باب توما فى جماعة من قومه حتى دخل الروم جميعهم ولم يبق الا من انقطع من قومه اوكبت به جواده ولم يزالوا كذلك حتى طلع الفجر فعلوا على الاسوار وضربوا بالنواقيس والبوقات والقرون وغلقوا الابواب وارموا الاقفال فلما اصبح الله بالصباح صلى المسلمون صلاة الصبح واتوا الى موضع المعركة وتفقدوا من قتل منهم فاذاهم خمسمائة وعشرون رجلا من باب توما الى باب فندوس ختم الله لهم بالشهادة قال الراوى ولما رأت المسلمون ذلك بكوا بكاء شديدا وعظم على الناس حزنا الامير غانم لاجل من قتل تحت رايته وكان اكثر الشهداء الاعيان من قريش وبنى هاشم وبنى المطلب وبنى نوفل وبنى عبد شمس فلما رأى مسلم بن عقيل اخوته وما حل بهم ورأى الفضل بن عباس وعبد الله بن جعفر وسادات بنى هاشم ما حل ببنى عمهم نزلوا عن خيولهم وعانقوا شهداءهم واسترجعوا فى مصابهم فعند ذلك انشد همام بن جرير يقول

ياعين ابكى لاتملى من البكا *	ودرى دموعا مثل سكب الغمام
وابكى على السادات من نسل هاشم *	ومن عصبة المختار خير الانام
وابكى على ليث همام بن عمه *	هو جعفر المشكور ليث همام
وابكى على الشهداء لاتغفلى *	ما لاح برق اوترنم حمام
فلا اتى البطلوس خيرا ولا *	اعاده أهل الصليب الاثام
لنأخذن الثار يا قومنا *	بطعن خطى وحد حسام

قال وواروا المسلمون شهداءهم ثم ان الامير غانم فرق الامارى على الابواب فنزل غانم

والسادات

والسادات من بني هاشم وغيرهم مثل زياد بن أبي سفيان والوليد وأخيه محمد واسامة ابن زيد وأبي أيوب الانصاري وفضالة بن عبيد واوس بن حذيفة وعمر بن حصين ورافع بن خديج وأبي دجانة وجابر بن عبد الله وبقية الامارى قال ونزل القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجبة الفزارى ومثلهم من الامارى بالفى فارس على باب الجبل والمغيرة بن شعبة وابى لبابة والمهلب الطائي ونظيرهم من الامارى بالفى فارس عند باب توما قال وعبوا القوم آلات الحصار ورتبوها على الاسوار وأقاموا مدة شهر لا يقاتل بعضهم بعضا بل كل يوم يركب البطلوس لعنه الله جواده المقدم ذكره ويلبس لامة حربه ويطلع بالجواد على اعلا السور وحوله المشاة من خلفه وقدامه وبايديهم السيوف المحدة والدرق والدبابيس والاطيار المذهبة والقسي والنشاب وكان عرض السور يمشي عليه خيالين متكاتفين باللبس الكامل وذلك من عرضه قال هذا ما جرى لهؤلاء واما خالد فانه أرسل عبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر الى الفيوم وجرى بينهم وقعات وحروب اختصرناه كرها خوف الاطالة فان المقصود الذى عليه مدار هذا الكتاب على فتح البهنسا وما وقع فيها والله اعلم ثم انهزم من انهزم حتى اتصلوا الى مدينة الفيوم وحاصروها اياما قلائل ثم فتحوها وفتحوا الفيوم فى اقل من شهر وأخذوا الاموال والغنائم ورجعوا الى خالد رضي الله عنه وكان مقيما بالتورية كما ذكرنا قال هذا ما جرى لهم وأما ابو ذر الغفارى وابو هريرة الدوسي وذو الكلاع الحميرى ومالك الاشتر النخعي فانهم لما ضربوا رقاب القوم كما ذكرنا حاصروا القلعة كما ذكرنا نحو عشرين يوما واقتتلوا قتالا شديدا قال حدثنا قيس بن مالك عن منصور بن رافع عن أبي المنهال وكان من أصحاب مالك الاشتر قال بينما نحن نحاصر القلعة وقد تظاهروا علينا واذا نحن بغبرة بوقت الفجر وكانت ليلة مقمرة فلاحت لنا خيل وقعقعة لجم فتبادرنا الى خيولنا فركبناها واتضح النهار وبان واذا عشرون صليبا تحت كل صليب ألف فارس وكان السبب فى ذلك بطريق طحا ذات الاعمدة وبطريق قلعة ذات الابراج وما حولهم لما بلغهم كتاب البطلوس تجهزوا بانفسهم وجمعوا ما حولهم من الروم والنصارى وخرجوا أول الليل خوفا من العرب فاصبحوا الاعلى القلعة والنيل كان فى أول زيادته والمسلمون قد أخذوا المعابر والقناطر التى على البحر اليوسفي فقطعوها وساروا حتى نزلوا على القلعة وكان بلغهم حصارها فلم يشعروا المسلمون الا وقد اقبلوا وهجموا عليهم وأتوا الى نحو باب المدينة الشرقى فوجدوا الامير زياد وأصحابه هناك (قال) مالك الاشتر يا وجوه العرب اجعلوا البحر خلف ظهوركم وقاتلوا أعداءكم واستعينوا بخالقكم هذا والروم صاحوا وطمعاهم وابا عتهم

ورابطوا من اعلا السور وكذلك أهل القلعة دقوا الطبول وضربوا بالنواقيس فلم يزالوا على المسلمين متقابلين وجاءت كتيبة من الروم الى جانب البحر كما ذكرنا نحو ثلاثة آلاف وكان الامير زياد رضى الله عنه فى نحو مائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملوا عليهم وصبروا لهم صبر الكرام وقتل الامير زياد رحمه الله تعالى وقتل معه جماعة من المسلمين ختم الله لهم بالشهادة وركب بقية المسلمين وقاتلوا قتالا شديدا وصبروا لهم صبر الكرام (قال) الراوى وسمع المسلمون وهم حول المدينة فاتوا الى الجانب الشرقى فوجدوا السيوف مجذبة والرايات مرفوعة وقد قتل جماعة من المسلمين على شاطىء البحر نحو أربعين رجلا فصاحت المسلمون ما بالكم فاجابهم المسلمون على شاطىء البحر من الجانب الشرقى دهينا ولا تدرون ما فعلوا بنا فعندها هجم القعقاع بفرسه البحر وقال بسم الله وعلى بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم انك تعلم اننا أفضل من بنى اسرائيل عندك وقد فرقت لهم البحر وسار ولم تبتل قوائم فرسه وانحدر الى جانب القلعة وكانت بقرب البحر فاقتحم البحر خلفه نحو من ألفى فارس الى أن طلعوا الى البر الشرقى واقتتلوا قتالا شديدا قال فبينما نحن فى أشد القتال واذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن ألف فارس يقدمهم رفاعة بن زهير المحاربى وهم من أصحاب قيس بن الحارث وكانوا فى بلد تسمى بردوها وكانوا صالحوا أهلها فجاءهم رجل من المعاهدين واخبرهم بمسير أهل طحاذات الاعمدة وصاحب قلعة الابراج لقتال المسلمين وعلموا أن البحر حاجز بينهم وبين أصحابهم فاتوا الى الامير قيس بن الحارث واستأذنوه حتى وصلوا وهم فى القتال كما ذكرنا فلما رأوا القوم كبروا فاجابوهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ثم حملوا عليهم وقاتلوهم قتالا شديدا وكان الفضل بن العباس وزياد ابن أبى سفيان ومسلم بن عقيل فى جملة من عدى الى البر الشرقى فعندها وثب القعقاع ابن عمرو التميمى على بطريق القلعة فقتله وكذلك الفضل بن العباس وثب على بطريق طحاذات الاعمدة فقتله وزياد بن أبى سفيان على بطريق عظيم فقتله فلما رأوا الروم ذلك ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وهرب منهم جماعة فالجأوهم الى البحر فغرق منهم جماعة كثيرة وأسر منهم نحو من ثلاثة آلاف وأتوا بهم الى نحو السور قريبا منه وضربوا اعناقهم والبطلوس ينظر اليهم هو وأصحابه ودفن الامير زياد الى جانب البحر تحت جدران القلعة ورجعت المسلمون ونصبوا الجسر بالاخشاب والاحجار تتساقط عليهم وهم لا يفكرون حتى عدوا الى الجانب الغربى بأجمعهم واشتد الحصار واقام المسلمون يحاصرون مدينة البهنسا تسعة أشهر (قال الراوى رحمه الله) وان المدينة كان لها باب سر تحت الارض من تحت باب الجبل من عند تل هنا الشيطن من رآه انه مغارة أو حفر فى

الجبل

الجبل وكان يخرج منه عيونه ومن يأتيه بالطعام وغيره سرا تحت ظلام الليل الى ذلك المكان ويخرج الرجل وفرسه على يده الى ظاهر السرب فلاجل هذا لا يحزنهم الحصار وكان اذا احتاج الى أمر مهم يخرج من يثق به من ذلك المكان ويوقد الشمع والفوانيس ليلا ويخرج من يختار من ذلك الباب وكانت الملوك القدماء ما وضعوا ذلك الباب الا لاجل الحصار وكانت عيونه تخرج وتأتيه بالاخبار وكان خالد بن الوليد رضى الله عنه لما فتح الفيوم صارت الميرة والعلوفة والرز والعسل وغير ذلك يأتى للصحابة من الفيوم ومن الوجه البحرى تأتى اليهم الميرة قال فارسل الامير غانم رضى الله عنه الامير مياس بن حازم وأرسل معه مائتى فارس من المسلمين ومعهم جمال وبغال يأتونهم بما ذكرنا وكان خالد قد ارسل يعلمهم بذلك وانهم يرسلون الى الفيوم ويأخذون ما يحتاجون اليه قال وسار مياس حتى وصل الفيوم وكان عليهم متكلم من قبل خالد الامير عرفجة قال وسار مياس ومن معه حتى قدموا الفيوم واسقوا الجمال والبغال وارادوا الرجوع الى أرض البهنسا حتى وصلوا الى دير هناك فى الجبل قال هذا ما جرى لهؤلاء وأما عيون البطلوس فاخبروه بذلك فاستدعى بطريق من أصحاب النمر راسمه ميخاييل بن بهرس وكان معروفا بالشدة والبراعة وأمره ان يأخذ معه ألفا من الروم وينطلقون الى طريق الفيوم ويكمنون لهم فى الدير ثم يخرجون عليهم فخرجوا من باب السرب واحدا بعد واحد فى ظلام الليل وساروا حتى وصلوا الى الدير وأكمنوا هناك حتى رأوا المسلمين فخرجوا عليهم فالتقى الجمعان واصطدم الفريقان وقاتلت المسلمون قتالا شديدا (قال الراوى رحمه الله) حدثنا أبو محمد البدرى حدثنا أبو العلا المحاربى (قال) شداد بن اوس وكان فى خيل مياس قال لما التقى الجمعان وأحاطت بنا أعداء الله وظننا ان المحشر من ذلك المكان ووطنا انفسنا على الموت وقاتل الامير مياس بعد ان سلم الراية لولده منيع فقاتل حتى قتل ثم قاتل من بعده مازن حتى قتل ولم تكن غير ساعة حتى قتل من المسلمين نحو مائة فارس واسروا الباقين (قال) وكان فى القوم عبد الله بن انيس الجهنى رضى الله عنه أحد سعاة النبى صلى الله عليه وسلم فلما رأى ذلك خرج كالريح الهبوب وقام يجرى وكان قد دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن امية الضمرى بالقوة والبركة فى المشى وكانا لا تدركهما الخيل العتاق ولا النجب السوابق فسار حتى اشرف على العسكر صاح النفير النفير اركبوا يا مسلمين قال فتواثبت الفرسان اليه وسألوه فقص عليهم القصة فتواثبت المسلمون الى خيولهم فركبوها وكل يقول انا امضى فعندها استدعى الامير غانم بعبد الله بن جعفر الطيار بن على بن أبى طالب وضم اليه ألف فارس من الصحابة رضى الله عنهم من أهل الشدة

وسار وأرل الليل ومنهم رجل من المعاهدين يدلهم الى ان قربوا من قرية هناك بسفح الجبل فاكموا هناك الى ان جن الليل اذ سمعوا حوافر الخيل فتوانبوا الى خيولهم فركبوها واذا بالروم قد اقبلوا عليهم والاسارى معهم موثوقون بالحبال على ظهور خيولهم وكانت ليلة مقمرة فصاحت المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وحملوا على القوم واقتتلوا قتالا شديدا فعندها صاح عبدالله بن جعفر رضي الله عنه يا قوم ابح أحدكم عن خصمه قال فتوانبت الامارى والسادات رضي الله عنهم يقتلون ويأسرون وبادر عبدالله بن جعفر الى مقدم الجيش لعنه الله وكان عليه درع مصفح فطعنه في صدره طعنة قرشية هاشمية اطلع السنان يلمع من ظهره وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار فلما رأوا الروم ذلك انهزموا وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون فما أصبح الصباح حتى قتل منهم نحو خمسمائة واسروا الباقين وخلصوا المسلمين من الاسر وغنموا سلاح الروم وأموالهم وخيولهم وترك عبدالله بن جعفر الاسارى وخمسمائة من المسلمين عند القرية وأمرهم ان لا يبرحوا حتى يأتيهم وأمر عليهم عبدالله بن معقل وساروا حتى أتوا الى محل المعركة ووجدوا القتلى وعندهم نصارى من المعاهدين يبكون وحلفوا لهم ان لا علم لهم بذلك فنزلوا عن خيولهم واخرجوا لهم زادا فاكلوا وواروا شهداءهم وكر عبدالله راجعا الى أصحابه وحملوا رؤس القتلى ورأس عدو الله ميخاييل امامهم وجنبوا خيولهم وأخرجوا لهم زادا فاكلوا وساقوا الاسارى حتى وصلوا الى العسكر والميرة والعلوفة ومعهم من العسل والسليط قال واعلموا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير واجابتهم المسلمون الى مثل ذلك وانقلب العسكر والروم على الاسوار ينظرون ما الخبر فرأوا تلك الرؤس على رؤس الرماح ورأس عدو الله ميخاييل امامهم نصعب عليهم وكبر لديهم ولطموا على وجوههم وذهبوا الى البطلوس واعلموه بذلك فصعب عليه واستدعى بجواده فركبه وصعد على السور حتى اشرف على المسلمين فلما رأى ذلك عظم عليه وقال ما هؤلاء انس وانما هم جان فلما رأى المسلمون البطلوس أتوا الى الامير غانم فاعلموه بذلك فركب والامارى معه حتى اتى الى تل هناك على مقابل باب قدوس واستدعى بالاسارى وأعرض عليهم الاسلام فابوا فضربوا رقابهم والروم ينظرون الى ذلك فغضب عند ذلك البطلوس غضبا شديدا وحمل هما عظيما (قال الراوي) رحمه الله ثم ان عدو الله استشار أصحابه فيماذا يفعلون وانه يريد الخروج بنفسه والكبسة عليهم قال فنهض اليه بطريق اسمه كراكر وكان فارسا شديدا وقال انا أيها الملك اكفيك هذا المهم واكبس عليهم لعل ان أنال منهم منالا واريد معي جماعة شدادا فقال الملك خذ ما شئت وانتدب معه عشرة بطارقة

تحت يد كل بطريق ألف وجاؤا الى كنيستهم وفتحوا الانجيل فى وجوههم وساروا الى ان وصلوا الى الابواب والبطليوس يحرضهم ويوصيهم بالهجمة عليهم ماداموا على غفلة ثم أمر الحراس بفتح الباب لهم وهو باب فندوس وكانوا ألف حارس بوابين على الباب وكان للباب ثلاثة ابراج بين كل برجين باب وشراريف وخرجوا وهم مستعدون لذلك والمسلمون على غفلة عما دبروا القوم لا يدرون ما رادهم وكان على حرس المسلمين تلك الليلة من جهة باب فندوس زائد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن معقل والبرا بن عازب ومالك الاشتر وذو الكلاع الحميرى قال الراوى حدثنا عوف ابن سعد عن سعد بن طارق الثقفى عن أبى يزيد عن مالك الاشتر قال بينما نسهر تلك الليلة والمسلمون قد هجعوا فى مراقدهم من شدة البرد وقطعهم السهر ووضعوا اسلحتهم ومنهم من له ورد يقرؤه ومنهم من يصلى اذ رأينا قد فتح الباب وخرجوا وهم كالسلاهب وبايديهم الفوانيس ومشاعل النار وحملوا على الجيش فبادرنا اليهم وصحنا النفير دهينا يا مسلمين ثوروا فقد غدروكم القوم فلما سمعت المسلمون الصياح تبادروا وثاروا من مضاجعهم كالاسود الضاربة هذا يأخذ سيفه وهذا يأخذ رمحه وهذا عارى الجسد لم يمهل حتى يلبس ثيابه وهذا يشد وسطه بمئزره وهذا عليه قميص واحد وثاروا فى صدور الرجال هذا وعدوا الله قد عطف على جماعة من المسلمين قبل ان ينتبهوا ووضع السيف فى اعراضهم فما افاق بعض القوم الا والسيف قد اطاح رأسه وهذا قطع زنده وهذا طعن فى نحره وهذا قد طارت رقبته وكثر الصياح وعظم البلاء وكثرت القتلى وعدو الله كرا كر عليه ديباجة حمراء مقصبة بالذهب تلمع من فوق الدرع وعلى رأسه بيضة عليها جوهرة تضىء كالكوكب وهو يهدر كالجمل الهائج وهو يطمطم بلغته وخلفه جماعة والذين على الاسوار يصيحون ويزعقون بشعارهم ويضربون بقرونهم وبوقاتهم وطبولهم وأوقدوا مشاعلهم من أعلى السور حتى بقى الليل مثل النهار هذا وقد ثارت الامارى أصحاب النجدة وذو المروآت واعتقلوا بسيوفهم وركبوا خيولهم فمنهم من ركب جواده عريانا ومنهم من ركب بسرج بغير لجام ومنهم من اسرع ماشيا فلله در الفضل بن العباس وابن عمه الفضل بن أبى لهب وعبد الله بن جعفر وزياد بن ابى سفيان والقعقاع بن عمرو والمسيب بن نجبة الفزارى والمغيرة ومسلم وأبو ذر الغفارى وأبى دجانة وأبى امامة وغفار بن عقبة وأبى زيد العقيلى ومثل هؤلاء السادات رضى الله عنهم لقد قاتلوا قتالا شديدا وابلوا بلاء عظيما وطعن جماعة من المسلمين وجرح جماعة واما الذين هاجوهم فى أول الوقعة قتل منهم جماعة نحو المائتين وثمانين رجلا واقتتلوا الناس قتالا شديدا واقبل الفضل بن العباس الى البطريق

كرا كرامته الله وضربه بالسيف على عاتقه الايمن اطلع السنان يلمع من عاتقه الايسر فوقع يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار واتبعه ما لحقه ابن عمه عبد الله ابن جعفر فقتل بطريقا آخر ولم تكن الا ساعة وقد جاءتهم بقية الأمارى من على أبوابهم وتركوا امكانهم من يثقون به وساروا الى ان وصلوا اليهم وحملوا عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة نحو عن ثلاثة آلاف من الروم والنصارى ولما رأوا الروم ذلك وراحو الباب وتبعهم المسلمون الى عند الباب فخرج كردوس عظيم من الروم أجموا المنهزمين واسر المسلمون من الروم نحو ألف ومائتين وخمسين وأتوا الى مكان المعركة يتفقدون من قتل منهم فاذاهم أربعمائة وخمسة وثلاثين رجلا ختم الله لهم بالشهادة فلما رأوا المسلمون ذلك شق عليهم وكبر لديهم واسرعوا قبل الليل وجمعوا الشهداء ودفنوهم فى ثيابهم ودمائهم فى مكان يعرف بالطبى عند مجرى الحصى وموقع السيل فدفنوهم هناك كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة وكل خمسة فى قبر وقدموا أهل السابقة وأصحاب القرآن وكان يعرف ذلك المكان بقبور الشهداء الاخيار والدعاء هناك مستجاب مجرب مرارا وتحط هناك الاوزار لمن يكثر من الدعاء والتطوع والاستغفار (قال الراوى) رحمه الله ماحدثت فى هذا الكتاب الاعلى قاعدة الصدق واذكر ماوقع من الامور واحدث عن أصحاب التواريخ وثقات المحدثين من أصحاب السير وسماع كلامه كالدر رونقه وكالعقد النفيس فى السلوك والتأسيس لايليق سماعه الالذوى البصائر والعلماء والملوك فانه نزهة الناظر ويشرح الخاطر لم يجمع أحد مثله من أهل السير لما فيه من الامثال والعجائب والاخبار الصحيحة المنقولة عن ثقات المحدثين يتلذذ بذلك المستمعون ونرجع الى سياق الحديث (قال الراوى) رحمه الله حدثنا عبد الله بن عبد الواحد القارى عن ابن سراقة ابن نوفل الخزرجى عن أبى لبابة بن المنذر وكان من أصحاب الرايات قال لما وارينا الشهداء ورجعنا الى خيامنا وعدو الله البطليوس قد اغلق الباب والقى الاقفال وعلوا على الاسوار قال ولما رجع المنهزمون الى البطليوس صعب عليه وكبر لديه واظلمت الدنيا فى وجهه وحل هما عظيما على من قتل من بطارقته وجماعته وبوى المكائد والمصائب للمسلمين (قال الراوى) رحمه الله ورضى عنه هذا ماجرى لهؤلاء وأما الصحابة رضى الله عنهم فانهم اجتمعوا عند الامير عام وتذاكروا ماحصل للمسلمين من البطليوس لعنه الله واتفق رأيهم ان يرسلوا الى الامير خالد بن الوليد رضى الله عنه ويسألوه ان يسير اليهم بنفسه ومن معه وكتب كتابا يقول فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله غانم بن عياض الى الامير خالد بن الوليد اعلم أيها الامير اننا نقصد الشام والعراق واليمن والحجاز ولم نجد فى الترك والروم والفرس والديلم ألعن

من هذا اللعون بطريق البهنسا البطليوس ولا أكثر منه خداعا ولا مكرا ولا حيلة وانها مدينة آهلة بالخيل حصينة بالرجال وقد خدعونا مرارا وقد قتل منا رجالا فانجدنا بنفسك وبمن معك من المسلمين والسلام ورحمة الله وبركاته عليكم وطوى الكتاب وسلمه الى عبد الله بن المنذر فاخذه وأتى به الى الامير خالد فوجده نازلا على التورية فسلم عليه ودفع له الكتاب فلما قرأه وفهم ما فيه استرجع وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم التفت الى عبد الله وقال قل للامير غانم ان الامير خالد قادم عليك برجال وأي رجال والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين من المهاجرين والانصار فرجع عبد الله ثاني يوم الى البهنسا ورد الكتاب الى الامير غانم بن عياض قال ثم استدعى الامير خالد بابي عبد الله الزبير وضم اليه ثلثمائة فارس وأمرهم بالمسير الى أرض البهنسا وقال لهم اذا وصلتم الى أرض البهنسا اعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فسار الزبير رضي الله عنه فلما ابعدوا ادعى بالمقداد بن الاسود وضرار بن الازور ودفع لهما مائتي فارس وأمرهما ان يسيروا على أثرهما وقال لهما لا تنزلا الا حتى يدخل الزبير وابنه ثم استدعى بعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما وضم اليهما مائتي فارس وأمرهما بالمسير على أثر المقداد ثم استدعى بسعيد بن زياد بن عمرو بن نفيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقبة بن عامر الفهري ودفع لهما مائتي فارس وأمرهما ان يسيرا وبات الامير خالد تلك الليلة ولما اصبح صلى وسار ومعه بقية الاماري من المهاجرين والانصار الاخيار رضي الله عنهم قال الراوي رحمه الله وسار الزبير رضي الله عنه بمن معه حتى اشرف على البهنسا فكبر وكبر معه المسلمون وانشد يقول شعر

اتيناكم على خيل عتاق * شبيه الريح يوم الاستباق
عليها كل صنديد همام * شديد البأس يوم الحرب واق
نذل حماتكم بالسمر لما * نجول بهامع البيض الرقاق
ونقتل كل كلب كان باغي * على الاسلام من أهل النفاق
ونحن حماة دين الله حقا * نقر بان رب العرش باق
وان محمدا خير البرايا * رسول الله للعلياء راق

قال واشرفت الروم على أبواب المدينة ينظرون اليهم فالبثوا غير قليل حتى أشرف عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما وكبر وكبرت المسلمون قال ثم انشد وجعل يقول شعر

انا الفارس المشهور للحرب في الوغا * اذل بسيفي كل باغ ومعتد
واحمل في الابطال حملة من له * الى الغاية القصوى اعظم مقصد

انا ابن أبي بكر الذى شاع ذكره * خليفة خير المرسلين محمد
فيا ويل من عارض حسامي عنقه * ويا ويل من عاجلته بمهند

قال الراوى ثم أشرف من بعده عبد الله بن عمرو وكبر وكبرت المسلمون لتكبيره ثم أنشد يقول شعر

اتينا على خيل عتاق وضمر * بكل يمانى مقيل واسمر
بيد كميت باع لله نفسه * يرى الموت فى الهيجاء اصبر مفخر
ندلكم بالسيف فى الحرب والقنا * ونقتل منكم كل باغ ومفتر

قال الراوى رحمه الله ولم يزل كل أمير ينزل بجماعته حتى تكاملوا وتأخر الامير خالد وبقية الامارى الذين معه ولما باتت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصبحوا قال ضرار بن الازور والامارى للامير غانم اطلكم أنتم المحاصرون واعداؤكم فى أكل وشرب فما هذا القعاد ثم رجعوا للابواب وضرار ينشد ويقول شعر

سأضرب فى العلوج بكل عضب * شديد الباس ذو حد صقيل
واضرم فى علو الباب نارا * وأرمى القوم بالخطب الجليل
واترك دارهم منهم خرابا * ولم أترك لهم أبدا كفيل
فويل ثم ويل ثم ويل * لهم منى اذا اشتد العويل
سأقتل كل باغ كان منهم * بحد السيف والباع الطويل

قال ولم يزل يترنم بهذه الابيات وتراموا بالسهام والمقاليع واقتتلوا قتالا شديدا واشتدت حمية الروم وجمع الملعون البطارقة من ذوى الشدة والبأس وكان هو فارسا شديدا وبطلا صنديدا كاد كرنا وفتح باب الجبل وخرج معه كأنه شعلة نار على جرائد الخيل والرماة بين يديه يرمون بالنشاب والمجانيق من أعلا الابراج واقتتلوا قتالا شديدا وجرح من المسلمين جماعة وكانت مقتلة عظيمة وبقية الامارى لا يعلمون وانكى من المسلمين جماعة قال فعندها صارت الامارى أصحاب الرايات واقبل علج عظيم من البطارقة وطلب البراز فبرز اليه المغيرة بن شعبة فحمل عليه البطريق واقتتلا قتالا شديدا فضربه المغيرة بالسيف فطاح من يده وبادر عدو الله الى المغيرة ليضربه واذا بفارس قد أقبل وبيده سيف مجذوب ولوح به الى المغيرة واذا هو عبد الرحمن بن أبي بكر فاخذه المغيرة وضرب به البطريق فحاد عنها وقرب من المغيرة وتجاذبا وكلما أراد المغيرة أن يسطو على العلج وهو يمانع عن نفسه ونظر ابن الازور الى ذلك فترجل عن جواده وسعى بين الصفوف حتى قرب من البطريق وضرب الحزام فقطعه فسقط عدو الله وهو ماسك المغيرة الى الارض فعندها تكاثرت الروم على ضرار والمغيرة فارادوا قتلهما

واذا بثلاث فوارس قد اقبلوا واخترقوا الصفوف أحدهم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والثاني عبد الله بن عمر بن الخطاب والثالث المقداد بن الاسود الكندي رضي الله عنهم فازالوهم عن مراكزهم وقتلوا ثلاثة من الروم وفرقوا الكتايب عنهم وضرب ضرار البطريق فقتله قال ومال عبد الرحمن بن أبي بكر وركب ضرار جوادا من خيل المقتولين واخذوا الاسلاب هذا وعدو الله البطلوس لعنه الله تارة يكر في الميمنة وتارة يكر في الميسرة وطلب البراز فبرز اليه المقداد بن الاسود الكندي رضي الله عنه وتعاركا وتجاولا وتطاعنا قال المقداد بن الاسود قاتلت ملوكا رفعت قلاعا ولاقيت حروبا في الجاهلية والاسلام فلم أر اخدع من البطلوس ولا أشد باسا ولا أصعب مراسا منه فبقينا تلاحتى كلت الجوادان والتفت الي وقال ما أجرى فرسك كيف تقاتل عليه وهو بثلاثة أرجل قال المقداد فمن شفقتي على جوادي طأطأت رأسي لانظر الى قوائمه فضربني بالسيف ضربة قوية فقطعت الخودة والرفادة واثرت قليلا في رأسي فظن الملعون ان خصمه قد قتل فلوى عنانه فاستيقظ المقداد وتبعه فساق جواده المتقدم ذكره وأحاطوا به أصحابه (قال) فبينما الناس في أشد القتال اذا اقبل الامير خالد بن الوليد رضي الله عنه ومعه الامارى المتقدم ذكرهم واعلنوا بالتكبير والتهليل والصلاة على البشير النذير وفي أوائل القوم خالد وهو ينشد ويقول شعر

رعى الله صبا للقاء يسرع * وصب على الفرسان بالخط يقرع
ومن باع لله المهين نفسه * وكان الى الهيجاء بالامر اطوع
فويلك يابطلوس من سيف خالد * اذا اشتدت الهيجاء والحرب يرقع
فلا رحم الرحمن بطلوس كافرا * والعنه من كل قوم ومجمع
فان قدر المولى سأخرب داره * وأتركها من بعده وهي بلقع
بجد يمان اذا ماجد بنه * تحن له كل العداة وتخضع

قال الراوي رحمه الله ثم ان خالدا رضي الله عنه حمل ومن معه واقتتلوا قتالا شديدا وقاتل البطلوس لعنه الله قتالا شديدا وقتل رجالا وجندل أبطالا فعندها حملت الامارى وأصحاب الرايات وذوو المروآت واقتتلوا بين الجبل والباب قريب التل الاحمر قتالا شديدا وعطف خالد على البطلوس وصال عليه وكلما مر الى الميسرة يراوغه الى الميمنة ومن الميمنة الى الميسرة فعندها عطف خالد عليه وحاز بين الصفوف وحمل عليه فعندها فر الى القلب وأحاطوا به أصحابه وقومه ووضعت الامارى السيوف فيهم وتبعه الامير خالد وساق جواده الى الباب واقتحمه وتبعوه قومه وانهزموا الى الباب ودخلوه وتبعوهم المسلمون واقتتلوا عند الباب وقتل من الروم نحو أربعة آلاف ودخلوا الباب

واعلقوه وأوثقوه بالاقفال وعلوا على الاسوار وامر المسلمون منهم نحو ألف وخمسمائة فعرضوهم على الامير خالد وكان فيهم من كبار البطارقة فعرض عليهم الاسلام فامتنعوا فامر بضرب رقابهم وافتقدت المسلمون اصحابهم فاذا قد قتل منهم مائتان وثمانون رجلا ختم الله لهم بالشهادة (قال الواقدى) رحمه الله هذا ما جرى لهؤلاء وأما عدو الله البطلوس فانه حل بهما عظيما وحصل له ما لا ينبغى شرحه وامر بجمع البطارقة فلما اجتمعوا اشتكى لهم امر العرب وما القوا من الحرب وقال لهم ما الرأى عندكم فقالوا كلنا بين يديك فاذا أمرتنا بالقتال قاتلنا على سور بلدنا قال سأدبر لكم أمرا وهو تدبير من خاص الحروب وعرفها ثم أمر باجتماع الناس خاصتهم وعامتهم فاجتمعوا اليه الا من بقى على الابواب خوفا من المسلمين فلما تكاملوا واجتمعوا قال انى عزمت أن أهجم على القوم فى هذه الليلة وأكبسهم فى أماكنهم والليل مهوب وأنتم أعرف بمسالك البلد من غيركم ولا يبقى منكم أحد الا انه يتأهب ويخرج معى من بابه ونكبس القوم واخرج أنا بنفسى ومن معى من باب توما وارجو وصولى الى مسرتى والا اموت بحسرتى وابيدهم اول باول لعل ان اصل الى اميرهم فاخذه أسيرا وابلغ مقصدى قالوا حبا وكرامة ثم بعث فرقة الى باب الجبل وفرقة الى باب فندوس وفرقة الى الباب الشرقى انتدب معه سادات قومه ومن عرف بالشجاعة وأخذ معه ثم اقبل على القوم قبل انصرافهم وقال سآمر صاحب الناقوس أن يخفق لكم الناقوس خفقة عند خروجى من الباب فتخرجوا جميعا فامتثلوا ما أمرهم به وقاموا ينتظرون الاشارة وأما صاحب الناقوس فاحتمله وصعد به على اعلا السور اى البرج وفعل ما أمره به البطلوس فخرج القوم كالسلاهب وخرج البطلوس فى عشرين ألف فارس من الشجعان وهو يوصيهم وقال لهم اسرعوا فى مشيكم فاذا وصلتم الى القوم فاحملوا عليهم وحكموا السيوف والخناجر فى رقابهم ومن صاح منهم الامان فلا تبقوا عليه الا ان يكون أمير القوم ومن ابصر منكم الصليب الذى اخذ منا فليأخذه ومن أتى به أكرمته ثم امر صاحب الناقوس أن يضربه فضربه ضربة سمعها أهل الابواب ففتحوا البوابين وتبادروا الخروج وخرج اللاعين وسمعت المسلمون الصوت فبادروا من اماكنهم مسرعين ينفر بعضهم بعضا وهم على يقظة وتبادروا كالاسود الضارية المشتاقة الى فرائسها فلم تصل القوم اليهم الا وهم على حذر الا انهم غير مرتبين فتطاول القوم فى ظلام الليل وسمع الامير خالد ذلك العياط فصاح واغوثاه وامحمداه واسلاماه أكيد قومى ورب الكعبة اللهم انظر اليهم بعينك التى لا تنام وانصرهم على عدوهم ولا تسلمهم الى شر خلقك ثم سار خالد وهو مكشوف الرأس بلا خودة وعاجلته العجلة عن لبس السلاح وسار الى قومه وهو

ينشد ويقول

فاض دمعي واعتراني حزني * وضاق صدري وبراني شجني
رب سلم سلم من نزول المحن * وانصر الاسلام ياذا المنن
بالنبي الهاشمي العدني * أحمد المختار طه المدني

(قال الراوي) رحمه الله ورضي عنه ثم وصل الى باب توما ومعه خمسمائة فارس من السادات وأصحاب النجدة مثل الفضل بن العباس والفضل بن أبي لهب وزياد بن أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب والمقداد بن الاسود وزيد بن ثابت وعبد الله بن زيد ومسلم بن عقيل وأبو ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وبحر بن مسلم وعقبة بن نافع والمغيرة بن شعبة والمسيب بن نجبة الفزاري رضي الله عنهم وعلت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والقوم من أعلا الاسوار قد طمعوا بالغنائم وتصارخوا عند ما استيقظ المسلمون وحمل خالد على القوم ونادى يامسلمون اتاكم الغوث من رب العالمين أنا الفارس الصنديد والبطل المجيد أنا خالد بن الوليد ثم حمل في وسط الروم بمن معه فقتل رجالا وجندل أبطالا وهو مع ذلك مشتغل القلب بالامير غانم وبقية الامارى الذين على الابواب وهو يسمع صراخهم وزعاقهم (قال الواقدي) رحمه الله ورضي عنه حدثنا ابن عبد الله بن عون قال حدثنا جابر بن سنان عن عقبة ابن عامر قال كان الروم والنصارى من على السور يرمون بالحجارة والسهام ولاقت المسلمون من عدو الله البطلوس أمرا عظيما لم يروا قبله مثله وكان أول من وصل اليهم البطلوس لعنه الله فصبرت له المسلمون صبر الكرام وقاتل عدو الله البطلوس قتالا شديدا وقال اروني الذي أخذ صليبي بالامس فلما سمع الفضل بن العباس صوته قصد جهته وقال ها أنا صاحبه وغريمك أنا مبيد جمعكم وآخذ صليبكم أنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعطف عليه البطلوس عطفة الاسد على فريسته وقال اياك طلبت ثم انفردله وصادمه فلم تر الناس في طول الايام ضربا كضربهما في تلك الليلة ورأى الفضل منه شيأ لم يره في طول عمره ولم يزالا كذلك الى ان مضى من الليل شطره وكل قرم مع قرمه ولم يزالوا في كر وفر وضرب ورد لم ير أحد مثله وصبر له الفضل صبر الكرام ولاح له من عدو الله ضربة فتلقاها في جحفته فانقطع سيف الفضل وطمع فيه عدو الله وظن انه يأخذه أسيرا واذا بفارسين قد أقبلا ومن ورائهما كتيبة من الفرسان قد هجموا على الروم واذا بخولة بنت الازور أخت ضرار قد حملت على فارسين من الروم فجندلتهما وهي تجندل في الابطال وفرسانهم فلحقها فارسان أحدهما عبد الرحمن بن أبي بكر والثاني عبد الله بن جعفر وتبعهما ثلاثة وهم ابان بن عثمان بن عفان فتخلصوا

ام ابان بعد ان امالت الروم بها رعطفوا على عدو الله البطلوس فكر راجعا في كردوس من الروم حتى دخل مدينة البهنسا وقاتلت الروم من الاسوار قتالا شديدا وكان خالد رضي الله عنه تارة يكر عند باب الجبل وتارة عند باب توما وتارة عند باب قندوس وكان غانم بن عياض الاشعري عند باب الجبل في ذلك الوقت فلبس سلاحه ودنا من القوم ومن معه من الامارى مثل المقداد وضرار بن الازور وشرحبيل ومسلم وعقيل وزياد وعبد الله بن العباس وعمر بن أبي ذئب وعبد الرحمن بن أبي هريرة والمسيب والحارث بن مسلم وزيد بن الحارث وأبي ذر الغفاري ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم نعطفوا نحو الباب وكبروا وكبر القوم من ورائهم فخرج اليهم بطريق عظيم ومعه عشرة آلاف فارس وكان اسم البطريق يوحنا فاقتتلوا قتالا شديدا فتكاثر الروم على عبد الله بن عبادة بن الصامت فقاتل قتالا شديدا ورمى بحجر من أعلى الباب فقتله رحمه الله وقتل من الامارى وفرسان المسلمين عند الباب زهاء مائتين وقتل من الروم نحو ألف وحمل غانم والامارى والتقوا القوم فصارت الاحجار والسهام تتساقط عليهم وهم لا يولون عنهم فلما الجأوهم الى الباب واختلطوا بهم خشيت الروم ان يصيبوا أصحابهم بسهامهم وحجارتهم فسكوا أيديهم وقتل من الروم مقتلة عظيمة وأما خالد فقاتل قتالا شديدا ما رؤى مثله فبينما الناس كذلك اذ أقبل ضرار بن الازور وهو ملطخ بالدما وهو جامد عليه كاكباد الابل فقال له خالد ما وراءك من الاخبار يا ضرار فقال اخبرك يا أبا سليمان اني قتلت في ليلتي هذه مائة وستين رجلا وقتل قومي ما لا يعد وقد كفيتهم من خرج من باب الجبل (قال الراوي) وكانت ليلة لم ير الناس مثلها وهجم الامير غانم هو وأصحابه الى داخل الباب واقتتلوا قتالا شديدا او وصلوا الى ساباط الباب وكان له باب آخر فاغلق من دونهم على كردوس من الروم فقتلوا هنالك وتسلق المسلمون على البرج وقتلوا من فيه وكانوا خمسمائة وقتل في تلك الليلة هنالك نحو ألف وأما باب قندوس فكان عليه الزبير بن العوام وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو بن العاص والفضل بن أبي لهب والمغيرة وجماعة من الامارى فتواثبوا الى الباب واقتتلوا قتالا شديدا وقتل من المسلمين نحو مائة وعشرين رجلا غير الاعيان وأما باب توما كان عليه خالد وخرج منه البطلوس فاقتتل الفريقان وقتل من المسلمين جماعة نحو مائتين وعشرين رجلا في المكان المعروف بالمراغة وغلقوا الابواب واستعدوا للحصار وهذا كان اول فتح (قال الراوي) رحمه الله حدثنا سنان بن مفرج العجلاني عن أبي محمد الشاكري عن زيد بن رافع عن أبي امامة قال وأقام خالد بعد الوقعة على البهنسا أربعة أشهر لا يقاتلهم ولا يناوشهم فطال عليهم المكث وضجروا

فأتوا الى خالد وشاوروه فى القتال فأذن لهم وكان جملة من قتل فى وقعة الابواب نحو ستمائة فارس ختم الله لهم بالشهادة (قال الراوى) رحمه الله فلما استأذنت الصحابة خالدا فى القتال لم يقدران يمنعهم ولما أصبحوا اقتتلوا قتالا اشد لم يسمع مثله فاشتد الحصار على اهل البهنسا وقالوا البطلوس مابقى لنا صبر على القتال والحصار فقال لهم اصبروا واثبتوا لعل ان أكيد العرب بمكيدة ولما اشتد الحصار عليهم أتوا الى بطريق يسمى توما صاحب الباب فأتوه السوقة والنصارى والعوام وقالوا له لقد ضاق علينا الحصار فنجعل لك مالا وافتح لنا الباب حتى نأخذ لنا امانا من العرب فاجابهم الى ذلك فصبرهم الى جانب من الليل وفتح لهم الباب فمضى نحو مائتين من تجار البلد وخرجوا من باب السر وأتوا الى خالد وصالحوه على ان يفتحوا لهم الباب وجعلوا للمسلمين جملا معلوما واتفقوا على ذلك وكتبوا اسماءهم ورجعوا هذا ماجرى لهؤلاء وكان كلب بن عم توما حاضرا اسمه أرميا فمضى الى البطلوس واعلمه بذلك فعندها أرسل البطلوس بطريقا يقال له حرقيا بيل ومعه ألف بطريقا وقال اكمنوا واتونى بالخبر على جليته فمضوا وتفرقوا وهم مشاة قريبا من باب توما واذا هم قد أقبلوا فلما راوهم عرفوهم وفتحوا لهم الباب فدخلوا فعندها تواثبوا عليهم ومسكوهم وسحبوهم الى عند البطلوس لعنه الله فلما رآهم وبخهم توبيخا عظيما وقال لهم ائتونى بالسياط ونصب اخدودا من حديد ثم ضربهم ضربا شديدا واتى بالنار وأخذ جميع أموالهم فامر باحضار البطريق فاحضر بين يديه فاخذهم ومضى الى القصر هو وجميع اعوانه واستدعى بالخشب وصلبهم على أعلا السور وأقاموا هنالك يوما وليلة ثم أمر بضرب رقابهم ولوح رؤسهم للمسلمين قال الامير غانم للامير خالد هؤلاء اهل ذمتنا وقد قتلهم البطلوس لعنه الله (قال الراوى) رحمه الله واما الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فانه قلق على المسلمين قلقا شديدا فارسل كتابا الى عمرو بن العاص يقول فيه ماسبب انقطاع كتبك عنى وأنا فى قلق على المسلمين وعلى خالد ومن معه واعلم انك لاترسل لى الا بالفتح والغنائم وان احتاج خالد الى نجدة فارسل الى أبى عبيدة فقد كاتبته بأن يرسل له جنودا من الشام والسلام فلما وصل الكتاب الى عمرو ارسله الى خالد فقال خالد لااطلب النجدة والمعونة الا من الله تعالى ثم ان خالدا عظم عليه الامر واشتد الحصار وكان كل يوم يرجع الى المدينة ويقاتل قتالا شديدا وفقد من المسلمين جماعة كثيرة قتلوا بالحجارة والنشاب وهجم عدو الله على المسلمين وكادهم مرارا وقال خالد للامير غانم وللمسلمين لاشك ان لاصحابنا عيونا رجواسيس ثم ان خالدا ركب ومعه الفضل بن العباس والمقداد وزياد بن أبى سفيان وغانم بن عياض وطافوا حول العسكر واذا

برجل من العرب المتنصرة جالس على قطيفة خارج العسكر فانكر أمره خالد وقال له من أي العرب أنت فسكت فقال له الامير عامر انطق بالحق من لك من الاهل ههنا فسكت فقال له خذ الماء وتوضأ فلم يحسن ذلك قال له صل فلم يحسن ذلك فضربوه فاقر بأنهم خرجوا ثلاثمائة من باب الدرورد دوا وبقي هو فضربت عنقه وانقطعت الجواسيس وكانوا يقاتلون قتالا شديدا وكان لخالد عبد في خيمته اسمه ولاح يصنع له كل يوم قرصين من شعير واحد له وواحد للعبد فقعد خالد ثلاثة أيام يأتي السفرة ولم يجد فيها شيأ ولم يكلم العبد وكان عنده بعض تمر يتقوت به حتى فرغ فعندها قال خالد للعبد يا ولدي قال الله تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام ولك ثلاثة أيام لم تصنع فيها قرص شعير قال يا سيدي ما قطعت عنك ذلك ولكن أصنع لك كل يوم واعلقه في طبق الخيمة ولم أجده قال خالد ان لهذا شأنا عظيما ثم قال للعبد قف خلف الخيمة واخف نفسك وانظر من يفعل هذا فلما كان من الغد ركب خالد للقتال ومنع العبد القرصين أكل قرصا ووضع قرص سيده فكان معتادا ان يشيله فجاء كلب اسود عظيم من جهة البلد ودخل الخيمة وأخذ القرص في فيه ومضى فتبعه العبد حتى أتى الى سرب يخرج منه الماء يجري من باب الصغير تحت الارض الى تحت سور المدينة من جهة القبلة ويدخل المدينة ويظهر من الجهة البحرية من خارج البلد فلما رآه العبد رجع واعلم الامير خالدا فمضى معه ورأى ذلك ففرح بذلك فرحا شديدا ثم أتى الى الامارى واعلمهم بذلك وقال لهم أريد منكم مائة رجل قد باعوا أنفسهم لله عز وجل فيمضون معي وجماعة شداد يكونون مقابل الباب فاذا فتحنا الابواب دخلوا اليها فانتدب منهم مائة رجل من خيار القوم منهم عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وزيد بن ثابت وعقبة بن عامر ومسلم بن عقيل وزياد بن أبي سفيان وأخيه هبار والمسيب بن نجبة وأخيه والمقداد بن الاسود ورافع وأبو رزين العقيلي ومثل هؤلاء السادات قد اقتصرنا في أسمائهم خوف الاطالة ورتب خالد رضي الله عنه عبد الله ابن جعفر والزبير بن العوام وابنه عبد الله والفضل بن العباس والفضل بن أبي لهب وضرار بن الازور ومثل هؤلاء مقابلين الباب وصبروا الى بعد غروب الشمس وأتوا الى ذلك السرب ودخلوا اليه في الماء كل واحد بسراويله وسيفه وكان أولهم الامير خالد وكل من دخل يدع سيفه وحجفته مع صاحبه حتى يدخل ويأخذهم حتى دخلوا ثمانون رجلا ورجع عشرون لم يسعهم السرب وضاق عليهم وولوا وهم متأسفون لما فاتهم من الشهادة والفتح وتوافت الامارى المذكورون واخفوا انفسهم تحت الجدار الى جزء من الليل فتبادروا الى الباب فوجدوه مرتجا من داخله فعالجوا الاقفال

والروم سكارى ففتحوا الباب وذبحوا كل من وجدوه فى دهليز الباب وكانوا ستين
رجلا ثم علوا على السور وجماعة منهم أخذوا المفاتيح ففتحوا الباب وثاروا على الروم
فقتلوا جماعة منهم فى أعلا البرج وقتلوا بطريق البرج واعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة
على البشير النذير فاجابوهم المسلمون بمثل ذلك ودخلوا من الباب الى سوق المدينة
وتبادرت جماعة الى القصر فلما احس عدو الله بذلك وان المسلمين ملكوا عليه الابواب
وضع منديلا فى عنقه وخرج وهو يقول الامان الامان وفعل جماعة كذلك فاتى خالد
ووضع السيف فيهم وقاده اسيرا وقال له يا عدو الله لا امان لك عندى الان تسلم وقبض
على جماعة من بطارقته ووضع السيف فيهم وقتل من الروم نحو ثلاثة آلاف وقتل من
المسلمين فى تلك الليلة فى وسط البلد مائة وأربعة وثمانون رجلا قريبا من سوق المدينة
وعند الابواب وعند القصر وجاء غانم بن عياض ومعه جماعة من الامارى فشكوا اليهم
أهل البلد وقالوا الامان فرق لهم الامير غانم رحمه الله وصار عدو الله يتملق بين أيديهم
فغلبوا على رأى خالد حتى صالحهم على ألف ألف مثقال من الذهب الابريز وألف ألف
أوقية من الفضة البيضا وعشرة آلاف وسق من البر والشعير والجزية من العام القابل
وخالد لا يطمئن قلبه الى شىء من ذلك وغلبوا الامارى على رأيه وجاؤه وقالوا لقد
اضربنا المقام بهذا البلد فما نراك الا تشفق منا علينا ونرى من الرأى ان ترسل الى عمر
تعلمه بذلك وهذا الكلب وجماعته موثوقون الى ان يجى الجواب فعندها كتب خالد
كتابا الى عمرو يخبره بذلك فلما بلغه ذلك رد لهم الجواب انهم يستوثقوا منه بالايمان
ويأخذون منهم ما صالحهم عليه ويتركوه ومن صاح الغوث الغوث اتركوه والا تشفروا منكم
اهل الصعيد ففعل خالد وقلبه نافر واطلقه بعد ان استوثق منهم بالايمان فى كتبهم
المذكورة واطلقوه وشرط عليهم ان لا ينزل عندهم أحد الا من يقبض المال فخرجوا
الى ظاهر المدينة وبقى عنده فضالة بن زيد الدلمى وعون بن ساعد الكندى ومقسوم
ابن سعيد الجهنى ومائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واخرج الميرة
والعلوفة وصار كل يوم يركب ويتردد الى الامارى واوهب وأعطى ولم يترك أميرا
الا خادعه حتى طابت نفوسهم عليه الا خالد والفضل بن العباس والمقداد وعبد الرحمن
ابن أبى بكر الصديق والزبير بن العوام لم تطب نفوسهم اليه وأقاموا اشهرا على
ذلك وأرسل جميع الغلال وخزن ما يحتاج اليه واستدعى بكبار قومه ومن يثق به
واتفق رأيهم على قتل المسلمين والغدر باصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصبروا
الى ان مضى جزء من الليل وهجم على المسلمين على حين غفلة فى ألف بطريق واوثقهم
كتافا وجعل فى أفواههم الاكر وفتح الابواب وادخلهم المدينة وهجم على المسلمين

ووضع السيف فيهم وهم رقود فما تنبهوا الا والسيف يقطع فى نحورهم وكانت وقعة عظيمة وثار خالد بن معه وكان الزبير راقدا فسمع الصياح فقال دهينا ورب الكعبة ثم ركب وركبت معه زوجته وقاتلت النساء قتالا شديدا وعدو الله تارة يكر ميمنة وتارة يكر ميسرة والسيف يعمل والرجال تقتل وكانت ليلة شديدة وصار خالد يقول يا قوم ما قلت لكم ما سمعتم لخالد والضرار يادبن أبي سفيان واخوه هبار وميسرة بن مسروق وفضالة بن عبد شمس وعقيب بن يعقوب وعبادة بن تميم وجندبة الكلابي الى تل هناك وأحاطوا بهم طائفة من الروم من كل مكان فقاتلوا قتالا شديدا واتحدر زياد رضى الله عنه من التل وتبعته أصحابه فاحدقت بهم الروم وداروا بهم كدوران السوار بالمعصم وقتلوا زيادا وجميع ما ذكرنا من الأمارى وقاتلت نسيبة الانصارية أم ابان واسماء ابنة أبي بكر ونعمانة ابنة المنذر وقفا أثرهم فى تلك الليلة قاتلوا قتالا شديدا وقتل جماعة من المسلمين واتى خالد وحمل عليهم وجعل يقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة قال واطبق عليهم هو وجميع الامارى فهزموهم الى الابواب وقد قتلوا منهم مقتلة عظيمة وهرب عدو الله وتحصن هو وقومه وغلقوا الابواب ولما اصبح أمر بالحصار وأمر باحضار المأسورين وصعد بهم الى اعلا البرج وضرب رقابهم فشق ذلك على المسلمين وصعب عليهم ما فعل عدو الله باصحابهم واتى خالد رضى الله عنه ومعه بقية الامارى الى مكان المعركة فوجدوا الشهداء مطرحين ووجدوا زيادا رضى الله عنه وفيه عشرون طعنة بالرمح وأربعون ضربة بالسيف والى جانبه أخوه هبار وفى رأسه عشرون ضربة بالسيف وواحدة فى فخذه قطعته فبكا خالد عليهم بكاء شديدا وبكت عليهم سائر الامارى وابطال المسلمين ونعاهم الامير خالد بهذه الابيات وهى له خصوصا وأنشد يقول شعر

مهامى دموعى كالسحائب تهمع * وقلبى من فقد الاحبة يفزع
واظلمت الدنيا على نور عبرتى * وكاد فؤادى بالجوى يتقطع
لفقد زياد أحرق البين مهجتى * وغاب سوابى حين عاينت مصرعى
لقد كان فى بحر المسامع مائلا * يزلزل اركان العدا ويضعضع
وقد كان مقدام الفوارس كلها * بكل مكان للاعادى مقمع
لحى الله يوما تنظرنه مقاتى * واجفانه من أعين الدمع تدمع
اباسيدا من آل هاشم لم يزل * له رتبة بالمجد والجود ترفع
يعز علينا ان نراك معفرا * ورأسك من فوق الجنادل تسفع
بجانبك الهبار أضحى مزبرا * طريحا على رأس الثرى وهو مطبع

الالعن الرحمن بطالوس قومه * والعنه مع كل قوم تجمع
لقد غدر السادات من آل هاشم * نجوم واقمار على الناس تطلع

(قال الراوى) ثم بكت المسلمون بكاء شديدا على من قتل منهم من الامارى والابطال وجمعوهم وصلوا عليهم وواروهم فى حفرهم الى جانب انتل فاذاهم ثمانون أميرا وثلاثمائة وسبعون رجلا ختم الله لهم بالشهادة (قال الراوى) وأقامت المسلمون ثلاث سنين الا انهم يشنون الغارات على السواد والسواحل ومضى القعقاع بن عمرو وهاشم وابوأيوب وعقبة بن نافع الفهرى بالنى فارس وغار على حد برقة ثم عاد وهذا أحد الامارى فى فتح المغرب بعد ذلك رضى الله عنه قال ولما طال الحصار والمكث على أهل البهنسا اجتمعت المسلمون عند خالد وامتشاروه فيما يفعلونه وماذا يكون من الرأى فوثب عبد الرزاق الانصارى وعبد بن مازن الدارى وكعب بن نائل السلمى وابومسعود البدرى وابوسعيد البياضى وقالوا ياقوم قد وهبنا انفسنا لله عز وجل ولعل ان يكون للاسلام فرج واصنعوا منجنيقا واملأوا اغرائر قطنا وقالوا يأخذ كل واحد منا سيفه وحجفته ويدخل فى غريرة قطن واذا كان الليل ونامت الحراس القونا على أعلا السور واحدا بعد واحد والمعونة من الله فى فتح الباب كما فتحتم قصر الشمع بمصر ودير النحاس وكما فعلتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاستصوبوا رأيهم ولما أصبحوا قطعوا الاخشاب وصنعوا منجنيقا وصنعوا له حبالا واحضروا اغرائر وملؤها قطنا والرجال داخلها وصبروا الى الليل ودخل هؤلاء السادات رضى الله عنهم بعد ان جربوا المنجنيق بحجر بعد حجر فسقط على اعلا السور والبرج نشرعوا فى رميهم منهم أبو مسعود البدرى وعبد الرزاق الى ان رموهم جميعهم وصاروا فوق اعلا السور ورتب خالد أصحابه على الابواب وأما عبد الرزاق واصحابه لما صاروا اعلا الجدار نزلوا الى البرج فاذاهو مغلوق والحراس نيام فنزلوا الى الدهليز بين البابين فوجدوهما مغلوقين موثقين فذبحوا البوابين عن آخرهم ووجدوا المفاتيح تحت رأس كبيرهم فى جانب سريره فأخذوهم وفتحوا الابواب واذا بالباب الثانى الذى ينتهى الى القصر مسدود بالحجارة فاحتالوا على قلع حجر بعد حجر فقلعوهم ورموا الاحجار وفتحوا الابواب وكل ذلك فى أقل من ساعة بمعونة الله عز وجل وصعدوا الى البرج فعالجوه وفتحوه وقتلوا جماعة واستيقظ جماعة وثاروا عليهم وخافوا على الباب ان يؤخذ منهم وان يحال بينهم وبينه وهو باب السور الذى بظاهر المدينة ففتحوه وصاحت الروم واستيقظ البطلوس وركب جواده وكان على حذر وركب المسلمون ودخلوا الباب وخرجت البطارقة والبطلوس من قصره وزحفت الروم الى الباب وكان أول من قتل فى ذلك

اليوم عبد الرزاق وعتاب بن مازن وكعب بن نائل السلمى بداخل الباب قال حدثنا قيس بن مازن الحميرى عن عبادة بن سالم السكاسكى عن أبى مسعود البدرى وكان أول من فتح الباب ليس هو على هذه الصفة أخبرنا سالم بن حامد عن أبى عبد الله عن أبى محمد الانصارى عن عبد الله البدرى قال كان أبو محمد الحسنى يقرء هذا الفتوح بالجامع العمرى على الشيخ أبى عبد الله حتى بلغ الى ما ذكر الفتوح وفتح الباب وان الرجال رفعت فى الغرائر قال بانى ليس الامر كذلك فقد روى عن ابن مسعود وهو الصحيح لانه أحد من فتح الباب قال انهم قطعوا أخشابا ونصبوا سلما للتسليق عاليا على جدار المدينة وصبروا الى الليل وأسندوه الى الجدار وتسلق منهم أربعون رجلا ومنهم السبعة المذكورون وفتحوا الباب كما ذكرنا واستيقظ الروم وخرجت اليهم بعد فتح الباب فكان السابق اليهم عبد الرزاق رضى الله عنه فقتلوه وقتلوا معه من ذكرنا اولا وتسابقت المسلمون الى الباب فكان أول من دخل ضرار بن الازور وهو يزعق ويقول هذه الابيات

الجن تفزع يوم الحرب من فزع * اذا أتيت الى الهيجا بلا جزع
ياويل من منع الارصاد يخدعنا * ونحن جرثومة الامكار والخدع
لا رضين المنى فى جهادهم * وقتل أبطالهم بالدرق والدرع
ياويل كلب العدا البطلوس ان وقعت * عينى عليه فارديه الى البرع
عيب على اذا ما التقيه هنا * وافلق الرأس منه وهو مرتدع

ثم دخل من بعده خالد وهو يقول

اليوم يوم الوفا والطعن بالاسل * والضرب بالقضب فى الهامات والقلل
ياويل بطلوس كلب البهنساء اذا * لاقيته بطليق الحد منعدل
اذلم اذقه بكاسات المنون به * فلا سلمت ولا بلغت من امل

قال ثم دخل من بعده ذو الكلاع الحميرى وهو يقول

انى لمن حمير العالون فى النسب * أهل الثنا والوفا والجود والحسب
اسد غضا فرة سود بصاحبة * نردى الكماة غدا فى الحرب بالقضب
الحرب عادتنا والطعن همتنا * وذو الكلاع انا عالى على الرتب
تبت يد الروم ما علموا بان لنا * صوارما تبرى الاعضاء والعصب

قال ثم دخل من بعده الزبير بن العوام وهو يقول

ابا بطلوس يا كلبا لعينا * ويا نسل الطغات الارذلين
اتتك حماة دين الله حقا * وأولاد الجياد الخيرينا

خيار

خيار الناس نسل بني نذار * كراما في الاعادي قاطعينا
اذا احتبك العجاج بهم تراهم * بحولك كالسباع الضاربين
ولا منهم جبان قط ولا بهوت * ولا ندل فتلقاه حزينا
وليس ترى سوى مقدام قوم * اثار الحرب صنديدا امينا
قال ثم دخل من بعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وهو يقول
أتينا البهنساء بكل قرم * شديد العزم في يوم النزال
وجيش فاق في الافاق عليا * على الاعدا بطول الدهر خال
قال ثم دخل من بعده عبد الله بن جعفر وهو يقول
اليوم طاب الطعن في اللئام * والضرب في الاعناق بالحسام
وانصر الاسلام باهتمام * ولم ازل عن سادتي امامي
انا الشجاع الفارس الهمام * ومردى الاعداء في الحمام
قال ثم دخل من بعده الفضل بن العباس وهو يقول
الا اننا السادات من آل هاشم * ليوث كرام ماضيين العزائم
لنا تشهد الابطال في كل معرك * وتذكرعنا كل أهل المواسم
اذا اشتدت الاهوال واشتبك القنا * فتلقى لنا في ذاك فعل الضراغم
قال ثم دخل من بعده الفضل بن أبي لهب وهو يقول
لعمرك يا بطلوس عزمي قد طاب * بحد حسام كالشهاب اذا انتدب
يطير شرار النار من لمعانه * بيد شجاع الخيل ابن أبي لهب
فويلك يا ملعون مني اذا سطى * بصارمه يوم العجاج وان وثب
قال ثم دخل من بعده غانم بن عياض الاشعري وهو يقول
لاقسم بخالق الارض والسماء * وأوزان معناها البديع وما صنع
لا انثني يوم الهياج عن العدا * بمهندي الصمصام الا ان قطع
فالويل للبطلوس من سطواتنا * لافرقن بحد سيفي ماقطع
قال ثم دخل من بعده المقداد بن الاسود وهو يقول
انا الكندي والليث الشجاع * واما في العدا قد طال باعي
وتشهد لي الرجال بكل حرب * وللهيجاء انطبع انطباع
فوا ثارات عبد الله ابني * عليه باكيا حيران ناعي
قال ثم دخل من بعده ابان بن عثمان وهو يقول
نحن الليوث وذو المعروف والكرم * وفي المعامع يوم الحرب ذو همم

يجدلون العدا فى كل معترك * وقاهرون لهم فى كل مصطدم
لا يعجبك يا بطلوس جيشك فى * هذا المقام فمعنا الكل كالرخم

قال ثم دخل من بعده مسلم بن عقيل وهو يقول

مناى الحرب والسمر الطويل * واقلقنى التسهيد والعويل
فوا ثارات جعفر مع على * كثارات المجد بنى عقيل
سأقتل بالمهند كل كلب * عسى فى الحرب أن يشفى عليلى

قال ثم دخل بعده شرحبيل بن حسنة ثم القعقاع بن عمرو التميمى ثم مالك الاشتر ثم عبادة بن الصامت ثم أبوذر الغفارى ثم أبو هريرة الدوسى ثم ابنه عبد الرحمن ثم معاذ بن جبل ثم شداد بن أوس ثم قيس بن هبيرة ثم عقبة بن عامر ثم أبو دجانة الانصارى ثم جابر بن عبد الله ثم البراء بن عازب ثم النعمان بن بشير ثم سعيد بن زيد أحد العشرة الكرام رضى الله عنهم أجمعين قال ثم تتابعت الانصار يتلو بعضهم بعضا بهمم وعزائم قال ثم خرجت الروم وقاتلت قتالا شديدا وتواثبت جماعة من الامارى مثل الزبير بن العوام واسمه عبد الله وعبد الرحمن بن ابى بكر الى باب البحر واقتتلوا قتالا شديدا وتقدم عبد الرحمن والزبير الى الباب والروم على اعلا السور ونزل عن جواده وصلى ركعتين والحجارة تتساقط عليه وهو لا يرعى لذلك وتقدم هو والفضل وعبد الرحمن بن ابى بكر الى الباب وجعلوا السلاسل من فوق وصعدوا الى اعلا البرج وهدموا الشراريف ووضعوا السيف فى الحراس وفتحوا الباب ووثب شرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس وابوذر الغفارى وابو ايوب الانصارى الى باب قندوس ووثب المسيب بن نجبه الفرارى والقعقاع بن عمرو والامير غانم بن عياض الاشعرى الى باب الجبل وفتحوا الابواب واقتتلوا قتالا شديدا وقاتلت الروم قتال الموت الى ان طلعت الشمس وارتفعت وقاتل عدو الله البطلوس قتالا شديدا وقتل رجالا وجدل أبطالا واقتتلوا فى الازقة والشوارع وبين الابواب وتقدم خالد وهو يصيح واثارات سليمان وطعنه طعنة صادقة فى صدره أطلع السنان يلمع من ظهره فوقع يخور فى دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار ولما رأت الروم ذلك ولوا الادبار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون و ينهبون وقتل من الروم نحو ثلاثين الفا بوسط البلد وأسر منهم عشرون الفا وانشد خالد رضى الله عنه يقول

وبالبهنسا الغرا بيدت جيوشنا * ثلاث سنين بالبهاليس يفتح
ثمان آلاف كان عدّ جيوشنا * وكل همام من ثمانين يرمح
فما فقدت الا وقد صار جيشنا * ثلاثة آلاف عداد تمسح

ولم

ولم ار فى ارض الصليب كمثلها * ولا جيشها ما على السور يسرح
ولا مر بى يوم كمثل حروبها * لان بها البطلوس ليث مجحج
وكان له جيش وعدة جيشه * ثمانون الفا بالحديد يوشح
وكنا غلبنا هم ثمانين مرة * يخادعنا البطلوس عنهم فنصفح
ثلاث مرار نحن نفتح بابها * وترتد للكفر الذميم وتجنح
وقد لعب الهندى يوم فتوحها * وكانت ابادينا ونحن فى الروم نذبح
ثلاثين الفا قد فنتها سيوفنا * وا كبا دنا من حرها النار تقدح
الى ان ملانا البر والبحر منهم * وقد شبعت اسد الفلا وترنحوا
وولت ثلاثون الفا شواردا * وعشرون الفا منهم قد تجرحوا
فمنهم من قضى ثم منهم من طغى * ومنهم اقوام للموالين روح
وبطلوسهم ذاك النهار قتلته * وقد كان مقدام الجيوش مرجح
فبادرته فى الحال حتى تركته * صريعا عليه الغانيات تنوح
وعاجلته فى الرأس منى بضربة * فاضحى بها شطرين ملقى ومطرح
وهاد بسيف ابن الوليد مجندلا * تمر به كل الحوادث تقلح
ولما قتل بطلوسهم صار جمعهم * كما شبه اغنام وغاب المسرح
وقد كان فى بحر الهياج مغلغلا * تولى سرايا قومنا منه مرح
فلله ما اعداه قد كان فارسا * يفوق على جيش عظيم ويربح
وقد فرحت اكبادنا وتزينت * لامرك والاكباد بالنصر تفرح
اقمنا بارض البهنسا بعد فتحها * ثلاثين يوما للمساجد نصلح
وسرت الى ارض الصعيد معاجلا * بالفين من خيل الصحابة ترمح
من البهنسا الاسوان جمعا فتحتها * بعشر شهور بعدها ليس تلمح
وعندى الثلاثون الذى شاع ذكرهم * وكل فتى يا صاح بالالف يرجح
وزحنا فتحنا الهند والسند كله * واسيافنا فى الحمد لله تسبح
وفى كل ارض عسكر قد تركته * يقيمون دين الحق والحق يوضح
وهذا كلام ابن الوليد الذى جرى * فكن سامعا معنى الذى لك اشرح
فما مثله فى معمع الحرب سيد * ولا مثله فى جوهر النظم افصح
ومن بعد ذا صلوا على أشرف الورى * نبى له كل البرية تجنح
عليه سلام الله مالاح بارق * وما غرد القمرى اذا الصبح لوح
واصحابه والآل والعترة التى * اقاموا الدين الله والشرك زحزحوا

(قال الراوي) رحمه الله ورضي عنه وصار المسلمون يصعدون الى البيت ويأخذون الرجال من بين حريمهم من الروم ويقتلونهم حتى كلت سواعدهم من الذبح وجرى الدم في الازقة وصارت القتلى في الشوارع والاسواق مطروحين وخرجت اليهم النصارى والقبط وهم يبكون ويقولون نحن أهل ذمتكم ونحن عوام وتجار وسوقة وكنا مغلوبين على أمرنا وقتل خيارنا باسيافكم فاجيرونا وارحمونا يرحمكم الله وأراد خالد ان يفعل بهم كما فعل باصحابهم فمنعه الامير تمام وبقية الامارى ويقولون هؤلاء قد صاروا رعيتنا وليس عليهم مقدرة فتركوهم وقالوا بشرط ان تدلونا على من أخفى نفسه في المغاير والخابي ومن فر من الباب الشرقي وغرق في الماء فدلوهم على الجميع ولم يزالوا يقتلون ذلك اليوم كله وفي اليوم الثاني أستدعوا بنجارين يعملون عربيات تحمل القتلى من المسلمين وجابوا دواب أهل السواد من البقر نصب العربيات والفلاحين عملوا عليهم وصاروا يضعون كل ثمانية وستة وعشرة في حفيرة ويردون عليهم الرمل حتى صاروا تلالا واشهروا قبورهم ووضعوهم بدروعهم وثيابهم ودمائهم رضي الله عنهم وأخذوا الواح رخام وكتبوا عليها اسماءهم ونزلوهم في مدافن قبورهم ورجعوا الى قتلى أهل البلد فواروهم أهلهم الى قبورهم وكان جملة من قتل من المسلمين في ذلك اليوم نحو أربعمائة وازيد الاعيان منهم صاغر بن فرقد وعبد الله بن سعيد وعبد الله ابن حرملة وعبد الله بن النعمان وعبد الرزاق الانصاري وعبد الرحيم النخعي وأبو حذيفة اليماني وأبو سلمة الثقفي وأبو زياد اليربوعي وأبو سليمان الداراني وابن أبي دجانة الانصاري وأبو العلا الحضرمي وأبو كلثوم الخزاعي وأبو مسعود الثقفي وهاشم بن نوفل القرشي وعمارة بن عبد الدار الزهري ومالك بن الحارث وأبو سراقة الجهني والبقية من اخلاط الناس وقتل عند سوق التمارين نحو عشرين ودفنوا هنالك وعند سوق الصابون جماعة كثيرة وقريبا من العطارين في جانب القبور نحو أربعين وقريب من البحر اليوسفي جماعة عند السور رضي الله عنهم (قال الراوي) ولما وارت المسلمون شهداءهم صعدوا الى قصر البطلوس والى قصور البطارقة ودورهم ومقاصيرهم فوجدوا فيها من آنية الذهب والفضة مالا يوصف ومن المتاع والحلي والحلل واللآلي والنمارق والجواهر والبسط والوسائد والمساند واقتتلت الروم على بغلة محملة عند باب السر فغلبوهم المسلمون عليها وأخذوها فاذا عليها صندوقان ملآنين احجار معادن فاشترى رجل من المسلمين من بيت المال حجرا بستة آلاف دينار فباع على غشوميته بمائة الف دينار وأخذوا بساط البطلوس وكان مثل بساط كسرى سداه حرير وذهب مرصع بالمعادن فارسلوه مع الخمس الى المدينة فجعل لعلي بن أبي طالب مما حصل له من البساط

عشرون ألف دينار وغنمت المسلمون غنائم كثيرة من اواني الذهب والفضة وغير ذلك (قال الراوي) رحمه الله حدثنا عون بن عبيدة عن عبد الحميد بن أبي امية قال فهدموا المسلمون القصر والكنيسة وتلك الدور وفتحوا اخزان البطلوس واستخرجوا جميع مافيها من الذهب والفضة وغير ذلك ولم يتركوا فيها شيأ أبدا وقسم خالد الغنيمة بين المسلمين فكان للفارس عشرة آلاف مثقال من ذهب والف اوقية من فضة ومن الثياب والملبوس وغير ذلك مالا يوصف ولما دخلوا الكنيسة ورأوا اتصاوير ها واقناديلها الذهب والفضة ومن الستور الحرير المنقوشة والاعمدة وغير ذلك تعجبوا وقرأ خالد ما اتخذ الله من ولد الآية وقال لا اله الا الله محمد رسول الله فصاحت المسلمون بالتهاليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وقرأ غانم بن عياض الاشعري كم تركوا من جنات وعيون الى قوله واورثناها قوما آخرين واخربوا تلك البيعة وجعلوا بجانبها مسجدا على اعمدة من الرخام مسقوف عليها بتلك الاخشاب وهو الجامع الاول قبل بناء الحسن بن صالح هذا الجامع الآن وبقية الاخشاب والحجارة جعلوا منها مساجد ورباطات (قال الراوي) رحمه الله حدثنا عبد الحميد عن قيس بن مهران عن أبي جعدة قال بمدينة البهنسا أربعون رباطا ومن المساجد مالا يعد واخربت الصحابة تلك المعالم وبنوا دورا لانفسهم واحتاطوا بها اماكن وشوارع وأقام خالد ومن معه بمدينة البهنسا يصلحون المساجد والرباطات ويخربون المعالم شهرا كاملا ثم اخرج الخمس وارسله لعمرو بن العاص ومن معه من المسلمين وهو نازل بمصر على قدر سهامهم وارسل الخمس مع ابي نعيم الانصاري والفضل بن فضالة وأبي دجانة الى عمر بن الخطاب وهو بالمدينة فلما ورد الكتاب على عمرو بن العاص فرح بذلك فرحا شديدا ثم كتب عمرو لعمر كتابا مع أبي نعيم صحبة كتاب خالد وسير معه ثلاثين صحابيا حتى دخل المدينة ودخل على عمر بن الخطاب فوجد عنده جماعة وقد اخرج لهم قصعا ومناسف من ثريد فلما رآنا عانقنا وتهلل وجهه فرحا وجلسنا كلنا فأكل وهو قائم على رؤسنا متكئ على عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغنا الاكل ناولناه الكتابين فقرأهما وفرح فرحا شديدا ونادى في الناس الصلاة جامعة فخطب وحمد الله واثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم الكتابين واستدعى بالصحابة وقسم عليهم الغنيمة ولم يترك لاهله درهما ولا دينارا ولا ثوبا رضي الله عنه واخذني ومضى الى بيته بيت ام كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وادخلني اليه فاذا فيه فراش من اديم حشوه ليف ووسائد من صوف وقطيفة واحدة فجلست فقال لام كلثوم هل عندك شيء من التمر قالت لا الا اللبن حامض قال ذلك لي فان عندنا ضيفا فحضرت بعكة من سمن وقليل من

عسل وفطير مع جارية فأكلت قليلا من المذكور وأخرجت الباقي لأصحابي وشرعت احدثه عن البطليوس وهو تارة يبكي وتارة يضحك من فعله ويبكي على من قتل من المسلمين والأمارى وخرجا الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وجاءت الناس يهرعون يسألون عن أهاليهم منا فأخبرناهم عن من مات ومن قتل فضجوا الناس وأهل المدينة بالبكاء وعلت الاصوات على من قتل وجاءت الناس لعلي ولعقيل ولبني هاشم يعزونهم فيمن قتل وأقمنا بالمدينة سبعة أيام ورجعنا الى مصر بكتاب عمر الى خالد فأمره بالمسير الى الصعيد قال الراوي رحمه الله هذا ما جرى لهؤلاء وأما خالد رضي الله عنه فانه بعد شهر ترك الناس من الصحابة بأرض البهنسا من جميع القبائل وخرج بالني فارس الى أرض الصعيد وكانت القبائل من بني هاشم وبني المطلب وبني مخزوم وبني عبد الدار وبني زهرة وبني تزاروبني جهينة وبني مزينة وبني غفار والأوس والخزرج ومدحج ودفور وطي وخزاعة وكان الامير عليهم مسلم بن عقيل واختطوا بالمساكن وجعلوا بالمدينة أسواقا وشوارع وسكن أكثر الصحابة في جانب البحر اليوسفي وخلوا من البحر الى الجانب الغربي شارعا واحدا لأجل ان تسرح فيه دوابهم في البحر وأقام مسلم ابن عقيل واليا عليها الى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فتولى محمد بن جعفر بن أبي طالب بعده ومضى مسلم وترك أولاده واخوته بها ولم يزل في المدينة حتى قتل في خلافة الحسن في الكوفة رضي الله عنه وأقام محمد بن جعفر الى خلافة علي رضي الله عنه وتولى عليها بعده علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه الى خلافة معاوية وكان عبد العزيز بن مروان الاموي وتولى بعده طاهر بن عبد الله وكانت قريش والاشراف بالجهة الغربية ويقال لها حارة الاشراف وكان لكل قبيلة حارة قال أبو المنهال لما فتحت مدينة البهنسا كانت آهلة بالجند فاجتمعت السوقة والمتسببون من أهل البلد وكانوا أربعين ألفا (قال الواقدي رحمه الله) حدثنا حامد بن المزند عن أبي صالح عن ابن نوفل المرادي قال كان بمدينة البهنسا اربعمائة بقال حين فتحها يبيعون البقل وغيره وكانت مدينة عظيمة فلما وقع بين بني امية وبني هاشم أخرجوا منها جماعة وتخلل أكثرها قال وتسلسل اليها جماعة من العربان حتى جاء الحسن واخوته في خلافة بني العباس فعمر جامعا وأكثر من الروايا والرباطات وأقام بها حتى مات رحمه الله قال ورجعنا الى سياق الحديث وخرج خالد بن معه الى الصعيد ولم يزل يفتح مدينة بعد مدينة الى آخر الصعيد الى عدن وسواكن وليس مقصدنا في هذا الكتاب الا فتوح البهنسا خاصة التي عليها مدار فضائل السادات الشهداء لان بتربتها خمسة آلاف صحابي وحضر فتح البهنسا نحو سبعين بدريا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم وفي زيارتها تعظم الاجور وقد زارها جماعة من العراق مثل بشر الحافي وسري السقطي ومالك بن دينار وسحنون وزارها من أقصى المغرب أبومد بن وشعيب وأبو الحجاج وأبو عبدالله وزارها الفضل بن عياض وروى ان أقليم البهنسا أكثر بركة من جميع الارض كلها وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليس بعد مكة والمدينة والارض المقدسة والطور أرض مباركة الا أرض مصر والبركة التى هى فى الجانب الغربي (قال رحمه الله) واعلها البهنسا وكان على بن الحسن يقول انه ليس بارض مصر بالوجه القبلي ارض مباركة ولا أكثر بركة من ارض البهنسا وكان على النووى اذا أتى ارض البهنسا واتى الجبانة ينزع ثيابه ويتمرغ فى الرمل ويقول يالك من بقعة طالما ثار غبارك فى سبيل الله وكان ابو على الدقاق اذا مر بجبانة البهنسا يقول يالك من بقعة ضمت اعضاء رجال وأى رجال طالما عرقت وجوههم فى سبيل الله وقتلوا فى سبيل الله ومرضاته وقيل للحسن بن صالح لم اخترت هذه البلد على غيرها قال كيف لا آوى الى بلد آوى اليها روح الله وكلمته وينزل على جبانتها كل يوم ألف رحمة ولما ولى عبدالله بن طاهر مصر تجهز وأتى الى البهنسا فلما قرب من الجبانة ترجل عن جواده وترجل من معه وكان الوالى عليها عبدالله بن الحسين الجعفرى فخرج الى لقائه ماشيا وسلم عليه ولما وصل الى الجبانة قال السلام عليكم يا احياء الدارين وخير الفريقين ثم التفت الى اصحابه وقال ان هذه الجبانة ينزل عليها كل يوم مائة رحمة وانها تزف باهلها الى الجنة ومن زارها تتساقط عنه ذنوبه كما يتساقط الورق من على الشجر فى يوم ريح عاصف وكان عبدالله بعد ذلك كل يوم يخرج ماشيا فيزورها حتى مات رحمه الله قال الراوى رحمه الله ورضى عنه حدثنى رجل من أهل البهنسا من أهل الخير والصلاح يسمى عبدالرحمن بن ظهير قال كان لى جار مسرف على نفسه ومات ودفن قريبا من الشهداء الذين بالجانب الغربي فبينما أنا نائم ثالث ليلة رأيته واذا عليه ثياب من السندس الاخضر وعليه تاج من الجوهر وهو فى قبة من نور وحوله جماعة لم أر أحسن منهم وجها ولا ثوبا متقلدين بسيوف وهو بينهم فسلمت عليهم وقلت له يا هذا القد سرنى ما رأيت من حالك فقال يا هذا القد نزلت بجوار قوم يحمون النزيل فى الدنيا من العار فكيف لا يحمونه فى الآخرة من النار وقد استوهبونى من العزيز الغفار غافر الذنوب والاوزار واسكننى جنات تجرى من تحتها الانهار وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه كنت فى كل سنة آتى الى البهنسا وازور الجبانة مما رأيت فى ذلك من الاجر والثواب فحصل لى فى سنة من السنين عارض فمنعنى من زيارتها فبينما أنا نائم ليلة من الليالى اذ رأيت رجالا لم أر أحسن منهم وجوها ولا انقى ثيابا على

خيول شهب وبايديهم رايات خضر ووجوههم تتلألأ أنوارا فسلموا على وقالوا قداوحشتنا ياذا النون فى هذه السنة وان لم تزرنا زرناك فقلت لهم من أنتم فقالوا نحن الشهداء الاخيار أصحاب محمد المختار بالبهنسا كنا بأرض الروم لنصرة المسلمين على أعداء الله الكافرين فزرناك لنسلم عليك وننظر ماسبب انقطاعك عنا قال فى أى أرض أنتم قالوا نحن سكان جبانة البهنسا ولك علينا حقوق الزيارة لانك من أهل الاشارة فقال لهم سادتى انى لاعود وحبل الوصال بينى وبينكم ممدود وما كنت أعلم انكم تعلمون من زار وما كنت اظن فى نفسى انى بهذا المقدار قالوا ياذا النون اما تعلم ان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وبهذا نطق الكتاب المكنون ثم تركونى ومضوا على الآثار واستيقظت وفى قلبى لهيب النار وطوبى لمن زار هذه السادات الاخيار ولقد وضعت فى هذا الكتاب كل نادرة عجيبة وحكاية غريبة وهو كتاب كامل المعانى والبيان عظيم القدر والشان لايفهمه الاذو البصائر والالباب ولا يعقله الا أهل الخطاب ولا يقرأه الا أهل الذوق والمعرفة فهو كالزهر فى الرياض لمن اقتطفه نفع الله به مالكه وكاتبه وقارئه ومستمعه والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين

قدتم ولبس وشاح الختام التاريخ المعروف بفتوح الشام المحتوى على حرب الصحابة الاخيار القامعين بسيوفهم كل كافر وجبار الذين بتأييدهم قد فتحوا الشام وأطرافه ثم مصر والبهنسا والصعيد وا كنافه وذلك فى مدة خلافة سيدنا عمر ابن الخطاب المحقق المدقق ذو الرأى الصواب صاحب الفتوحات والنصر التى لا يحصرها حصر وقد رق طبع هذا الكتاب بعون الله المالك الوهاب بمطبعة المتوكل على ربه المعين حضرة الشيخ محمد شاهين على ذمة كل من ملتزميه عين أعيان التجار والسادة الاخيار حضرة السيد محمد الرشاش والسيد يوسف عبد الحى كفاهم الله شر البغى وذلك فى أواخر شهر الحجه ختام سنة ١٢٧٨ من الهجرة النبويه على صاحبها أفضل الصلاة وازكى التحيه

تشغيل ابراهيم الشبراوى